الأصولية الإسلامية

في العصر الحديث

تأليف

دليب هيرو

ترجمة

عبد الحميد فهمي الجمال

الهيئة المصرية العامة للكتاب

فرع الصحافة

١٩٩٧

تاريخ المصريين

تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب

هذه هى الترجمة العربية لكتاب :

Islamic Fundamentalism
by Dilip Hiro
Paladin Grafton Books 1988

اهـــــــداء

الى الشيخ محمد ادريس

زعيم الجالية السودانية بمرسى مطروح

مع خالص الشكر لسيادته على مساعدتى فى اعادة الآيات القرآنية المترجمة الى نصها الأصـــلى الوارد باللغة العربية فى القرآن الكريم •

عبد الحميد فهمى الجمال

تقـــــــديم

يسرنى ان اقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب المهم والمتميز عن « الاصولية الاسلامية » ، الذى الفه « دليب هيرو » وصدر فى عام ١٩٨٨ ، وترجمه الأستاذ عبد الحميد فهمى الجمال ، الذى ترجم لنا عدة اعداد فى هذه السلسلة .

و « دليب هيرو » مؤلف باكستانى تلقى تعليمه العالى فى الهند وبريطانيا وامريكا ، وهو كاتب وصحفى متفرغ ، وله العديد من الكتب عن الشرق الأوسط .

وقد تناول فى هذا الكتاب تاريخ العالم الاسلامى وتعرض للأصولية فى كل من مصر وسوريا وليبيا والمملكة العربية السعودية وافغانستان ، مبينا الفوارق بين كل منها والأخرى ، على المستوى الفكرى والحركى ، من منظوره التاريخى المتميز .

وقد مهد لكتابة فصلين هامين تناول فيهما « بزوغ الاسلام وظهور المذهبين السنى والشيعى » ، و « الاسلام والصوفية » ، وانتقل الى الاسلام فى « الأزمنة الحديثة منذ الفصل الثالث مع ظهور الدولة العثمانية ، وما ظهر فيها من حركات اصلاحية على يد الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا ، وظهور الاخوان المسلمين فى مصر وسوريا ، متتبعا علاقاتهم مع الدولة حتى عصر مبارك فى مصر وعصر حافظ الأسد فى سوريا .

كذلك تعرض المؤلف للاصولية الاسلامية فى المملكة العربية السعودية ، من حيث هى أقدم دولة أصولية ، وما جرى فيها من احداث أبرزها الاستيلاء على المسجد الحرام فى عام ١٩٧٩ ، وسياستها الخارجية الاسلامية .

ثم تناول الأصولية الثورية فى ايران متتبعا تاريخها حتى قيام الثورة الخمينية ، والاستيلاء على السفارة الأمريكية ، وسياسة ايران الخارجية ، كما تناول تاريخ أفغانستان متتبعا الحركة الأصولية فيها ، وقيام الثورة الماركسية فيها ، وتدخل موسكو العسكرى . واختتم كتابه القيم بتلخيص عام للأحداث إستخلص فيه الدروس التاريخية من كل هذه الحركات .

والكتاب على هذا النحو يقدم رؤية تاريخية للعالم الاسلامى من كاتب يعيش فى الغرب ولكنه يمتد بجذوره الى العالم الاسلامى ، وهى رؤية لاشك أنها سوف تدفع القارىء الى التأمل والتفكير !

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

نبذة عن المؤلف

ولد دليب هيرو فى لركانا بباكستان وتلقى تعليمه العالى فى الهند وبريطانيا وامريكا . وحصل على درجة الماجستير من أمريكا وهو مقيم فى لندن حاليا بصفة مستمرة منذ عام ١٩٦٤ وهو كاتب وصحفى متفرغ تماما للكتابة والصحافة . وقد صدرت مقالاته عن الشرق الأوسط والموضوعات المرتبطة به فى العديد من الصحف والمجلات الكبرى البريطانية منها والأمريكية بما فى ذلك : الصنداى تايمز والجارديان والوشنجتن بوست وول ستريت جورنال واتلانتيك كوميونتى كوارترلى . وقد صدرت له العديد من الكتب بما فى ذلك كتاب « الأوضاع فى داخل الهند اليوم » الذى صدر فى عام ١٩٧٦ وكتاب « الأوضاع فى داخل الشرق الأوسط » الذى نشر فى عام ١٩٨٢ وكذلك كتاب « ايران فى عهد آيات الله » الذى طبع فى عام ١٩٨٥ . وهو عضو فى « جمعية أمريكا الشمالية لدراسات الشرق الأوسط » علاوة على أنه كثيرا ما يقوم بالتعليق على الشئون الاسلامية فى الراديو والتلفزيون فى كل من أمريكا وبريطانيا .

نبذة عن التقويم الاسلامى

السنة الاسلامية هى سنة قمرية . ويرجع التقويم الاسلامى الى يوم ١ يوليو من عام ٦٢٢ ميلادية وهو اليوم الذى هاجر فيه محمد عليه الصلاة والسلام من مكة الى المدينة المنورة ويرمز الى التاريخ الهجرى بحرفى : A.H. أى بعد الهجرة .

ويبلغ متوسط عدد أيام السنة القمرية ٣٥٤ يوما . والشهور القمرية الاسلامية هى على النحو التالى : محرم (٣٠ يوما) صفر (٢٩ يوما) ربيع الاول (٣٠ يوما) ربيع الثانى (٢٩ يوما) جمادى الأولى (٣٠ يوما) جمادى الثانية (٢٩ يوما) رجب (٣٠ يوما) شعبان (٢٩ يوما) رمضان (٢٩ يوما) شوال (٣٠ يوما) ذو القعدة (٢٩ يوما) ذو الحجة (٣٠ يوما) .

ونظرا لأن السنة الهجرية تقل عن السنة الشمسية بمقدار احد عشر يوما فان كل ٣٤ سنة قمرية تساوى ٣٣ سنة شمسية

تقريبا . وهذا يعنى أن هناك فارقا يصل الى حوالى ثلاث سنوات بين القرن القمرى والقرن الشمسى .

ولكى يمكن لنا تحويل تاريخ السنة القمرية الاسلامية الى تاريخ سنة شمسية مسيحية فان الأمر يستلزم أن تقسمها أولا على ١٫٠٣١ ثم نضيف ٦٢١ أو ٦٢٢ .

مقـــــدمة

لقد كان للأصولية الاسلامية فى الآونة الأخيرة تأثير كبير على الغرب يفوق التأثير الناجم عن أى حركة أخرى تتواجد بالعالم الثالث . والسبب فى ذلك هو أن العديد من الدول التى تمر بتجربة الأصولية الاسلامية تقع فى داخل نطاق الشرق الأوسط الذى يتمتع بأهمية استيراتيجية وهناك سبب آخر وهو أن العديد من دول الشرق الأوسط هى دول غنية بالبترول الذى تعتمد عليه الاقتصاديات الغربية اعتمادا كبيرا للغاية .

وتميل الجماهير فى الغرب الى ربط الأصـــــولية الاسلامية بالثورة الاسلامية الايرانية عام ١٩٧٩ مع النظر الى هذه الأصولية على انها حركة اضطلع بها أناس متعصبون يعكفون فى همة ونشاط على الاضرار بالمصالح الغربية . ومع ذلك فاننا نجد أن أقدم دولة اصولية فى الأزمنة المعاصرة الا وهى المملكة العربية السعودية قد تحالفت تحالفا راسخا مع الغرب . كما أننا نجد فى افغانستان أن الأسلحة الغربية والأموال الغربية هى التى لعبت دورا حاسما فى

تدعيم المعسكر الأفغانى الأصولى فى حربه ضد نظام الحكم الماركسى فى كابول .

ومن الملامح البارزة فى التاريخ الاسلامى أنه يقدم نماذج عديدة من حركات احياء الروح الاسلامية . وانه لمن طبيعة أى دين كبير أن يعيد احياء نفسه من وقت لآخر . الا أن الاسلام فريد من نوعه فى هذا المجال . لأن الاسلام ليس مجرد دين . انه أكثر من مجرد كونه دينا . اذ يشتمل على نظام اجتماعى كامل يشتمل على كافة المسلمين ويضم كل أولئك الذين ارتضوا الاسلام دينا . فالدين الاسلامى هو فى حقيقة الأمر بمثابة حضارة تنطبق على كافة الأزمنة وعلى الأماكن والبلدان .

ومثل هذا الأسلوب الشامل يضع مستويات السلوك الصحيح ومبادىء الصواب والخطأ لكافة المسلمين فى كل مظهر من مظاهر الحياة . ولأن المسلمين آدميون فانهم يفشلون فى العيش وفقا لهذه المستويات الصارمة . ومن هنا يظهر فى الأفق من حين لآخر زعيم دينى ورع على نحو غير عادى لينادى بوضع حدّ للتجاوزات التى حادت عن الطريق القويم .

والأصولية Fundamentalism هى اصطلاح يعبر عن الجهود المبذولة من أجل تحديد وتعريف الأسس الجوهرية التى يرتكز عليها نظام دينى والتمسك بتلك الأسس . ومن بين المبادىء الرئيسية للأصولية الاسلامية حماية نقاء المفاهيم الاسلامية من الشوائب التى تنجم عن الممارسات التى تتسم بالتخمينات . والاحياء الاسلامى أو العودة الى الحياة الاسلامية القوية مع تجديد الاهتمام بالاسلام هو أمر يتعلق بالأصولية . ووراء كل هذا يوجد دافع نحو تنشئة الاسلام وذلك بهدف اطلاق كل قواه الحيوية .

وفى العصور الوسطى كان هذا الاتجاه نحو تنقية الاسلام يعنى تخليص الاسلام من الخرافات والتقيد الحرفى بالتشـــريع الدينى الشديد التمسك بالمذاهب الدينية . وهذا معناه أن الأصولية كانت متسمة بطابع داخلى محض ، أما فى هذه الأيام فاننا نجد أن الأصولية تتخذ كلا من الطابع الداخلى والخارجى : بمعنى أنها تحرر الاسلام من شراكه وخيوطه العنكبوتية المذهبية علاوة على تحريره من الأفكار التى تم امتصاصها من الغرب .

والاسلام لا يفرق بين الدين والسياسة . فالنبى محمد صلى الله عليه وسلم علاوة على كونه رسول الله ومبلغ تعاليم الله الى الناس أجمعين فانه كان رجلا ضليعا فى الشئون الادارية وكان قاضيا وكان قائدا حربيا . ويتألف الفقه الاسلامى من : القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة (والأحاديث هى بمثابة أقوال وأفعال النبى محمد عليه الصــلاة والســلام) . ولذلك كان من الضرورى أن يخصص الفصــل الأول من هذا الكتاب عن حياة محمد فى شىء من الايجاز .

وعقب وفاة محمد صلى الله عليه وسلم فى عام ٦٣٢ ميلادية انتشر الاسلام بسرعة وامتد الى أماكن تقع فى شرق وغرب شبه الجزيرة العربية ودخلت فى الاسلام شــعوب كانت لها تقاليدها وأديانها الراسخة فى أذهانهم منذ فترات زمنية بعيدة . وكثيرا ما تمكن الاسلام من خلال التصوف الاسلامى من امتصاص المعتقدات والممارسات السابقة على الاسلام التى كان يمارسها أولئك الناس الجدد الذين اعتنقوا الديانة الاسلامية . وهكذا نرى أن الاسلام قد أقلم نفسه وتكيف مع الثقافات البالغة الاختلاف . وعقب الجيل الأول من الفاتحين العسكريين العرب نجد أن الزعماء الصوفيين قد أصبحوا فى الغالب هم أكثر المبعوثين الفعالين للاسلام ، الا أن الاسلام قد أصبح من خلال هذه العملية مخففا وأقل تركيزا وهذا

بدوره أدى الى ظهور حركات الاحياء التى تركز اما على ادخال المعتقدات والأفكار القويمة الى الصوفية واما على تنقية الممارسات التى يقوم بها المسلمون . وهذا هو الموضوع الرئيسى الذى تطرقت اليه فى الفصل الثانى من هذ الكتاب .

أما الفصل الثالث فانه يتناول الاسلام فى الأزمنة الحديثة عندما وجد العالم الاسلامى نفسه فى موقف الدفاع عن النفس كلما حدث اتصال مع النفوذ المسيحى سواء أكان نفوذا سياسيا أم تجاريا . وهذا ينطبق على الامبراطورية التركية العثمانية باستانبول فى مواجهتها للدول الأوربية كما ينطبق هذا على امبراطورية المغول Mogul فى دلهى ومعاملاتها مع شركة الهند الشرقية البريطانية . وفى مواجهة السيطرة المتصاعدة التى تمارسها الدول الغربية على العالم الاسلامى نجد أن الزعيم الاسلامى العالمى جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ — ١٨٩٧) قد أبدى ردود فعل متنوعة : اذ نادى بالحصول على الأسلحة من أجل اتخاذ موقف دفاعى مع بذل محاولات مشتركة تهدف الى معرفة الأسرار التى تكمن وراء قوة الدول الغربية بالاضافة الى اختيار وسائل التفكير الغربى المتواجدة فى داخل نطاق الاسلام كما نجد أن الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥) وهو أشهر تلاميذ جمال الدين الأفغانى قد أصبح مصلحا اجتماعيا اسلاميا بارزا فى مصر ثم سار على نهجه تلميذه النابغة الذى يسمى محمد رشيد رضا (١٨٦٥ — ١٩٣٥) .

الا أن الأصولية فى كل من مصر وسوريا وليبيا والعربية السعودية وايران وأنغانستان مختلفة عن بعضها البعض تماما . ففى مصر وهى المكان الذى ولدت فيه « جمعية الاخوان المسلمين » نجد أن الأصولية الاسلامية كانت سمة من الملامح السياسية منذ الثلاثينات من القرن العشرين . وهى فى أوقات مختلفة قد

شهدت حالات من التودد اليها من جانب الحكومة أو استقطابها أو قمعها بمعرفة السلطات الحاكمة . وبعد مجيء أنور الســــادات كرئيس لجمهورية مصر العربية فى عام ١٩٧٠ نجد أن العناصر المعتدلة فى الحركة الأصولية قد تم اختيارهم ليكونوا أعضاء جددا فى المؤسسة الســـياسية الدينية بينما لجأت فروعها الراديكالية الى اعمال المقاومة المسلحة والاغتيالات بما فى ذلك اغتيال أنور السادات نفسه . وهذه الصورة المختلطة تعتبر مختلفة تماما عن أقدار الحركة الأصولية فى سوريا ، اذ كانت الحركة الأصولية فى سوريا تتخذ موقفا عدائيا للغاية ضـــد حكومة الرئيس حافظ الأسد وضد حكومات الرؤساء السابقين عليه وهى كلها حكومات تنبع من حزب البعث الاشتراكى العربى السورى . ولذلك نجد أن الأصولية الاسلامية فى سوريا قد نشأت وتطورت من حيث هى حركة للمقاومة . (وهناك الكثير من الجـــدل حـــول ما اذا كانت الأصولية الاسلامية متقلدة زمام السلطة فى ليبيا أم لا . خاصة أن التفسير الذى يقدمه الأخ معمر القذافى للشريعة الاسلامية يعتبر تفسيرا ليبراليا للغاية حتى أن معظم المفكرين الأصـــوليين بدأوا ينظرون اليه على أنه منجرف الى الضلال على نحو مثير للتعقيدات ومؤد الى المتاعب والمهالك) .

وبزغ على السطح تناقض مماثل عندما يتفحص المرء الحكومات الأصولية فى كل من : المملكة العربية السعودية وايران . فالحكومة بالسعودية هى حكومة أتوقراطية ملكية بدون دستور أو برلمان . أما الحكومة فى ايران فهى حكومة فى دولة تطبق النظام الجمهورى ولها دستور وبرلمان قوى يتم اختيار أعضـــــائه من خلال الاقتراع والتصويت وفقا للنظم العالمية . وهناك تباين شاسع وعزلة كاملة بين تاريخ كل من هاتين الدولتين . ففى السعودية قام عبد العزيز ابن سعود بدور الرجل المسلم المليء بالحماسة وبادر الى القيام

بنفس الأحداث التى حدثت فى الجزيرة العربية فى أيام النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى العشرينات من القرن السابع الميلادى فعكف على اخضاع وتوحيد القبائل العربية المتناحرة سواء كانت قبائل من البدو الرحل أو قبائل متوطنة ومستقرة فى أماكن معينة بهدف اقامة دولة « العربية السعودية » فى عام ١٩٣٢ . أما أيران فكان مركزا لامبراطورية الصفافيد Safavid منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى . وقد شهدت على مدى عقود عديدة محاولات من اضفاء الطابع العلمانى الدنيوى عليها فى عهد اسرة بهلوى Pahlavi (فى الفترة من عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٧٩) وتلا ذلك قيام حركة ثورية قادت البلاد الى حكومة اسلامية بزعامة آية الله روح الله الخمينى . وبذلك يمكن القول بأن النموذج الايرانى يتطابق ويسير فى خط متواز مع معظم أعضاء منظمة المؤتمر الاسلامى البالغ عددهم ٤٥ عضوا . وقد شهدت تلك الدول الأعضاء بالمؤتمر الاسلامى تجارب تتعلق بالعلمانية واضفاء الطابع الحديث بل كانت بمثابة مستعمرات لدول أوربية .

أما أفغانستان فهى بمثابة حالة فريدة من نوعها . فهى دولة مستقلة تمكنت من الهروب من السيطرة الأوربية سواء كانت سيطرة سياسية أو اقتصادية ولعبت مؤسستها الدينية دورا كبيرا فى الاطاحة بالملك أمان الله Amanullah فى عام ١٩٢٩ عندما حاول تنشيط عمليات التحديث العلمانية التى تسير فى بطء شديد . وفى دولة افغانستان الحالية الرازحة تحت حكومة شيوعية نجد أن الاسلام قد بزغ كأيديولجية للمقاومة المسلحة . الا أن الحكومة اليسارية قد تجنبت الدخول فى مواجهة كاملة مع رجال الدين ذوى الآراء الدينية القويمة أو مع مشايخ الصوفية . فبعد أن اتخذت السلطات خطوات غير دينية فى أعقاب ثورة اور Eaur Revolution التى نشبت فى ابريل ١٩٧٨ نجد أنها راحت

فتودد لرجال الدين وتشيد مساجد جديدة وتنتقد المتمردين وتصفهم بأنهم غير اسلاميين .

وقصارى القول أنه يوجد هناك اتفاق عام فيما يتعلق بالمبادىء الرئيسية للأصولية الا أن الوسيلة التى تلجأ اليها حركة الأصوليين تختلف اختلافا كبيرا من دولة لأخرى . واذا قلنا أن الأصولية الاسلامية هى العقيدة السائدة فى كل من الحكومة السعودية والحكومة الايرانية فان ذلك لا يعنى أن هاتين الحكومتين تعملان فى توافق وانسجام من حيث السياسة الخارجية أو تتبعان سياسات متماثلة فى الشئون الداخلية .

ولذلك فاننى أتناول فى هذا الكتاب الأصولية الاسلامية من حيث هى فكرة وحركة .

* * *

الفصـــل الاول

بزوغ الاســـلام

المذهب السنى والمذهب الشيعى

لقد خرج الاسلام من مجتمع بدوى بدائى بالجزيرة العربية فى خلال الربع الأول من القرن السابع الميلادى وخلق من لا شىء نظاما اجتماعيا كاملا. فكيف حدث ذلك ؟ وكيف تطور الاسلام وانتشر عقب وفاة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ السبب فى ذلك يرجع الى أن المجتمعات الاسلامية التى أعقبت وفاة الرسول قد جاهدت لتنظيم نفسها مسترشدة بالأحداث والمواقف التى حدثت فى الفترات المبكرة من ظهور الاسلام . وتلك الفترة الأولى المبكرة من الاسلام هى التى يرجع اليها المسلمون المعاصرون بهدف الحصـــــول على اجابات عن أسئلة حيوية كهذه . تتعلق بكيان سياسى ادارى مثل السلطة والشرعية والعلاقات بين الحاكم والمحكوم والقانون والنظام والتوافق الاجتماعى .

ان كلمة اسلام تعنى باللغة العربية التسليم والخضــــوع والاذعان والشخص المسلم هو الشخص الذى سلم أمره الى الله

الواحد الذى لا شريك له . ومع وضع كافة المســــــلمين فى كفة واحدة من المساواة المطلقة من خلال التسليم الله سبحانه وتعالى فان الاسلام قد خلق بذلك أخوة دينية تعلو فوق الروابط التقليدية للعشائر والقبائل فالمؤمنون كانوا متحدين من خلال ايمانهم بالله ومن خلال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفقا لما نقله اليهم محمد رسول الله .

لقد ولد محمد فى ٢٢ ابريل عام ٥٧٠ ميلادية أو (٥٧١ ميلادية) من آمنة بنت وهب وزوجها عبد الله المنتمى لعشيرة هاشم وهى العشيرة المنتمية لقبيلة قريش المتواجدة فى مكة . وكانت مكة مركزا تجاريا يقع فى غرب الجزيرة العربية ويضم ٥٠٠٠ نسمة . وقد كانت مكة أيضا مكانا للحج حيث كان يحج اليها الناس الذين يعبدون الأصنام المتواجدة فى الكعبة . والكعبة هى معبد مربع الشكل وصغير الحجم ويحتوى على الحجر الأسود المقدس . وربما كان هذا الحجر الأسود قد سقط من الفضاء وارتطم بالأرض . وعلى مدى العديد من القرون نجد أن معتقدات القبائل البدوية بالجزيرة العربية قد تطورت وأصبحت بمثابة عبادة للأوثان والأصنام التى توضع فى الغالب حول صخرة أو شجرة ينظر اليها على انها مقدسة . ولذلك فقد كان الحجر الأسود المتواجد بالكعبة نموذجا بارزا يدل على ذلك . وقد كان محمد انسانا قويا مفتول العضلات متوسط الطول وكان له أنف مقوس وعينان واسعتان وفم حساس وشعر كثيف متجعد بعض الشىء . وكان رجلا متسما بالهدوء والجد والتأمل والتفكير كما كان يميل الى التحدث فى اختصار وفى صميم الموضوع الذى يتناوله . وعندما وصل الى سن الأربعين فان طبيعته الدينية الانطوائية دفعته الى الذهاب من وقت لآخر الى كهف متواجد فى التلال القريبة من مكة لكى يتمكن من الاستغراق فى التأمل والتفكير بمفرده . وأثناء انهماكه فى الصلوات والتأمل

فى احدى المرات أحس بوجود « طيف Presence فى المكان يقول له : « يامحمد . أنت رسول الله » . وفى خلال زيارة لاحقة للكهف ــ وفقا لما جاء فى المراجع الاسلامية ــ هبط أول وحى مقدس على محمد فى ليلة ٢٧/٢٦ رمضان وهو الشهر التاسع من التقويم الاسلامى . ونزلت عليه سورة :

اقرأ باسم ربك الذى خلق .
خلق الانسان من علق .
اقرأ وربك الأكرم .
الذى علم بالقلم .
علم الانسان ما لم يعلم .

وعلى مدى العشرين سنة التالية استمر هبوط هذه الحالات من الوحى عليه فى نثر ايقاعى . وقد قام اتباعه وحواريوه بكتابة وتدوين الآيات الكريمة على أوراق النخيل أو عظام الجمال أو قطع صغيرة من جلود الحيوانات . وقاموا بتجميع ١١٤ سورة (أى فصل) مختلفة من حيث الطول وكونوا فى النهاية كتابا يضم ٦٦١٦ آية تسمى فى مجموعها : القرآن . وقد اتخذ القرآن شكلا محددا عقب موت محمد بسنوات قليلة .

فى عام ٦١٣ بدأ محمد بن عبد الله فى نشر الدعوة الاسلامية بين عدد محدود من اقاربه واصدقائه . وكانت رسالته التى ينشرها بين اتباعه هى : توقفوا عن كافة أنواع عبادة الأصنام وأسلموا أنفسكم الى الله العليم بكل شىء القادر على كل شىء وعلاوة على ذلك فهو رحيم . وحذر الأغنياء قائلا أن تجميع الثروات من حيث هو هدف فى حد ذاته والتحول الى الشح والبخل سيؤدى بهم

الى الوقوع فى كارثة . ونظرا لأن تعاليم محمد التى تنادى بالتوحيد وعبادة الاله الواحد كانت تتعارض مع عبادة الاصنام التى ترتكز على تعدد الآلهة والتى تمارس فى مكة فانه قد أغضب تجار مكة الذين كانوا يستفيدون من وصول الحجاج الى مكة . وأيضا فان مناداة محمد بالقبول المطلق بالاله الواحد قد خلق ولاء يتجه الى ما وراء الولاء للعشيرة أو القبيلة فأدى هذا الى اغضاب قادة العشائر الأقوياء الذين استاءوا أيضا من القيود الصارمة التى فرضها محمد على ثرواتهم .

وبحلول عام ٦١٩ كانت العداوات ضد محمد وضد الفئة القليلة العدد من اتباعه والتى تضم اربعين من الرجال وعشرين من النساء قد وصلت الى درجة كبيرة حيث أصبحوا يتعرضون فى كثير من الأوقات للغارات المتكررة والهجوم الشرس . وفى عام ٦٢٠ اعتنق الاسلام بعض أفراد من قبيلة الخزرج الذين جاءوا لزيارة الكعبة قادمين من واحة يثرب التى تسمى باللغة الآرامية باسم مدينتا Medinta او المدينة (سميت فيما بعد باسم : مدينة النبى أو المدينة) تقع على مسافة ٢٠٠ ميل تقريبا الى الشمال الشرقى من مكة . وأثناء عودتهم الى المدينة المنورة تمكنوا من اقناع المزيد من الناس باعتناق الدين الاسلامى . وفى السنة التالية احضروا معهم أثناء رحلتهم الى مكة عددا من هؤلاء الناس الذين اعتنقوا الاسلام مؤخرا . وكان من بينهم شخصان من قبيلة الأوس التى ظلت تحتفظ بالعداء الشديد تجاه قبيلة الخزرج . وفى يونيو من عام ٦٢٢ تم عقد اجتماع سرى يضم ٧٥ مسلما من مسلمى المدينة المنورة وتم الاتفاق فى هذا الاجتماع على أن يوفروا الحماية لمسلمى مكة اذا اتخذوا قرارا بأن يهاجروا الى المدينة . وفى خلال الأسابيع العديدة التالية تسلل مسلمو مكة خارجين من مكة فى هدوء واتجهوا الى المدينة المنورة .

وكان محمد وصاحبه أبو بكر هما آخر شخصين غادرا مكة الى المدينة المنورة .

واستمر الوحى فى الهبوط على محمد الا أن الوحى أصبح آنئذ مليئا بالتوجيهات التشـــريعية والأخـــلاقية . وكانت تلك التشريعات تتلاءم مع الحاجة فى ذلك الوقت الى اطار عمل من أجل تحقيق التقوى والنظام فى نطاق المجتمع . ولذلك نجد أن القسم المدنى من القرآن الكريم يهتم بتناول الشـــئون الجارية مع تقديم مجموعة كاملة من التشريعات والقوانين . اذ يتناول فى المقـــام الأول الأمن الخارجى والداخلى للأمة الاسلامية ومهمة حماية الأمة من التهديدات الخارجية تقع على عاتق الأمة بأكملها . أما أفضل وسيلة تضمن العمل على حماية الشخص وحماية ممتلكات الأفراد فى داخل الوطن فهى تتوقف على تلك العادة القبلية القـــديمة الخاصة بالعقاب التى وردت فى الآية القرآنية التالية : ((**وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص**)) صدق الله العظيم .. والتعديل الوحيد هو أنه فى حالة حدوث قتل على نحو غير مقصود وغير متعمد فان الفريق المحزون المظلوم ينبغى عليه أن يقبل ثمنا للدماء . وثانيا أنه يتم تنظيم حياة الأسرة . بحيث يعطى الحق للنساء فى أن يمتلكن ويرثن العقارات والممتلكات وهذا فى حد ذاته بمثابة ادخال تحسينات على الموقف الذى كان ســـائدا آنئذ فى الجزيرة العربية . كما تمنح النســـــاء نفس الحقوق فى الزواج والطلاق مثل الرجال تماما . ويتم تحديد الالتزامات التى ينبغى أن يضطلع بها الزوج . والرجل مســـــموح له بأن يتزوج من أربع زوجات كحد أقصى وذلك بشرط الالتزام بتطبيق العدالة بينهن . ((**فان خفتم الا تعدلوا فواحدة**)) صدق الله العظيم . وثالثا أن القرآن يحدد الأوامر والوصـــــايا المتعلقة بالنواحى الأخـــلاقية

والقانونية . والقرآن يحرم المسكرات ولحوم الخنزير ولعب القمار والميسر . كما يشجب الخداع والاحتيال وتشويه السمعة والافتراء والحنث باليمين والنفاق والفساد والاسراف والتبذير والكبرياء والعجرفة . كما يقضى القرآن بانزال العقاب على الناس الذين يرتكبون أعمال السرقة والقتل والزنا . وقطع الأيدى هى عقوبة السرقة . واذا ثبت على نساء متزوجات ارتكاب الزنا وذلك من خلال أربعة شهود فانه يجب احتجازهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت . وذلك وفقا لما ورد فى الآية رقم ١٥ من سورة النساء :
« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » .

وفى المدينة المنورة وضع محمد الأسس التى ينبغى أن تسير عليها الأمة الاسلامية ودار الاسلام ، وصدرت وثيقة مكتوبة بمعرفته فى عام ٦٢٧ على الأرجح وسميت هذه الوثيقة فيما بعد بـ « دستور المدينة » . وهى وثيقة بالغة الأهمية من حيث توضيح الأمور ويمكن تلخيص تلك الوثيقة على النحو الآتى : أولا : ان المؤمنين والتابعين لهم يشكلون أمة واحدة . ثانيا : ان كل عشيرة أو كل قسم فرعى من الأمة تكون مسئولة عن تسديد أموال كفدية عن قتل شخص ما أو المساعدة فى قتله وذلك كتعويض لأقارب الشخص المقتول . ثالثا : انه ينبغى على جميع أفراد الأمة أن يظهروا التماسك والتضامن ضد الجريمة وينبغى عليهم عدم مساندة أى مجرم . رابعا : انه ينبغى على المؤمنين الالتزام بالتضامن والتماسك ضد الملحدين أثناء الحرب والسلام . والبند الأخير ينص على أنه فى حالة نشوب نزاع بين أعضاء من الأمة فان الأمر يستلزم الرجوع الى الله واللجوء الى محمد من اجل الحصول على قرار بشأن النزاع .

واحرز محمد سلسلة من الانتصارات فى ميادين المعارك مما ادى الى توسيع نطاق الأماكن الخاضعة لسلطاته . كما تمكن محمد من الحاق الهزيمة بقريش فى مكة . اذ دخل محمد مكة فى يناير من عام ٦٣٠ على رأس جيش يتألف من عشرة آلاف مسلم . وأصدر أوامره بتحطيم جميع الأصنام المتواجدة بالكعبة والبالغ عددها ٣٦٠ صنما وانزالها عن القواعد الخاصة بها . وارغمت قريش الوثنية بأن تسير فى استعراض أمامه فى ولاء واجلال وتقدير ثم لمس محمد الحجر الأسود بعصاه وصاح قائلا : الله أكبر » وهى صيحة الحرب لدى المسلمين .

وتزايد عدد اتباع محمد عقب دخول المشركين من البدو الرحل فى الدين الاسلامى بأعداد هائلة . اذ وصلت وفود متلاحقة قادمة من مناطق عديدة من جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية الى المدينة المنورة لمناشدة النبى محمد لادخالهم ضمن الأمة الاسلامية . فرحب محمد بهم حيث كان يدرك أن الوضع الجديد الناشىء فى المدينة المنورة بحاجة الى توفير كل أنواع الحماية حتى يمكن للمدينة المنورة أن تظل على قيد الحياة عقب وفاته .

وهكذا نرى أن الاسلام قد انطلق على نحو مختلف تماما عن الديانة اليهودية والديانة المسيحية وهما الديانتان التوحيديتان اللتان تنادىان بتواجد اله واحد واللتان تتواجدان فى داخل الجزيرة العربية وفى الأراضى المحيطة بها واللتان ذكرتا مرات عديدة فى الآيات القرآنية التى نزلت على النبى محمد صلى الله عليه وسلم . وطبقا لما أورده المؤرخ برنارد لويس Lewis Bernar فان الاسلام هو دين ودولة فى آن واحد حيث كان النبى محمد يقوم بدور القائد العسكرى وتقرير الحرب والسلام وتحصيل الضرائب وسن التشريعات والقوانين وتطبيق العدالة .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن السيد المسيح قد أوضح منذ البداية أن هناك فارقا بين الأمور التى تتعلق بالله والأمـــور التى تتعلق بقيصر .. ومنذ ذلك الحين نجد أن الديانة المسيحية قد اعترفت بتواجد سلطتين منفصلتين : سلطة الكنيسة وسلطة الدولة تعملان فى توافق وانسجام فى بعض الأحيان وفى تصـــــارع فى أوقات أخرى . أما بالنسبة للديانة اليهودية فان الموقف غير واضح : اذ نجد أن الديانة اليهودية الكلاسيكية الخاصة بالربانيين والأحبار لم تظهر الى الوجود الا بعد أن توقفت الدولة اليهودية عن التواجد . ولذلك فانه يمكن القول بأن الديانة اليهودية تحتل مكانا وسطا بين الاسلام والمســيحية فيما يتعلق بموضـــــوع العـــلاقة بين الدين والدولة(١) .

وأدرك محمد أن أفضل وسيلة تضمن بقاء الأمة الاسلامية على قيد الحياة هى أن يدخل فى أذهان الأشخاص الجدد الذى اعتنقوا الاسلام احساسا بالتماسك والتكافل الذى كان يتفوق على الولاءات التقليدية والذى كان يتخذ طابعا طقوسيا شديدا حتى أنه كان يمس الحياة اليومية مسا وثيقا . وبزغ من هذه الأعمدة الخمسة للاسلام وهى بمثابة تلخيص موجز للالتزامات الفردية والاجتماعية التى وضعها محمد فى أحد أحاديثه النبوية الشريفة : الشهادة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، الحج .

المسلم ينعم عليه بتلاوة الشهادة . والشـــــهادة هى المبدأ الرئيسى فى الاسلام ، ونصها كالآتى : ((**لا اله الا الله . محمد رسول الله**)) ويكفى المرء لكى يعتنق الدين الاسلامى أن يقول نص هذه الشهادة أمام عدد من الشهود .

---

(١) نظرا لأن اليهود والمسيحيين قد ورد ذكرهم فى القرآن الكريم فانهم يعرفون فى الاسلام باسم « أهل الكتاب » . ((المترجم))

والصلاة تؤدى على نحو فردى وجماعى . وأداء الصلاة على نحو جماعى فى أيام الجمعة من كل أسبوع يدعم ويساند تكافل وتماسك الجماعة ، والحركات التى يقوم بها المسلم أثناء الصلاة الجماعية : مثل الوقوف والانحناء والركوع والسجود يتولد عنها النظام على النحو الذى يحدث فى تدريبات الفرق العسكرية . وعندما أوضح محمد بأن المؤمن ينبغى عليه أن يتوقف عن كافة الأنشطة لكى يؤدى الصلاة ثلاث مرات يوميا على الأقل(١) فانه كان يريد بذلك أن يذكر أتباعه بأن الأمور التى يطلبها منا الله تكون لها الأولوية القصوى لأنها هى الأسمى والاعلى والأهم من أى شىء آخر . ووقوف المسلمين جميعا فى مستوى واحد فى داخل المسجد أو فوق أرض ممهدة من أجل الصلاة بغض النظر عن منزلتهم الاجتماعية فان ذلك يؤكد على فكرة أن المسلمين جميعا متساوون أمام الله . وتشتهر المساجد بالبساطة مع توفير مكان مستو ومسطح بها لكى يؤدى عليه المؤمنون الصلاة . والخطبة الدينية التى تسبق صلاة الجمعة لها أهداف اجتماعية ودينية مهمة . لأنها لا تقتصر على بعض النواحى الدينية للدين الاسلامى وانما تتناول أيضا الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة اذ نجد فى هذه الأيام — على سبيل المثال — أن خطبة الجمعة التى تلقى فى جمهورية ايران الاسلامية هى بمثابة الوسيلة الرئيسية التى يلجأ اليها القادة الاسلاميون من أجل تعليم جماهير المسلمين وابلاغهم بما يدور فى الشئون والأحداث الجارية سواء أكانت داخلية أم خارجية .

اما الزكاة فقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم : ((**انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب**

(١) لأنه عادة ما يكون الانسان متوقفا بالفعل عن أى نشاط دنيوى أثناء حلول موعد صلاة العشاء وكذلك صلاة الفجر . (المترجم)

والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » . صدق الله العظيم .

ثم دخلت عليها تعديلات فيما بعد لكى تصبح زكاة اجبارية تصل الى ٢½٪ سنويا من ثروة الانسان المسلم . والهدف الرئيسى من وراء ذلك هو أن الشخص المسلم ينبغى عليه أن يطهر ثروته من خلال دفع رسوم ومستحقات للأمة الاسلامية التى تقوم بانفاق هذه الموارد المالية فى مجال مساعدة الفقراء والمعوزين .

والصوم طوال شهر رمضان وهو الشهر التاسع من التقويم الاسلامى (التقويم القمرى) يتطلب من الشخص المسلم أن يمتنع عن الطعام والشراب وممارسة الجنس فى الفترة ما بين شروق الشمس وغروبها . ومن خلال ممارسة الصوم فان الانسان المسلم يتعلم كيفية ممارسة السيطرة على متطلباته الجسمانية المادية . وهذا الزهد الذى يمارسه الأفراد المسلمون يساعد على تحويل الأمة الاسلامية الى أمة تعشق النظام وضبط النفس .

أما الحج فيستمتع به أولئك الذين تمكنهم ظروفهم المالية من تأديته . ويتم تأدية فريضة الحج فى شهر ذى الحجة وهو الشهر الأخير من التقويم الاسلامى . ويبدأ الحج بالطواف حول الكعبة المتواجدة فى مكة المكرمة وينتهى بذبح حيوان فى منطقة منى Mina التى تبعد عن مكة بمسافة عشرة أميال . وفى الفترة ما بين بداية الحج ونهايته تؤدى الصلاة فى عرفات وفى المزدلفة . وطقوس الحج التى يمكن أن تستكمل فى خلال خمسة أيام هى طقوس مستقاة من الممارسات التى كانت شائعة ومنتشرة بالفعل بين سكان وأهالى الجزيرة العربية قبل مجىء أيام محمد عليه الصلاة والسلام فمن خلال ادخال هذه التقاليد الوثنية نجد أن الحج قد ساعد على تدعيم وتماسك المجتمع الاسلامى الذى بزغ الى الوجود مؤخرا .

ومن خلال تأدية فريضة الحج أصبحت الأمة الاســـلامية مدركة للتواجد الخاص بها كقوة اجتماعية قوية . وفى الأزمنة الحديثة حاليا نجد أن تجمع ما يزيد على مليونى مسلم من جميع أرجاء العالم من أجل تأدية فريضة الحج يزيد من الاحساس بعالمية الدين الاسلامى .

وقد أوصى النبى محمد بنفسه بضـــرورة الاهتمام بطقوس ومراسم الحج وذلك عقب قيامه بتأدية فريضة الحج فى آخر مرة فى مكة فى أوائل عام ٦٣٢ وكان آنئذ فى أوج قوته وذروة سلطانه بل كان أقوى رجل فى الجزيرة العربية وكان شــــخصية دينية بالغة التقديس فى داخل الجزيرة العـــربية وخارجها . والقبائل العربية التى كانت حتى ذلك الحين تبدد الكثير من جهودها وطاقاتها فى عداوات مدوية قد أصبحت موحدة تحت قيادته . الا أن محمدا كان يدرك أن تلك الوحدة هى وحدة هشة وضعيفة وأن الوسيلة الوحيدة التى يضمن بها بقاء النواة التى يتألف منها مسلمو المدينة المنورة فى دار الاسلام عقب وفاته هى مواصـــــلة الاتجاه نحو التوسع — وهى استيراتيجية كانت تروق أيضا لأتباعه من البدو المتلهفين على الاستيلاء على الغنائم (الشرعية) التى تنجم عن القيام بحملات وغزوات عسكرية ناجحة .

وبعد أن عاد محمد الى المدينة المنورة عقب تأديته لفريضة الحج بدأ يستعد لفتح سوريا . الا أنه تعرض لمرض شديد مفاجىء وانتقل الى رحمة الله فى ٨ يونيو ٦٣٢ بدون أن يترك وراءه ابنا له . ولو كان محمد قد ترك وراءه ابنا جديرا بقيادة الأمة الاسلامية من بعده لكانت الأمة قد اختارته خليفة على المسلمين على الأرجح مما يعطى بذلك سابقة حيث كان ذلك من شأنه انقاذ أجيال المسلمين التالية من الدخول فى الصراعات المميتة التى تركزت حول مسألة

الخلافة وهى أخطر قضية تسببت فى اثارة النزاع والشقاق فى التاريخ الاسلامى بأسره .

وقد جرت العادة بالجزيرة العربية على أنه عندما يموت رئيس قبيلة يخلفه فى القيادة أفضل من فى الأسرة أو فى القبيلة ويتخذ قرار فى هذا الشأن من خلال عقد اجتماع يضم كافة الذكور الراشدين فى الأسرة أو القبيلة . وهناك روايات عديدة تتعلق بالأحداث التى جرت أثناء فترة مرض محمد وعقب وفاته . وهى روايات مستقاة من السجلات التاريخية الشفوية منها والمكتوبة . والوصف الذى نورده هنا هو ما أجمعت عليه معظم الآراء فيما يتعلق بوصول الخلفاء الراشدين الثلاثة الى قمة السلطة عقب وفاة محمد .

واثناء فترة مرض محمد التى دامت ١٤ يوما نشبت منافسات حادة بين أقرب المعاونين والمساعدين له . وكان المتنافسان الرئيسان على الخلافة هما : أبو بكر الصديق . فهو والد عائشة التى هى أصغر زوجات النبى محمد سنا بل هى افضل الزوجات الى قلبه . ثم على بن أبى طالب وهو ابن عم النبى محمد ومتزوج من فاطمة بنت محمد رسول الله . وفى حين كان أبو بكر يؤم المسلمين فى الصلاة الجماعية أثناء فترة مرض النبى نجد أن النبى قد اختار على بن أبى طالب البالغ من العمر آنئذ ٣٣ عاما لكى يغسل جسده عقب وفاته وذلك فى حد ذاته يعتبر شرفا فريدا من نوعه بالنسبة لعلى بن ابى طالب .

وبينما كان على ومسلمون آخرون فى حالة من الانهماك والحزن على موت النبى والانشغال فى مراسم دفنه قام المسلمون بالمدينة المنورة الذين يعرفون باسم : الانصار بعقد اجتماع عند سقيفة بنى ساعدة . وعندما سمع أبو بكر وعمر بن الخطاب (وعمر

ابن الخطاب هو والد حفصة وهى احدى زوجات محمد) بنبأ هذا الاجتماع ذهبا على الفور لكى يحضرا اجتماع السقيفة . وتمكنا من احباط وجهة النظر التى كان المجتمعون يميلون اليها ألا وهى اختيار شخصية من بين المسلمين الأنصار لكى يخلف رسول الله وساقا الحجج والبراهين التى تؤيد وجهة نظرهما ومن بينها أن القبائل البدوية لن توافق على اختيار خليفة للرسول الا اذا كان ذلك الخليفة من أهالى مكة بل من قبيلة قريش التى ينتمى اليها محمد رسول الله . وتمكنا من اقناع الحاضـــــرين بوجهة نظـــرهما . فاختار الحاضرون أبابكر الصديق كخليفة للمسلمين . وكان أبو بكر أكبر سنا من جميع الأعضاء الآخرين المتنافسين على منصب الخلافة . كما كان من أوائل الناس الذين اعتنقوا الدين الاسلامى علاوة على أنه كان رفيقا للنبى محمد أثناء هجرة النبى من مكة الى المدينة المنورة بالاضافة الى أنه كان رئيسا للحج فى عام ٦٣١ .

وبعد مرور عامين مات أبو بكر الصديق فى عام ٦٣٤ . الا أنه قبل أن يموت قام بتعيين عمر بن الخطاب ليكون خليفة للمسلمين من بعده ولكن عمر قبل توليه لهذا المنصب الكبير سعى للحصـــول على موافقة وتأييد من كافة كبار الشـــــخصيات والقـــادة بالأمة الاسلامية . وأدى ذلك الى شعور على بن أبى طالب باحباط شديد فاعتزل الحياة العامة الى درجة كبيرة وكرس نفسه لأعمال تدريس الدين الاسلامى علاوة على تجميع نسخة رسمية من القرآن الكريم .

وفى عام ٦٣٦ تمكنت جيوش عمر بن الخطاب من الحاق الهزيمة بالقوات البيزنطية المتواجدة فى ســــوريا . وفى السنة التالية الحقت الهزيمة بـــ Sassanids عند قاديش Qadisiya الواقعة على ضفاف نهر الفرات مما أدى الى استيلاء المسلمين على ما يسمى حاليا بالعراق وجزء من ايران الحالية . وبعد مرور

أربع سنوات تمكنت قوات عمر بن الخطاب من فتح مصر . وهذا التوسع فى حجم دار الاسلام من خلال شن الحروب المقدسة أو ما يسمى بالجهاد لدى المسلمين قد ساعد عمر بن الخطاب فى تدعيم التآلف والتماسك بين القبائل العربية تحت قيادته . وعزز عمر هذا الاتجاه التوسعى من خلال وضـــع خطة قوية تهدف الى الابقاء دائما على وجود جيش قوى دائم مع الحرص على غرس الأفكار والتعاليم والممارسات الاسلامية فى أذهان أفراده . وأصدر عمر تعليمات تنص على منع الجنود المسلمين من استعمار البلاد التى يفتحونها ويستولون عليها . وفرض عمر ضريبة أراض على ملاك الأراضى بالبلاد التى تم فتحهـــا كما فرض عمر ضـــــريبة الرؤوس(١) على المواطنين فى تلك البلاد . وأصدر أوامره بأن تعيش قواته الحربية فى مدن عســــكرية منعزلة عن المواطنين ومزودة بالمساجد ومقرئى القرآن الكريم بهدف تثقيف الجنود بالثقافة الدينية الاسلامية . وأعد سجلات بأسماء الرجال المسلمين الذين تتألف منهم الجيوش الاسلامية وكان يدفع لهم رواتبهم ومعاشاتهم من حصيلة الضرائب التى يتم تحصيلها من أهالى البلاد التى تم فتحها . وبكلمات أخرى كان عمر يعمل على تدعيم وتقوية الكفاح المقدس علاوة على تقوية الأساس الأيديولوجى للاسلام .

وكان عمر يميل الى القسوة والصرامة فى داخل وطنه بالجزيرة العربية مما كان يجعل الناس يخافون منه أكثر مما يحبونه . وقد سار على نهج النبى محمد وخليفته أبى بكر الصديق من حيث قيامه بدور رئيس القضاة . وكان عمر حى الضمير . الا أن كل أحكامه لم تكن خالية تماما من الأخطاء . اذ كان على بن أبى طالب يقوم من وقت لآخر بتوضـيح بعض الأمور المتعلقة بالأحكام التى يصدرها عمر . وقد اغتيل عمر فى نوفمبر عام ٦٤٤ .

(١) ضريبة الرؤوس : ضريبة تفرض على كل شخص من البالغين . (المترجم)

وبينما كان عمر فى فراش الموت قام بتعيين لجنة تضم ستة أعضاء تكون مهمتها اختيار خليفة للمسلمين . وكانت هذه اللجنة تضم كلا من : على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وهو أحد أعضاء عشيرة أمية (وهى فرع من قبيلة قريش) وكان عثمان قد تزوج من رقية ثم تزوج من أم كلثوم وهما ابنتا النبى محمد . وقد عرضت الخلافة على على بن أبى طالب ولكن مع التزامه بتنفيذ شرطين : الشرط الأول هو أن يحكم وفقا للقرآن والسنة والشرط الثانى هو أن يحكم وفقا للسوابق أو الأمور السابقة التى أرساها الخلفاء الراشدون السابقون عليه . فرفض على ذلك الشرط الثانى .. حيث كان قد سبق له فيما مضى انتقاد بعض الأعمال والتصرفات التى قام بها كل من أبى بكر وعمر ونظرا لأنه رجل يؤمن بضرورة الاتساق والتوافق بين الفكر والعمل فانه رفض أن يتنازل عن مبادئه ومواقفه التى سبق أن أعلنها أمام الجميع ورفض أن يتوافق مع كافة الأحكام والقرارات التى سبق أن صدرت عن كل من أبى بكر وعمر . وعندئذ عرضت الخلافة على عثمان بنفس هذين الشرطين . فوافق عثمان على ذلك بدون أى تردد .

وهذا الاختيار فى حد ذاته قد بذر بذور الشقاق والخلافات فى دار الاسلام وأصبح على بمثابة مركز للمعارضة التى تزايدت وتعاظمت خاصة بعد أن شرع عثمان فى محاباة الأمويين على نحو مكشوف وصريح . والمؤهلات الاسلامية لعلى بن أبى طالب هى مؤهلات لا ترقى اليها أية مؤهلات أخرى . فهى مؤهلات لا نظير لها . لأنه قد اعتنق الدين الاسلامى عندما كان لايزال ولدا صغيرا بالاضافة الى انه كان متعمقا للغاية فى أسرار القرآن الكريم . علاوة على أنه كان رجلا تقيا وورعا الى أقصى حد حتى انه لم يتخلف ولو مرة واحدة فى حياته عن تأدية الطقوس والصلوات الاسلامية . وقد كان رجلا مثاليا وشديد التمسك بالمبادىء حتى أنه

وصف بأنه بمثابة ضمير الاسلام . وهو قد فضل أن يضيع على نفسه فرصة اختياره خليفة للمؤمنين عندما اشترطوا عليه شرطا غير مقبول من وجهة نظره ، وعلاوة على ورعه وتقواه ومثاليته كان هناك شكله الباهر وطلعته البهية المدهشة : كان يميل الى القصر والامتلاء وكان عريض الكتفين وملتحيا فى لحية طويلة .

وأبدى عثمان تهاونا ازاء السياسة التى كان قد أعلنها عمر بن الخطاب والتى تقضى بمنع عرب الجزيرة العربية من استعمار البلاد التى تعرضت للفتح الاسلامى وخاصة فى اقليم مزوبوتاميا Mesopotamia بمنطقة الهلال الخصيب والذى يعرف حاليا باسم : العراق ، كما أن تزايد الرفاهية وسعة العيش والغنى وتغيب طبقة ملاك الأراضى فى مكة والمدينة المنورة والطائف قد آثار استياء شديدا . كما أن الكثيرين من حفظة القرآن الكريم قد عارضوا بشدة احتكار أمية للمناصب الادارية الكبرى . كما كان الجنود يشتكون مر الشكوى من رواتبهم المنخفضة وطالبوا بالعودة الى أسلوب الحصول على الغنائم التى تنجم عن القيام بحملات عسكرية ناجحة . وكانت موجات السخط تتصاعد فى غليان وفى صراع مكشوف وعلنى بين مسلمى الجزيرة العربية المدنيين منهم والعسكريين والسكان المحليين المتواجدين فى مدينتى : الكوفة والبصرة بالعراق .

ووصلت الأمور الى ذروة التعقيد فى منتصف عام ٦٥٦ عندما انضمت قوات متمردة من مصر الى منشقين من البصرة والكوفة وأحاطوا جميعا بمنزل عثمان المتواجد بالمدينة المنورة وطالبوه بالتنازل عن السلطة والخلافة . وتدخل على بن أبى طالب للوساطة بالنيابة عن الجنود المتمردين الا أنه فشل فى تسوية الأزمة وحل المشكلة . وفى شهر يونيو قام مجموعة من الجنود

الثائرين بالهجوم على منزل عثمان وتمكنوا من قتله . وشجب على ابن أبى طالب هذا الاغتيال الا انه لم يبذل جهودا كبيرة من أجل القاء القبض على هؤلاء القتلة .

وتام الثوار ومعهم معظم الشباب من أهالى المدينة المنورة باختيار على بن أبى طالب خليفة للمسلمين بعد أن أعلنوا أن عليا هو « أفضل انسان بين المسلمين » وبذلك أعادوا الى الأمة الاسلامية بوجه عام الحق فى اختيار الخليفة . وهو حق كان قد اغتصب من قبل بمعرفة أبى بكر ثم بمعرفة لجنة شكلها الخليفة عمر بن الخطاب . وهكذا نرى أنه بعد انقضاء ٢٤ عاما تم تقديم أعلى منصب فى الاسلام بدون قيد أو شرط الى على بن أبى طالب . وقبل على منصب الخليفة على المسلمين . الا أن الصراع كان قد تفاقم وتزايد فى داخل نطاق أمة الاسلام آنئذ الى درجة كبيرة حتى أنه وجد نفسه مضطرا لأن يمضى معظم وقته وجهده فى اخضاع المعارضة .

ورفض معاوية بن أبى سفيان الحاكم الأموى على سوريا كما رفضت عائشة وهى زوجة النبى المتبقية على قيد الحياة الاعتراف بعلى بن أبى طالب خليفة على المسلمين وطالبا بضرورة الانتقام من الأشخاص الذين اغتالوا عثمان بن عفان . وأشار القتلة فى مجادلاتهم الى أن قتل عثمان يعتبر عملا شرعيا لأنه لم يحكم وفقا للأوامر والتعليمات الواردة بالقرآن الكريم وبذلك فانه لم يعد عضوا فى الأمة الاسلامية . وعلى مدى مئات السنين نجد أن القتلة والمتمردين المسلحين بالمجتمعات الاسلامية قد ارتكزوا على هذا الأساس المنطقى كمبرر للأعمال والاغتيالات التى يقومون بها ، وهى ان الحاكم الذى لا يحكم بما يتمشى مع ما ورد فى القرآن الكريم من احكام وتعليمات فانه لا يعتبر مسلما . وأقرب مثال على

ذلك هو اغتيال الرئيس محمد أنور السادات على أيدى الجنود الأصوليين .

وعندما رفض على بن أبى طالب الاذعان لمطلب عائشة الخاص بمعاقبة قتلة عثمان فانها سارعت بالذهاب الى البصرة لكى تشن هجوما ضد الخليفة الجديد . فانسحب على الى الكوفة التى تعتبر معقلا حصينا لمؤيديه وأتباعه . ونشبت معركة بالقرب من البصرة فى ديسمبر ٦٥٦ وتمكن على من التغلب على الموالين لعائشة الا أنه كان مجاملا وكريما تجاه زوجة الرسول . وبعدئذ أقسم معظم الحكام العسكريين يمين الولاء والاخلاص لعلى بن أبى طالب .

وفى عام ٦٥٨ تلاقت جيوش على وجيوش معاوية فى منطقة صفين الواقعة على ضفاف نهر الفرات ودارت معركة . وسرعان ما اتضح تفوق جيوش على بن أبى طالب . وهنا لجأ رجال معاوية الى الاستعطاف وحسم النزاع من خلال اللجوء الى القرآن الكريم وغرسوا صفحات من القرآن فى الرماح الخاصة بهم . فأدى هذا الى وقف القتال بين الجانبين .

وبعد شهور عديدة من المفاوضات وافق كل من على وأمية على عرض النزاع القائم بينهما ومسألة الخلافة على اثنين من المحكمين أو الوسطاء بحيث يقوم كل جانب باختيار الحكم الذى ينوب عنه . وقد صار التحكيم الذى نجم عن هذين الوسيطين بمثابة أكثر القصص تعقيدا فى التاريخ الاسلامى وذلك بسبب الروايات غير الأمينة التى ساقتها جهات عديدة عن مجرى سير الأحداث وعن دوافع المشاركين فى هذه الوساطة .

وتجدر الاشارة الى أن مئات عديدة من الأتباع العسكريين لعلى بن أبى طالب قد ذهبوا الى انه لا يوجد نص فى القرآن الكريم يتعلق بالتحكيم ثم أعلنوا انفصالهم عن على وأقاموا معسكرا لهم بالقرب من بغداد . وأصبحت هذه المجموعة من المقاتلين يسمون : الخوارج Kharagis أو الغرباء Outsiders أو المنشقين Seceders . وقد اضطر على لمحاربتهم والحاق الهزيمة بهم فى يوليو ٦٥٨ الا أن عددا كافيا منهم قد أفلت من الموت واستمروا فى تشكيل « حركة الخوارج » التى ذهبت فى تقديراتها الى أن أى شخص مسلم يتميز بالتقوى والورع جدير بأن يصبح خليفة للمسلمين علاوة على ايمانهم ببعض الأمور والآراء الأخرى(وهم فى هذا الصدد يختلفون عن شيعة على — أو أنصار على — الذين أصروا على قدسية ذرية النبى محمد من خلال ابنته فاطمة الزهراء وزوجها على وأشاروا الى أن هذه القدسية هى الشرط الأساسى للخلافة) .

ومن بين الروايات التى قيلت عن التحكيم أن الحكمين قد اتفقا فى الرأى على اقالة وخلع كل من على ومعاوية بحيث يتم اختيار خليفة جديد من خلال عقد اجتماع يضم علية القوم وكبار الشخصيات . ونظرا لأن مندوب على كان أكبر فى السن من مندوب معاوية فقد تقرر أن يتكلم أولا أمام ذلك الحشد من كبار الشخصيات .. فأعلن عزل واقالة كل من على ومعاوية . وبعدئذ نهض مندوب معاوية لكى يلقى كلمته . ولكنه بدلا من أن يدعو الى الترشيحات من أجل شغل منصب الخليفة فانه أعلن أن معاوية هو الشخص الملائم لشغل منصب الخليفة . فتشبث على بمنصبه . وقد استاء شيعة على من الخيانة التى ارتكبها مندوب على الى أقصى حد . وترك ذلك اثرا عميقا عليهم . ويستمر هذا الاستياء المتواصل حتى يومنا هذا . فالرفض المستمر من جانب آية الله الخمينى وهو رجل

شيعى لقبول الوساطة فى الحرب الايرانية العراقية يرجع أساسا الى عدم الثقة فى الوسطاء . وهى عدم الثقة المحفورة فى عمق التجربة التى شهدها على عقب معركة صفين .

وقرر الخوارج Kharagis المتبقون على قيد الحياة الانتقام لموت زملائهم على أيدى قوات على . وكان على بالطبع على رأس قائمة الأشخاص المراد قتلهم . ولقد تمكن رجل منهم يسمى ابن مجلم من طعن على طعنة مميتة فى يوم ١٩ رمضان عام ٤٠ هجرية الموافق شهر مارس عام ٦٦١ بينما كان يؤدى الصلاة فى مسجده بالكوفة . وكان اغتيال على بمثابة ضربة هائلة لأولئك الذين كانوا يؤيدونه فى مطالبته بالخلافة وأحقيته لها . وكان رحيل على هو نهاية فترة حكم دامت ثلاثين عاما على أيدى الخلفاء الراشدين الأربعة . وهى فترة الحكم التى اتخذت من المدينة المنورة مقرا لها .

وتم الاعلان عن معاوية خليفة بالقدس كما تم الاعلان عن الحسن وهو الابن الأكبر لعلى بن أبى طالب خليفة فى الكوفة . الا أن هذه الازدواجية فى الخلافة لم تستمر لفترة طويلة . وكان معاوية ــ وهو سليل عشيرة أمية التى تعتبر جزءا من الطبقة العليا الراسخة فى مجتمع الجزيرة العربية ــ يتمتع بنفوذ أكبر وقوة عسكرية أكبر من الحسن . وأرسل معاوية مندوبين عنه لكى يقنعوا الحسن أن يعتزل السلطة ويعود الى المدينة المنورة ويحصل على معاش كبير مع وعده بعودة الخلافة ــ عقب وفاة معاوية ــ الى العشيرة الهاشمية التى ارتفعت مكانتها الى درجة عظيمة بسبب الشعبية الهائلة التى تمتع بها أحد أفراد هذه العشيرة الا وهو محمد رسول الله وبسبب اهتمام أفراد هذه العشيرة بتدعيم الدين الاسلامى الجديد القوى . ومات الحسن بسبب تعرضه لحالة من

التسمم فى عام ٦٦٩ . ثم نكث معاوية بوعده حيث قام بتعيين ابنه يزيد خليفة أثناء فترة حياته . وهو بذلك قد أنشأ أسلوب السلالة الحاكمة وهو أمر لا نظير له فى دار الاسلام . وقضى هذا الاجراء على التقاليد السابقة التى تنادى بضرورة اختيار أكثر المسلمين ورعا وتقوى من بين عشيرة بنى هاشم أو عشيرة بنى أمية ليكون زعيما للأمة الاسلامية . ومازال الحكم من خلال أسرة ملكية يلقى معارضة شديدة من جانب الكثير من كبار المفكرين الاســـــلاميين المعاصرين . وهى معارضة ترتكز على أسس أيديولوجية .

وبحلول الوقت الذى مات فيه معـــــاوية فى عام ٦٨٠ كان الأمويون قد دعموا قوتهم وسلطانهم . الا أن الشيعة كانوا لايزالون متشددين فى آرائهم القائلة بأن عليا قد عين تعيينا الهيا مقدســا لكى يخلف النبى محمدا وأن الرسالة الالهية قد استقبلها بكل وضوح على وأسرته وبذلك فان المنحدرين فقط من سلالة عائلة المسلم الحقيقى الأول هم الذين يصلحون لأن يحكموا دار الاسلام .

ونشأ عن هذا المفهوم الذهنى عن الامامة . بمعنى أن أولئك الذين ينحدرون من نسل النبى محمد ـــ وبالتالى ينحدرون من نسل فاطمة وعلى ـــ هم فقط الذين يمكنهم أن يحكموا المسلمين وأن الأئمة أو القادة الدينيين يتلقون الهاما مقدسا وبالتالى فهم معصومون من الخطأ . الا أن هذا الرأى لم يوافق عليه السنيون أو أهل السنة ـــ اذا توخينا المزيد من الدقة ـــ لأن أهل السنة يعتقدون أن الخلفاء عرضة للوقوع فى خطأ من حيث هم مفسرون للقرآن الكريم . والسنيون يبجلون ويوقرون النبى والخلفاء الراشدين بينما الشيعة لا يبجلون سوى النبى والامام على والمنحدرين من سلالة على بن أبى طالب . والسنيون يؤمنون بثلاثة مفاهيم ذهنية رئيسية : التوحيد بمعنى انه لا اله الا الله . ثم النبوة من حيث هى وسيلة

اتصال بين الله والجنس البشرى ثم البعث بمعنى أن الآدميين الذين ماتوا سيوقظهم الله من سباتهم فى يوم القيامة أو يوم الحساب ويتم الحكم على الأعمال التى قاموا بها أثناء فترة حياتهم فى الكرة الأرضية .

((الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون)) . ((صدق الله العظيم)) .

والشيعة يؤمنون بتلك المفاهيم الذهنية الثلاثة سالفة الذكر بالاضافة الى ايمانهم بالامامة والعدالة الاجتماعية . ولكن المذهب الشيعى فى أواخر القرن السابع كان بمثابة مدرسة فى الفكر الاسلامى أكثر مما هو طائفة للشيعة محددة المعالم بشكل واضح .

وعقب موت معاوية أصبح يزيد خليفة على المسلمين . وعندئذ أعلن الحسين وهو أكبر أبناء على المتبقين على قيد الحياة والذى كان يقيم آنئذ فى المدينة المنورة مطالبته بالخلافة على أساس أن الخلافة تخص بيت النبى وعلى أساس أنه أكبر الأعضاء الذكور فى بيت النبى . وأشار الى أن يزيد يعتبر مغتصبا للخلافة . فوصلته رسائل تأييد مليئة بالحماسة من الكوفة التى تعتبر القلعة التى تضم مؤيدى وأنصار على بن أبى طالب . وكانت تلك الرسائل مليئة بالعبارات التى تشجعه على المطالبة بالخلافة واحياء المجد الذى هيمن على دار الاسلام أثناء فترة حكم الامام على . ووصلت هذه الأنباء الى يزيد بن معاوية . فسارع الى ايفاد أحد مساعديه الموثوق بهم وهو عبيد الله بن زياد الى الكوفة . فاستخدم ابن زياد نفس التكتيكات القديمة المتعلقة بالاستقطاب والقمع وممارسة الضغوط وتمكن من تحييد القوات العسكرية المناهضة ليزيد بن معاوية . وكان الحسين آنئذ لا تساوره أدنى شكوك فى مدى

اخلاص أنصاره المتواجدين بالكوفة فسافر مع عائلته برفقة ٧٢ من التابعين له : ٤٠ من الفرسان + ٣٢ من المشاة متجها الى جنوب العراق .

وفى يوم ١ محرم ٦١ هجرية الموافق ٨ مايو ٦٨١ وعلى مسافة حوالى ثلاثين ميلا من الكوفة اعترض جنود يزيد بن معاوية سبيل الحسين ورفاقه وأسرته عند كربلاء . وعلى مدى الأيام الثمانية التالية حاول قائد قوات يزيد بن معاوية الحصول من الحسين على التسليم غير المشروط من خلال المفاوضات معه . الا أنه لم يفلح فى هذا الشأن . اذ كان الحسين يؤمن ايمانا راسخا وكاملا بأحقيته فى الخلافة . ورفض التزحزح عن موقفه حتى بعد أن أدرك أن قواته تعتبر ضئيلة للغاية بالنسبة لجنود يزيد بن معاوية وأن الهزيمة والموت أمران محققان ولا مفر منهما . وهذا الاستخفاف بالبرجماتية التى تنادى بالتضحية بالمبادىء السامية الرفيعة على محراب الواقعية كان بمثابة اعلاء واظهار للمثالية التى فجرت جسد الحسين وجعلت منه أعظم شهيد فى التاريخ الاسلامى وخاصة بين الشيعة . اذ فضل الحسين الدخول فى المعركة والاستشهاد على الاستسلام أو التراجع أمام تضحية العدالة . وكان الحسين يدرك أن الظلم قد وقع عليه كما كان يدرك أن استشهاده من شأنه أن يحيى مطالبة بيت النبى محمد بالخلافة مستقبلا . وفى صباح يوم الجمعة الموافق العاشر من محرم قام الحسين بقيادة تلك المجموعة الصغيرة من المحاربين التابعين له لكى يواجهوا جنود يزيد بن معاوية المسلحين والبالغ عددهم ٤٠٠٠ مقاتل ما بين فرسان ومشاة . ولكى يواجه الحسين هذا الحدث البالغ الأهمية فانه ارتدى العباءة المقدسة الخاصة بجده محمد رسول الله . واستشهد أنصـــــار الحسين الواحد تلو الآخر نظرا للتفوق العددى لقوات اليزيد بن معاوية .

وكان الحسين هو آخر من استشهد من المجموعة الصغيرة التابعة له . ثم قطع رأسه وقدم رأسه المقطوع الى يزيد بن معاوية .

ويتم تلاوة تلك الأحداث الدرامية التى شـــهدتها تلك الأيام العشرة من شهر محرم سنويا فى كل مكان يعيش فيه الشيعة . وتتم التلاوة بمعرفة قراء محترفين بالمساجد وفى قاعات الاجتماعات . وأصبحت تلك المناسبة هى أشهر احتفال عاطفى مصحوب بالحزن الشديد والبكاء والعويل المحموم مع جلد الناس لأنفسهم بالسياط وهذه الطقوس السنوية التى يمارسها الشيعة تباعد كثيرا ما بين الشيعة وأهل السنة وتعمق الفجوة بين الجانبين . وهى طقوس شعبية تحيى ذكرى الامام الحسين وتعيد من جديد ذكرى التاريخ خلال الفترات الأولى من الاســــلام وذلك يعطى لقادة الشـــيعة المعاصرين الفرصة لاستقاء الدروس من التراجيديا البطولية لرجل يتميز بالتقوى والورع والروحانية على نحو غير عادى وأن المؤمن الحق ينبغى عليه ألا يمتنع عن تحدى نظام الحكم القائم مع استخدام القوة المسلحة اذا اقتضت الضرورة وذلك اذا أصبح نظام الحكم السائد متسما بالظلم والطغيان حتى لو كانت فرص النجاح فى الاطاحة بالحكم الفاسد ضئيلة للغاية . ومما لاشك فيه أن أولئك الحكام الذين يرغبـــون فى قيـــادة مواطنيهم بدون الالتزام بالخط الاسلامى يحاولون القضاء على تلك الطقوس التى تذكر الناس بمقتل الحسين . ففى ١٩٣٩ قام الشاه رضا بهلوى بتحريم جلد الناس لأنفسهم علنا أمام الجماهير فى يوم العاشر من رمضان كما حاول وقف العروض الجماهيرية التى يقوم بها الشيعة فى خلال الأيام السابقة على الحداد .

وفى داخل البلاط الملكى فى عام ٦٨١ شعر يزيد بن معاوية بالحزن الشديد نظرا لأن الامام الحسين من سلالة النبى على نحو

مباشر . وأصدر يزيد أوامره بتأمين سفر جميع نساء عائلة الحسين المتبقيات على قيد الحياة علاوة على علي زين العابدين الذى تعرض لجراح واصابات خطيرة حتى أن قوات يزيد قد اعتقدت أنه قد مات بالاضافة الى حفيد صبى يسمى محمد الباقر وذلك أثناء عودتهم الى المدينة المنورة . وقد تبنت زينب ــ وهى أخت الامام الحسين ــ تخضية الشيعة الى أن شفى زين العابدين من جراحه تماما . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا بدأ الشيعة يجذبون اليهم العناصر المتمردة والثورية والمنشقة المتواجدة فى دار الاسلام .

وكان استشهاد الامام الحسين بمثابة نقطة تحول فى التاريخ الاسلامى وليس مجرد هزيمة نهائية لعشيرة آل هاشم على أيدى الأمويين . فهذا الصدام المسلح بين يزيد الفاسد والحسين التقى الورع كان جزءا من نفس الديالكتيك الذى جعل عثمان البراجماتيقى يتصارع مع على بن أبى طالب المثالى : وهو جدل ديالكتيكى لأيديولوجية قد أحرزت النجاح . والمسألة الرئيسية وفقا لما أورده المؤرخ الاسلامى ماليز روتفين Malise Ruthven كانت على النحو التالى : « هل يمكن للتماسك الجديد للأمة الاسلامية المرتكز على الالتزام بما ورد بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أن يكون هو الأساس الأيديولوجى لنظام اسلامى جديد أو ينبغى على النظام أولا أن يرسخ نفسه على أساس من النفوذ والسلطة القرشية وخاصة النفوذ الأموى ؟ » وكانت الاجابة النابعة من الحياة الواقعية ــ مثلما يكون عليه الحال فى كثير من الأحيان ــ هو اتخاذ خط وسط بين هذين الاتجاهين المتناقضين . الا أن هذا الديالكتيك قد ظل مستمرا وظل بدون حسم ويضيف هذا المؤرخ قائلا : « ان مشكلة العثور على توازن بين ما هو مثالى وما هو واقعى ــ أو التوازن بين النموذج الكامل للاسلام والحقائق الانسانية والمادية للحياة قد أصبحت

هى المادة العلمية للتاريخ الاسلامى ابتداء من عهد محمد حتى الوقت الحاضر » .

بل نشأ تصدع وصراع فى داخل نطاق معسكر الشيعة المعارض . ففى حين تقبل زين العابدين الحكم الأموى نجد أن محمد بن الحنفية وهو ابن لسيدنا على من زوجة حنفية قد ثار ضد الأمويين فى عام ٦٨٧ . ومنيت ثورته بالهزيمة الا أن الأوضاع الاجتماعية التى تغذى بذور الشقاق ظلت قائمة . اذ أصبح المجتمع تحت ظل حكم الأمويين مكونا من طبقات اجتماعية متباينة : طبقة الارستقراطيين متربعة فوق قمة المجتمع وطبقة الشعوب غير العربية الواقعة فى نطاق الامبراطورية الاسلامية يتواجدون عند قاع المجتمع ويسمون عادة بالأشخاص الموالين أو التابعين بينما الأنصار العرب والقبائل البدوية الذين يقفون الى جانب الحكم الأموى يشكلون الطبقة المتوسطة . وكانت التفرقة العنصرية التى يمارسها الأمويون ضد المسلمين من غير العرب هى أمرا يتنافى مع تعاليم القرآن الكريم كما كانت تلك التفرقة سببا فى تصاعد مشاعر السخط والغضب بين الموالين مما يجعلهم ينجذبون نحو معسكر الشيعة .

وتمشيا مع التقاليد الشيعية قام على زين العابدين بتعيين ابنه الذى يسمى محمد الباقر كوريث روحى له وذلك قبل أن يموت فى عام ٧١٢ . ونظرا لأن الباقر قد اتخذ نفس موقف المهادنة السلمية مثلما فعل والده فقد قام الشيعة النشطاء بتقديم يد العون والتأييد والمساندة لأخيه غير الشقيق الذى يسمى زيد بن على . ورفع زيد لواء التمرد والعصيان فى عام ٧٤٠ الا أنه تلقى ضربة قاضية . وبعدئذ فى عام ٧٤٣ قام ابنه يحيى بن زيد باعلان التمرد والعصيان فى منطقة خراسان وهو الاقليم الواقع الى أقصى

الشرق من دار الاسلام والذى يشتمل حاليا على كل المساحة التى تشغلها ايران . الا أنه لقى هزيمة منكرة .

الا ان جميع تلك الحالات من الفشل لم تضع حدا للتناقضات الشديدة المتواجدة فى داخل نظام الحكم . وكان الناس الورعون الأتقياء يروعون من ذلك الفساد وحياة الرفاهية الخاصة بالأمويين الذين امتدت امبراطوريتهم آنئذ الى أسبانيا غربا والى السند شرقا . وفى العاصمة دمشق كانت معظم النواحى الادارية فى أيدى العائلات المسيحية التى سبق لها أن أدارت شئون البلاد فى ظل حكم الأباطرة البيزنطيين وهو أمر لا يطاق من وجهة نظر كبار مشايخ المسلمين فى ذلك الوقت . فدمشق فى الثلاثينات من عام ٧٣٠ كانت تختلف اختلافا شاسعا عن المدينة المنورة التى كانت تحرص على تحقيق العدل والمساواة والبساطة بين الناس منذ قرن مضى . ومن المؤكد أن المدن العسكرية المتواجدة فى كل من العراق وخراسان كانت تموج بالاستياء. وفى خلال الثلاثينات من عام ٧٣٠ والأربعينات من عام ٧٤٠ تزايد تناول المثقفين لمسألة الحق فى اعلان التمرد والثورة ضد الحاكم الفاسد الظالم .

وتحت ظل هذه الظروف التى كانت سائدة فى أواخر الأربعينات من عام ٧٤٠ تم القيام بسلسلة ثانية من حالات التمرد والثورة تحت قيادة أبو مسلم الذى كان عبدا سابقا لدى ابراهيم وهو امام الهاشميين ومن سلالة عباس عم النبى محمد وقد انضم الى تلك التمردات والثورات قبائل الحاميات العسكرية فى خراسان كما أيدها وساندها المثقفون الاسلاميون الحضريون الذين كانوا ينتقدون بشدة حياة البذخ والرفاهية التى يعيشها الأمويون . كما كسب أبو مسلم تأييد الشيعة عندما أعلن أنه سيتم تعيين عضو من بيت النبى محمد ليكون خليفة على المسلمين ولكى يحل محل الخليفة الأموى . وهكذا نرى أن المنافسة الهاشمية مع الأمويين والاستياء

الايديولوجى من الحكام الفاسدين الذين انحرفوا عن الاسلام وتشوق الشيعة الى عودة الخلافة الى بيت النبى قد تلاقت كلها لكى ينجم عنها قوة راسخة . واستجمع العصيان والتمرد قواه ونجح بالفعل فى الاطاحة بالأمويين فى عام ٧٥٠ .

وهكذا جاءت الخلافة العباسية بعد الأمويين . وقد سميت على اسم العباس الذى هو عم النبى صلى الله عليه وسلم . وقد لقيت الثور العباسية ترحيبا من جانب العلماء الدينيين وجماهير المسلمين الذين هم من غير العرب . وكان ذلك بمثابة أول انتصار للمذهب الأصولى فى التاريخ الاسلامى . فالأمويون كانوا قد انحرفوا عن الطريق القويم للقرآن الكريم والسنة ثم أطيح بهم . وأولئك الذين حلوا محلهم الا وهم العباسيون قد تعهدوا بالالتزام الشديد بالمبادىء الاسلامية الواردة بالقرآن والسنة . كما تعهدوا بأن يعاملوا الموالين أو المسلمين غير العرب على قدم المساواة التامة مع المسلمين العرب وأن يختاروا القضاة من بين أولئك الذين درسوا القرآن وممارسات النبى .

ونظرا لأن عباسا الهاشمى كان اكبر فى السن من النبى محمد بحوالى ٣٠ سنة فان الادعاء الذى يقوله العباسيون من حيث انتمائهم لبيت النبى يعتبر ادعاء غير صحيح . وكان جعفر الصادق وهو الامام الشيعى السادس مازال خاضعا فى اذعان للسلطة العباسية . وفى مقابل ذلك نجد أن الخليفة العباسى كان يكرم الصادق مع ابقائه فى نفس الوقت تحت المراقبة السرية . وكان هذا بمثابة بداية للتعاون الهش المزعزع بين اتباع الامام الشيعى والدولة السنية .

ولكن ليس كل الشيعة قد اتبعوا جعفرا الصادق . ففى خلال عقود قليلة من الاستيلاء على السلطة صار العباسيون يقلدون الأسلوب الديكتاتورى الساسانى Sassanian الذين أطاحوا بهم وتركوا الشئون الادارية تسقط فى أيدى البيروقراطيين الذين سبق لهم أن قدموا خدماتهم لأباطرة الساسانيد . فشعر الرجال العسكريون الاسلاميون الذين سبق لهم تأييد العباسيين فى حماسة شديدة بأنهم تعرضوا للخيانة . وفى عام ٧٨٦ قام الشيعة باعلان التمرد والثورة والعصيان فى منطقة الحجاز التى تضم مكة والمدينة المنورة . الا أن الخليفة العباسى قام باخمادهم وقمعهم .

وعلى مدى الأجيال المديدة التالية تبلورت ثلاثة فروع للمذهب الشيعى : الزيديون أو الخماسيون والاسماعيليون أو السباعيون والاماميون أو أتباع الاثنا عشرية . والزيديون يشتركون فى القول بالأئمة الأربعة الأوائل(*) مع أنصار الاثنى عشر ويتبعون خطا مختلفا ابداء من زيد بن زين العابدين . والاسماعيليون يشتركون فى الأئمة الستة الأوائل مع أنصار الاثنى عشر(**) وبعدئذ يتخذون خطا مختلفا ابتداء من اسماعيل وهو الابن الكبير العسكرى لجعفر الصادق والذى مات قبل والده . وأولئك الذين اتبعوا موسى الكاظم وهو الابن الأصغر المعتدل لجعفر الصادق أصبحوا يعرفون باسم : الجعفريون ثم صاروا يعرفون

(*) الأئمة الأربعة الاوائل هم : على والحسن والحسين وزين العابدين .

(**) الائمة الستة الشيعة الاوائل وفقا لرأى أنصار الاثنى عشر هم : على والحسن والحسين وزين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق .

(المترجم)

بعد ذلك باسم : الاثنا عشرية أتباع الاثنى عشر(*) . وهم يعتقدون أن محمد المنتظر وهو الابن الصبى للامام الثانى عشر قد اختفى عن أنظار الناس العاديين على نحوٍ غامض فى عام ٨٧٣ وبذلك سمى بالامام المختفى وترك وراءه أربعة من المساعدين الخصوصيين .

وبحلول ذلك الوقت كان النفوذ القوى للخليفة العباسى قد تدهور وذلك مع تزايد اغتصاب الاقليم الشرقى من دار الاسلام على أيدى الأسرات الملكية الايرانية شبه المستقلة . بل ان بغداد قد سقطت فى عام ٩٣٢ فى أيدى أحمد معز الدولة وهو أحد ملوك البويد Buyid وكان من شيعة الاثنى عشر . الا انه لم يحاول — وكذلك المنحدرون من سلالته — ادخال المذهب الشيعى الى بلاط الخليفة أو الغاء الخلافة العباسية . وهكذا نرى انه قد حدث تقسيم للسلطة : بحيث يتولى ملك البويد السلطة السياسية ويتولى الخليفة العباسى السلطة الروحية .

ومثل هذه الترتيبات كانت تتعارض مع روح الاسلام الحقيقية . فلم يوافق عليها الاسماعيليون وهم اكثر الشيعة اتساما بالطابع العسكرى . فقاموا أيضا بتحدى العباسيين ولكنه تحد يهدف الى الاطاحة بهم . ونجحوا بالفعل فى هذا المضمار فى تونس . فهناك تمكنوا تحت قيادة عبيد الله المهدى وبمساعدة من البربر من الاستيلاء على السلطة فى عام ٩٠٩ وانشأوا هناك الخلافة الفاطمية (نسبة الى فاطمة زوجة على بن أبى طالب) . وكان هذا بمثابة تحد

(*) وباقى الأئمة الاثنى عشر هم : موسى الكاظم وعلى الرضا (أو على الريزا باللغة الفارسية) ومحمد التقى جواد وعلى النقى وحسن العسكرى ومحمد المنتظر .

(المترجم)

ناجح أصولى شيعى للحكم السنى العباسى الذى كان يعتبر من وجهه نظر الفاطميين حكما جائرا وغير ملتزم بالعدالة . وتزايدت أهمية الفاطميين عندما تمكنوا فى عام ٩٦٩ من الاستيلاء على مصر حيث أصبحوا منافسين للعباسيين . ثم شيدوا فى القاهرة جامع الأزهر والجامعة الأزهرية الدينية الاسلامية التى اصبحت أهم مركز للدراسة الشيعية .

وأثناء سيطرة البويد على بغداد (فى الفترة من عام ٩٣٢ حتى ١٠٥٥) تم جمع وتصنيف أربع مجموعات من أحاديث الشيعة (اقوال وأفعال ائمة الشيعة) . وهذا الاجراء فى حد ذاته قد جعل الشيعة متكافئين مع المذاهب السنية الأربعة للشريعة المتواجدة بالفعل : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية . وقد تم الاطاحة بالبويد بمعرفة السلاجقة الذين قدموا من اواسط آسيا والذين كانوا من السنيين .

وقد تسبب فقدان القدس وهى ثالثة مدينة مقدسة لدى المسلمين ــ حيث وقعت فى أيدى المسيحيين خلال الحرب الصليبية الأولى (١٠٩٥ ــ ١٠٩٩) ــ فى خلق أزمة فى العالم الاسلامى . وكان فقدان القدس بمثابة قوة دافعة لبث وتشجيع الاتجاهات الاحيائية بين جماهير المسلمين وزيادة التفاف الناس حول الفاطميين وحول رؤيتهم للاسلام وقرر الفاطميون وضع كافة أراضى المسلمين تحت نفوذ وسيطرة أئمة الفاطميين . وتمكنوا من احراز تقدم هائل فى هذا الصدد . اذ امتدت الأراضى الواقعة تحت حكم الفاطميين من تونس غربا الى بلاد السند شرقا بما فى ذلك مصر وسوريا والحجاز واليمن وعمان بحيث لم يتبق تحت السيطرة العباسية سوى العراق وايران .

وبسبب هذا الاكتساح الشيعى للمناطق الاسلامية نجد ان صلاح الدين الأيوبى وهو جنرال كردى بزغ من بين صفوف الجيش

السلجوقى قد شن هجومه على الفاطميين فى عام ١١٧١ وتمكن من القضاء على الحكم الشيعى الفاطمى . وبذلك أصبحت السنية مرة أخرى هى القوة السائدة فى الاسلام . وفى الوقت الحالى نجد أن الشيعة لا تزيد نسبتهم على ١٥٪ فقط من مجموع السكان المسلمين بالكرة الأرضية والبالغ عددهم ٩٥٠ مليون نسمة .

تلخيص :

لقد ولد محمد صلى الله عليه وسلم فى مجتمع قبلى اقطاعى مشرك بالله ومؤمن بتعدد الآلهة والأوثان . ولكى يتمكن محمد من تشكيل مجتمع موحد ومتماسك ومؤمن بالتوحيد تحت قيادته فانه نصح باتباع مجموعة كاملة من الطقوس والممارسات علاوة على قوانين أخلاقية تتعلق بالسلوك وعلاوة على قواعد اجرائية حازمة تتعلق بادارة الشئون السياسية للدولة . وكانت الأسس التى يرتكز عليها تنظيم الأمة الاسلامية هى : القرآن الكريم . والممارسات الشخصية الخاصة به أو السنة .

ومن خلال التمسك الشديد بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من جانب على بن أبى طالب فانه أصبح يمثل الاتجاه المثالى فى الاسلام . أما الاتجاه البرجماطيقى بالاسلام فكان يمثله أولئك الذين تولوا بعد محمد عليه الصلاة والسلام وشغلوا منصب الخلافة بل ان الخليفة الثالث وهو عثمان بن عفان قد توسع فى البراجماتية مما أدى الى اغتياله فى نهاية الأمر . وبذلك أصبح شيعة على أو أنصار ومؤيدو على هم أول الأصوليين فى التاريخ الاسلامى ودخل الحسين بن على فى صراع مسلح ضد يزيد الحاكم المستبد الظالم رغم التفوق العددى الرهيب لصالح قوات يزيد العسكرية . ولذلك فهو قد حول المفهوم الذهنى للاستشهاد الى تكتيكات تهدف الى تحقيق النظام الاسلامى المثالى .

وكان الشيعة وهم الأصوليون الأولون فى الاسلام يحصلون على المساعدة والعون والتأييد من المسلمين المتميزين بالورع والتقوى ومن المسلمين الاعاجم (غير العرب) الذين كانوا يشعرون بأن التفرقة العنصرية تمارس ضدهم على ايدى العرب المسلمين .

ورغم آن الزمن قد تغير فان جماهير المناصرين للأصوليين لم يتغيروا . فحتى يومنا هذا نجد أن طبقة المهاجرين من القرى الى المدن يقدمون تأييدا شعبيا للحركة الأصولية التى يقودها اساسا رجال دين من ذوى المنزلة أو المقام المتوسط كما يقودها مهنيون أتقياء وتجار يتسمون بالورع .

وقد قام الشيعة بدور مهم فى التحالف الذى قاد الثورة العباسية ضد الخلفاء الأمويين الذين انحرفوا الى حد بعيد عن الخط الاسلامى مما ادى الى احراز أول انتصار للأصوليين فى تاريخ الاسلام . الا أن الخلفاء العباسيين السنيين سرعان ما شرعوا ايضا فى الانزلاق بعيدا عن القرآن والسنة مما ادى بالشيعة لأن يصبحوا حملة لواء الاتجاه المثالى للاسلام . وهذا الدور بالاضافة الى عقدة الشهيد التى هبطت مثل الالهام على ذهن الامام الحسين قد حول الشيعة الى جنود ومقاتلين يتسمون بالشجاعة . وقد نجم عن ذلك نتائج مهمة منها : اخضاع الخليفة السنى المتواجد فى بغداد على ايدى ملك شيعى من اتباع الاثنا عشر فى عام ٩٣٢ علاوة على بزوغ خلافة شيعية اسماعيلية متمثلة فى الفاطميين بالقاهرة فى عام ٦٦٩ . وقد ظلت السيطرة الشيعية

مستمرة على مدى أجيال عديدة وفقدت سيطرتها على بغداد فى بادىء الأمر فى عام ١٠٥ ثم فقدت سيطرتها على القاهرة فى عام ١١٧١ . ولكن من الغريب حقا أن صلاح الدين الأيوبى وهو القائد السنى الذى هزم الخلافة الشيعية بالقاهرة كان يركب موجة الاحياء الاسلامى التى اكتسحت أراضى المسلمين فى أعقاب فقدان المسلمين للقدس بعد أن استولى عليها المسيحيون فى عام ١٠٩٩ .

* * *

الفصـــل الثانى

الاسلام القويم والصوفية

بوجه عام يمكن القول ان العهد الاموى (٦٦١ — ٧٥٠) كان عهد توسع للدين الاسلامى بينما العصر العباسى كان عهد التماسك والاندماج اذ كان الأمويون الأوائل ملتزمين بضـرورة ابقاء الفاتحين العرب بمعزل عن اهالى وشـعوب البلاد التى فتحوها . وحرصوا على وضع جنودهم فى داخل مدن عسكرية ومنعوا اقامة علاقات جنسية بينهم وبين النساء غير العربيات . وتعهدوا بتوفير الحماية للأهالى غير المسـلمين فى مقابل قيامهم بتسديد ضريبة الرؤوس(*) وهو أسلوب سبق ان طبقه النبى محمد عقب احرازه الانتصار فى خيبر وهى واحة كان معظم سكانها من القبائل اليهودية . وكانوا غير متحمسين لفكرة تحويل السـكان والأهالى المحليين الى الدين الاسلامى .

(*) ضريبة الرؤوس : هى ضريبة تفرض على كل شخص من البالغين . (المترجم)

الا أن أهالى البلاد التى فتحها المسلمون وقعوا تحت اغراء العوائد المالية وغير المالية التى يحصلون عليها من وراء اعتناق الدين الاسلامى فاعتنقوا الدين الاسلامى بأعداد هائلة واصبحوا يعرفون باسم : الموالين أو التابعين . وعقب حدوث ذلك أصبحت الفوارق بين المسلمين العرب والمسلمين من غير العرب ضئيلة للغاية . وتداخلت العادات والتقاليد القبلية والقوانين البسيطة الخاصة بالعرب مع القوانين المعقدة للمجتمعات الريفية فى كل من العراق وايران ، فاتخذ الخلفاء الأمويون الطريق السهل من خلال تطبيق نفس الممارسات القانونية والادارية التى كان يقوم بها الأباطرة البيزنطيون الساسانيون Sassanian الذين أطيح بهم . الا أن ذلك أحدث مشاعر من الألم العميق فى نفوس المسلمين الأتقياء المتدينين . ومع قيام الأمويين فيما بعد بتشجيع الناس المتواجدين بالأراضى التى فتحها العرب على التحول الجماعى الى اعتناق الدين الاسلامى فان الاسلام انتشر بالقرى بين الفلاحين والمزارعين الذين ليسوا من العرب . وهذا بدوره أدى الى ظهور الحاجة الملحة الى نظام ادارى وشرعى متسم بالطابع الاسلامى . الا أن الأمويين فشلوا فى تلبية هذه الاحتياجات الملحة العاجلة . ومن ثم فان المثقفين الدينيين وقفوا الى جانب القوات الثورية العباسية لدى تمردهم ضد الأمويين .

وركز العباسيون الأوائل جهودهم على تنمية وتطوير الاسلام من حيث هو نظام اجتماعى مما أدى بالتالى الى تدعيم وتقوية الامبراطورية الاسلامية . وكان ذلك عملا صعبا استغرق حوالى قرنين من الزمان لكى يتم انجازه . وقد قام به مشايخ من كبار المثقفين الاسلاميين . وقد اكتشفوا أن القرآن الكريم الذى يضم ٦٦١٦ آية لا يوجد به سوى ٨٠ آية تتعلق بالمسائل القانونية وأن معظم هذه الآيات تتناول شئون النساء والزواج والأسرة والميراث .

ولكن نظرا لأن النبى محمد كان يحكم ويسيطر على كيان سياسى فانه كانت هناك التسجيلات الشفوية للأقوال التى قالها والأعمال التى فعلها من حيث هو قائم بدور القاضى والرجل الادارى . وعقب موت النبى محمد تم اللجوء الى وسائل عديدة من أجل جمع بيان بأقواله وأعماله . وهذه الأقوال والأفعال هى ما تسمى بالسنة النبوية الشريفة . (وفيما بعد فى منتصف القرن التاسع الهجرى تم جمع وتصنيف حوالى ٢٧٠٠ من الأحاديث والأقوال والأفعال التى قام بها النبى وتم نشرها فى ست مجموعات تسمى فى مجموعها الأحاديث النبوية وأشهر هذه المجموعات هى المجموعة التى أنجزها محمد البخارى (٨١٠ — ٨٧٠) . وقصارى القول أن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى . والأحاديث النبوية الشريفة هى التى تشرح وتفسر معانى القرآن الكريم .

وكان أبو حنيفة النعمان (٦٩٩ — ٧٦٧) من بين أوائل الناس الذين قاموا بتجميع وتنسيق القرآن الكريم والسنة . وهو تاجر ايرانى كان مقيما بالكوفة وقد أتبع العباسيون مذهبه أو مدرسته فى التشريع . وبعدئذ ظهر مذهب دينى آخر لأنس بن مالك (٧١٤ — ٧٩٦) وكان مقيما بالمدينة المنورة . وكانت البيئة التى عمل فيها هؤلاء العلماء الدارسون تنعكس على طابع الوثائق التى انتجوها ، اذ نجد أن المذهب الحنفى يتخذ الطابع الليبرالى ويميل نحو المجتمع الحضرى فى حين أن المذهب المالكى يميل الى الطابع التقليدى المحافظ ويتلاءم مع مجتمعات الرعى .

الا أن العالم الدينى الذى أحدث أكبر تأثير على الجهاز الادارى والقانونى للامبراطورية العباسية كان هو محمد بن ادريس الشافعى (٧٦٧ — ٨٢٠) وكان تلميذا للامام مالك بالمدينة المنورة ثم استقر به المقام فيما بعد بالقاهرة . وقد أنشأ الامام الشافعى علم الفقه الاسلامى على أربعة أسس : القرآن الكريم ، والسنة

النبوية على النحو الذى سجلت عليه فى الأحاديث النبوية الشريفة ، والاجماع ، والقياس . وقد فسر الاجماع على أنه بمثابة الاتفاق فى الرأى بين « أهل الحل والعقد » على أساس أن « أهل الحل والعقد » يشتملون على النماذج العديدة الممثلين للأمة بما فى ذلك المثقفون الدينيون . الا أن الامام الشافعى قد توسع فى ذلك بحيث يشتمل على المجتمع بأكمله . أما القياس فكان يسمح للمجتمع بادخال المواقف الجديدة الى نظام الشريعة بدون الاخلال بالأولوية الخاصة بالقرآن الكريم والسنة النبوية . كما كان القياس يسمح أيضا بالآراء الفردية والفوارق الفردية وهو أمر قد أقره ووافق عليه الحديث النبوى الشريف الذى يعنى أن اختلاف العلماء الدينيين فى الرأى هو رحمة للمسلمين .

وباتباع هذه الوسيلة أصبح بامكان العلماء الدينيين احداث ادماج بين تعاليم النبى محمد والتقاليد العربية والتقاليد غير العربية بحيث تكون كلها منهجا واحدا قابلا للتطبيق على كافة جميع المسلمين سواء كانوا من العرب أو غير العرب . وهكذا نرى أن تنظيم الشافعى للشريعة تنظيما منهجيا قد قدم لنا الأسس التى يمكن أن تشيد عليها الهوية المشتركة العامة للمسلمين المنتشرين فى جميع أرجاء العالم .

والمدرسة الدينية الأخرى التى صمدت وظلت متواجدة على قيد الحياة هى مدرسة أحمد بن حنبل (٧٨٠ — ٨٥٥) وكان أحمد بن حنبل ضد استنباط مجموعة من التشاريع القانونية الفوقية المبنية على القرآن والسنة . وذهب فى تقديراته الى أن القرار القانونى ينبغى التوصل اليه من خلال الرجوع مباشرة الى القرآن والسنة بدلا من الرجوع الى تشريع دينى مأخوذ عن القران والسنة .. وأشار الى أن القرآن والسنة هما بمثابة القانون فى حد ذاته وليسا مجرد مصدر القانون . وقد اتضح أن طريقته هذه فى فهم هذا

الموضوع لم تلق تأييدا شعبيا فى المجتمعات المعقدة العميقة الثقافة بالهلال الخصيب والتى تشتمل حاليا على العراق وسوريا والأردن ولبنان ومصر . الا أنها وجدت اتباعا لها بين أعضاء القبائل البدوية المتواجدة فى نجد بشبه الجزيرة العربية .

وعلى مدى الأجيال العـديدة التالية نجد أن معظم العلماء الدينيين السنيين فى دار الاسلام قد وقع اختياهم على احد هذه المذاهب الأربعة التى تحدد نطاق الشريعة ابتداء من الخط الأصولى المتشدد الحنبلى الى الخط الليبرالى الحنفى . ولكيلا يتم افساد وابطال مفعول « الاجماع » الذى تم التوصل اليه من خلال ادخال بعض الابتكارات الراديكالية الجديدة فان العلماء الدينيين ابتداء من القرن العاشر فصاعدا أعلنوا أن باب « الاجتهاد » (أو التفسير الاجتهادى الابتكارى الخلاق) فى الاسـلام قد تم اغلاقه . وقد اتضح أن التأثيرات المتراكمة الناجمة عن ذلك الموقف قد الحقت الضرر بالاسلام . اذ أصبح الاسلام متسما بالصـرامة والجمود بحيث لا يعكس سـوى الوضـع الراهن .. مما جعـله يتدهور بشكل واضح خلال القرون الأخيرة من الألف عام الثانية « المسيحية » لدى تزايد ايقاع التطور التكنولوجى فى الغرب وزيادة حدة المنافسة بين الخلافة العثمانية والدول الأوربية .

والمذهب الحنفى الذى سار عليه العباسيون أصبح راسخا فى الأماكن الغربية من قارة آسيا . أما مذهب مالك ـــ ومالك من أهالى المدينة المنورة ـــ فقد انتشـر فى شمال وأواسط أفريقيا . أما المذهب الشافعى الذى نبع فى مصر فانه قد وصل الى جنوب شبه الجزيرة العربية ومن هناك انتشـر على طول الطريق الجنوبى الغربى لشرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا . أما المذهب الحنبلى فقد ظل مقصورا على منطقة نجد بشبه الجزيرة العـربية .

والشريعة أو القانون الالهى تتحكم فى حياة الانسان المسلم تحكما كاملا وقد قام الفقهاء الدينيون بدراسة كافة أنواع الأعمال التى يقوم بها الانسان . وقاموا بتصنيفها على النحو التالى : أعمال اجبارية ، وأعمال يوصى باتباعها ، وأعمال مسموح باتباعها ، وأعمال غير محددة ، وأعمال غير مرغوب فيها وأعمال ممنوع الاتيان بها . ثم أوضحوا الكيفية التى ينبغى ان يؤدى بها المرء الأعمال الاجبارية والموصى باتباعها والمسموح باتباعها على وجه الدقة .. ثم بداوا ينسبون معانى عميقة لبعض الأعمال الاجبارية فالأمر البسيط الذى أصدره النبى محمد والذى ينص على أن المؤمن ينبغى عليه ان يتوضأ باستخدام الماء (أو الرمال) قبل تأدية الصلوات قد ادخل فى مناقشات عميقة تتعلق بطهارة وتلوث الجسد الانسانى . وقدمت القوانين الاسلامية تفحصا وارشادا دقيقا لكافة الوظائف الجسدية : الأكل والشرب والتنفس والاغتسال والتبول والتبرز واخراج الغازات من الأمعاء والممارسة الجنسية والتقيؤ والتعرض لنزيف من الدماء وحلاقة الذقن ، مع تقديم وصف دقيق للكيفية التى ينبغى أن تتم بها هذه الأمور حيث يتركز الاهتمام على العمل على جعل الجسد « طاهرا » باستمرار . وبالاضافة الى كل ذلك صدرت مجموعة تعاليم عن السلوك الاجتماعى تتسم أيضا بانها شاملة تماما ومطوقة لكافة أنواع السلوك . وهاتان المجموعتان من القوانين المتلازمة مهمة للغاية وقاسية تماما بحيث يتعذر على المؤمن الالتزام بها طوال الوقت . حتى لو كانت لديه أفضل ارادة قوية فى العالم . ومن ناحية اخرى كان ادخال هذه القوانين الى حياة أولئك الذين اعتنقوا الاسلام هو الذى أدى الى تواجد نماذج سلوكية مشتركة بين جميع المسلمين بالعالم سواء كانوا يعيشون فى صحراء موريتانيا أو فى مجموعة الجزر الأندونيسية .

والسرعة التى تأصلت بها هذه العملية اختلفت من منطقة لأخرى . وبوجه عام نجد أنه كلما ابتعدت المنطقة عن الأراضى

الاسلامية الرئيسية المتواجدة بشبه الجزيرة العربية الواقعة غرب آسيا ، طالت المدة قبل أن يضـــرب الطابع الاســـلامى بجذوره ويترسخ . وكان ذلك يتوقف أيضا على الكيفية التى تم بها ادخال الاسلام فى الاقليم : سواء كان ذلك عن طريق الفتح المسلح أو من خلال العـــلاقات الاقتصـــادية والتجارية مع التجار العرب الذين يصلون سواء بطريق البر أو بالبحر .

مثال ذلك أن الاسلام قد انتشر فى المناطق الصـــــحراوية الافريقية من خلال طرق التجارة التى اهتم بها العرب من جهة الشمال . فعادة ما كان شيخ القبيلة الافريقية يعتنق الاسلام بهدف تدعيم مركزه الاجتماعى والسياسى من خلال الانضمام لحضـــارة أسمى وأقوى وأكبر لها كتاب مقدس مكتوب (القرآن الكريم) . وكان يبدأ بقبوله تعويذة أو حجابا أو ثوبا من الملابس . ثم يشرع تدريجا فى تأدية الصـــــلاة وبعدئذ يتخلى عن المحظورات المحلية ويستبدل بها المحظورات الاسلامية فى حياته الشخصية . وبعدئذ كان أفراد قبيلته وأتباعه ومريدوه يقتدون به ويقلدونه . وبعد أن تترسخ الثقافة الاسلامية فى داخل القبيلة يتم تطبيق الفقه الدينى فى المرحلة الثانية .

ونفس هذه العملية كانت تتم فى جزيرتى : جاوة وسومطرة ، وهما من أكبر الجزر فى أندونيســـــيا . وكانت هاتان الجزيرتان واقعتين تحت النفوذ البوذى أو الهندوسى عندما وصـــــل اليهما التجار العرب فى القرن الثالث عشر ، وانتشر الاســـلام تدريجـــا من المنطقة الساحلية الى المناطق الداخلية من خلال شبكة الطرق التجارية . الا أن الأمر كان يتطلب استكمال عملية اضفاء الطابع الاسلامى التى بدأت فى السير بخطوات سريعة فى خلال القرن الرابع عشر . وفى جاوة وغيرها من الجزر الكبرى نجد أن سكان

التلال بالمناطق الواقعة خلف الشريط الساحلى ، من المؤمنين بمذهب حيوية المادة(*) أو المؤمنين بالمسيحية أو « مسلمين من الناحية الاسمية أو الشكلية فقط » يعرفون باسم : أبانجان Abangan (فى حين أن المسلمين الراشدين المتواجدين بالشريط الساحلى يعرفون باسم : سانترى Santri) . وفى الأماكن الداخلية نجد أن الممارسات والعبادة الاسلامية تتواجد جنبا الى جنب مع تلك الممارسات الضاربة بجذورها فى مذهب حيوية المادة وفى الديانة الهندوسية والديانة البوذية .

لقد انتشر الاسلام بين تلك المجتمعات التى كانت العقائد الدينية بها تنصب على عبادة الأوثان أو عبادة كبار الشخصيات وهذا كان ينطبق على شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع مثلما كان ينطبق على جاوة فى القرن الثالث عشر . ونتيجة لذلك فان أولئك الذين اعتنقوا الاسلام لاى سبب من الأسباب قد افتقدوا الاشباع الروحى الشبيه بالتنويم المغناطيسى الذى كانوا يحصلون عليه من وراء عبادة الأصنام أو عبادة الأشياء المتواجدة فى الطبيعة أو عبادة شخص ما له صفات متميزة وهذه كلها ممارسات قد حرمها الاسلام ومنعها القرآن تماما . هذا بالاضافة الى أن الله من خلال النصوص القرآنية كان يثير التبجيل والمهابة والخوف فى نفوس المسلمين أكثر مما يثير الحب أو المحبة . وبالنسبة لمعظم أولئك الناس الجدد الذين اعتنقوا الدين الاسلامى مؤخرا فان الاسلام بزغ فى عقولهم من حيث هو عقيدة تهتم أساسا بالتنفيذ الدقيق للأوامر والتعاليم القرآنية . الا أن الطاعة الشديدة للأوامر الالهية وتأدية الطقوس الدينية بكل دقة قد جعل كثيرين من المسلمين

(*) مذهب حيوية المادة : الاعتقاد بأن لكل ما فى الكون حتى للكون فى ذاته روحا أو نفسا . والروح أو النفس هى المبدأ الحيوى المنظم للكون . المترجم

يشعرون بعدم الاشباع من الناحية الروحية والسيكولوجية . كما أن تلك المناقشـــات العميقة التى دارت حول نقاط دقيقة تتعلق بالقرآن والسنة بين العلماء الدينيين قد جعلت الأميين من المسلمين يشعرون بالحيرة والارتباك . وأصبحت جماهير المسلمين بحاجة الى قائد اسلامى يعمل على بث الدفء فى عقيدتهم الاســلامية الجديدة . وفى أوائل فترات الاسلام أصبحت الشخصية المثالية لعلى بن أبى طالب هى الشخصية التى يستقى منها المسلمون الجدد الالهام والقدوة . وبعدئذ قدم الامام الحسين من خلال استشهاده الغذاء الروحى لهذه المجموعة من المؤمنين الجدد .. ولكن عقب موت الحسين فى عام ٦٨٦ لم تبزغ شخصية أخرى يمكنها تلبية الاحتياجات الروحية لمثل هؤلاء المسلمين .

ومن هنا سعى بعض المسلمين الى الحصول على البهجــة الروحية من خلال القيام بممارسات فى الزهد والتقشف علاوة على ممارسات روحية صعبة على اعتقاد منهم أن ذلك من شأنه أن يقربهم كثيرا من الله سبحانه وتعالى . وقد استرشدوا فى اتجهاهم هذا بالنبى محمد الذى اعتاد على الذهاب بمفرده الى كهف ليتعبد ويؤدى صلوات ليلية كما استرشدوا بممارسات الرهبان المسيحيين .. وذهبوا فى تقديراتهم — شأنهم فى ذلك شأن أتباع الكنيســة الأرثوذكسية الشرقية — الى أنه لا يمكن فهم الله الا من خلال تجربة شخصية مباشرة . ومن ثم راحوا يركزون على التأمل والتفكر فى الله واعتقدوا أن الانخراط المباشر فى الشئون الدنيوية أو اتباع السلطات السياسية من شأنه أن يشتت السعى نحو الوصول الى الله . ومن خلال ممارســاتهم تمكنوا من ادخال المزيد من الدفء والتقوى والحب والغيرية (عدم الانانية) الى الاسلام . وأصبح هؤلاء الناس يعرفون بالصوفيين — وكلمة الصوفى مشتقة من كلمة الصوف حيث كان الرواد الأوائل للصوفية يرتدون جلابيب مصنوعة

من التصوف كدليل على الزهد والتقشف . وكان الحسن البصرى (توفى فى عام ٧٢٨) الذى اتخذ طريق الزهد والتقشف البسيط هو أول شخصية صوفية عرفت فى التصوف الاسلامى .

وفى ذلك الوقت ظهر نوعان من الصوفيين : الصـــــوفيون المتقشفون والصوفيون المتأملون .

وأعلن الصوفى المتقشف الحسين بن منصور الحلاج (٨٥٧ — ٩٢٢) قائلا : « أنا الحق ، أنا الله » فتم تنفيذ حكم الاعدام فيه على أساس أنه كافر ومتمرد على التعاليم الاسلامية . وكان أبو حامد محمد الغزالى (١٠٥٨ — ١١١١) هو أشهر الصوفية المتأملين . وكانت تجربته الشخصية هى التى قادته الى الاعتقاد بأن المذهب الصوفى فى الدين هو الوسيلة المجدية لادراك ومعرفة الحقيقة الالهية رغم أن ذلك لم يمكن المؤمن من معرفة أى شىء عن الله أو الحقيقة الالهية يفوق أو يزيد عما هو متواجد بالفعل فى القرآن الكريم . وهو بذلك حاول أن يضع التجربة الصوفية فى داخل نطاق الشريعة الاسلامية . وكان أعظم اسهام قدمه للدين الاسلامى هو تأليفه لكتاب « احياء علوم الدين » وهو مرجع للوجود اليومى الذى يمزج الدستور الدينى مع الفضيلة الفردية .

وفى حين أقام الشافعى بنيانا علويا قانونيا يرتكز على أسس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة نجد أن الغزالى قد حاول أن يحدث تكاملا بين الكيان التشريعى بأكمله والبنية الأساسية الروحية التى تنبع من الوعى الصوفى للنبى محمد . ففى كتاب « احياء علوم الدين » حث الغزالى المؤمنين على أن يكونوا على وعى وادراك بالتواجد الالهى ليس فقط أثناء تأدية الصلاة والصوم ولكن أيضا أثناء تأدية الأعمال اليومية العادية مثل تناول الطعام

والاغتسال والنوم . ولقد أصبح كتابه العظيم هذا بمثابة الوثيقة للطرق الصوفية التى بزغت الى الوجود عقب موته مباشرة .

وكانت أول طريقة صوفية هى القادرية . وقد أسسها عبد القادر الجيلانى (١٠٧٧ ـ ١١٦٦) الذى كان يقيم فى بغداد . وقد انتشرت هذه الطريقة الصوفية فيما بعد الى مسافات بعيدة حتى انها وصلت الى غرب أفريقيا وجنوب شرق آسيا . وهى طريقة صوفية قويمة وراشدة على نحو يفوق الطرق الصوفية الاخرى التى ظهرت بعدها علاوة على أنها طريقة تركز على التقوى والورع والاتجاهات الانسانية .

وفى غياب أى منظمة اجتماعية خارج نطاق الأسرة الموسعة ، نجد أن الطرق الصوفية قد قدمت البرنامج الاجتماعى الوحيد للتماسك الاجتماعى . اذ كانت الطريقة الصوفية تتكون من المريدين أو الدراويش الذين يحلفون اليمين بالولاء والاخلاص للمرشد أو الشيخ الخاص بهم . وشيخ الطريقة الصوفية يكون مرتبطا بسلسلة من البركات الموروثة أو القرابة مع الشيخ المؤسس للطريقة الصوفية . وتلك السلسلة ترجع الى أوائل الصوفيين المؤسسين مثل الحسن البصرى ومن خلالهم ترجع الى بيت النبى أو النبى محمد نفسه . وقد جرت العادة أن تقوم كل طريقة صوفية بانشاء البيوت أو المقار الخاصة بها .

وفى خلال الفترة التى ازدهرت فيها دولة البويد Buyid الشيعية فى بغداد علاوة على ازدهار الخلافة الفاطمية بالقاهرة نجد أن قدرا كبيرا من الطاقة الايديولوجية الروحية للعالم الاسلامى قد تحولت الى الصراع السنى الشيعى . ولكن ما تم الاطاحة بالبويد على أيدى السلاجقة السنيين فى عام ١٠٥٥ والاطاحة بالفاطميين على أيدى صلاح الدين الأيوبى فى عام ١١٧١ مع اعادة

ترسيخ السيادة للمذهب السني مرة أخرى حتى انتهت بالفعل النزاعات السنية الشيعية . ونظرا لأن الطرق الصوفية عادة ، كانت تخلو من التأثيرات الطائفية فانها أصبحت تتلقى وتستقبل الطاقة الذهنية والثقافية التى كانت تستهلك من قبل فى النزاع السنى الشيعى . وهذا بدوره أعطى نوعا من التنشيط للصوفية .

كما أن الاطاحة بالعباسيين السنيين فى عام ١٢٥٨ على أيدى الغزاة من المغول بقيادة هولاكو خان Hulagu Khan قد أوجد فراغا أيديولوجيا وثقافيا ازدهرت فيه الصوفية . وأدى ذلك أيضا الى ازدهار المذهب الشيعى . وأثناء هذه الفترة التى اتسمت بالتوسع السريع اخذت الطرق الصوفية ايديولوجيات من كلا الاتجاهين : الاتجاه الراشد والاتجاه المنشق .

والطريقة البكتاشية فى تركيا كانت نموذجا للطرق الصوفية المنشقة . فاحترامها وتبجيلها الشديد لبيت على بن أبى طالب كان امرا شبيها بالمذهب الشيعى بل ان الكثيرين من اتباع هذه الطريقة كانوا ينتمون لطائفة العلوى Alevi (التى تختلف بعض الشىء عن الشيعة) . أما الطريقةالنقشبندية فكانت نموذجا للاتجاه السائد بالطرق الصوفية . وقد تأسست هذه الطريقة بمعرفة يوسف الحمدانى (توفى فى عام ١١٤٠) الا أن هذه الطريقة قد اتخذت اسمها من اسم بهاء الدين النقشبندى (١٣١٨ — ١٣٨٩) وهو رجل متصوف ولد فى تاجيكستان ودفن فى مكان قريب من بخارى . وقد اعتقد النقشبنديون أنه لا توجد هناك طريقة تقع خارج نطاق الشريعة وكانوا يعتقدون فى صحة الحكمة القائلة : « الأمور الخارجية هى من أجل العالم أما الأمور الداخلية فهى من أجل الله » . ونظرا لأنهم كانوا يؤمنون بأن التقوى والورع يتم التعبير عنه على افضل وجه من خلال نشاط اجتماعى فانهم كانوا

يعارضون الانسحاب من الحياة العامة . والطريقة النقشبندية كانت تخلو من ذلك الانشقاق فى الرأى المتواجد بين الشيعة والسنة . ويتضح ذلك من سلسلة الأنساب الخاصة بها : أبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، وسلمان الفارسى (رفيق النبى)، وجعفر الصادق ، وأبو اليزيد البسطامى . والنقشبنديون مشهورون بذلك الذكر الصامت الذى يؤدونه بالمساجد بهدف التوصل الى نوع من الغبطة الجماعية .

ومنذ منتصف القرن الثانى عشر فصاعدا أصبحت الصوفية منتشرة فى كل مكان حتى أنها صارت مندمجة فى داخل التيار الرئيسى للاسلام بحيث يتعذر تمييزها عن ذلك التيار . اذ توقف الصوفيون عن الابتعاد عن السياسة وانهمكوا فى الحملات السياسية والعسكرية . مثال ذلك أن الدراويش الصوفيين شاركوا فى عام ١٤٥٣ فى الاستيلاء الناجح على القسطنطينية على أيدى الأتراك العثمانيين . كما قامت الطريقة الصفوية Safavid الصوفية المتمركزة فى أردبيل Ardebil بالاستيلاء على تبريز فى عام ١٠٥١ ووضعوا الأسس لأسرة الصفوية الملكية فى ايران .

وقد كان هناك دائما توتر بين العلماء الدينيين — وهم هناك متعمقون فى دراسة النصوص المقدسة ومدركون للدور الذى يقومون به من حيث هم فقط المرشدون الروحيون الوحيدون المؤهلون لذلك — ومشايخ الصوفية الذين يعتمدون على نداءات تهبط عليهم من الله أو من محمد من خلال حلم أو رؤية وتدعوهم الى الاضطلاع بمهمة القيادة الروحية (بدون أن يكونوا بحاجة لتلك الدراسات العميقة الشاقة للكتب المقدسة والتى يقوم بها العلماء الدينيون) . وكثيرا ما كان مشايخ الصوفية يتمتعون بقوى عجيبة فائقة موروثة حتى أنه قد ساد الاعتقاد بأن قدسيتهم الموروثة تظل متواجدة عقب

وفاتهم عند القبور الخاصة بهم . وقد أدى هذا الاعتقاد الى تحويل قبورهم الى أضرحة تمارس عندها طقوس تقديس المشايخ مما كان يسبب الكثير من الهم والقلق والحزن للعلماء الدينيين . وفى حين أن عبادة المشايخ كانت بمثابة هرطقة أو بدعة فى الاسلام فانها لقيت تأييدا كبيرا من جانب أولئك الناس الجدد الذين اعتنقوا الدين الاســــلامى والذين كانوا ينتمون لمجتمعات متعمقة فى مثل هذه التقاليد . وهكذا نرى أن الصوفية أصبحت بمثابة جسر يربط بين الاسلام والعقائد التى كانت ســـــائدة قبل ظهور الاســـــلام مما ساعد على دخول الكثيرين من الناس الجدد فى الدين الاسلامى .

هذا بالاضافة الى أن العلماء الدينيين التقليديين الذين يقومون بدور القضــاة الدينيين كانوا يعجزون عن أن يقدموا للشخص المؤمن نموذجا للسلوك الاجتماعى . أما مشايخ الصوفية فكانوا يلوون القوانين لكى تتلاءم مع العادات والتقاليد المحلية .

وفى حين كانت الطقوس الاسلامية صارمة بوجه عام نجد أن الطرق الصوفية كانت تقدم اطارا تمارس فيه طقوس دينية غنية بالألوان ونابضــة بالحياة وشبيهة بالطقوس التعبدية الخاصــــــة بالناس الجدد قبل أن يعتنقوا الاسلام . فالطرق الصوفية المليئة بالغبطة والنشوة الدينية كانت تتلاءم بصفة خاصة مع ذلك الهدف . والطريقة الرفاعية الصوفية التى نشأت فى العراق هى نموذج يعبر عن ذلك تماما . فأتباع هذه الطريقة كانوا يدخلون فى نوبات يقومون خلالها بركوب حيوانات خطيرة أو المشى فى داخل النيران أو الهجوم على الثعابين السامة أو يشوهون أنفسهم بأن يضعوا حلقانا حـــديدية فى آذانهم أو رقابهم أو أيديهم لكى يظهروا مدى سيادة الروح على المادة . ونظرا لأن القرآن الكريم قد ورد به ما يفيد ظهور الشياطين والملائكة من وقت لآخر فان ذلك قد جعل

الأفارقة ممن كانت لهم عقائد وثنية يتعايشـــــون مع الطقوس الاسـلامية . كذلك نجد أن الصلوات الصامتة الصوفية كانت تؤدى بهدف تحقيق غرضين : الغرض الأول هو التســـبيح والذكر لله والغرض الثانى هو استرضاء الآلهة والآلهات الوثنية المتســمة بالوحشية .

وازدهرت الصوفية وتعاظمت فى الفترة من عام ١٢٥٠ حتى عام ١٥٠٠ عندما كانت الخـــلافة متواجدة بالقـــاهرة فى عهد المماليك .. وعندما تغلغل الاسلام فى أواســـط أفريقيا وغرب أفريقيا وجنوب الهند وجنوب شرق آسيا وعلى طول الطرق البرية والبحرية التى استخدمها التجار العرب . فالاســلام قد أجرى اتصالات ليس فقط مع الأديان الوثنية المتواجدة فى أفريقيا ولكن أيضا مع الأديان والحضارات المتقدمة مثل الهندوســية والبوذية المتواجدتين فى آسيا .

وحقيقة الأمر أن أول مواجهة بين الاسلام والهندوسية قد حدثت فى عام ٧١١ عندما وصلت قوات اسلامية الى السند بطريق البحر قادمة من شبه الجزيرة العربية . وقد استمر حكم المسلمين هنالك حتى عام ٨٢٨ . وبعدئذ حدثت غزوة اســـلامية عبر ممر خيبر Khyber على طول الحدود الأفغانية الهندية وذلك عندما قام محمود الفاتح (وهو شيخ بلدة غازنى Ghazni الأفغانية) بضم البنجاب الى مملكته . وفى عام ١٢٠٦ قام قطب الدين أيباك وهو رجل تركى أفغانى بانشاء سلطنة تركية أفغانية فى شمال الهند .

وقد اتضح أن المساواة التامة التى ينادى بها الاسلام قد لقيت قبولا شديدا من جانب الطبقة الاجتماعية المنخفضة من الهندوس

ومن جانب الجنود المنبوذين . ولكن الأمر كان يتطلب تواجد كوبرى بين الهندوسية التى تنادى بتعدد الآلهة والاســلام الذى ينادى بالتوحيد من أجل أن يكسب الاسلام المزيد من المعتنقين الجدد للدين الاسلامى . فقام بهذا الدور طرق صوفية مثل القادرية والنقشبندية والشستية Chisti ونظرا لأن القادرية قد نشأت وتأسست فى بغداد فانها انتشرت فى الهند ووصلت من الهند الى الاقاليم الشرقية من أفغانستان . ونظرا لأن النقشبندية قد ازدهـــرت فى طاجيكيستان فانها قد شقت طريقها عبر التتار المعتنقين للدين الاسلامى منذ فترة قصيرة الى تركيا (حيث شـــيد السلاطين العثمانيون الخلافة ابتداء من عام ١٥١٧ فصاعدا) وأيضا الى الهند من خلال الغزاة الأتراك/الأفغان والغزاة المغول . ومن الناحية اللاهوتية نجد أن هذه الطرق الصوفية قد اقرت وأيدت نظـرية « وحدة الوجود » التى أعلنها بوضـــــوح محيى الدين بن عربى (١١٦٥ ــ ١٢٤٠) . فوفقا لما أورده ابن عربى لا توجد هناك ثنائية بين الله والكون الخاص به . وحقيقة الأمر أن الله والخلق الخاص به هما جزء من المتصل(*) أو من « وحدة الوجود » التى تتألف من درجات متفاوتة من الحقيقة . والانسان هو عالم صغير أو صورة مصغرة من العالم والله يتأمل نفسه من خلال الانسان . ومن ثم فان الالوهية والانسانية هما مظهران متميزان وجدا التعبير عند كل مستوى للخلق ، فالالوهية هى بمثابة الجانب الخفى من الحقيقة والانسانية هى بمثابة الجانب العلنى أو الصـــــريح أو المكشوف من الحقيقة .

ولقد قام مشايخ الصوفية بالهند بالتوسع فى نظرية محيى الدين بن عربى حيث ذهبوا فى تقديراتهم الى انه مادام الله هو

(*) المتصل : كمية أو سلسلة متصلة .

الحقيقة الوحيدة فان كافة الأشياء الفيزيقية المادية ليست سوى « مظاهر » (وهذه فكرة تشبه كثيرا المفهوم الذهنى الهندوسى عن العالم الذى هو مجرد وهم أو سراب أو Maya يمكن أن تلقى التبجيل والاحترام من حيث هى تجليات للارادة الالهية . وانطلاقا من هذا فان تقبل وحدة الوجود الهندوسية كان بمثابة خطوة واحدة قصيرة فقط . وعلى ذلك النحو قام مشايخ الصوفية بتشييد كوبرى ثيولوجى دينى أتاح الفرصة أمام الهندوس الساخطين المتمردين من العبور عليه الى الاسلام وتوليف بعض الممارسات السابقة على الاسلام مع الممارسات الاسلامية .

وعملية التوليف بين الاسلام والهندوسية قد وصلت الى أوجها وذروتها أثناء عهد جلال الدين محمد الأكبر (١٥٥٦ — ١٦٠٥) وهو حفيد زاهر الدين محمد بابار Babar الذى قام بتأسيس الأسرة الحاكمة المغولية فى الهند فى عام ١٥٢٦ . وقد قدم جلال الدين محمد الأكبر الرعاية والتشجيع لمشايخ الصوفية وكان وثيق الصلة مع الطريقة الشستية Chisti الصوفية التى كانت مشهورة باتساع أفقها ووجهة نظرها العالمية . وقد بذل محاولات للتغلب على الفوارق بين الهندوسية والاسلام وذلك من خلال تطبيق المساواة التامة على رعاياه من الهندوس والمسلمين وهو أمر كان يتعارض مع الشريعة الاسلامية بل لم يسبق أن قام حكام مسلمون من قبل بتطبيق مثل هذه المساواة التامة . وتغلب جلال الدين محمد الأكبر على هذه المشكلة بأن قال عن نفسه أنه هو رئيس « المجتهدين » فى الاسلام أو أعظم ممارس « للاجتهاد » فى الاسلام . وبذلك يكون هو الذى ألغى ذلك الحظر الذى فرضه العلماء الدينيون على الاجتهاد منذ القرن العاشر . وبعدئذ قام بتغيير تلك الفقرات من الشريعة التى وردت بها تفرقة ضد الرعايا من غير المسلمين . ثم قام بالغاء ضريبة الرؤوس وأعلن أن النساء

الهندوسيات ليس فى حاجة الى اعتناق الدين الاسلامى عندما يتزوجن من المسلمين . وكانت أعماله وتصرفاته هذه بمثابة انحراف كبير عن الخط الاسلامى وتسبب ذلك فى الكثير من الذعر بين العلماء الدينيين الراشدين(*) .

وفى عام ١٥٨١ تمادى الى أقصى حد عندما أعلن عقيدة دينية خاصة به تسمى « دين الله » . وهى عقيدة ترتكز على التوليف بين الاسلام وغيره من الأديان الأخرى . وقد أسس عقيدته الجديدة هذه على : العقل والزهد والتقشف . وامتدحت عقيدته هذه الخصال والصفات التى تتميز بها الصوفية مثل : الاخلاص والولاء والتقوى والورع والشفقة والتحرق شوقا الى الله ، واستهجنت التقليد والتطبيق الأعمى للشريعة الاسلامية التى هى بمثابة الصفة المميزة للمؤسسة الاسلامية فى الهند وفى أى مكان آخر فى العالم . وقد حصل « دين الله » على التأييد الكامل من التاج . الا أنه لم يلق تأييدا شعبيا كبيرا . حيث لم يعتنق « دين الله » سوى رجال حاشيته والمتوددين اليه الذين كانوا يعاملون « الامبراطور جلال الدين محمد الأكبر » على أنه المرشد الدينى الخاص بهم .

ونظرت الدوائر الاسلامية الرشيدة الى « دين الله » على أنه هرطقة وبدعة وخروج عن الخط الاسلامى القويم . لأنه ينطوى على تحدى الدعوى القائلة بأن الاسلام هو آخر دين وآخر عقيدة حقيقية صادقة يمنحها الله البشرية جمعاء . وكان من المحتم أن ينجم عن ذلك ردود فعل أصولية . وحدثت ردود الفعل تلك بالفعل .

(*) الراشدين : تم استخدام كلمة راشد لكى تقابل كلمة Orthodox بالللغة الانجليزية . المترجم

ولكن من المثير حقا أن يقود ردود الفعل شيخ نقشبندى يسمى الخواجة أبو المؤيد راضى الدين باقى بالله (١٥٦٣ ــ ١٦٠٣) وقد حصل على مؤيدين لطريقته الصوفية من بين أنصار جلال الدين محمد الأكبر . وعلى كل حـــال فان الهجـــوم العلنى على تخفيف الاسلام(*) ودخول ممارسات سرية فى الطرق الصوفية كان ينبغى أن يتأجل الى حين انهيار حكم جلال الدين الأكبر ومجىء حكم نور الدين سليم جهنجير Jahangir (١٦٠٥ ــ ١٦٢٧) . وقد شن الهجوم الشيخ أحمد سيرهندى Sirhindi وهو تلميذ لباقى الله . فألقى باللوم على نظرية « وحدة الوجود » التى نادى بها محيى الدين بن عربى لأنها هى التى فتحت الباب أمام تدفقات الهندوسية الى داخل الدين الاسلامى مع تفكيك عقيدة التوحيد الاسلامية فى داخل البنيان التعددى للمجتمع الهندوسى . وكرر نفس موقف النقشبندية : ان السبيل الوحيد لادراك الله سبحانه وتعالى يكون من خلال الشريعة وأنه ينبغى أن تتوافق التجارب الصوفية للانسان المسلم المؤمن مع الشريعة ومع قوالب الشريعة الخارجية حتى يمكن تجنب الانزلاق الى الهرطقة والبدع والضياع فى متاهات غرابات الأطوار الفردية (وهو نفس الكلام الذى سبق أن قاله من قبل أبو حامد الغزالى) . وقاوم نظرية « وحدة الوجود » لابن عربى من خلال النظرية التى نادى بها وهى : « وحدة الشهود » ونظرية وحدة الشــــــهود تفرق تماما بين الله والأمور التى خلقها الله وترفض تماما الرأى القائل بوجود كميات مسلسلة متصلة .. وفى حين قال محيى الدين بن عربى بأن الحقيقة هى المرآة التى يتأمل من خلالها الله فى ذاته نجد أن السيرهندى قد برهن على أن الحقيقة هى انعكاس عن الله الا أنها فى نفس الوقت منفصلة تماما

(*) بمعنى التسامح بعض الشىء ازاء المبادىء الاسلامية القوية والتخفيف من حدتهـــا . المترجم

عن الذات الالهية . ويقصـــــــارى القول أن السيرهندى يرى أن الشريعة لها اليد العليا سواء فى الممارسات والتجارب الصوفية الجوانية للمؤمن أو فى ممارساته وتجاربه الخارجية . وهذا الرأى قد منع تواجد أى فرصة للمصالحة بين الاسلام والهندوسية . وقد أطلق عليه اسم : مجدد الألف الثانية أى المصلح الاسلامى فى خلال الألف الثانية من تاريخ الاسلام .

وهكذا نرى أن سيرهندى قد كبح جماح الاتجاهات التوليفية فى المجتمع الاسلامى الهندى ووضع طابعا قويما راشـــــــدا على الاسلام فى الهند وبذر بذور الطائفية الاسلامية التى نجم عنها عقب مرور ٣٥٠ عاما خلق دولة الباكستان لكى تكون دولة خاصة بالمسلمين فى شبه القارة الهندية .

ووصل سيرهندى الى ذروة نفوذه وسلطانه — وكذلك الطريقة النقشبندية وصــــــلت الى ذروتها — اثناء فترة حكم محيى الدين الأورانجزيب Aurangzeb (١٦٥٨ — ١٧٠٧) وهو حفيد جهنجير Jahangir . اذ ســـــــار الأورانجزيب على هدى ايديولوجية سيرهندى وانهمك فى تطهير المجتمع الاسلامى من خلال تطبيق الشريعة بكل دقة وحزم . واتبع فى همة ونشاط القوانين القرآنية الخاصة بدحض الشرور والاستمتاع بالفضيلة . بل قام بتعيين مراقبين على الأخلاق بهدف منع تعاطى الكحوليات والخمور والحيلولة دون حدوث الرذائل الجنسية . بل فرض حظرا على الدعارة والبغاء وزراعة الحشيش علاوة على عدم تشـــــجيعه للموسيقى . وأصدر أوامر صارمة بمنع تشييد أسقف فوق قبور الأولياء ومنع استخدام مثل هذه الأضرحة كأماكن الحج حيث كانت تلك عادة شائعة بين المســـــلمين الهنود . كما كان يقدم وجبات طعام مجانية فى المطابخ والمطاعم ويقدم المبيت المجانى فى الفنادق

الصغيرة . كما كان يخصص موارد للرزق للمسـلمين الفقراء والمعوزين . وكذلك ألغى الضرائب التى لم يرد بشأنها نص فى الشريعة الاسلامية . وأعاد فرض ضريبة الرؤوس على الهندوس وبذلك قضى على حصولهم على المساواة التامة التى سبق أن منحت لهم منذ أيام جلال الدين محمد الأكبر . واستبدل التقويم الشمسى الهندوسى بالتقويم القمرى الاسلامى .

وهذه السياسات التى اتبعها الأورانجزب قد ساعدت على تنقية الاسلام فى الهند من البدع والهرطقة والخرافات التى كانت قد زحفت اليه منذ أوائل القرن الثالث عشر . كما أنها قد عملت على تمكين الدولة الاسلامية من أحكام سيطرتها مرة أخرى على المواطنين غير المسلمين . الا أن الدولة الاسلامية قد خسرت من وراء تلك الاجراءات الكثير من مشاعر الود التى كانت قد نجمت عن سياسات جلال الدين محمد الأكبر وانتشرت بين الهندوس الذين كانوا يشكلون ¾ مجموع السكان . وكانت النتيجة هى ظهور سلسلة من التمردات والثورات التى قام بها الهندوس والسيخ Sikhs (والسيخ هم أتباع عقيدة توحيدية قد نشأت من حيث هى حركة اصلاح هندوسية فى أواخر القرن الخامس عشر) . وهى ثورات أضعفت امبراطورية المغول وأظهرت للمسلمين — عقب وفاة الأورانجزب فى عام ١٧٠٧ — أنهم بمثابة أقلية بسيطة وغير محصنة فى مواجهة الأعداء .

وفى مواجهته للتدهور المتوقع لامبراطورية المغول نجد أن شاه ولى الله الحاكم على مدينة دلهى (١٧٠٣ — ١٧٦٤) وهو شيخ نقشبندى بارز تلقى تعليمه فى مكة والمدينة المنورة قد أشار الى أن الاجراءات التى اتخذها أورانجزب ليست كافية . وذهب فى تقديراته الى أنه مادام الاسـلام قد لحق به الضعف بسبب

ادخال عادات ومعتقدات هندوســـــية عليه فان الحل الوحيد هو التركيز على المزيد من الاصلاح الدينى الاسلامى . وكان يعتقد أن جوهر الاســـــلام له طابع الخلود والأبدية ولكن ممارســـاته التفصيلية ليست لها ذلك الطابع . ومن ثم تظهر الحاجة الى اللجوء الى الاجتهاد باســـتمرار وهو موقف يتعارض تماما مع المؤســـسة الدينية . واقترح عمل مراجعة وتمحيص دقيق للمذاهب الأربعـــة السنية وفقا لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وهذا الاقتراح فى حد ذاته هو موقف يتخذ طابع الأصولية . ولكى يساعد فى انجاز هذه العملية ولكى يتيح الفرصة أمام المســـلمين المتعلمين العاديين (والذين يعتمدون تماما على الفقهاء وأئمة المساجد المحليين فى توجيههم وارشادهم) للدخول فى اتصالات مباشرة مع القرآن الكريم فانه قام بترجمة القرآن الى اللغة الفارسية التى هى لغة المثقفين المسلمين . وكانت هذه الخطوة هى الأولى من نوعها حيث لم يسبق لأحد أن قام بترجمة القرآن الكريم حتى ذلك الوقت . والأهم من ذلك كله أنه أشار الى أنه سيكون هناك حاجة مستمرة الى اللجوء الى الاجتهاد لمواجهة المشكلات الجديدة التى ستظهر فى الأفق مع توسع الأمة الاسلامية وازدهارها وتقدمها . وربما كان هو أول مفكر اسلامى يتحدث صراحة عن ضرورة أن يتفاعل الفكر الاسلامى مع الظروف الاجتماعية المتغيرة .

الا أن امبراطورية المغول استمرت فى التدهور والاضمحلال حيث تعرضت للهجمات التى شنها ملوك الهندوس والسيخ علاوة على الهجمات التى قامت بها قوات شركة الهند الشرقية البريطانية. وبذلك نجد أن حركة الاصلاح الدينى التى كان ينادى بها ولى الله قد تحولت الى كفاح مسلح تحت قيادة أحمد باريلفى Ahmad Barelvi (توفى عام ١٨٣١) وهو تلميذ لعبد العزيز الذى هو ابن ولى الله . وقد توسع فى قاعدة حركة الاصلاح الدينى من

خلال جذب معاونين ومؤيدين ينتمون للطرق الصوفية الثلاث الكبرى — وهى النقشبندية والقادرية والشستية — وشــدهم الى داخل اطار الشريعة القويمة الراشدة المجددة . وهكذا نشأت الطريقة المحمدية . وهى طريقة تربط الأسلوب والنظام الصوفى بالشريعة الراشدة . ونظرا لأن حكام السيخ قد دأبوا على اضطهاد المسلمين فقد أعلن باريلفى الجهاد ضدهم فى عام ١٨٢٦ . وبعدئذ قاد أتباعه الى منطقة الحدود الهندية الأفغانية بهدف تأسيس دولة اسلامية على « أراض محررة » محاكيا بذلك هجرة محمد صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة المنورة .

وقد صادف نجاحا فى مغامرته هذه فى بادىء الأمر . ولكنه عندما حاول فرض الضريبة التى تنص عليها الشريعة على رجال القبائل الوثنية فى تلك المنطقة فانهم تخلوا عن الوقوف الى جانبه . ثم اشتبك جيش السيخ فى معارك مع قوات باريلفى وألحق بها الهزيمة فى عام ١٨٣١ . وبعدئذ تم تنفيذ حكم الاعدام فى باريلفى . الا أن الطريقة المحمدية ظلت مستمرة من حيث هى حركة حربية عســكرية ولعبت دورا رئيســيا فى التمرد الهندى الكبير ضــد البريطانيين فى عام ١٨٥٧ . وكان ذلك مثالا لحركة اصلاحية فى الاسلام تضطلع بمهمتين فى آن واحد : ألا وهما محاربة الفساد الذى لحق بالممارسات الاسلامية بين المسلمين بالاضافة الى محاربة القوات المسيحية الغربية .

ولم تكن دائرة دار الاسلام هى فقط التى شهدت ردة عن الدين والنواحى الأخلاقية والنواحى المتعلقة بالكتب المقدسة . اذ تسرب ذلك أيضا الى قلب الأراضى الاسلامية الرئيسية فى شبه الجزيرة العربية . وأولئك الذين حاربوا هذا الاتجاه فى حماسة وانفعال شديدين هم أتباع أحمد بن حنبل مؤسس مدرسة التشريع

الحنبلي . وكان الحنابلة يرجعون مباشرة الى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من أجل اصدار قراراتهم التشريعية مع الوقوف بمعزل عن المذاهب التشريعية الثلاثة الأخرى الذين استخرجوا من القرآن والسنة فقها تشريعيا شاملا . وفى أواخر القرن الرابع عشر ظهر تقى الدين بن تيمية كمصلح حنبلى بارز . ورغم أنه بدأ حياته كعضو فى الطريقة القادرية الصوفية فانه استهجن بشدة فيما بعد الممارسات المتعلقة بعبادة المشايخ المدفونين فى الأضرحة. وعارض وجهة نظر العلماء الدينيين آنئذ القائلة : بأن أبواب الاجتهاد فى الدين قد أغلقت . وفى الفقه التشريعى وضع القرآن والسنة فى مرتبة تعلو كثيرا على الاجماع . وركز على ضرورة الولاء الشديد للسلف الصالح على نحو يفوق الولاء لأى مذهب تشريعى .. والمفهوم الذهنى عن السلف الصالح هو الذى أصبح فيما بعد الأساس الذى تقوم عليه الحركة الأصولية بين أهل السنة أو السنيين . وقد لقيت آراؤه استجابة كبيرة وفعالة بين السلاطين المماليك بالقاهرة التى كانت مقرا للخلافة فى الفترة من عام ١٢٥٠ الى عام ١٥١٧ .

وتغير الموقف عندما أصبح الأتراك العثمانيون هم القوة الرئيسية فى دار الاسلام : حيث كان الأتراك العثمانيون من أتباع المذهب الحنفى . وقد تأسست الامبراطورية العثمانية على أيدى عثمان الأول (١٢٥٩ — ١٣٢٦) وهو قائد الأتراك /العثمانيين . وعندما استولى محمد الثانى على القسطنطينية/استانبول فى عام ١٤٥٣ فانه أصبح وريثا للامبراطورية البيزنطية . وفى فترة حكم سليم الأول (١٥١٢ — ١٥٢٠) اكتسبت الامبراطورية العثمانية الصدارة الاسلامية من خلال اغتصاب الخلافة من المماليك . واستمر التوسع فى فترة فى عهد خلفه : سليمان العظيم Magnicifent Suleiman (١٥٢٠ — ١٥٦٦) عندما شملت الامبراطورية

كلا من : الجزائر وليبيا ومصــــــر ومعظم أجزاء اليونان والمجر والكثير من أراضى بلاد الفرس وشبه الجزيرة العربية وسوريا . أما ترانسلفانيا وولاشيا Wallachia ومولدافيا فكانت امارات تابعة للامبراطورية العثمانية وتقوم بدفع الجزية . واستمر النمو والتماسك حتى عام ١٦٨٣ عندما وصل العثمانيون الى فينا وان كانوا قد فشلوا فى الاستيلاء عليها . وبحلول ذلك الوقت كانت الامبراطورية العثمانية قد بســـــطت جناحيها على أفريقيا وأوربا وآسيا وأصبح لديها رعايا من المسلمين والمسيحيين واليهود . وكان الامبراطور الاسلامى هو حامى حمى المدن المقدسة الاسلامية مثل مكة والمدينة المنورة اللتين كانتا أيضا بمثابة مركزين مزدهرين للدراسات الاسلامية .

فعلى سبيل المثال نجد أن مكة والمدينة المنورة هما المدينتان اللتان اكتسب فيهما شاه ولى الله Waliullah Shah معلوماته العميقة عن الاسلام . وكان من بين المعاصــــرين له : محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ــ ١٧٨٧) وهو من أهالى نجد التى تعتبر معقلا قويا للمذهب الحنبلى . وقد ولد محمد بن عبد الوهاب فى بلدة العوينة Uyaina وكانت أســـرته شـــديدة التدين . وقد تأثر محمد بن عبد الوهاب كثيرا بكل من : ابن حنبل وابن تيمية . وبعد أن تلقى تعليمه فى مكة والمدينة المنورة عاد الى بلدته الصـــغيرة المتواجدة فى منطقة نجد . وقد شعر بالانزعاج الشديد بسبب انتشار الخرافات والخداع والزنا والتعصـــــب القبلى فى داخل المجتمع الخاص به الذى أصبح مهملا فى تأدية الصلاة والطقوس والممارسات الاسلامية . فنادى بنبذ وترك كافة خرافات العصور الوسطى التى تجمعت وتراكمت حول التعاليم الاسلامية الأصلية . كما نادى بممارسة الاجتهاد . وكان يعارض تصنيف الشـــــريعة واستخراج مجموعة كاملة من القوانين تســـتند اليها . وقام هو

وأتباعه بتحطيم الأشجار المقدسة وهدم أضرحة الأولياء . وقد أدى هذا الى انزعاج المجتمع المحلى الى درجة كبيرة حتى أن الناس قاموا بطرد محمد بن عبد الوهاب وأتباعه فى عام ١٧٤٤ وهو أمر يذكرنا بأهالى مكة فى الأيام الأولى من الاسلام . فلجأوا الى امارة درية Diriya حيث قام محمد بن عبد الوهاب بعقد تحالف مع الحاكم محمد بن سعود . وقام اتباع محمد بن عبد الوهاب والذين يعرفون باسم الوهابيين بتسليح أنفسهم وشنوا حملة ضد الوثنية الدينية المتمثلة فى اشراك آخرين فى صفة القدسية التى ينبغى ان تكون لله وحده . كما حاربوا الظلم والطغيان والفساد والزنا . وكان الوهابيون ينظرون الى أنفسهم على أنهم المؤمنون الحقيقيون الصادقون ومن ثم فانهم أعلنوا الجهاد ضد الناس الآخرين الذين وصفوهم بأنهم مرتدون ، وهى ممارسة لها سابقات عديدة فى التاريخ الاسلامى . ولكن الأمر الذى لم يكن له سابقة من قبل فى التاريخ الاسلامى هو ذلك التزمت الشديد الذى رغبوا فى فرضه على المجتمع الاسلامى . اذ حرموا الموسيقى والرقص بل حرموا الشعر الذى كان دائما جزءا لا يتجزأ من حياة العرب . وقد ادعوا أنهم يستندون الى الأحاديث النبوية الشريفة فى تحريمهم لهذه الأمور . بل حرموا استخدام الحرير والذهب والزينة والمجوهرات وكان يرغب فى العودة بالأمور الى ما كانت عليه فى صدر الاسلام . ومع ذلك فقد كانت هناك أمور مهمة مختلفة عما كان عليه الحال فى صدر الاسلام . ففى حين أن محمد عليه الصلاة والسلام قد استخدم السيف بنفسه نجد أن محمد بن عبد الوهاب قد جعل حليفه وصديقه الرئيسى الذى يسمى محمد بن سعود هو الذى يخوض المعارك ويحكم جماعة الموحدين المؤمنين بوحدانية الله وسمى محمد بن سعود نفسه باسم : الامام وكان كل امام يختار الخليفة الذى يجىء من بعده مع المنحدرين من سلالة عبد الوهاب الذين يعرفون باسم أهل الشيخ . ومثلما حدث فى القرن

الســـــابع فان الأحداث تكررت مرة أخـــرى فى فترة محمد بن عبد الوهاب : اذ قام الأعضاء المتحمسون لفكرة اعادة تجـــديد الاسلام بتوسيع نفوذهم وســـلطانهم بسرعة كبيرة .

ولكن هنا أيضا كانت توجد فوارق جوهرية مثال ذلك أنه عندما قام ســـــعود بن عبد العزيز ـــ وهو حفيد مؤسس المملكة العربية السعودية ـــ فى عام ١٨٠٢ يغزو كربلاء وتحطيم ضريح الامام الحسين وسرقة الحلى والأشياء النفيسة الموجودة بالضريح فانه أصدر أوامره بقتل جميع سكان كربلاء نظرا لانهم ـــ من وجهة نظره ـــ مرتدون عن الاسلام .

وفى خلال السنة التالية استولى الوهابيون على مكة المكرمة وقاموا بتحطيم جميع القباب الموجودة فوق أضرحة الشخصيات القيادية لصدر الاسلام . وفى عام ١٨٠٥ قام أهالى المدينة المنورة ـــ بعد أن وجدوا أنفسهم محاصرين على أيدى الوهابيين ـــ بتحطيم القباب المتواجدة فوق جميع الأضرحة . وكل هذه الأحداث تشير الى انتصار القوى الأصولية وبزوغ شبه جزيرة عربية موحدة بما فى ذلك مكة والمدينة المنورة تحت حكم الامام الخاص بها .

الا أن المسلمين فى أوائل القرن التاسع عشر كانوا منتمين الى طوائف عديدة . وذلك بعكس ما كان عليه الحال فى عهد النبى محمد حيث كان المجتمع الاسلامى موحدا تحت قيادته . ولكن لأن الوهابيين الذين يعتبرون طائفة متطرفة كانوا مسيطرين على مكة والمدينة المنورة فقد أدى ذلك الى اثارة مشاعر القلق بين الحجاج الذين كانوا يدينون بالولاء لعدد كبير من العقائد الرشيدة والطرق الصوفية المنتشرة فى جميع أرجاء العالم الاسلامى . هذا بالاضافة

الى أن فقدان العثمانيين لمكة والمدينة المنورة كان من شأنه تهديد الأمن والرخاء فى كل من دمشـــق وبغداد اللتين كانتا مرتبطتين ارتباطا وثيقا بالتجارة القائمة على موســـم الحج . لذلك لم يكن بمقدور السلطان العثمانى الوقوف مكتوف الأيدى وترك الأعمال الوهابية بدون اى عقاب . اذ قام السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) بايفاد محمد على باشا الوالى على مصر فى عام ١٨١٢ فى حملة عسكرية لتاديب الوهابيين والحاق الهزيمة بهم . فنجح محمد على باشا فى مهمته . وبحلول عام ١٨١٩ كان قد تمكن من سحق الوهابيين وتحطيم مدينة الدرعية Diriya والقبض على الحاكم عبد الله بن سعود ونقله الى استانبول حيث تم تنفيذ حكم الأعدام فيه هناك وهكذا تمكن محمد على باشا من القضاء على حركة أصولية قوية .

أن منطق المعتقدات الوهابية وموقعهم الجغـــرافى قد جعل الوهابيين مضطرين للزحف على مكة والمدينة المنورة وفرض وجهة نظرهم عن الاسلام على أمل أن يتمكنوا من كسب انصار جدد الى معســـــكرهم . ولكن نظرا لأن هاتين المدينتـــين كانتا جزءا من الامبراطورية العثمانية فقد أصبح الصدام بين الامبراطورية العثمانية والوهابيين أمرا لا مفر منه . وربما لو كان الوهابيون قد بثوا حركات وهابية مماثلة فى أماكن مهمة بالامبراطورية العثمانية مثل مصر أو سوريا أو العراق لكانوا قد تمكنوا من تحريك قوات هائلة بحيث يتعذر على العثمانيين التغلب عليها ، الا أن الوهابيين لم يفعلوا ذلك .

ومن المؤكد أن السلطان محمود الثانى كان مثقلا بالمشـــاكل التى يتعذر السيطرة عليها وايجاد حلول لها . كما كان عاجزا عن اضفاء الطابع الحديث على أجهزته الادارية والحربية . كما كان

واقعا فى مصيدة تقلب موازين القوى فى داخل الطبقة الحاكمة بالامبراطورية . ناهيك عن المشاكل التى تصاحب تسيير دفة الشئون الادارية فى نطاق امبراطورية شاسعة تضم سكانا من غير المسلمين . وكانت المسائل التى تواجه هذه الامبراطورية معقدة للغاية بحيث لا يمكن للحلول المبسطة الواردة فى الأصولية الوهابية أن تاتى بالنتيجة المرجوة .

وعندما وقع قلب العالم الاسلامى تحت نفوذ وسيطرة الغرب تغيرت طبيعة التهديدات والمخاطر التى تواجه الاسلام . اذ بدأ يظهر الفساد وعدم الالتزام الدقيق بالقوانين الاسلامية بسبب الممارسات غير الاسلامية التى يقوم بها بعض الأهالى المحليين وايضا بسبب — وهذا هو الأهم — تغلغل الأفكار والممارسات الغربية والنماذج السياسية الغربية الى الكيان السياسى للاسلام .

❊ ❊ ❊

الفصـــــل الثالث

الاسلام فى الأزمنة الحديثة

لقد دخل الأسلام فى العصر الحديث تحت قيادة الأتراك العثمانيين مع تواجد استانبول كعاصمة للخلافة . ولذلك فان من المهم ان نتطرق الى التطورات الكبرى التى حدثت فى داخل نطاق الامبراطورية العثمانية علاوة على دراسة علاقاتها مع الدول الأوربية .

بعد أن فشل العثمانيون فى الاستيلاء على فينا فى عام ١٦٨٢ فانهم وجدوا أنفسهم فى موقف دفاعى تجاه امبراطورية هبسبورج وامبراطورية القيصر . وقد نصت معاهدة كوشوك كاينارجى Kuchuk Kainarji لعام ١٧٧٤ على السماح للقيصر الروسى بمساعدة التتار المسلمين الذين كانوا منتشرين فى المناطق الواقعة ما بين الحدود البولندية حتى البحر الكاريبى بما فى ذلك كريميا Crimea لكى يشيدوا دولة شبه مستقلة تحت وصايته ونفوذه . وبعد مرور عشر سنوات قام القيصر بضم هذه الدولة الى امبراطوريته . وفى عام ١٧٩١ قام امبراطور هبسبورج بضم بلجراد بصفة رسمية . وكان من الواضح أن المؤسسة

العسكرية العثمانية أصبحت غير قادرة على صد ومواجهة المنافسين الأوربيين لها .

وقد أدرك سليم الثانى (١٧٨٩ — ١٨٠٧) أنه بحاجة الى تجديد جيشه واضفاء الطابع الحديث عليه . فكون فرقة جديدة للحرس الوطنى كما شيد مدارس عسكرية مزودة بأساتذة فرنسيين ومراجع علمية تتعلق بالتدريبات العسكرية . فأدى ذلك الى انزعاج الجنود والضباط المحترفين والبالغ عددهم ٥٠ الفا والذين يسمون الجنود الانكشارية أو عساكر حرس السلطان العثمانى الذين هم بمثابة القوة المسلحة التقليدية للخلافة العثمانية منذ سنة ١٢٥٩ . فتحالف الانكشارية مع العلماء الدينيين واشتركوا معا فى اثارة المشاعر والعواطف الجماهيرية ضد اضفاء الطابع العسكرى الحديث وتمكنوا من خلع سليم الثانى وعزله . ولم يكن علية القوم من البيروقراطيين الذين يشكلون القوة الثالثة المركزية والذين تتزايد قوتهم ونفوذهم بشكل مطرد أقوياء بالقدر الذى يسمح لهم بتغيير مجرى الأحداث وجاء بعد ذلك الخليفة محمود الثانى (١٨٠٨ — ١٨٣٩) الذى تخلص من الاصلاح العسكرى .

وكان احتلال نابليون بونابرت لمصر فى عام ١٧٩٨ — وكانت مصر آنئذ جزءا من الأراضى الاسلامية الخاصة بالامبراطورية العثمانية — بمثابة ضربة قوية لهيبة ونفوذ سليم الثالث . وبعدئذ قامت فرنسا فى عام ١٨٣٠ باحتلال جزء آخر من الأراضى الاسلامية التابعة للامبراطورية العثمانية : ألا وهى الجزائر . وكان معنى ذلك أن أوربا المسيحية من خلال احراز تقدم مذهل فى التكنولوجيا والشئون الادارية بدأت يحرز تقدما كبيرا فى السنوات الأخيرة على حساب العثمانيين . وذلك التفوق المتصاعد لأوربا قد نجم عن النمو المتزايد للنظام الرأسمالى الذى يرجع اساسا الى اكتشاف

أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية كما نجم عن الحقيقة التى مفادها ان الامبراطورية العثمانية كانت آخذة فى الانحدار نحو الاضمحلال .

وكان هنــاك وعى متزايد فى دوائر المثقفين بالامبراطورية العثمانية الامبراطورية تعانى من التدهور السياسى والاجتماعى . ويمكن الحكم على مدى الركود فى الاسلام من الناحية الرسمية من خلال الفتوى التى أصدرها مفتى الأزهر الشريف بالقاهرة فى أوائل القرن التاسع عشر . « أن المذاهب الأربعة الرشيدة هى بمثابة أفضل النتائج وأفضل تلخيص لكافة المذاهب الأخرى لأنها تعتمد على رجال عديدين قد كرسوا حياتهم من أجل البحث عن الحقائق وأصبحت لديهم معلومات شـــاسعة وعميقة . والابتعاد عن هذه المذاهب الأربعة يوضح الرغبة فى العيش فى أخطاء » . وبناء على هذه الفتوى أصبح لزاما على المرء أن يتبع مذهبا من هذه المذاهب الأربعة الرشيدة . وقد رفض المفتى فى صراحة تامة اللجوء الى الاجتهاد فى تفسير النصوص الدينية المقدسة . وقال فى هذا الشأن « لا أحد ينكر أن هيبة ووقار الاجتهاد قد اختفت منذ فترة طويلة ولا يوجد رجل فى الوقت الحالى لديه هذه الدرجة من العلم الدينى العميق التى تمكنه من اللجوء الى الاجتهاد فى تفســـير النصوص المقدسة . وأى شخص يعتقد فى نفسه أنه مجتهد يكون واقعا تحت تأثير الهلوسات الخاصة به وتحت تأثير وســاوس الشيطان » .

وقد اضطر المفكرون الذين لهم رأى مســتقل الى الانكماش والتراجع أمام العلماء الدينيين الذين لهم آراء رسمية صـــارمة والذين يذهبون الى أن معارضة الحاكم من شأنه أن يؤدى الى الفوضى وأنه ينبغى تجنب حدوث الفوضى مهما كلف الأمر .

وفى أوائل القرن التاسع عشر ادرك المثقفون ذلك التدهور

الواضح بالامبراطورية العثمانية وراحوا يفكرون فى الأسباب التى أدت الى تزايد قوة الدول الأوربية المسيحية . وذهبوا فى تقديراتهم الى انه اما أن الأوربيين قد توصلوا الى منهج أفضل من الاسلام واما أن المجتمع الاسلامى قد فشل فى السير على نهج الاسلام الحقيقى . ونظرا لأن أحدا منهم لم يكن على استعداد لأن يسلم جدلا بأن الاسلام فى مستوى أقل من أى نظام اجتماعى آخر فان النتيجة الحتمية التى توصلوا اليها هى أن المسلمين قد انحرفوا عن الطريق القويم للدين الاسلامى . وأصبح المسرح مهيأ لادخال الاصلاح الدينى الاسلامى . الا أن الاصلاح فى هذه المرة لم يتناول المجادلات الدينية أو الروحية الا بقدر يسير وانصب أساسا على المجادلات المتعلقة بالنفوذ السياسى والسياسات . وكانت جميع الحلول المقدمة تركز على توجيه النصح والارشاد لجميع المسلمين فى جميع أرجاء العالم لكى يتحدوا معا ضد الاعتداءات والانتهاكات الأوربية ووضع خطة لدراسة مصادر القوة الأوربية بهدف العمل على استنزافها والقضاء عليها .

وفى مجال تدعيم وتقوية القوة السكرية العثمانية نجد أن محمود الثانى قد انحاز مع الطبقة الارستقراطية البيروقراطية فى الميل الى اضفاء الطابع العصرى الحديث أكثر من انحيازه وميله الى التحالف الذى يضم الانكشارية والعلماء الدينيين . وواجه الانكشارية نكسة حادة فى عام ١٨٢١ عندما فشلوا فى كبح جماح التمرد الذى قام به الرعايا اليونانيون بالامبراطورية . حيث أدرك السلطان عندئذ أن الامبراطورية الاسلامية لم يعد بمقدورها احكام قبضتها على الرعايا من غير المسلمين التابعين لها . وقد تدهور موقف الانكشارية للغاية حتى أنه عندما قام محمود الثانى باصدار أوامره بحل الانكشارية وتسريحهم فى يونيو ١٨٢٦ فان العلماء الدينيين لم يظهروا أدنى احتجاج على ذلك . وكان ذلك بمثابة

انتصار كبير لصالح الطبقة الارستقراطية البيروقراطية ولصـــانع استيراتيجبتهم التى ترمى الى التعلم من الأوربيين بالخارج مع ادخال اصلاحات عسكرية وادارية فى الداخل . وبذلك بدأت عملية « التنظيمات » فصدر قرار بالغاء الاقطاع الزراعى واعادة تشكيل المناصـــب الدينية فى عام ١٨٢٧ . كما تم فتح المدارس فى عام ١٨٣٨ لتدريب الموظفين المدنيين والأطباء والضباط العسكريين . كما أمر محمود الثانى بأن يرتدى الناس الطربوش بدلا من غطاء الرأس الذى يرتديه القطاعات المختلفة من المجتمع العثمانى . وكان ذلك يعنى المساواة الرمزية بين جميع المواطنين العثمانيين سواء كانوا من المسلمين أو من غير المســــلمين . وهو اجراء قد لقى استياء كبيرا من جماهير المسلمين . الا أن كل هذه الاجراءات قد فشلت فى ترضية الدول الأوربية . فبعد أن قامت روســـيا بضم بسياربيا Bassarbia فى عام ١٨١٢ نجد أنها استولت على الممتلكات العثمانية فى منطقة القوقاز فى عام ١٨٢٩ .

وتم التوسع فى « التنظيمات » فى عهد عبد المجيد Abdul Majid (١٨٣٩ — ١٨٦١) . اذ أرسى نظرية المساواة بين جميع المواطنين العثمانيين بغض النظر عن الديانات الخاصة بهم . كما اصدر قرارا ينص على حماية أرواح وممتلكات جميع السكان فى كافة أرجاء الامبراطورية . وقام فى عام ١٨٤٧ بانشـاء مدارس عسكرية . كما وضع مسودة تمهيدية لمجموعة من القوانين التجارية والجنائية ترتكز على مجموعة قوانين نابليون فى عام ١٨٥٩ . وكان ذلك يعنى أن تقتصر الشريعة الاسلامية على المســــائل المتعلقة بالأحوال الشخصية . كما أنه تم تخفيض سيطرة العلماء الدينيين على التعليم عندما اعلنت وزارة التعليم التى شكلت فى عام ١٨٥٧ عن اقامة مرحلة من التعليم العمومى عقب مرور ثلاث سنوات . ومع تزايد اقبال الناس على ارتداء الزى الأوربى بالمناطق الحضرية

أصبح العلماء الدينيون مختلفين فى الزى عن البيروقراطيين والضباط العسكريين . وتدريجا أصبح ينظر الى العلماء الدينيين على أنهم أناس محافظون فى عناد ومعارضون لكافة أنواع التجديد والابتكار . ومن بين الابتكارات التى عارضوها معارضتهم لماكينة الطباعة (ولكن اعتراضهم لم يلق أى تأييد) كذلك أخذ على العلماء اهتمامهم فقط بالشئون العائلية وليس بالحياة الكاملة للمؤمن .

لقد رحبت الدول الأوربية بـ « التظيمات » الا أن ذلك لم يمنعهم من الهجوم على الامبراطورية العثمانية . وكانت روسيا القيصرية هى أكثر الدول من الناحية العدوانية . اذ كانت مصممة على القيام بدور الحامى أو النصير العسكرى لـ ١٢ مليون مسيحى أورثوذكسى شرقى يعيشون تحت حكم العثمانيين . كما كانت تقوم فى نفس الوقت بتوسيع حدودها فى منطقة أواسط آسيا التى يسكنها المسلمون .

وقام قادة المسلمين فى أواسط آسيا بمناشدة السلطان عبد العزيز (١٨٦١ — ١٨٧٦) للقيام بدور حامى حمى المسلمين فى روسيا القيصرية . وذلك على غرار ما يقوم به الروس ازاء المسيحيين المقيمين فى الامبراطورية العثمانية . كما حصل عبد العزيز على مناشدات والتماسات أخرى مرسلة اليه من مسلمى الهند . فبعد أن فشل التمرد ضد الانجليز فى الهند فى عام ١٨٥٧ وهو التمرد الذى لعب فيه الملوك والأمراء المسلمون دورا رئيسيا ، انتشر الاحباط واليأس بين المسلمين بالهند وبدأوا يشعرون بالقلق على مصيرهم من حيث هم رعايا بريطانيون بعد أن ظلوا يشكلون الطبقة الحاكمة على مدى سبعة قرون تقريبا . اذ كانت

الامبراطورية العثمانية التى تحتوى على المدن المقدسـة : مكة والمدينة المنورة والقدس علاوة على المراكز الثقافية الدينية الكبرى فى كل من القاهرة ودمشق وبغداد وهى بمثابة التجسيد الرئيسى للحضارة الاسلامية والقوة الاسلامية وذلك من وجهة نظر مسلمى الهند وأواسط آسيا .

ولكن لم يكن بمقدور عبد العزيز أن يفعل الكثير من أجلهم . اذ كان حاكما مبذرا ومسرفا ومدينا بأموال طائلة للدول الأوربية ولم يكن له نفوذ على هذه الدول ، وأصبح عجزه واضحا ومثيرا للخجل عندما تمردت كل من بلغاريا والبوسنة والصرب والمنتنجرو ضد استانبول فى السنوات الأخيرة من حكمه وذلك بناء على أوامر صادرة من روسيا . وقد أثار ذلك موجة من الاستياء العام مما أدى الى قيام شيخ الاسلام باصدار فتوى ضد عبد العزيز مما أدى الى الاطاحة بعبد العزيز على يدى مدحت باشا قائد وزعيم « الشباب العثمانيين » وهى منظمة شبابية قوية تشكلت فى عام ١٨٥٩ بهدف العمل على انشاء برلمان منتخب للأمة الاسلامية يتمشى مع التطبيق الصادق للشريعة الاسلامية .

وأصدر مدحت باشا دستورا . وهذه خطوة متطورة وتعتبر الأولى من نوعها فى الاسلام . ونص هذا الدستور على بنود كثيرة من بينها أنه أضفى طابعا رسميا على الوضع الدينى للسلطان العثمانى . اذ نص على : « ان جلالة السلطان بوصفه الخليفة الأعلى هو حامى حمى الدين الاسلامى » . وهذا الدستور الذى اشتمل على ميثاق للحقوق أو خلاصة للحقوق الأساسية للشعب والذى نص على برلمان منتخب قد أعلن عنه ونشـر بمعـرفة عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ ـــ ١٩٠٩) وذلك فى ديسمبر عام ١٨٧٦ .

وفى ابريل قام الجيش الروسى بعبور الحدود العثمانية بهدف تحرير السلافيين Slave ثم وصل الى استانبول . فاضطر السلطان للتوقيع على « اتفاقية سان ستيفانو » المتسمة بالاذلال فى مارس ١٨٧٨ . وهى الاتفاقية التى عدلت فى يوليو وحلت محلها « اتفاقية برلين » . ووفقا لهذه المعاهدة أعطيت قبرص لبريطانيا كما أعطيت تونس لفرنسا . والأكثر من ذلك أن السلطان قد أرغم على تعيين مستشارين فى الشئون المالية والعسكرية من ألمانيا من أجل تنفيذ الاصلاح كما أرغم على السماح لمفتشين قانونيين من دول أوربية بالسفر فى جميع أرجاء الامبراطورية من أجل البحث فى الشكاوى وانصاف المظلومين .

وهذا الفقدان المستمر للأراضى علاوة على تزايد تدخل الأوربيين فى الشئون الداخلية للامبراطورية العثمانية قد جعل عبد الحميد الثانى يقتنع بأن برنامج « التنظيمات » البالغ من العمر ٥٠ عاما قد فشل فى اعادة الطمأنينة سواء للدول الأوربية أو لرعاياه المسيحيين . ومن ثم فقد حان الوقت لتغيير الاتجاه .

وفى فبراير ١٨٧٨ قام بتعطيل أو وقف الدستور بصفة مؤقتة ثم قام بحل البرلمان . وبعدئذ ألقى القبض على مدحت باشا وقام بنفى أعضاء منظمة « الشباب العثمانيون » الى أماكن مختلفة فى أرجاء الامبراطورية . ورفض العصرية الاسلامية وعاد الى القيم الاسلامية التقليدية والى الأفكار الاسلامية القويمة . الا انه استمر فى استيراد التكنولوجيا الغربية والمناهج الغربية . ولم يعترض العلماء الدينيون على استيراد ماكينات الخياطة أو قضبان السكك الحديدية . ولكنهم أصروا فى نفس الوقت على أن الاسلام ليس بحاجة الى استيراد أفكار روحية من الغرب وهو موقف مازالوا يتمسكون به حتى الآن .

واتخذ عبد الحميد الثانى وجهة النظر والسياسات التى سبق أن نادى بها أحمد سفديت باشا Ahmad Cevdet Pasha الذى استنكر « التنظيمات » وقادة التنظيمات بسبب تدميرهم تماسك المجتمع العثمانى من خلال تنفيذ اصلاح دنيوى للجهاز القضائى واقترح ادخال الطابع الحديث على الجهاز التكنولوجى مع الابقاء فى نفس الوقت على الاسلام فى طابعه التقليدى من حيث هو النظام الأساسى للمجتمع العثمانى . وحقيقة الأمر أن عبد الحميد الثانى قد اتخذ خطوة أخرى للأمام . اذ حاول احياء التماسك فى داخل المجتمع العثمانى من خلال حث جماهير الناس على اعداد برنامج لحزب دينى يرفع لواء الاسلام ويفجر طاقاتهم . ولكى ينجح فى مغامرته هذه فانه شجع الطرق الصوفية واستخدمها كقنوات اتصال للوصول الى جماهير الناس . ونجحت استيراتيجيته هذه حيث كان هناك دائما تيار سائد من المشاعر الاسلامية بين الرعايا المسلمين بالامبراطورية العثمانية .

كما حاول أيضا انشاء حركة اسلامية شاملة وهو فى هذا الصدد حصل على التأييد النشط من الكثيرين . ومن بينهم جمال الدين الأفغانى . وهو شخصية دينية وله مواهب متعددة : فهو دارس أكاديمى وفيلسوف ومعلم وصحفى ورجل سياسة . وقد ولد من أبوين شيعيين فى أسد أباد Asadabad القريبة من همدان الواقعة فى غرب ايران الا أنه ادعى أنه قد ولد فى أسد أباد القريبة من كونار Konar الواقعة فى شرق أفغانستان وأشار الى أن والديه كانا من أهل السنة . وهو بادعائه بأنه نشأ فى بيئة سنية استطاع كسب الكثير من الأنصار والمؤيدين له . وهو على كل حال قد أمضى فترة طفولته وشبابه فى كابول التى درس فيها الاسلام والفلسفة . ثم غادر كابول وهو فى سن الـ ١٨ عاما من أجل الحج حيث سافر الى مكة والى النجف وكربلاء . ثم

أمضى عاما فى الهند وذلك عقب فشل التمرد الهندى لعام ١٨٥٧ ضد البريطانيين . فشهد بين المسلمين مشاعر قوية مناهضـــة للبريطانيين . وقد ترك ذلك تأثيرا عميقا فى نفسه .

ولدى عودته الى افغانســـتان فى عام ١٨٦١ انهمك فى السياسة المحلية الداخلية . وعندما أرغم نصيره وصديقه محمد عزام على ترك البـــلاد فى عام ١٨٦٩ — حيث أرغمه أخوه غير الشقيق الذى يسمى شير على Sher Ali على مغادرة البلاد — نجد أن جمال الدين الأفغانى قد طرد أيضا من أفغانستان . ووصل جمال الدين الى استانبول فاستقبله السلطان عبد العزيز استقبالا حسنا . ونظرا لأن جمال الدين الافغانى كان يشجع الاصـــلاح التعليمى والتفكير العلمى فقد تم تعيينه فى «مجلس التعليم» . وأشار فى احدى محاضراته الى أن فهم القرآن الكريم مقصور على عدد ضئيل للغاية من الناس . أى أن القرآن الكريم لن يفهمه سوى خاصة الخاصة من الناس . وهو رأى قد اعتبره السنيون نوعا من الهرطقة والبدعة . وقد أســـــاء هذا القول الى العلماء الدينيين الذين هم تحت رئاسة شيخ الاسلام : حسن فهمى . وكان حسن فهمى يشعر بالغيرة والحقد من أستاذية وشـــعبية جمال الدين الأفغانى . لذلك رأى جمال الدين الافغانى أن من الحكمة أن يبادر الى مغادرة استانبول .

وعقب وصوله الى القاهرة فى عام ١٨٧١ خصص له الخديوى اسماعيل راتبا شهريا كبيرا للغاية . وكان من بين تلاميذه : الشيخ محمد عبده وسعد زغلول باشا . وقد أصبح محمد عبده المفتى الأكبر على مصر كما أصبح ســـعد زغلول مؤسسا لحزب الوفد الوطنى . وكان الشيخ جمال الدين الأفغانى يحث على ضرورة المقاومة الوطنية ضـــد التدخل المتزايد البريطـــانى والفرنسى فى

شئون مصر كما كان يهاجم الخديوى اسماعيل بسبب تبذيره فى انفاق الأموال واقترح اقامة حكومة ترتكز على الأسلوب البريطانى وكان يرى أن الحكومة البرلمانية تتمشى مع المفاهيم الذهنية الاسلامية . وبذلك يمكن القول انه انسان مبتكر من حيث تقديمه حلولا اسلامية للمشكلات المعاصرة .

وعندما تولى توفيق باشا الحكم عقب والده الخديوى اسماعيل فى أوائل عام ١٨٧٩ نصحه البريطانيون بأن يقوم بطرد جمال الدين الأفغانى من مصر . وفى سبتمبر تم ترحيل الأفغانى الى حيدر أباد بالهند ثم بعدئذ الى كلكتا . وظل هنالك تحت مراقبة واشراف البريطانيين . وهنا هاجم الأفغانى المجدد الاسلامى : سيد أحمد خان بسبب اتجاهاته الخانعة المتسمة بالعبودية ازاء البريطانيين علاوة على اتخاذه لأسلوب فى حياته متسم بالطابع الغربى . كما عبر عن استيائه أيضا من أحمد خان لأنه يقوم باقناع المسلمين الهنود بالحصول على التعليم البريطانى ومحاولة تقديم تفسير للقرآن الكريم . ونادى جمال الدين الأفغانى بالوحدة الهندوسية الاسلامية بهدف مقاومة الحكم البريطانى . وفى مصر حيث كان الأفغانى يساند الحركة الوطنية بقيادة أحمد عرابى باشا تفجرت المشاعر المناهضة للبريطانيين وظهرت على هيئة تمرد مسلح فى عام ١٨٨١ — ١٨٨٢ الا أن الانجليز تمكنوا من سحق ذلك التمرد . وكان ذلك بداية الاحتلال البريطانى لمصر الذى استمر حتى عام ١٩٥٤ .

وظهر جمال الدين الأفغانى فى باريس فى يناير ١٨٨٣ وبعد مرور أربعة أشهر نشر مقالا فى جريدة : Journal des Débats رفض فيه الحجج والبراهين التى ساقها جوزيف أرنست رينان فى محاضرة سابقة والتى تشير الى أن الاسلام والعلم متعارضان

ومتنافران تماما وأوضح الأفغانى أن من الخطأ أن توصف الدراسات العلمية بأنها متناقضة مع الاسلام . لأن العلم كان جزءا لا يتجزأ من الحضارة الاسلامية . وأن فقدان الدراسات العلمية هو السبب الرئيسى فى الاضمحلال الذى أصاب الأمة الاسلامية .

وقام هو والشيخ محمد عبده بطبع ونشر جريدة باللغة العربية تسمى : العروة الوثقى . وفى هذه الجريدة قاما بتأييد النزعات والميول الاسلامية الشاملة التى نادى بها عبد الحميد الثانى كما نشرا فى هذه الجريدة افكارهما وآراءهما الاصلاحية .

وبعد أن وجه ناصر الدين شاه امبراطور ايران الدعوة للأفغانى فى عام ١٨٨٦ ذهب الأفغـــانى لكى يعيش فى طهران . الا أن شعبيته الهائلة هناك سببت الارتباك للشاه . وفى السنة التالية سافر الأفغانى الى اقليم أزبكستان الذى يقع فى نطاق الامبراطورية القيصرية . وانهمك هناك فى الدعاية ضد البريطانيين المتواجدين بالهند مما أدخل السرور على القيصر . وبعدئذ فى بطرســـبرج (لينينجراد حاليا) تمكن الأفغانى من اقناع القيصر الاسكندر الثانى بالسماح بطبع القرآن الكريم وبعض الكتب الاسلامية الأخرى وذلك لأول مرة فى التاريخ القيصرى .

وفى عام ١٨٨٩ بينما كان فى طريقه الى « معرض باريس العالمى » تقابل مع ناصر الدين شاه فى ميونيخ . ووجه له الشاه الدعوة لكى يعود الى ايران فعاد بالفعل الى طهران . الا أن خططه الرامية الى اصلاح السلطة القضائية أثارت شكوك الشاه . فاعتزل الأفغـــانى الحيــــاة الاجتماعية وذهب الى ملتجأ دينى قريب من العاصمة . وفى أوائل عام ١٨٩١ تم القاء القبض عليه وطرده الى تركيا .

وشق الأفغانى طريقه الى البصرة . ومن هناك شن هجوما ضاريا على الشاه لاعطائه امتياز التبغ لشركة بريطانية . وأصدر تلميذه ميرزا حسن شـــــيرازى قرارا ينص على أنه ينبغى على المؤمنين التوقف عن التدخين الى أن يسحب الشاه امتياز التبغ . وكانت تلك هى أول مرة فى التاريخ يقوم فيها زعيم دينى بتحدى الحاكم صراحة وعلنا فى ايران . وكانت الاستجابة الجماهيرية للنداء الذى وجهه شيرازى هائلة للغاية حتى أن الشاه اضطر الى الغاء امتياز التبغ فى أوائل عام ١٨٩٢ . ومرة أخرى نقول أن هذه هى أول مرة يصطدم فيها الراى العالمى بدولة اسلامية على نحو مباشر بقرارات ملكية .

وسافر الأفغانى من البصرة الى لندن . وفى لندن قام بحملة ضارية ضد الحكم الديكتاتورى للشاه وخاصة من خلال الجريدة الشهرية التى تسمى : Diyal al Khafikyan والتى تصدر باللغتين الفارسية والانجليزية . وهكذا نرى أنه قد ساعد على انشاء حركة اصلاحية ســـــياسية فى ايران تحت قيادة العلماء الدينيين مما أدى فى نهاية الأمر الى الاطاحة بالشاه ، فتلك هى المقدمات التمهيدية التى أفضت الى أحداث أواخر السبعينات .

وعندما وجه السلطان عبد الحميد الثانى الدعوة للأفغانى بالمجىء الى استانبول فانه لبى الدعوة . وقدم السلطان لجمال الدين الأفغانى مرتبا شهريا مجزيا وحاول اقناع الأفغانى بوقف حملته المناهضة للشاه . فرفض الأفغانى ذلك وسعى الى مغادرة استانبول ولكنه لم يفلح فى ذلك . وفى مارس ١٨٩٦ أغتيل شاه ايران على يدى تاجر كان ذات يوم تلميذا للأفغانى . وبعد مرور سنة تقريبا مات الأفغانى بعد أن أصيب بالسرطان .

كان الأفغانى شخصية بارزة ومهمة للغاية بل كان هو أول — وأيضا آخر — شخصية اسلامية تلعب دورا نشطا وفعالا فى الحياة الدينية/السياسية لجماهير الناس المتواجدين فى المناطق الاسلامية المهمة : تركيا العثمانية ومصر وايران والهند وأواسط آسيا . وقد أعطاه هذا منظورا اسلاميا شاملا وجعله يدرك أن الأمة الاسلامية تقع تحت تهديدات فعلية من جانب الدول الأوربية . ويشير والفريد كالنتويل سميث وهو خبير فى شئون الاسلام الى أن الأفغانى كان هو أول من استخدم المفهوم الذهنى لكلمة « الاسلام » ولكلمة « الغرب » من حيث هما لفظان لهما علاقة متبادلة عدائية بالطبع كظاهرة تاريخية .

وكان الأفغانى يدرك أن كلا من روسيا وبريطانيا تشكلان تهديدا للعالم الاسلامى الا أنه كان يعرف أيضا أن بريطانيا هى التى تشكل تهديدا أكثر من روسيا . لأن النظام الاقتصادى البريطانى كان أكثر تقدما وفق الأساليب الرأسمالية من النظام الاقتصادى الروسى . كما أن بريطانيا هى التى سيطرت على كل من الهند ومصر .

وكان الأفغانى مصلحا مناضلا من أجل الاسلام كما كان أداة مناهضة للاستعمار . وكان يرغب فى دفع جماهير المسلمين الى الاشتراك مع الحكام المسلمين فى مقاومة فعالة ضد الاستعمار الأوربى . وبينما كان يستخدم اللغة العربية الفصحى ويدعو دائما الى ديناميكية وكفاح وجهاد السلف الصالح من أجل الاتحاد ومقاومة الاستعمار المتزايد للعالم الاسلامى على أيدى الكفار فانه كان يدعو أيضا المسلمين لاحياء التفكير العلمى واصلاح نظامهم التعليمى .. بمعنى أن يتعلموا من الغرب .

وكان الأفغانى يحث على اللجوء الى « الاجتهاد » وقال أن كل مؤمن له الحق فى تفسير القرآن والسنة لنفسه . وكان يريد للناس أن يساعدوا أنفسهم بأنفسهم وكثيرا ما كان يستشهد بالآية القرآنية الكريمة : ((ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)).

وكان تأثير الأفغانى جوهريا من حيث خلق القومية الاسلامية واحياء حركة السلف الصالح . وفى موقف الاسلام تجاه الغرب كان يرى ثلاثة أنواع من ردود الفعل الاسلامية ازاء الغرب : الدعوة الى حمل السـلاح من أجل الدفاع عن النفس ، ومحاولة معرفة أسرار القوة لدى الغرب ، وادخال طرائق الفكر العلمانية الغربية .

وكان الأفغانى مفكرا اسلاميا أصيلا . وهو اذا كان قد أبدى اهتماما ببعض المفاهيم الذهنية الغربية فانه لم يسمح أبدا للايديولوجية الغربية أن تكون هى الينبوع لوحيه والهامه . اذ ظل ضاربا بجذوره القوية فى التراث الاسلامى رغم أنه أمضى سنوات فى فرنسا وبريطانيا وروسيا .

والأفغانى هو الجد الأكبر للاصلاح الاسلامى وقد قام تلميذه الشيخ محمد عبده بتطبيق المبادىء العامة والتوجيهات الأفغانية فى مجال تشريع القوانين . كما أن محمد رشيد رضا الذى هو أحد تلاميذ محمد عبده قد قدم برنامج العمل أو الخطة اللازمة لاقامة دولة اسلامية تتلاءم مع الظروف الحديثة المعاصرة .

وقد ولد محمد عبده فى أسرة ريفية مصرية وتأثر كثيرا بجمال الدين الأفغانى فى السبعينات من عام ١٨٧٠ . وعندما وقعت مصر تحت الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ سافر محمد عبده الى باريس حيث قام بمساعدة جمال الدين الأفغانى فى نشر واصدار جريدة اسلامية . واختلف فى الرأى مع الأفغانى فيما يتعلق بمسألة

مقاومة الغرب اذ كان المجاهد الافغانى يعتقد فى ضرورة اثارة مشاعر الحكام المسلمين ورعاياهم من المسلمين وتعبئتهم من أجل محاربة الدول الأوربية بينما محمد عبده كان يعتقد أنه ينبغى على المسلمين أن يركزوا أولا على الاصلاح الدينى والتعليمى علاوة على الاقتداء بتلك النواحى المتواجدة بالحضارة الغربية والتى تتمشى مع الاسلام .

واشار محمد عبده الى أن الاسلام لا يتعارض ولا يتناقض مع أسس الفكر الغربى . وأوضح أن الشورى فى الاسلام ليست سوى الديموقراطية البرلمانية عند الغرب . كما أن الاجماع فى الاسلام ما هو الا الرأى العام لدى الغرب . كما أوضح أن المصلحة فى الاسلام (بمعنى تفسير الشريعة على النحو الذى يؤدى الى أكبر قدر من الفوائد والنوايا الحسنة) يقابلها مذهب المنفعة Utalitarianism عند الغرب .

وعاد محمد عبده الى مصر فى عام ١٨٨٨ وركز جهده على تطبيق الاصلاح التعليمى والقانونى والتشريعى . وبعد أن تولى منصب المفتى الأكبر فى مصر فانه حول المفهوم الذهنى عن : المصلحة الى اجراءات عملية تتمثل فى وضع قوانين ترتكز على المبدأ الشامل للأخلاقيات العامة . بل ذهب الى ما هو أبعد من ذلك . حيث أشار الى انه اذا أصبح حاكم مسلم مصدرا للأضرار والأذى أو اذا أصبحت حكومة مسلمة مصدرا للأضرار فانه ينبغى تغييرها بحيث تتلاءم مع الظروف المعاصرة . كما توسع محمد عبده فى المفهوم الذهنى عن التوفيق . (والتوفيق هو اختيار تفسير من أحد المذاهب الأربعة بخلاف المذهب الذى يتبعه المرء) بهدف الحصول على توليفة تركيبية من أحكام مختلفة بحيث ترتكز على المصادر الرئيسية للشريعة الاسلامية : الا وهى القرآن والحديث

والسلف الصالح أو المبادىء التى سار عليها السلف الصالح ..
وبينما كان جمال الدين الأفغانى يركز على الجهاد العام للسلف الصالح فى أوائل الاسلام نجد أن محمد عبده قد ركز على تأثير السلف الصالح على صياغة الشريعة كما ركز على لجوء السلف الصالح الى العقلانية Rationalism . وقد استرشدت كثير من الدول الاسلامية بالانجازات التى حققها محمد عبده فى مجال صياغة القوانين .

فمحمد رشيد رضا وهو أشهر تلاميذ الشيخ محمد عبده اتخذ المزيد من الخطوات فيما يتعلق بمبادىء السلف الصالح بأن راح يبحث ويدرس الأقوال والأعمال التى قام بها محمد صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح بهدف تطبيقها على الظروف المعاصرة .
وبالنسبة للنواحى القانونية فانه كان يفضـــل اتباع آراء وافكار السلف الصالح على اتباع المذاهب التشريعة الأربعة الرسمية .
وذهب الى رأى مماثل لرأى أحمد بن حنبل حيث كان يعتقد أن اللجوء الى القرآن والسنة هو الأمر الأسمى والأعلى لأن الله لا يمكن وصفه الا من خلال ما فعله وفقا لما هو وارد بالقرآن الكريم ومحمد لا يمكن وصفه الامن خلال ما فعله وفقا لما هو وارد فى السنة . واشار أيضا الى أنه اذا ظهر تناقض بين نصائح معينة فان أفضل وسيلة لحل هذه المشكلة هى لجوء المؤمن الى المبادىء الأساسية التى حددها القرآن والسنة .

وقد أوضح كل هذه الأمور وغيرها من الأفكار الأخرى فى جريدة « المنار » . وهى الجريدة التى كان يصدرها فى القاهرة عقب وصوله الى القاهرة فى عام ١٨٩٧ قادما من بلدته طرابلس الواقعة فى شمال لبنان والتى سبق أن تقابل فيها مع الشيخ محمد عبده قبل ثلاث سنوات .

وبينما كانت مصر واقعة تحت الاحتلال البريطانى فانها كانت فى نفس الوقت جزءا من الامبراطورية العثمانية من الناحية الرسمية . وفى أوائل القرن العشرين نجد أن اتجاهات عبد الحميد الثانى الشعبية ازاء الاسلام فى الداخل واعتناقه لمبدأ الجامعة الاسلامية بالخارج كانت غير كافية لاحياء الامبراطورية الآخذة فى التفكك والاضمحلال . وفى عام ١٩٠٨ أرغم ضباط الجيش العاملون بالمناطق الأوربية من الامبراطورية عبد الحميد الثانى على اعادة دستور عام ١٨٧٦ . وفى السنة التالية أبعدوه عن السلطة على أمل أن ذلك قد يحسن من صحة الامبراطورية المتدهورة .. الا أن الامبراطورية ظلت مريضة .

ومما أكد ضعف الامبراطورية وتدهورها تلك الحرب التى نشبت فى عام ١٩١٢/١٩١٣ والتى أسفرت عن فقدان الأراضى الأوربية المتبقية علاوة على فقدان ليبيا . وعلى كل حال فانه يمكن القول أنه عقب النكسة الأخيرة أصبحت الامبراطورية العثمانية قليلة المساحة أكثر تجانسا من الناحية الدينية . وربما كان ذلك هو السبب الذى جعل قيصر ألمانيا يشجع القادة العسكريين باستانبول — الذين كانوا يعرفون باسم : الشبان الأتراك — على القيام بتحرير زملائهم الأتراك من القيود الروسية وتوسيع الامبراطورية العثمانية شرقا الى أواسط آسيا . وكانت نتيجة ذلك التشجيع أن انضمت تركيا الى ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى فى أكتوبر ١٩١٤ . وبعد مرور أربع سنوات انتهت الحرب بهزيمة العثمانيين هزيمة منكرة : وكان هذا الحدث يعنى انتهاء آخر امبراطورية اسلامية وكان ذلك بمثابة تجربة قاسية وصدمة هائلة للمجتمع الاسلامى العالمى .

وعلى مدى السنوات العديدة التالية ظل الموقف فى تركيا — وهى الأراضى الأصلية للامبراطورية العثمانية القديمة — مليئا

بالشغب والاضطرابات . وفى استانبول تعاون السلطان محمد السادس Mehmet VI مع قوات الاحتلال التابعة للحلفاء المنتصـــرين بينما كان الأتراك الوطنيون بقيادة مصطفى كمال يعارضون ذلك . ثم قام الأتراك الوطنيون بانشـــاء « الجمعية الوطنية العمومية الكبرى » فى أنقرة . وتصاعدت شعبية مصطفى كمال الى درجة هائلة بين جماهير الناس عندما نجح فى طـرد قوات الاحتلال اليونانية من تركيا فى أغسطس ١٩٢١ . وأصدر مصطفى كمال أوامره فى نوفمبر ١٩٢٢ بالغاء السلطنة بحيث تحل محلها « الجمعية الوطنية العمومية الكبرى » الا أنه أبقى على الخلافة من حيث هى منصب دينى . ولكى يبرر مصطفى كمال تصرفاته هذه فانه أشار الى سابقة فى العهد العباسى عندما فقد الخلفاء العباسيون كافة السلطات السياسية وأصـبحوا مجرد شخصيات ترمز الى الوحدة الاسلامية . الا أن الترتيبات فى هذه المرة كانت مجرد بديل مؤقت . ففى مارس ١٩٢٤ طلب مصطفى كمال من الجمعية الوطنيـــة الـكبرى « أن تقوم بتطهير وتهذيب العقيدة الاسلامية والعمل على انقاذها من وضعها كأداة سياسية وهو الوضع الذى اعتادت عليه منذ قرون عديدة » . وبعدئذ تم عزل واقالة الخليفة وتم الغاء منصـــب الخلافة . وانتهى بذلك أسلوب الخلافة الذى استمر على مدى ١٢٩٢ عاما . وقد نجم عن أزمة روحية فى العالم الاســلامى خارج تركيا . وأصبحت تركيا تتبع خطا عســـكريا علمانيا تحت قيادة مصـــطفى كمال أتاتورك .

والجدير بالذكر أن محمد رشيد رضـــا وهو أحد مواطنى سوريا الكبرى قد اشترك على نحو مباشـــر فى الأحداث التى أعقبت تفكك الامبراطورية العثمانية ففى عام ١٩٢٠ أصبح رئيسا للمؤتمر الوطنى السورى الذى اختار الأمير فيصـــل بن الحسين

ليكون ملكا على سوريا . وبعد مرور ثلاث سنوات قام بتجميع سلسلة مقالاته التى كتبها عن الخلافة فى جريدة « المنار » وأصدرها فى كتاب تحت عنوان « الخلافة أو الامامة العليا » . وهذا الكتاب جعل منه أول باحث نظرى فى مجال الدولة الاسلامية بمعناها الحديث المعاصر . اذ تناول فى هذا الكتاب أسس ومبادىء الخلافة كما تناول الفجوة التى تتواجد بين النظرية والتطبيق للخلافة . بل انه تقدم ببرنامج عمل من أجل اقامة دولة اسلامية .

ان شئون الدولة الاسلامية ينبغى أن تدار فى نطاق دستور يرتكز على القرآن الكريم والأحاديث وتجارب الخلفاء الراشدين وذلك وفقا لما أوضحه محمد رشيد رضا . أما الاجتهاد فى الاسلام فينبغى أن يستخدم من أجل تدعيم الفوائد العامة . ويذهب فى تقديراته الى أن رئيس الدولة الاسلامية — الذى يمكن أن يسمى باسم الخليفة أو الامام الأعلى — ينبغى أن يكون ممارسا « للاجتهاد » . وفى النواحى القضائية ينبغى أن يساعده « أهل الحل والعقد » بمعنى أن يساعده ممثلو المجتمع على اختلاف أنواعهم بما فى ذلك العلماء الدينيون . وممثلو المجتمع يجب أن يكونوا هم الحماة للطابع الاسلامى للدولة . وينبغى على الخيفة أن يستشيرهم .. وأن هذه الاستشارات هى التى تجعل قراراته ملزمة من الناحية الدينية . وعادة ما كان « أهل الحل والعقد » هم ممثلى المجتمع ومنتخبى الخلفاء . ولكنهم فى هذه الأيام ينبغى عليهم أن يقوموا أيضا بممارسة سلطة التشريع وسن القوانين وذلك بهدف العثور على حلول منطقية وعقلانية ومنهجية للمشكلات التى تبزغ فى الأفق . والشريعة الاسلامية المرجع الرئيسى فى التشريع ولكن على مدى القرون نجد أنها استكملت من خلال مجموعة كاملة من القوانين الوضعية التى تكون تابعة للشريعة الاسلامية . وفى

التحليل النهائى يمكن القول أن « القانون الوضعى » ينبغى أن يكون متمشيا مع الخطوط والمبادىء الرئيسية الاسلامية .

والخليفة أو الامام الأعلى يجب اختياره بمعـــــرفة مندوبين وممثلين عن جميع طوائف المســـلمين (أهل الســـنة والشـــيعة والخراج أو الخوارج Kharji) من بين القضاة والمحامين والضالعين فى القوانين . ويركز محمد رشيد رضا على المشتغلين بالقانون . وهذا التركيز ينبع من الحقيقة التى مفادها أن التشريع فى الأزمنة الحديثة يعتبر هو العنصر الحاسم والرئيسى فى الدولة الحديثة وأن الخليفة أو الامام الأعلى يتوقع له أن يكون هو القوة الرئيسية المتواجدة خلف العملية التشريعية . والخليفة من حيث هو رأس الدولة فانه هو القائد لجميع المسلمين ومن ثم ينبغى عليه الاعتراف بتعددية النظرية الاسلامية Pluralism . وينبغى على المؤمنين اطاعة الخليفة مادامت أفعاله تتمشى مع المبادىء الاسلامية ومع الصالح العام . وعندما تصبح قراراته متعارضة مع المبادىء الاسلامية أو المصلحة العامة يكون لمندوبى المجتمع الحق فى تحدى قراراته .

ويذهب محمد رشيد رضا الى أن المسلم له الحق فى أن يحاول بنفســــه أن يفهم ما جاء بالقرآن الكريم والأحاديث بدون الحصول على مساعدة من أى وسيط سواء أكان هذا الوسيط ينتمى الى الأوقات الماضية أو الأزمنة الحاضرة . وينبغى معاملة النساء فى مساواة تامة مع الرجال عدا رئاســــة شــــئون المنزل أو القيام بدور الامام فى الصلاة أو تولى منصب الخليفة أو الامام الأعلى .

ان الدراسة المنهجية للنظرية والتطبيق للخــلافة مع ربطها

(*) التعددية : بمعنى انه توجد هناك أكثر من حقيقة واحدة . المترجم

بالارتقاء بالمفهوم الذهنى للخلافة فى ضوء الظروف والأوضـــاع المعاصرة كان بمثابة حجر الزاوية فى تاريخ الاصلاح الاسلامى وكان دليلا على الطاقة الابتكارية للمفكرين الاسلاميين خلال الربع الأول من القرن العشرين . وتجدر الاشارة الى أن الخط الاصلاحى الذى انتهجه الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا كان موجها ضد المشتغلين بالقانون المتحجرى العقلية الذين تسببوا فى تدهور الاسلام كما كان موجها ضد الناس المتغربين أو المتخذين للطابع الغـربى الذين ينقصون من الاسلام ويحاولون الاساءة اليه .

وكان محمد رشـــيد رضا واقعيا لأنه كان يعتقد أن الدولة الاسلامية وفقا لرؤيته وتصـــوراته هى بمثابة هدف على المدى البعيد . كما أن تناوله البراجماتى العملى للأمور قد انعكس على تقبله للبرنامج الذى نادى به والذى يحتوى على التعايش بين الدول الدينية والدول السياسية .. والتعايش بين الشريعة والقانون الوضـــعى .

وعلى كل حال فان عوامل عديدة قد وضـــعت حدا لهذه الازدواجية وذلك مع ترك المظهر السياسى مكانه لكى يشغله المظهر الدينى . اذ وافق المصلحون تدريجا على وجهة النظر السائدة بين العلماء الدينيين والتى مفادها أن هجوم الغرب على الاسلام لم يكن هجوما سياسيا فقط وانما كان أيضا هجوما أيديولوجيا وأن الأفكار العلمانية الغربية قد تغلغلت فى التفكير الاسلامى وأضعفته . كما أنه ابتداء من العشرينات فصاعدا أصبح من الواضح أنه يمكن تحقيق أية أفكار اصلاحية اذا كانت تلك الأفكار تلقى التأييد من جانب جماهير المسلمين . هذا بالاضـــافة الى أن الغاء الخلافة الاسلامية فى عام ١٩٢٤ قد أدى الى تفجير أزمة حادة فى العالم الاسلامى مما دفع بالمظهر الدينى للحياة الاسلامية الى المقدمة .

وفى حين كان المصلحون يزيدون من تركيزهم على ضرورة مواجهة الغرب سياسيا وثقافيا فانهم لم يقللوا من الحاجة الى الاصلاح الدينى . بل انهم كانوا يشعرون بالحاجة الملحة الى تطهير الاسلام من الاضافات الغربية التى لحقت به والتى تتسم بطابع غير اسلامى تماما وبالتالى يمكنون المسلمين من استعادة مجد العقيدة الاسلامية . وبكلمات أخرى فانهم قادوا حركة تسير فى اتجاهين « بينما كان التركيز أقل من حيث تطهير الاسلام من صوفية العصور الوسطى أو التقليد الحرفى الأكاديمى وأكثر من حيث تطهير الاسلام من البدع الجديدة والهرطقات الحديثة والأفكار العلمانية الغربية التى رفعت تحت شعار العصرية أو الطابع الحديث .. وتركيز أقل من حيث أن يكتسب الاسلام (أو يكتسب من جديد) مصادر القوة الغربية .. وتركيز أكثر على تخليص الاسلام من بذور الانحطاط الغربى » .

وليس غريبا أن تكون مصر هى أول دولة تقوم بتفجير حركة احيائية اسلامية شعبية . فمصر هى أهم دولة فى العالم العربى من الناحية السياسية والثقافية علاوة على أن مصر هى النواة التاريخية للاسلام . وقبل العثمانيين كانت مصر هى قلب الخلافة الاسلامية على مدى ٢٥٠ عاما . ومع ذلك فانها كمحمية تحت التاج البريطانى منذ عام ١٨٨٢ قد خضعت لموجات مستمرة من الفكر الغربى والثقافة الغربية . وكانت الحركة الاسلامية التى نشأت فوق تربة مصر وتدعمت وازدهرت تسمى « الاخوان المسلمون » .

* * *

الفصـــــل الرابع

الاخوان المسلمون فى مصر وسوريا

كان حسن البنا (١٩٠٤ — ١٩٤٩) من بين القراء الذين يحرصون على قراءة جريدة المنار التى يصدرها رشيد رضا . وكان يعمل مدرسا فى مدرسة ابتدائية بالاسماعيلية عاصمة منطقة قناة السويس التى يحتلها البريطانيون . وهو من أسرة تتميز بالورع والتقوى تعيش فى مدينة تسمى المحمدية وتقع فى دلتا النيل . وكان والده : أحمد البنا من خريجى جامعة الأزهر وكان واعظا دينيا ويؤم المصلين فى المسجد المحلى . هذا بالاضافة الى أنه ألف كتبا عن الأحاديث النبوية الشريفة وعن التشريع الاسلامى .

ونشأ حسن البنا فى فترة زمنية تجتاحها القلاقل . فعقب الحرب العالمية الأولى (وكانت بريطانيا أعلنت أثناء الحرب أن مصر محمية تابعة لها) قام المصريون بثورة شعبية هائلة وحصلوا على استقلال جزئى فى عام ١٩٢٢ . وتمت أول انتخابات برلمانية فى عام ١٩٢٣ حيث انتصر حزب الوفد الوطنى على حزب الأحرار الدستوريين . وفى تركيا قامت قوات علمانية جمهورية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك بالغاء الخلافة فى

١٩٢٤ وهو حدث مهم خلق أزمة فى العالم الاسلامى . وقد أرجع حسن البنا السبب فى ذلك الجيشان والاضطراب الى التناحر والشقاق والنزاع بين حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين . كما أرجعه الى المناقشات السياسية الصاخبة التى تفجرت عقب ثورة ١٩١٩ علاوة على الاتجاهات نحو الارتداد عن الدين ونحو التلهستية التى كانت تجتاح العالم الاسلامى آنئذ . بالاضافة الى الهجوم على التقاليد والاتجاهات القويمة الراشدة من جانب ثورة كمال أتاتورك فى تركيا وهى الثورة التى تغيرت تدريجا وأصبحت حركة لتحرير مصر اجتماعيا وثقافيا . ومن الأسباب أيضا تلك الاتجاهات غير الاسلامية والعلمانية والليبرالية التى سادت الدوائر الأكاديمية والثقافية فى مصر . ونتيجة لهذه الفوضى العارمة أوضح حسن البنا أن الشباب المصرى يرث دينا فاسدا ويتشرب الشكوك والحيرة . ولذلك بدأ يلقى المحاضرات ويفتح باب المناقشات فى الأماكن العامة ثم شرع فى انشاء جماعة الاخوان المسلمين فى عام ١٩٢٨ على هيئة ناد للشباب يركز أساسا على الاصلاح الأخلاقى والاجتماعى من خلال الاتصالات والاعلام والدعاية . وكان من المنطقى أن يتم مولد جماعة الاخوان المسلمين فى الاسماعيلية . فالاسماعيلية يوجد بها المركز الرئيسى لشركة قناة السويس ويوجد بها المركز الرئيسى لقيادة القوات البريطانية فى مصر ولذلك كانت تعتبر هى القاعدة الأمامية للغرب علاوة على كونها بمثابة تهديد متعدد الأبعاد لكيان وهوية مصر السياسية والاقتصادية والثقافية .

ولم تحول جماعة الاخوان المسلمين نفسها رسميا الى كيان سياسى الا بعد أن شن المصريون المقاومة المسلحة ضد المعاهدة الانجلو/مصرية لعام ١٩٣٦ وبعد أن شن الفلسطينيون ثورة مسلحة فى فلسطين ضد الانتداب البريطانى والاستعمار الصهيونى فى

عام ١٩٣٧/٣٦ . لقد حدث هذا التحول فى عام ١٩٣٩ . وهذا يؤيد الافتراض العلمى القائل بأن الراديكالية تزدهر عادة عندما يكون هناك تهديد من عدو خارجى . وأعلنت جماعة الاخوان المسلمين الأفكار الآتية :

١ — ان الاسلام هو نظام شامل يطور نفســـــه تلقائيا . والاسلام هو الطريق الأســــــاسى والنهائى للحياة بكل مجالاتها المختلفة .

٢ — ان الاسلام ينبثق ويرتكز على مصـــــــدرين أساسيين هما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

٣ — ان الاسلام صالح للتطبيق فى كل زمان ومكان . وقصارى القول ان الاسلام هو أيديولوجية شاملة يقدم نظاما قادرا تماما على تنظيم كافة تفاصيل الحياة السياسية والاقتصـــادية والاجتماعية والثقافية للمؤمنين .

ومنظمة الاخوان المسلمين قد قدمت أيضا على أنها كيان شامل لكل شىء .. وقد قدم حسن البنا وصفا لحركة الاخوان المسلمين من حيث هى وارثة وحفازة لمعظم العناصـــر النشطة فى التفكير الاصلاحى والتراثى السنى فقال انه يراها « رســـالة ســـلفية وطريقا سنيا وصدقا صوفيا ومنظمة سياسية وجماعة رياضـــية وجمعية علمية ومشروعا اقتصاديا وفكرة اجتماعية » .

وشهدت حركة الاخوان المسلمين توسعا وانتشارا هائلا منذ عام ١٩٣٣ بالقاهرة . وفى عام ١٩٤٠ أصبح لجماعة الاخوان المسلمين ٥٠٠ فرع . ولكل فرع له المركز الخاص به سواء كان هذا المركز متواجدا فى مســـــجد أو مدرسة أو ناد أو منزل أو مصنع . وكانت مدارس الاخوان المسلمين تضم فصـــــولا لتعليم النواحى الدينية ولتعليم النواحى البدنية الجسمانية (تحولت فيما

بعد الى التدريبات العسكرية) لأعضائها بهدف اعدادهم من أجل الكفاح المسلح أو الجهاد . وكان الهدف من الجهاد ليس فقط تحرير مصر من السيطرة الأجنبية وانما أيضا تحرير الوطن الاسلامى كله . اذ ينبغى أن يقام فى الوطن الاسلامى حكومة اسلامية حرة تطبق مبادىء الاسلام ونطبق الأسلوب الاجتماعى الخاص بها وتقدم مبادئها الأساسية الراسخة وتنقل نداءاتها الحكيمة الى الشعب . وكان هدف الاخوان المسلمين مشابها للأهداف التى عرضها جمال الدين الأفغانى منذ عشرات عديدة من السنين . الا أن الأفغانى كانت تنقصه الوسيلة التى تعينه على تنفيذ أهدافه : كانت تنقصه قاعدة شعبية عريضة من المؤمنين بآرائه وأهدافه .

وتعاظم نمو جماعة الشبان المسلمين فى نفس الوقت الذى كان يشعر فيه المصريون بالاذلال بسبب وقوعهم تحت النفوذ والسيطرة الأجنبية . وفى فبراير ١٩٤٢ بينما كانت الجيوش الألمانية تزحف فى اتجاه مصر قادمة من ليبيا وبينما كان الملك فاروق يفكر فى تعيين رئيس وزراء جديد مشهور بعدائه للبريطانيين أصدر السفير البريطانى بالقاهرة أوامره للدبابات البريطانية (عادة ما كانت تتمركز الدبابات فى منطقة قناة السويس) بمحاصرة القصر الملكى وبعدئذ خير الملك فاروق بين التنازل عن العرش أو تعيين مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد الموالى للبريطانيين فى منصب رئيس الوزراء . فوجه الملك فاروق الدعوة للنحاس باشا لكى يشكل الحكومة الجديدة . وقد أدى ذلك الى تعزيز مركز الحلفاء فى مصر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية كما أدى أيضا الى تدمير هيبة الملك بين رعاياه .

وقد أدت هذه الأحداث الى تدعيم مركز الاخوان المسلمين الذين كانوا يستمدون التأييد الشعبى من الطلبة والموظفين المدنيين

والحرفيين وصغار التجار والفلاحين الذين هم من الطبقات المتوسطة والفقيرة . وكان الاخوان المسلمون يتقابلون فى صلاة الجمعة حيث يقوم القادة والزعماء بارشادهم الى تأدية الواجبات الدينية مع اضفاء الطابع الاسلامى على حياتهم الشخصية وعلى أفراد عائلاتهم وكان الاخوان المسلمون ينظمون أنفسـهم على هيئة خلايا بحيث تضم كل خلية خمسة أشخاص . وتسمى الخلية بالأسرة . ويتصاعد التنظيم بحيث كل مجموعة من الأسر تكون عشـيرة ومجموعة العشائر تكون مجموعات وكل عدد من المجموعات تكون الكتائب . واضطرت قيادة الاخوان المسـلمين فيما بعد الى تكوين خـلايا سـرية .

وعقب الحرب العالمية الثانية تصاعد الكفاح المسلح ضـد البريطانيين . واصبح العنف السياسى متوطنا فى مصر . وهبطت شعبية الملك فاروق الى درجة كبيرة بعد أن اشترك الجيش المصرى فى المجهود الحربى العربى ضد دولة اسرائيل الوليدة وذلك عقب الانسحاب البريطانى من فلسطين فى مايو ١٩٤٨ حيث كان أداء الجيش المصرى فى هذه الحرب سيئا للغاية . وكان السـبب الرئيسى فى ذلك الضعف هو انخفاض كفاءة كبار الضباط بالجيش المصرى وانهماكهم فى الفساد والانحلال بالاضافة الى أسـلحة الجيش المصرى القديمة البريطانية الصنع علاوة على عدم انتظام امدادات الطعام والدواء وقلة كمياتها . وشارك متطوعون من جماعة الاخوان المسلمين فى الحرب العربية/الاسرائيلية وأجروا اتصالات مع الضباط المصريين الوطنيين . واعتنق كثيرون من الضـباط أيديولوجية الاخوان المسلمين وفى نفس الوقت بدأ الاخوان المسلمون يتدربون تدريبات عسكرية تحت اشراف الضباط المؤمنين بأفكار الاخوان المسلمين . وكان قادة وزعماء الاخوان المسلمين وكذلك الضباط الوطنيون الذين شكلوا فيما بينهم « تنظيم الضباط الأحرار »

يشعرون بالغضب والاحباط بسببب تفشى الظلم والانحلال والفساد فى مصر وبسبب انتشار الايديولوجيات العلمانية وخاصة الماركسية التى جعلت الأمة منقسمة داخليا على بعضها البعض وبسبب تدهور السياسات الانتخابية . وقد أدى انضمام مجموعات من الضباط العسكريين لمنظمة الاخوان المسلمين الى تدعيم وتقوية المنظمة حيث ادعت فى عام ١٩٤٦ انها تضم ٥٠٠ ألف عضو نشط و ٥٠٠ ألف شخص متعاطف موزعين على ٥٠٠٠ فرع . وكان شعار الاخوان المسلمين جذابا للغاية : « القرآن دستورنا . ومحمد مرشدنا . والموت فى سبيل الله هو أسمى أمانينا » .

واستفادت جماعة الاخوان المسلمين أيضا من الحقيقة التى مفادها أن المؤسســـــة الدينية بالبلاد والمتمثلة فى جامعة الأزهر ورئيسها كانوا ينحازون الى جانب الملك . اذ كان علماء الأزهر يعتقدون أن اتخاذ أى عمل ضد الحاكم ــ سواء أكان الحاكم من أهل البلاد أم أجنبيا ــ يعتبر فتنة تؤدى الى بث الفوضى بالمجتمع وهو أمر ينبغى تجنبه مهمـــا كانت التكلفة . وكانوا يخافون من الفوضى للغاية حتى أنهم فى الماضى اضطروا للتسامح ازاء الاحتلال الأجنبى والتغاضى عنه . ففى عام ١٧٩٨ نجد أن علماء الأزهر قد حثوا اتباعهم على طاعة المحتلين الفرنسـيين « ينبغى عليكم الالتزام بعدم اثارة الفتنة وعدم اطاعة مثيرى الشغب أو الاصغاء للمرائين والمنافقين أو السير وراء الشر » . وفى عام ١٩١٤ وعقب الاعلان عن قانون الاحكام العرفية بمعرفة المحتلين البريطانيين نجد أن علماء الأزهر أصدروا بيانا جاء فيه : « نحمد الله ونشكر فضله الذى حذر المؤمنين لكى يتجنبوا كل أنواع الفتن .. ومن ثم فان من الواجب علينا أن نلتزم بالهدوء والصمت وننصـــــح الآخرين بالالتزام بالهدوء وأن نتجنب التدخل فى الأمور التى لا تخصنا » . ولذلك فان خنوع واستسلام العلماء المســـــتمر للملك فاروق كان

متمشيا مع سلوكهم فى الماضى . بل ان علماء الأزهر لم يظهروا أيد دلائل تشير الى ابتعادهم عن الحاكم فى أعقاب الهزيمة المصرية فى الحرب العربية/الاسرائيلية لعام ١٩٤٨ .

أما جماعة الاخوان المسلمين فقد أعلنت أن المؤسسة السياسية المصرية هى المسئولة الوحيدة عن الكارثة التى لحقت بالعرب فى حربهم مع اسرائيل . ثم لجأت الى الأنشطة الارهابية والتخريبية . فقام رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باتخاذ اجراءات انتقامية حيث أعلن الاحكام العرفية فى البلاد وأصدر قرارا بتحريم جماعة الاخوان المسلمين فى ديسمبر ١٩٤٨ . وبعد ذلك بثلاثة أسابيع قام أحد أعضاء الاخوان المسلمين باغتياله . فأدى ذلك الى قيام الدولة بتشديد قمعها لجماعة الاخوان المسلمين . وأشار حسن البنا الى أنه مادامت جماعة الاخوان المسلمين قد حلت قبل الاغتيال فان الشخص الذى قام بالاغتيال لا يمكن وصفه بأنه عضو فى منظمة الاخوان المسلمين . وفى ١٢ فبراير ١٩٤٩ تم اغتيال حسن البنا على أيدى عملاء للأجهزة السرية خارج مكتبه بالقاهرة .

ومن الناحية الأيديولوجية كان حسن البنا يسير فى خط متوافق تماما مع الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا الذين كانوا يؤمنون بحركة الاصلاح وكان حسن البنا ضد تقليد العلماء الدينيين أو السير وفقا لأسلوبهم فى معالجة الأمور . وكان يحبب الاجراءات التى تضمن تحقيق أكبر قدر من الصالح العام وكان يحبب «الاجتهاد» فى الاسلام الذى يعتمد على التفكير المنطقى السليم وكان يرى أنه ينبغى تطبيق « الاجتهاد » حتى يمكن للاسلام مواجهة مشكلات العالم الحديث .ولكنه كان يختلف مع زعماء الاصلاح السابقين عليه فيما يتعلق بالوسائل التى ينبغى استخدامها لتحقيق قيام الدولة الاسلامية . فالأفغانى كان يقتصر على كتابة النشرات

والكتيبات التى تناشد الحكام المسلمين والمثقفين المسلمين بالاتحاد ضد الكفار . ومحمد عبده قد ركز على الاصلاح الدينى واصــدار الفتاوى والقرارات الدينية ومحمد رشيد رضا قد استخدم جريدة « المنار » من أجل تدعيم ونشر أيديولوجية السلف الصالح بالاضافة الى اللجوء الى أعمال اجتماعية وسياسية لها طابع شعبى بهدف اعادة احياء الدولة الاسلامية . أما حسن البنا فانه هو الذى قام بانشاء حزب جماهيرى سياسى . وذهب حسن البنا فى تقديراته الى أن الهدف الرامى الى اعادة خلق الدولة الاسلامية يمكن أن يتحقق فى نطاق الاطار الدستورى المتواجد بالفعل . فالحكومة الحالية عليها فقط أن تعترف بالشريعة الاسلامية كمصــدر أعلى للقانون ونبذ القوانين الأوربية المســتوردة التى أدت الى تقويض وهدم أسس النظام الاسلامى .

وهذه الآراء قد شرحها ووضحها محمد الغزالى وهو مناصر لجماعة الاخوان المسلمين ، فى كتابه الذى صــدر تحت عنوان « بدايتنا فى الحكمة «Oat Begihn, in wisdow» فى عام ١٩٤٨ . وأشار الغزالى الى أن المسلمين الصادقين ـــ شأنهم شأن الثوريين من الفرنسيين والروس ـــ لا يمكن لهم أن يفصلوا قيمهم الأخلاقية عن السياسة بدون أن يحرموا أنفسهم من امكانية تدعيم قيمهم ومبادئهم الأخلاقية . كما أشار الى أن الشريعة الاسلامية ينبغى أن تكون هى المصــدر للقانون فى جميع نواحى الحيـــاة ســـواء الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية . وهذا أمر اجبارى ينبغى أن تلتزم به السلطة الاسلامية لأنه عندئذ فقط يمكن ادخال الفرائض القرآنية ذات الطابع الاجتماعى والمتعلقة بالجهاد والقياس والزكاة مع الفرائض الأخرى ذات الطابع الشخصى التى تتعلق بالصلاة والصوم والحج . وقد أشار آية الله الخمينى فيما بعد الى نفس

هذا الكلام فى نداءاته التى تحض على خلق دولة اسلامية فى ايران .

وفيما يتعلق بالعقوبات على النحو الوارد بالشريعة الاسلامية نجد أن الغزالى قد اتفق فى الرأى مع محمد رشيد رضا على أنه ينبغى تأجيل تنفيذ قطع اليد بالنسبة للسارق والجلد بالنسبة للزانى لحين الانتهاء من اقامة مجتمع اسلامى قويم وسليم . وكان الغزالى ينتقد مثل هذه الممارسات التى تتم فى المملكة العربية السعودية « نحن لا نجادل ولا نعارض من حيث ان هذه الممنوعات هى جزء لا يتجزأ من الاسلام ولكن من الغريب حقا أن ينظر الى هذه الممنوعات على أنها بمثابة الاسلام كله » . وأضاف « نحن نرغب أن نشاهد تطبيق هذه العقوبات حتى يمكن الحفاظ على الفضائل والحقوق والأمن ولكننا لا نرغب أن نشاهد قطع يد لص صغير سرق مبلغا ضئيلا بينما لا تطبق العقوبات على أولئك الذين اختلسوا مبالغ خيالية من خزانة الدولة » وفيما يتعلق بالنساء اتخذ الغزالى الموقف الاسلامى التقليدى . اذ كان يرى تحريم الملابس الجذابة الباهرة والمظهر الجذاب عند النساء وتواجدهن بدون مرافقين فى الحدائق العامة والأماكن الخلوية . وكان يرحب بتعليم المرأة مادام تعليمهن يتجه مباشرة نحو اعدادهن لتربية أطفالهن ورعاية شئون العائلات .

وعندما ألغيت الأحكام العرفية فى عام ١٩٥٠ فان الحظر المفروض على جماعة الاخوان المسلمين قد ألغى وسمح لها بالعمل والممارسة من حيث هى مؤسسة دينية . ولكن عقب مرور عام على انتخاب حسن الهضيبى — وهو قاض كبير يعارض العنف والارهاب — رئيسا لجماعة الاخوان المسلمين نجد أن الاخوان المسلمين عادوا الى الحقل السياسى . وتحت الضغوط الشعبية المناهضة للبريطانيين الحت الحكومة المصرية على بريطانيا لكى

تسحب قواتها العسكرية على الفور من الأراضى المصرية . وعندما راوغت بريطانيا فى تنفيذ هذا المطلب قامت القاهرة بالغاء المعاهدة الانجلو مصرية لعام ١٩٣٦ من جانب واحد فى أكتوبر ١٩٥١ (وكانت هذه المعاهدة سارية المفعول حتى عام ١٩٥٦) . وهنا قامت مؤسسة الاخوان المسلمين بتقديم عونها ودعمها للحكومة المصرية وأعلنت الجهاد ضد المحتلين البريطانين . ونظرا لان الاخوان المسلمين أصبحوا يتلقون تدريبات عسكرية على أيدى المتعاطفين معهم من أفراد الجيش المصرى فان قيادة الاخوان المسلمين أصبحت فى أيدى المجاهدين والمحاربين منهم . ولعبت جماعة الاخوان المسلمين(*) دورا مهما فى أحداث الشغب بالقاهرة التى تمت فى يناير ١٩٥٢ وهى أحداث هزت النظام الملكى فى مصر ومهدت الطريق أمام تفجر انقلاب عسكرى عقب ستة شهور .

وفى مجال الاستعداد لتنفيذ انقلاب عسكرى ضد الملك فاروق قام الضباط الأحرار بتخصيص فرق من الاخوان المسلمين للقيام بأعمال المعاونة والمساعدة . ولكن اتضح أن ذلك الاجراء لا لزوم له : اذ لم يواجه انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ اية مقاومة . وعندما قام اللواء محمد نجيب والعقيد جمال عبد الناصر بحظر والغاء كافة الأحزاب السياسية فانهم استثنوا جماعة الاخوان المسلمين على أساس أنها جماعة دينية وليست سياسية . ومن بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى يضم ١٨ عضوا والذى تقلد زمام الحكم فى البلاد كان يوجد أربعة منهم على صلة وثيقة للغاية مع جماعة الاخوان المسلمين . وكان محمد أنور السادات من بين هؤلاء الأربعة . وأعطى مجلس قيادة الثورة لجماعة الاخوان

(*) جماعة الاخوان المسلمين أو منظمة الاخوان المسلمين أو تنظيم الاخوان المسلمين كل ذلك مترادفات لاسم واحد . المترجم

"المسلمين ثلاثة مقاعد فى الحكومة ولكن الهضيبى رفض هذا العرض . وعندما تخلص جمال عبد الناصر من محمد نجيب وتربع على قمة السلطة فى البلاد فى أواخر عام ١٩٥٣ بدأ القادة العسكريون فى تطبيق الاصلاح الزراعى . فعارض الاخوان المسلمون هذا الاجراء وتفجرت فجوة واسعة بينهم وبين الحكومة . وبدأ الاخوان المسلمون يعتقدون أن الحكام العسكريين هم الى حد بعيد أناس يجرون وراء الأساليب الحديثة ويميلون أكثر الى نشر التعليم العمانى واعطاء حقوق متساوية للمرأة واصلاح نظام الملكية للأراضى ويهملون تطبيق الشريعة الاسلامية على جميع مجالات الحياة . فقام المجاهدون من الاخوان المسلمين بتكوين الخلايا السرية من جديد — وهى خلايا تعرف أيضا باسم الأنظمة الروحانية — من أجل تنفيذ الاغتيالات والأعمال التخريبية . وفى ٢٣ أكتوبر ١٩٥٤ حاول عبد المنعم عبد الرؤوف — وهو من الجناح العسكرى للاخوان المسلمين — اغتيال عبد الناصر أثناء مؤتمر شعبى عقد فى الاسكندرية . ولكنه فشل فى اغتياله . فتم تنفيذ حكم الاعدام فى عبد المنعم عبد الرؤوف علاوة على اعدام خمسة آخرين من أعضاء الاخوان المسلمين بالاضافة الى وضع ٤٠٠٠ عضو نشط من الاخوان المسلمين فى السجون . واضطر الآلاف من الاخوان المسلمين للهرب الى سوريا والمملكة العربية السعودية والأردن ولبنان والاقامة هناك بصفة مستمرة .

وبعد عامين تغلب عبد الناصر على المحنة التى نجمت عن غزو مصر بمعرفة اسرائيل وبريطانيا وفرنسا وتصاعد نجم عبد الناصر وبدأ التدهور يتفشى فى أوصال الاخوان المسلمين تدريجا . وسار الأزهر على نفس سياسته القديمة التى تتلخص فى مساندة السلطات الحاكمة ولذلك كان يصدر الفتاوى التى ترغب حكومة عبد الناصر فى اصدارها سواء كانت الفتوى تتعلق

باعادة توزيع الأراضى على الفلاحين أو تأميم التجارة الداخلية والخارجية أو الاستيلاء على ممتلكات الأشخاص الذين تم نفيهم سياسيا وابعادهم عن مصر .

وفى عام ١٩٦٤ ـ كجزء من العفو العام ـ قام عبد الناصر باطلاق سراح أعضاء الاخوان المسلمين من أجل استقطابهم واختيارهم ليكونوا أعضاء فى تنظيم سياسى بهدف مواجهة الشيوعيين الذين كانوا قد أطلق سراحهم من السجون أيضا . الا أن المصالحة بين عبد الناصر وجماعة الاخوان المسلمين لم تستمر سوى فترة ضئيلة . اذ أشارت التقارير الى أن العديدين من قادة الاخوان المسلمين قد تورطوا فى ثلاث مؤامرات لاغتيال عبد الناصر بتمويل وتدبير من ملك السعودية الذى كان منهمكا آنئذ فى صراع مع عبد الناصر بشأن فرض السيادة على اليمن الشمالية (وذلك عقب الانقلاب الجمهورى الذى حدث باليمن فى سبتمبر ١٩٦٢) وعلى كل مكان فى الشرق العربى . وقد نتج عن ذلك القاء القبض على ١٠٠٠ من الاخوان المسلمين ومحاكمة ٣٦٥ منهم بالاضافة الى تنفيذ حكم الاعدام فى كبار قادتهم فى عام ١٩٦٦ ومن بينهم سيد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦) .

وكان سيد قطب هو أعظم الايديولوجيين والمفكرين فى جماعة الاخوان المسلمين . وفى كتابه « معالم على الطريق » الصادر فى أوائل الخمسينات قسم سيد قطب الأنظمة الاجتماعية الى فئتين : نظام الاسلام ونظام الجاهلية (وكلمة الجاهلية هنا مشتقة من الجهل الذى كان سائدا فى شبه الجزيرة العربية قبل مجىء النبى محمد وقبل نزول الرسالة على محمد صلى الله عليه وسلم حيث كان الناس لا يعبدون الله وانما يعبدون رجالا آخرين متنكرين فى هيئة آلهة) وأشار سيد قطب فى تحليلاته الى أن حكومة عبدالناصر

هى عبارة عن نسخة جديدة من الجاهلية . وقد أدى ذلك الى تصاعد شعبية سيد قطب بين الشباب من جماعة الاخوان المسلمين كما أدى احتقار الناس للمؤسسة السياسية والدينية فى مصر . وكان سيد قطب قد ألقى القبض عليه فى عام ١٩٥٤ أثناء اضطهاد الاخوان المسلمين . وعندما أطلق سراحه عقب مرور عشر سنوات رشحه الأعضاء العسكريون السريون بجماعة الاخوان المسلمين ليكون رئيسا للجماعة . اذ كانوا يريدون الانتقام من ذلك الاضطهاد الذى عانى منه الاخوان فى منتصف الخمسينات . ونظرا لأن سيد قطب كان يميل بطبيعته الى التأمل والتفكير فانه كان يرغب فى تجنب العنف . ولكن عندما الح عليه أتباعه الراديكاليون على ضرورة شن الجهاد ضد النظام الذى سبق له أن وصفه بأنه مماثل للنظام فى العصر الجاهلى لأنه نظام يخون المفاهيم الاسلامية فانه لم يستطع العثور على مخرج .

وأثناء محاكمته فانه لم يتجادل فى الاتهام الرسمى الموجه اليه بأنه قام بالتحريض على الفتنة والعصيان . وراح يشرح موقفه من الناحية الأيديولوجية . حيث قال : « ان روابط الايديولوجية والايمان هى أقوى من روابط المشاعر الوطنية الحماسية التى ترتكز على الاقليم أو المنطقة . وهذا التمييز الزائف بين المسلمين الذى يتم على أسس اقليمية ليس سوى تعبير عن الحملات النصرانية ضد المشرق وتعبير عن الامبريالية الصهيونية التى ينبغى القضاء عليها » . وبمعنى آخر فان الوطن ليس هو الأرض وانما هو مجموعة المؤمنين أو الأمة الاسلامية كلها . وذهب فى تقديراته الى أنه ما أن يعلن الاخوان عن شخص ما أنه جاهلى فانه يكون لهم الحق فى الهجوم على شخصه أو ممتلكاته . فهذا الحق قد منحه الاسلام . فاذا حدث أثناء تأدية هذا الواجب المقدس وشن الجهاد ضد الكفار أن وجد أخ مسلم نفسه قائما بأعمال

التحريض على الفتنة والعصيان فانه لا غرابة فى ذلك ولا مسئولية عليه . لأن مسئولية خلق مثل هذا الموقف تقع على عاتق أولئك الذين خلقوا من خلال سياساتهم مثل هذه الظروف منذ البداية .

وعقب مرور عام على وفاة سيد قطب فان وجهة نظره هذه قد لقيت الكثير من القبول والانتشار . وكان لهذا علاقة بحرب الأيام الستة العربية/الاسرائيلية فى يونيو ١٩٦٧ . فالهزيمة المذلة الساحقة التى ألحقها الاسرائيليون بمصر مع تدمير سلاحها الجوى والاستيلاء على شبه جزيرة سيناء كان بمثابة ضربة شديدة لاشتراكية عبد الناصر العربية شبه العلمانية مما خلق بيئة تميل الى قبول وجهة نظر الاخوان المسلمين القائلة بأن المعتقدات الاسلامية التراثية قد أهملت أو كبتت بمعرفة الحكم الناصرى . وساد اعتقاد عام بين جماهير الناس بأن العرب قد هزموا لأنهم ابتعدوا عن الطريق القويم وعن تنفيذ تعاليم الله . وحتى « مجلة الأزهر » الشهرية الناطقة بلسان الجامعة الموقرة التى سبق لها أن كانت خانعة ومتذللة لعبد الناصر مثلما كانت خانعة لكافة الحكام السابقين على عبد الناصر قد أشارت الى أن المسلمين قد ابتعدوا عن ماضيهم المجيد وسمحوا لأنفسهم بالوقوع فريسة للمفاهيم المسمومة الضارة المصطنعة الزائلة . كما أشارت الى أن الحرب الاسرائيلية العربية كانت بمثابة صراع بين الاسلام واليهودية وحثت على ضرورة تقوية وتدعيم التعليم الاسلامى بين جماهير الناس على أساس أن تلك هى أفضل وسيلة فعالة لمحاربة اسرائيل . وساد الاعتقاد بأن السبب فى انتصار اليهود يرجع الى ان اليهود كانوا متمسكين بعقيدتهم اكثر من العرب الذين كانوا مشغولين بفكرة انشاء وطن عربى يرتكز على اللغة المشتركة وعلى الحقوق المتساوية لكافة المواطنين المنتمين لكافة الأديان .

وكانت الهزيمة على أيدى الاسرائيليين سببا فى اندحار تيار القومية العربية العلمانية والاتجاه نحو احياء الثقة فى الأصوليين .

وأحدثت الهزيمة صدمة هائلة فى نفوس جماهير الناس حتى انهم كانوا فى أشد الحاجة الى العزاء والتهدئة من روعهم .. فوجدوا ذلك فى الدين . وأحست الحكومة بذلك . وقامت وسائل الاعلام الموجهة بمعرفة الحكومة بتذكير قرائها ومستمعيها بالانجازات الكبرى وكذلك حالات المحن والبلاء التى شهدها الاسلام وكذلك الأعمال التى قام بها محمد عليه الصلاة والسلام ورفاقه . وسرعان ما زودت القوات المسلحة بمطبوعات تتحدث عن معنى الجهاد مع تقديم وصف للمعارك التى خاضها النبى محمد . لقد سارعت حكومة عبد الناصر الى استقطاب مشاعر الحساسية الاسلامية التى اجتاحت جماهير الناس وتوجيهها للمصلحة القومية فى مصر . ففى ابريل ١٩٦٨ أطلق عبد الناصر سراح مئات عديدة من الاخوان المسلمين المسجونين البالغ عددهم ألف شخص والذين كانوا قد أودعوا فى السجن منذ ثلاث سنوات .

وقد ازدادت موجة التدين التى كانت تتخذ فى الغالب طابعا روحيا أو صوفيا بعد أن قامت اسرائيل بضم القدس الشرقية (التى تعتبر ثالث مكان مقدس بالنسبة للاسلام حيث يوجد بها المسجد الاقصى وقبة الصخرة) واحراق المسجد الأقصى على نحو متعمد فى يوليو ١٩٦٩ .

ومات جمال عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٧٠ ووصل محمد أنور السادات الى منصب رئيس الجمهورية فأدى ذلك الى رفع معنويات جماعة الاخوان المسلمين . وكان السادات قد تقابل مع حسن البنا لأول مرة فى عام ١٩٤٠ كما حضر العديد من الدروس الاسبوعية التى كان يلقيها حسن البنا فى المركز الرئيسى للاخوان

المسلمين فى خلال الأربعينات . وهو لم ينقلب ضد حزب الاخوان المسلمين الا بعد أن قام الاخوان بمحاولة لاغتيال عبد الناصر فى عام ١٩٥٤ . وكان السادات مشهورا بالتقوى والورع . لذلك كثيرا ما استخدمه عبد الناصر من أجل ابراز الطابع الاسلامى لحكومته . مثال ذلك أنه قد اختار السادات ليكون سكرتيرا عاما للمؤتمر الاسلامى الذى تأسس فى عام ١٩٦٥ بهدف تجميع الرأى العام الاسلامى بالخارج لصالح مصر .

وبعد أن تولى السادات رئاسة الجمهورية فانه رفع شعار « الايمان والعلم » وأصدر تعليماته التليفزيون والراديو التابعين للدولة باذاعة أذان الصلوات الخمس يوميا . ووعد بأن تكون الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع مستقبلا . ثم أطلق سراح المسجونين المنتمين للاخوان المسلمين بمن فيهم الهضيبى . وتعمد أن يكتسب طابع « الرئيس المؤمن » .

وفى مايو ١٩٧١ قام السادات بانقلاب أو « حركة تصحيح » ضد مجموعة على صبرى اليسارية بالاتحاد الاشتراكى العربى الحاكم . وشجع فى حماسة المشاعر الاسلامية والجماعات الاسلامية بهدف احداث توازن مع النفوذ اليسارى . ثم أصدر تعليماته للواء عبد المنعم أمين لكى يشيد حوالى ألف جمعية اسلامية بالجامعات والمصانع بهدف محاربة الماركسية الوثنية . وكان حريصا على أن يشاهد الشباب المصرى الباحث عن أيديولوجية وهو يتحول الى الاسلام أكثر مما يتحول الى الماركسية . وبدأ أعضاء الاخوان المسلمين المبعدين عن مصر يعودون من السعودية وغيرها من البلاد العربية الأخرى مما أدى الى تدعيم وتقوية القوى الاسلامية فى داخل مصر .

واكتسب السادات المزيد من الشعبية بين جماهير الناس أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ المصرية الاسرائيلية . وركز السادات على العناصر الاسلامية المتعلقة بالحروب : حيث شن الحرب في شهر رمضان المقدس وأطلق اسم « بدر » على المعارك تيمنا بمعركة بدر التي هي أول معركة يخوضها النبي محمد ضد أهل مكة الوثنيين ويحرز النصر عليهم . واستبسل المصريون في القتال الى أقصى حد ممكن . وتمكنوا من عبور قناة السويس على الرغم من المحاولات المتكررة من جانب الاسرائيليين المسلحين بأحدث الاسلحة الثقيلة الجديدة المنقولة جوا من أمريكا الى اليهود مباشرة وصمد المصريون على مدى القتال المستمر الذي دام ثلاثة أسابيع . وعلى الرغم من أن النتيجة النهائية من الناحية العسكرية هي قرار بوقف اطلاق النار فان السادات أحرز بالفعل انتصارا سياسيا هائلا . وأظهرت حكومة السادات النتيجة على أنها انتصار عظيم لمصر ولجميع الدول العربية . وهناك شك ضئيل في أن حرب ١٩٧٣ التي شنتها مصر وسوريا قد ساعدت على اعادة احترام الذات للعرب والمصريين . اذ شعر الكثيرون من المصريين أن الله قد قبل ندمهم وتوبتهم الجماعية التي قدمت عقب هزيمة ١٩٦٧ وكافأهم باحراز نصر في عام ١٩٧٣ .

ولا غرابة في أن الحرية التي منحت للأصوليين قد أدت الى ظهور مجموعات أكثر راديكالية من منظمة الاخوان المسلمين . ومن بين هذه المجموعات الجديدة : جماعة التحرير الاسلامي . اذ شنت هذه الجماعة في يونيو ١٩٧٤ هجوما مسلحا على الأكاديمية العسكرية الفنية المتواجدة في احدى ضواحي القاهرة لكي تستولي على أسلحتها قبل الزحف الى المركز الرئيسي للحزب الحاكم المتواجد في وسط القاهرة ـــ حيث كان من المقرر أن يلقي السادات خطابا هناك ـــ من أجل الاطاحة بالحكم وانشاء دولة اسلامية ..

وفشلت فى مهمتها . الا أن هذا الهجوم الذى أسفر عن مصرع ٣٠ من الجنود قد أكد للحكومة أن هناك مقاتلين اسلاميين ينتظمون فى أعمال سرية خارج نطاق جماعة الاخوان المسلمين .

وأصدر السادات عفوا عاما فى عام ١٩٧٥ وبعد عام واحد أصدر قرارا بالسماح بالعودة لنظام تعدد الأحزاب الذى كان سائدا فى العهد الملكى وذلك سمح للاخوان المسلمين باعادة تنظيم قواتهم مع الدخول فى تكامل مع جامعة الأزهر التى هى المركز الرسمى للاسلام والتى سبق أن طهرت من عناصر الاخوان المسلمين بمعرفة حكومة عبد الناصر . ولكن نظرا لأن السادات كان يدرك تماما مدى الشعبية الهائلة التى يتمتع بها جماعة الاخوان المسلمين فانه أحبط خطط قادتهم الرامية الى الحصـــول على موافقة السلطات على اعتبارهم « منبرا » متميزا . لذلك لم يكن أمام الاخوان المسلمين سوى الوقوف كمستقلين أو كأعضاء فى الحزب الحاكم . وقد تلاءم هذا مع السادات، الذى كان حريصا على احداث تقسيم فى داخل جماعة الاخوان المسلمين مع استقطاب القطاع المعتدل منهم وادخاله فى المؤسسة السياسية .

والأعضاء الستة الذين هم من الاخوان المســلمين والذين انتخبوا أعضاء بالبرلمان وفقا للائحة مرشحى الحزب الحاكم بقيادة صالح أبو رقية قد عوملوا معاملة طيبة من الحكومة وســمح لهم باصدار جريدة شهرية تحت عنوان « الدعوة » . وكانت الجريدة تطبع وتنشر بمعرفة عمر التلمسانى الذى كان يعمل محاميا والذى كان أحد قادة جماعة الاخوان المسلمين والذى كان قد صدر ضده حكم فى عام ١٩٤٥ ثم سمح له فيما بعد بالهجرة الى المملكة العربية السعودية . ورغم أن جماعة الدعوة كانت تشترك فى الرأى مع السادات من حيث مناهضة الشيوعية ومناهضة الآراء الناصرية

فانها كانت تعارض سياسة السادات التى تقود مصر نحو المعسكر الأمريكى مع الموافقة التامة على خطة السلام للشرق الأوسط التى يرعاها الأمريكيون . والأعضاء التسعة المستقلون من الاخوان المسلمين بالبرلمان بقيادة سعيد رمضان كانوا يتمتعون بقدر كبير من التأييد الشعبى حيث كانوا أكثر راديكالية من « مجموعة الدعوة » وعرضوا التعاون مع الحكومة ولكن بشرط الالتزام ببرنامجهم المتعلق بالخط الاسلامى والاجراءات الاسلامية .

لقد نجح السادات فى استقطاب العديد من قادة وزعماء الاخوان المسلمين وادخالهم فى النواحى السياسية الا أن هذا بدوره قد أدى الى خروج العديد من الاخوة المسلمين المناضلين المقاتلين من تنظيم الاخوان المسلمين وتشكيل جماعات راديكالية سرية وأشهر هذه الجماعات السرية هى : المكفرتية **Makfirtiya** أى المناهضين للكفر والالحاد) ، وجند الله (أى جنود الله) ، ومنظمة الجهاد ، والتكفير والهجرة . وكل هذه الجماعات الجديدة كانت تعارض الحكومة فى عنف شديد .

وقد لعب أعضاء « التكفير والهجرة » دورا رئيسيا فى أعمال النهب وحرق الملاهى الليلية على طول « الشريط الذهبى الملىء بالرقص وخلع الملابس قطعة وراء قطعة » بالقاهرة وعلى مدى ثلاثة أيام من التمرد الواسع الانتشار فى منتصف يناير ١٩٧٧ وكان سبب ذلك هو سحب الحكومة الدعم المالى للسلع الضرورية اليومية الأساسية . وكان ذلك التمرد بقيادة : شكرى أحمد مصطفى وهو مهندس زراعى كان قد ألقى القبض عليه فى عام ١٩٦٥ على أساس أنه عضو نشط فى جماعة الاخوان المسلمين . وفى داخل السجن حرر نفسه من الاخوان المسلمين القدامى حيث وجدهم متسمين بالعناد والضعف .

وبعد اطلاق سراح شكرى مصطفى من السجن بدأ يجند أعضاء لكى ينضموا الى مجموعته . ورغم أنهم قد سموا أنفسهم باسم جماعة المسلمين فان السلطات الحكومية قد أطلقت عليهم فيما بعد اسم : التكفير والهجرة لأن ذلك الاسم يلخص أيديولوجيتهم وخططهم وتاكتيكاتهم . وفى المسودة التى كتبها شكرى مصطفى تحت عنوان : « التوسمات » (وهو قد رفض أن يطبعها بهدف تجنب التجديف المتعلق بالطباعة) نجد أنه دعا المؤمن الى الهرب من أخطار الشرك وتجنب التعرض للتعذيب على أيدى الكفار والملحدين . وبعدئذ ينبغى عليهم أن يعلنوا الجهاد بهدف انشاء دولة اسلامية . ويشير مصطفى الى أن تدمير الملحدين وتدمير دولتهم لا يمكن أن يتحقق بينما المؤمنون مازالوا يعيشون بينهم .. بل أضاف قائلا : ان النبى محمدا قد طلب من المؤمنين أن يتركوا الأراضى المليئة بالكفر والتجديف . وبعدئذ يمكن فقط للعقوبة الالهية أن تهبط على الكفار . ونظرا لأن مصطفى يعتبر أن المجتمع المصرى هو مجتمع كافر فانه أصبح لزاما على أتباعه أن يهاجروا ويشكلوا مجتمعا نقيا يتمشى مع السياسة التى أتبعها النبى محمد فى المدينة المنورة . وحقيقة الأمر أن الكثيرين من أتباع مصطفى حرصوا على العيش فى الكهوف والجبال فى محافظة المنيا فى صعيد مصر حيث راحوا يتدربون على أمور كثيرة من بينها التدريبات العسكرية . وقد اكتشفت قوات الأمن تواجدهم فى تلك الأماكن فى سبتمبر ١٩٧٣ ولكن السادات أصدر عفوا عنهم عقب حرب أكتوبر .

ونظرا لأن أتباع مصطفى كانوا ينظرون الى الموظفين الدينيين على أنهم من الكفرة الملحدين فانهم كانوا يقاطعون الصلاة التى يؤمونها وبذلك يصلون معا فى المنازل الخاصة بهم . وكانوا يتزوجون من بين داخل أفراد الجماعة فقط ويمنعون أطفالهم من

الذهاب الى المدارس الحكومية بل كانوا يرفضون الذهاب لأداء الخدمة العسكرية فى الجيش .

وكان هذا التنظيم يضم خلايا ســـرية تكون مهمتها مهاجمة الملاهى الليلية ودور السينما والبارات وذلك هو ما أقدمت عليه بالفعل أثناء تمرد يناير ١٩٧٧ . وقامت قوات الأمن بالقاء القبض على ٦٠ عضوا من هذه الجماعة . فأثار ذلك سخط الأعضاء الشبان وطـالبوا بأن أولئك الذين ألقى القبض عليهم ينبغى محـاكمتهم أو الافراج عنهم فورا . وعندما لم تستجب الحكومة لمطالبهم فانهم قاموا فى ٣ يوليو باختطاف الشيخ محمد حسين الذهبى وهو وزير سابق للأوقاف والأزهر لأنه كتب مقالة فى احدى الجرائد هاجم فيها جماعتهم . ورفضت الحكومة مطلبهم . فقاموا بقتل الشيخ الذهبى . فقامت قوات الأمن بالهجوم على جماعة التكفير والهجرة المنتشرين فى جميع أرجاء الجمهورية وتم القاء القبض على ٦٢٠ منهم كما تم محاكمة ٤٦٥ منهم أمام محاكم عسكرية . وتم اعدام خمسة منهم من بينهم زعيمهم مصطفى . وقد كشـفت التحريات الرسمية عن أن هذا التنظيم يتراوح أعضاؤه ما بين ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ عضو ينتمون الى كافة أنواع الطبقات الاجتماعية وينتشرون فى جميع أرجاء البلاد .

وبعدئذ تم عقد مؤتمر للجمعيات والجماعات الاسلامية فى يوليو ١٩٧٧ برئاسة شيخ الأزهر الشـــيخ عبد الحليم محمود بالقاهرة . وأصدر هذا المؤتمر بيانا شاملا :

ان كل التشريعات وكل الأحكام التى تتعارض مع الاســلام فانها تعتبر زائفة .. وايمان المسلمين لا يكون فعالا ونافذ المفعول الا اذا كان خاضعا للشريعة الاسلامية أو القانون الالهى . وحده

فقط لا غير .. والمطالبة بتطبيق الشريعة الاسلامية هو الواجب الذى ينبغى أن يقوم به جميع المسلمين . ونحن لا نقبل أية نصائح تتعلق بالاعتدال أو التأجيل فى هذا الموضـــــوع . فتأجيل تطبيق الشريعة هو خطيئة وهو عدم طاعة لله ولرسوله محمد . وينبغى على الهيئة التشريعية أن تسارع بالتصديق على مشاريع القوانين المقترحة ..

وأخيرا فان المؤتمر « قد أسعده أن يشير الى بيان رئيس المؤتمر الذى أعلن فيه أنه يعتزم العمل على تطهير الادارة من كافة العناصر الالحادية » .

وعقب انتهاء هذا المؤتمر أصدر السادات أوامره بوضـــــع فقرات ملائمة من الشريعة الاسلامية محل تلك الفقرات الواردة بالقانون المصـــرى والتى ترتكز على القانون النابليونى . وأعلن مجلس الدولة أنه يقوم بدراسة مشروع قانون ينص على معاقبة أولئك الذين يتم ضبطهم متلبسين بشرب الخمر أو ارتكاب الزنا . وأن قرارا جمهوريا ينص على تطبيق عقوبة الاعدام لمن يرتد عن الدين الاسلامى بصدد العرض على البرلمان لاقراره والتصـــــديق عليه . وفى ١٠ أغسطس أشارت جريدة الأهرام — وهى الجريدة الرسمية بالبلاد — الى أنه يتم اعداد مشروع قانون ينص على قطع يد السارق .

وبالطبع هدأت هذه البيانات من روع الجماعات الاســـلامية وأدخلت عليهم الطمأنينة . الا أنها تسببت فى انزعاج الأقباط أو المسيحيين المصريين الذين يشكلون حوالى ١٠ ٪ من مجموع السكان فى مصر . اذ شعروا أن مشروع القانون المتعلق بالارتداد عن الدين الاسلامى موجه ضدهم نظرا لأنهم غالبا ما يتحولون الى الدين الاسلامى من أجل التمكن من الحصـــول على طـــلاق ســـريع من

زوجاتهم وبعدئذ يرجعون مرة أخرى الى اعتناق المسيحية . وأعلن الاتباط احتجاجهم فى أوائل سبتمبر ١٩٧٧ وأصدروا بيانا أشاروا فيه الى انهم لن يخضعوا لقانون الارتداد عن الدين فى حالة حصول هذا القانون على الموافقة والتصديق عليه . فتخلى السادات عن هذه الفكرة بعد أن واجه هذه المعارضة القوية .

وبعدئذ أصبح الســادات واقعا فى ورطة وحائرا بين قوتين متعارضتين متناقضتين فى مصر : اذ هاجمه المسلمون المتشددون بسبب نكوصه بوعده فيما يتعلق باصدار التشــريع المرتكز على الشريعة الاسلامية . كما هاجمه المسلمون الليبراليون بسبب تدعيمه للاسلام التقليدى المتشدد . فحاول أن يشق طريقه مراوغا من خلال تقديم تنازلات متناقضة .

ففى خطابه أمام البرلمان فى ٩ نوفمبر نجد أنه جمع فى كلمته بين الاعلان على الملأ بأنه على اســتعداد للذهاب الى البرلمان الاسرائيلى بهدف التوصل الى احلال سلام فى الشرق الأوســط والهجوم الشديد على الملحدين المسئولين عن أعمال الشــغب التى حدثت فى ١٩/١٨ يناير ١٩٧٧ حيث قال محذرا « اننى لن أسمح لأى جماعة . . أن تنشر الالحاد بين شعبنا المؤمن . . شعبنا الذى يجرى فى عروقه الايمان » . وكان هذا التحذير باعثا على السخرية لأن الأصوليين الراديكاليين كانوا هم القوة الرئيســية التى ساندت أحداث الشغب هذه .

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا انهمك الســادات فى اجراءات التفاوض على السلام مع اسرائيل . ونظرا لأن هذه الأعمال كانت تتعارض مع المشاعر الاسلامية فى داخل مصر وخارجها فانها قد وســعت الفجوة بين حكومته والجماعات الاســلامية . وقد

ساعد هذا الحركة الاسلامية بوجه عام على الاستفادة من السخط السائد فى البلاد حيث عملت على توسيع نطاق ذلك السخط .. وفى هذا الصدد قال سعد الدين ابراهيم وهو أستاذ علم الاجتماع « ان تاريخ العالم العربى هو تاريخ حركات احياء اسلامية تظهر عادة فى أعقاب ما يمكن اعتباره بأنه فشل هائل لنظام الحكم القائم . فالجولة الحالية أو الدورة الحالية بدأت فى عام ١٩٧٥/٧٤ حيث نظر الطلبة فى انزعاج شديد الى التقارب مع اسرائيل والتودد اليها علاوة على التقارب بوجه عام مع الغرب . كما كان هناك ذلك التشويش والاضطراب الاجتماعى الاقتصـــادى فى المجتمع علاوة على احباطات الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة » .

وكان من المظاهر المهمة لهذه الظاهرة هو ذلك التأييد الذى حصلت عليه العناصر الاسلامية فى حرم الجامعات . ففى انتخابات ابريل لعام ١٩٧٨ لاختيار أعضاء اتحاد الطلبة نجد أن الاسلاميين قد فازوا بـــ ٦٠٪ من المقاعد فبحلول ذلك الوقت كانت جماعة الاخوان المسلمين والفروع التابعة منها قد ســيطرت على معظم الجمعيات الاسلامية البالغ عددها ١٠٠٠ جمعية وهى التى سبق ان أنشئت وفق أوامر صادرة عن السادات فى أوائل السبعينات .

ان غالبية طلبة الجامعات فى هذه الأيام يجيئون من عائلات ريفية تنتمى للطبقة البورجوازية الصغيرة التى تشــــكل العمود الفقرى التقليدى لجماعة الاخوان المسلمين . وهذه الشريحة من المجتمع قد انقلبت ضد الحكومة لأسباب عديدة حيث تضايقت من اعتراف السادات باسرائيل وانزعجت من تصاعد الفساد المادى والروحى الناجم عن سياسة الباب المفتوح الاقتصـــادية الحكومية الرامية الى جذب رأس المال الأجنبى وتشجيع مشروعات القطاع الخاص . فالسياسة الاقتصادية للسادات قد عمقت الفجوة بين الفقراء والأغنياء بسبب رفع أســعار المواد الغذائية والمســاكن

وبسبب توجيه ضربة شديدة للصناعات المحلية من خلال استيراد بضائع أجنبية رخيصة الثمن .

كما أن التوقيع على معاهدة سلام بين مصر واسرائيل والذى على وشك أن يحدث فى مارس ١٩٧٩ قد أغضب كثيرا الطلبة الاسلاميين حتى أنهم تظاهروا ضد الحكومة فى جامعة الاسكندرية وجامعة أسيوط : وكان ذلك خطوة جريئة للغاية لأن ذلك يعرض المتظاهرين للسجن مدى الحياة . وكانت شعاراتهم تعبر عن أحزانهم وآلامهم : « لا سلام مع اسرائيل » « لا امتيازات للأغنياء » « أوقفوا التدهور الأخلاقى » « لا انفصال بين الاسلام والدولة » . ومما لاشك فيه أنهم قد ابتهجوا من ذلك الانتصار الذى حققته القوى الاسلامية فى ايران منذ شهر تقريبا .

وكانت ردود الفعل لدى السادات سريعة ازاء سقوط شاه ايران محمد رضا بهلوى الذى كان صديقا شخصيا له . اذ حث القادة الاسلاميين المحليين على تدعيم جماعة الدعوة (الرسمية) مع زيادة عدد الوعاظ الرسميين بالمساجد . كما أن وزارة التعليم العالى قد أصدرت تعليمات للجامعات لكى تجعل التعليم الدينى اجباريا . كما أن المتحدث الرسمى باسم البرلمان وعد باصدار التشريع الجديد القائم على الشريعة الاسلامية والذى ظل مركونا ومعطلا منذ عام ١٩٧٧ وتطبيقه بكل دقة .

وقامت مجلة « الدعوة » التى توزع حوالى ٨٠ ألف نسخة شهريا باعطاء صورة كاملة عن مشاعر الاحتجاج التى عبر عنها طلبة الجامعات والمناهضة للاتفاقية المصرية الاسرائيلية . وأصدرت مقالها الصحفى تحت عنوان « من المستحيل العيش فى سلام مع اليهود » . وتعرض هذا المقال للتجارب التى خاضها النبى محمد

فى هذا الصدد واستشهد المقال بالقرآن الكريم وبالتاريخ الاسلامى لتوضيح الأمور . وحتى الاخوان المسلمين المعتدلون الذين يقرأون هذه الجريدة قد أصيبوا بالاحباط وخيبة الأمل بسبب فشل الاتفاقية المصرية الاسرائيلية فى حل المشكلة الفلسطينية البالغة الأهمية . وعلى النقيض من ذلك نجد أن الأزهر الشريف أصدر فتوى ــ تحت ضغط من السادات ــ فى مايو ١٩٧٩ تقر هذا الاجراء الذى اتخذه السادات من الناحية الدينية . اذ جاء فى نص الفتوى : « ان علماء الأزهر يعتقدون أن المعاهدة المصرية الاسرائيلية تتوافق مع الشريعة الاسلامية . فهى قد أبرمت من مركز القوة عقب معركة الجهاد وعقب النصر الذى حققته مصر فى ١٠ رمضان ١٣٩٣ هجرية الموافق ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ميلادية » وأشارت الفتوى الى معاهدة الحديبية التى وقع عليها النبى محمد مع القرشيين فى مكة فى عام ٦٢٨ مع تجاهل الحقيقة التى مفادها أن تلك المعاهدة كانت بمثابة خطوة نحو سيطرة محمد على مكة .

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا بدأ الاخوان المسلمون المعتدلون ــ وفقا لما جاء فى جريدة « الدعوة » ــ يعارضون السادات فيما يتعلق بالعديد من المسائل المهمة الأخرى . فتأييدهم السابق لسياسات الباب المفتوح التى أعلنها السادات والتى تهدف الى اعادة وتشجيع مشروعات القطاع الخاص علاوة على جذب الاستثمارات الأجنبية ــ التى نظر اليها على أنها ترياق شاف من النزعات الناصرية نحو التأميم والقطاع العام القوى ــ قد تحول الى تدخل من جانب الدولة فى شئون الادارة والاقتصاد واعادة توزيع الثروة . وشجبوا تصرفات السادات الرامية الى بيع استقلال مصر لأمريكا مثلما قاموا فى الماضى بالهجوم على عبد الناصر بسبب تملقه للسوفيت . وذهب الاخوان المسلمون فى تقديراتهم الى أن « التهديد الشيوعى » المزعوم كان ملفقا بمعرفة الامبريالية الغربية بهدف

الابقاء على ربط دول العالم الثالث بالغرب عقب حصول تلك الدول على استقلالها السياسى . واستمروا فى هجومهم على السياسات الاقتصادية للحكومة التى أدت الى ظهور طبقة نامية من أصحاب الدخول الفاسدين والمضاربين والوسطاء والمستوردين للبضائع من الغرب وتساءلت جريدة الدعوة فى مقالها الافتتاحى فى عدد يوليو ١٩٨١ « ومن الذى يحمى الفساد فى مصر التى هى قلب العالم العربى ومنار الاسلام ؟ ان النتانة والروائح الكريهة آخذة فى الانتشار . ويخشى من حدوث انفجار » .

وتناول جريدة الدعوة للفساد المستشرى فى المناصب العليا قد جاء فى الوقت المناسب حيث كتب ذلك فى شهر رمضان المقدس . وخلال تلك الفترة شنت اسرائيل سلسلة من الغارات الجوية المكثفة على أهداف فلسطينية تقع فى جنوب لبنان وأواسط بيروت مما أدى الى استشهاد ٣٨٦ من اللبنانيين والفلسطينيين . وهبت جميع الدول العربية — باستثناء مصر — للوقوف الى الجانب الفلسطينى اللبنانى . اذ لم يفعل السادات شيئا باستثناء شجب واستنكار الغارات الاسرائيلية علاوة على السماح لبعض الأطباء المصريين بالسفر جوا الى بيروت للقيام بمعالجة الجرحى . وقد أدى هذا الى تقويض شعبية السادات بدرجة كبيرة . وفى عيد الفطر (الموافق أول أغسطس) تجمع ما يزيد على ١٠٠ ألف مسلم لتأدية الصلاة فى ميدان عابدين الذى يقع خارج القصر الجمهورى بالقاهرة — وقد تم تجمع هذا العدد الهائل من خلال تشجيع من الجمعيات الاسلامية — وهتفوا جميعا بشعارات معادية للسادات . اذ أصبح الانتقاد لمعاهدة السلام المصرية الاسرائيلية صريحا وعلنيا أكثر من ذى قبل .

وفى أواخر أغسطس أشار مناحم بيجين رئيس الوزراء الاسرائيلى محذرا بأن اسرائيل لن تحترم التزامها الوارد بالاتفاقية

والخاص بجلائها عن شبه جزيرة ســــــيناء فى أبريل ١٩٨٢ اذ؟ استمر الانتقاد للاتفاقية فى مصر فى حرية كاملة وبدون أى ردع . فاتخذ السادات موقفا صارما من المعارضين فى يوم ٣ سبتمبر حيث قام بايداع ٢٠٠٠ من المنشقين معظمهم من الأصوليين الاسلاميين (بمن فيهم عمر التلمسانى) فى السجن علاوة على اغلاق جريدة « الدعوة » . بل قام بتطهير ٢٠٠ من ضباط الجيش ممن تحوم حولهم الشكوك بأنهم موالون للاخوان المسلمين . وكذلك أصدر أوامره بضرورة أن تقوم كافة الجمعيات الدينية المستقلة علاوة على الوعاظ بتسجيل أنفسهم فى وزارة الأوقاف . كما قام أيضا بضم ٤٠ ألفا من المساجد الأهلية الى وزارة الأوقاف . وكان هذا يعنى أن الدولة تتوسع فى سيطرتها لكى تشـــــمل كافة جميع الوعاظ والمساجد مع ممارســـة السيطرة الكاملة عليهم . لأن قانون عام ١٩١١ الذى أنشأ المجلس الأعلى للأزهر قد حول كافة العلماء الدينيين الى موظفين حكوميين . وهذا القانون الجديد قد أعطى الحكومة الحق فى طرد أى عالم بل شطب اسمه من ســـجلات الأزهر فيصبح غير مؤهل لأن يختار لشغل أى وظيفة سواء كانت دينية أو غير دينية .

وأنشأ الســـادات مجالس تأديبية جديدة للطلبة وللموظفين المدنيين . وفى سرعة كان يقوم بسحق محاولات الاحتجاج التى تتم من وقت لآخر والتى يقودها أساسا الاسلاميون . وكان يفعل ذلك فى الوقت الذى أصبحت فيه الغالبية العظمى من المسلمين المؤمنين تنظر فى اشـــــمئزاز لحكومته وتكن الــكراهية العميقة لشخصه .

وفى يوم ٦ اكتوبر قام أربعة من الجنود المسلحين بالأسلحة الآلية والقنابل اليدوية بالهجوم على منصـــة العرض أثناء الموكب

العسكرى الذى يتم باحدى ضواحى القاهرة للاحتفال بانتصار مصر فى حرب أكتوبر لعام ١٩٧٣ . وتمكنوا من قتل السادات وسبعة آخرين . وكان هؤلاء الجنود بقيادة الملازم خالد أحمد شوقى الاسلامبولى البالغ من العمر ٢٤ عاما والذى كان أخوه الأكبر محمود من بين الـ ٤٦٩ عضوا بجماعة التكفير والهجرة الذين ألقى القبض عليهم فى أوائل سبتمبر . وكان الاسلامبولى وزملاؤه الثلاثة ينتمون لمنظمة الجهاد التى يرأسها كل من : الشيخ عمر عبد الرحمن وهو أستاذ جامعى كفيف يعمل فى جامعة أسيوط .. ومحمد عبد السلام فرج وهو مفكر اسلامى .. وعبود عبد اللطيف الزمر وهو برتبة مقدم فى المخابرات الحربية .

وقد رأى قادة منظمة الجهاد أن عملية اغتيال السادات هى حافز للعمل على تحويل كراهية المسلمين المصريين لحكم السادات القمعى الفاسد الى ثورة ضد نظام الحكم القائم والعمل على قيام منظمة الجهاد بمحاولة عسكرية تهدف الى تفجير ثورة اسلامية شاملة . وقد عبر المصريون العاديون عن موافقتهم على اغتيال السادات بان احجموا عن المشاركة فى الحداد العام على موت الرئيس ولكنهم لم يفعلوا شيئا بخلاف ذلك . وقد أدى هذا الموقف الى شعور قادة منظمة الجهاد بالاحباط الشديد . وعلى كل حال فقد حدثت مصادمات مسلحة بين الأعضاء العسكريين لمنظمة الجهاد وقوات الأمن المصرية . وكان معظم هذه المصادمات يتم فى أسيوط . وهناك فى أسيوط قام أعضاء من منظمة الجهاد بالهجوم على محطة الاذاعة المحلية وعلى العديد من أقسام الشرطة وعلى المركز الرئيسى لقوات الأمن . واستمر القتال لمدة يومين وأسفر عن مقتل ١٨٨ شخصا من بينهم ٥٤ من رجال الأمن . وفى ٢٥ أكتوبر أشارت جريدة الأهرام « الى أن الجماعات الاسلامية كانت قد وضعت خطة ارهابية دموية بهدف اقامة حكم فى مصر على غرار

حكومة الخومينى » وانه كان من المقرر لهذه الخطة أن يتم تنفيذها فى يوم ١٣ أكتوبر وهو اليوم الذى كان سيتم فيه انتخابات الرئاسة وحسنى مبارك الذى كان قد حلف اليمين كرئيس للجمهورية عقب موت السادات قد تثبت فى منصبه من خلال اقتراع شـــــعبى . وبحلول أواخر أكتوبر كان حسنى مبارك قد أودع فى السجن مايزيد على ٣٠٠٠ من المتطرفين الاسلاميين الذين ينتمون أساسا لمنظمة الجهاد ومنظمة التكفير والهجرة .

وأوضح الاسلامبولى أثناء محاكمته الأسباب التى دعته الى اغتيال السادات : ان الرئيس المصرى قد عقد سلاما مع اسرائيل وهو قد اضطهد أبناء الاسلام » حيث قام بالقاء القبض على أعداد كبيرة للغاية منهم فى أوائل سبتمبر . كما أن القوانين السائدة فى مصر والتى لا تتوافق مع الشريعة الاسلامية قد فرضت المعاناة على المسلمين المؤمنين .

وكانت السلطات المصرية قد اكتشفت تواجد تنظيم الجهاد لأول مرة فى عام ١٩٧٨ أثناء أحداث الشـــــغب التى دارت بين المسلمين والأقباط . وكان هذا التنظيم تحت قيادة لجنة تتكون من عشرة أعضاء برئاسة الشيخ عمر عبد الرحمن الذى كانت فتاويه بشأن شرعية الأعمال والســـياسات التى يقوم بها تنظيم الجهاد تعتبر غاية فى الأهمية . وفى أواخر عام ١٩٨٠ أصدر الشيخ عمر فتوى تنص على اعتبار أنور السادات كافرا . وهذه الفتوى قد أعطت الشرعية لاغتيال السادات . وفى يناير/فبراير ١٩٨١ انطلق كل من فرج والزمر لكى ينفذا خطة اغتيال السادات . وكان الزمر هو الذى تكفل بمهمة وضع الذخيرة الحية فى الأسلحة المتواجدة مع الاسلامبولى ورفاقه أما باقى المشاركين فى العرض العسكرى فكانت أسلحتهم خالية من الذخيرة الحية .

وكان فرج هو الفيلسوف الرئيسى للمنظمة وقد ألف كتابين : أحدهما تحت عنوان « الجهاد : الفريضة الغائبة » والكتاب الثانى عنوانه « الالتزام الغائب » . وفى هذين الكتابين أوضح نظريته وخطة العمل الخاصة به . وأفكاره الرئيسية تتلخص فى أن كل مسلم صادق مضطر من خلال ايمانه أن يكافح من أجل احياء الأمة الاسلامية . وأن الجماعات الاسلامية أو القادة والزعماء الاسلاميين الذين ابتعدوا عن الشريعة الاسلامية قد أصبحوا مرتدين عن الدين الاسلامى . ولذلك فان المسلم الحقيقى الصادق يكون آثما اذا تعاون مع أى حاكم كافر . وأولئك الذين يرغبون فى القضاء على نظام الجاهلية واحياء الأمة الاسـلامية سيضطرون الى اعلان الجهاد ضد الدولة الكافرة . والشكل الوحيد المقبول للجهاد هو الكفاح المسلح وأى شىء أقل من ذلك ينطوى على الجبن والخوف أو الحمق والتفاهة . فالمسلم الصادق ينبغى عليه أن يواجه أولا الكفر الداخلى (بمعنى الدولة المصـرية) وبعدئذ يواجه الكفر الخارجى (بمعنى العالم غير الاسلامى بوجه عام) . فالابتعاد عن تطبيق الجهاد قد أدى الى تلك الحالة المؤسفة المتردية التى يعيشها حاليا العالم الاسلامى : من حيث الانقسام والانحطاط والازدراء . الا أن هذه الحالة المتردية من المقرر لها أن تنتهى على النحو الذى قدره الله لتاريخ الاسلام : عهد النبى الذى جاء بعده عهود الخلفاء والملوك والديكتاتوريين ، وأخيرا يتم الاطاحة بالديكتاتوريين لكى يحل محلهم نظام مماثل لذلك النظام الذى كان سائدا فى أيام محمد عليه الصلاة والسلام . وقيادة الأمة الاسلامية ينبغى أن تعطى لأتقى المؤمنين الراسخين فى الايمان والذين يخشون الله فى نفس الوقت . وينبغى أن يتم اختياره اختيارا جماعيا وبعدئذ يجب أن يطـاع .

وكان هناك اثنان من المفاهيم الذهنية الجـديدة وردا فى المؤلفات التى كتبها فرج : الجهاد من حيث هو الفريضة السادسة

التى ينبغى أن يلتزم بها الانسان المسلم ثم الجهاد من حيث هو حركة مستمرة تهدف الى تحويل العالم غير المسلم للدخول ضمن الأمة الاسلامية . وهذا كلام مماثل للفكرة التى قالها ليون تروتسكى عن الثورة الماركسية الدائمة . وهذه المفاهيم الذهنية قد جعلت من فرج أكثر المفكرين الأصوليين راديكالية .

وقد كانت فترة حكم السادات التى دامت ١١ عاما هى أهم فترة فى تاريخ الأصولية الاسلامية فى مصر . اذ لم تعد حركة تلقى الاضطهاد الشديد مثلما كانت عليه اثناء الحكم الناصرى . ففى حين رفض السادات التصريح لجماعة الاخوان المسلمين بالعمل كحزب سياسى فانه أتاح لهم المناخ الذى سمح للجناح المعتدل لديهم بالعمل فى حرية نسبية بحيث يقوم بدور حليف مناوىء للحكومة أو بدور المعارضة المخلصة للحكومة . ومن جهة اخرى كان الاتجاه الرئيسى لسياسات السادات الدبلوماسية والاقتصادية والسياسية عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ يتناقض تماما مع أيديولوجية وسياسات الأصوليين مما جعل الأصوليين المعتدلين المتعاونين مع الحكومة يفقدون الكثير من نفوذهم وهيبتهم أمام منافسيهم الراديكاليين .

وما تغلب مبارك على التحدى المباشر لحكومته حتى قام باطلاق سراح المنشقين العلمانيين الذين سجنوا بمعرفة السادات وعقد حوارات مكثفة ومناقشات كثيرة معهم . وعلى نحو متناقض قام أيضا بتشديد القمع على المناضلين الحربيين منهم . وقد ساعده فى ذلك تماما وزير الداخلية : حسن أبو باشا . وتغاضى حسنى مبارك عن النداءات الموجهة اليه لكيلا يقوم بتنفيذ حكم الاعدام فى الاسلامبولى ورفاقه وأصر على اعدامهم بالفعل . وقد استاء الكثيرون فى العالم الاسلامى من اعدامهم ودعت بعض الجماعات

الأصولية الراديكالية الى الاطاحة بحكومة حسـنى مبارك . بل حاول الأصوليون الاسلاميون اغتياله بالفعل فى ٢٥ أبريل ١٩٨٢ الا أن المحاولة فشلت . وقد أدى ذلك الى القاء القبض على ١٤٠ من المقاتلين الاسلاميين الذين اتهموا بالتآمر من أجل تطبيق حكم اسـلامى . وزادت الحكومة من تغلغلها واختراقها للجماعات الأصولية .

وكان أسـلوب حسنى مبارك فى القيادة باهتا وخاليا من الحيوية اذا ما قورن بأسلوب السادات المتوهج المشـتعل الذى يشبه الأسلوب المسرحى . ومن ناحية أخرى نجد أن حسنى مبارك لم يحدث سوى تغييرات تجميلية وزخرفية على سـياسة الباب المفتوح الاقتصادية التى رسمها أنور السادات . كما سار حسنى مبارك على نفس سياسة السادات الخاصة بالانحياز مع الغرب والالتزام بعملية السـلام وفق اتفاقية كامب دافيد : وهى كلها سياسات تؤدى الى ظهور المزيد من المقاتلين الاسلاميين .

واستخدم حسـنى مبارك علماء الأزهر ليس فقط من أجل اضفاء طابع الشرعية على حكومته ولكن أيضا من أجل اعادة تعليم السجناء الاسلاميين . وحاول هؤلاء العلماء اقناع المتطرفين بأن تفسيرهم للاسلام كان تفسيرا خاطئا . وكان قبولهم بوجهة النظر هذه بالاضافة الى اعلان التوبة والندم على أعمالهم الماضية يكفى من وجهة نظر الحكومة لاطلاق سراح المقاتلين السـجناء . وقد فعل الكثيرون منهم ذلك وبالتالى أطلق سراحهم .

ولكى يوسع مبارك من قاعدته الشعبية فانه أعطى المعارضة العلمانية درجة من الحرية . اذ سمح لحزب الوفد الجديد المحافظ بالمشاركة فى انتخابات مايو ١٩٨٤ البرلمانية . وهو اجراء يعتبر

الأول من نوعه لأن السادات سبق أن رفض منحهم هذا الحق ، ونظرا لأن حزب الوفد الجديد يؤيد مشروعات القطاع الخاص فان الحزب الوطنى الديمقراطى برئاسة مبارك قد قدم نفسه على أساس أنه المدافع عن « المكاسب الاشتراكية التى حققها العمال والفلاحون » . ومثلما كان يتم دائما من قبل فان نتائج الانتخابات تعرضت للتزييف . ولكن على الرغم من التزييف نجد أن حزب الوفد قد كسب ١٥ ٪ من الأصوات وحصل على ٥٨ مقعدا فى البرلمان الذى يضم ٥٦٠ مقعدا (المقاعد المنتخبة عددها ٤٥٠ مقعدا) وبذلك حل الوفد محل حزب الأحرار الاشتراكيين من حيث هو حزب المعارضة الكبير . ونظرا لأن قانون الانتخابات الصادر فى يونيه ١٩٨٣ قد نص — تماما مثل قانون الانتخابات السابق عليه — على عدم السماح بتشكيل أحزاب ترتكز على الدين أو الالحاد (الماركسية) فان جماعة الاخوان المسلمين قد منعت من الاشتراك فى الانتخابات ، فاضطر الاخوان المسلمون الى التحالف مع حزب الوفد الجديد على أساس أن كلا منهما كان يعارض ثورة يوليو الناصرية لعام ١٩٥٢ . وأدى حزب الوفد خدمة للاخوان المسلمين من خلال المطالبة بأن الشريعة الاسلامية ينبغى أن تصبح هى المصدر الرئيسى للتشريع . الا أن حزب الوفد قد أخذ ١٨ مرشحا فقط من ٧٠ مرشحا عرضت قيادة الاخوان المسلمين أسماءهم . وقد نجح ثمانية مرشحين فى الانتخابات من بين الـ ١٨ مرشحا . وهكذا نرى أن قوة الأصوليين المستقلين بالبرلمان كانت تقريبا على الدرجة التى عليها فى أيام السادات . وقد قاطع الاسلاميون الراديكاليون الانتخابات مثلما كانوا يفعلون ذلك فى الماضى .

ومع ذلك كان هناك تباين . اذ كان الاحتجاج على التلاعب فى الانتخابات شديدا للغاية لدرجة أن حسن أبو باشا وزير الداخلية والمسئول عن الانتخابات قد نقل الى وزارة أخرى . أيضا

كانت العواطف الاسلامية جياشة للغاية لدرجة أن المعارضة فى البرلمان والعناصر الاسلامية فى خارج البرلمان قد اتحدوا معا من أجل المطالبة بالتنفيذ الفورى والكامل للشريعة الاسلامية . ووصلت هذه الحركة الى ذروتها فى ربيع عام ١٩٨٥ . فوضعت الحكومة نفسها فى موقف الدفاع . ومن الناحية العلنية أشارت الحكومة الى أن القانون المصرى يرتكز على الاسلام بنسبة ٩٠٪ وأن الشريعة الاسلامية هى الأساس فى الدستور المصرى . الا أنها فى السر كانت غير راغبة فى تطبيق الشريعة الاسلامية بالكامل . اذ شعرت أن مثل هذا الاجراء الذى اتخذته الحكومات فى السودان وايران قد أحدث تطورات غير صحية فى هاتين الدولتين . وثانيا فقد كانت الحكومة غير راغبة فى ابعاد وتنفير الأقلية القبطية من السكان فى مصر . وأخيرا وهذا هو الأهم من كل شىء فان الحكومة المصرية كانت تخشى من احجام المستثمرين الغربيين وواهبى المساعدات المالية عن الدخول فى الأعمال المالية والتجارية مع مصر فى حالة اتباع مصر لخطوط اسلامية . وعندما مارست المعارضة المزيد من الضغوط فان الحكومة وعدت « بتطهير » القانون المصرى من البنود غير الاسلامية الواردة به .

فاتهم الأصوليون الحكومة المصرية بأنها تتلكأ وتعمل على كسب الوقت . وفى يونيو ١٩٨٥ قام الشيخ حافظ سلامة Hafiz Salaama وهو زعيم اسلامى بارز بالدعوة الى تسيير مسيرة لصالح الشريعة الاسلامية تبدأ فى الزحف من مسجده بالقاهرة . فسارع مبارك الى تطويق المسجد بفرقة كبيرة من شرطة الأمن المركزى . وبعدئذ سارعت الحكومة الى الغاء الشعارات الدينية التى تلصق على زجاج السيارات والمركبات والتى كانت قد تزايدت طوال السنة السابقة والتى كانت تؤخذ على أنها ـــ بالاضافة الى

منظر السيدات المحجبات بالشوارع ــ دليل مرئى ودراماتيكى على بزوغ وتعاظم الأصولية الاسلامية .

وفى الجامعات نجد أن جهود حسنى مبارك الرامية الى احتواء قوى الاصوليين من خلال تقليص الحقوق التنظيمية للطلاب وزرع الشرطة السرية قد فشلت تماما . وفى أوائل ١٩٨٦ أصبح الأصوليون الاسلاميون مسيطرين على جميع اتحادات الطلاب بل كانوا يرغمون السلطات بالجامعات على أن تكون المناهج والكتب المقررة متوافقة مع المفاهيم الذهنية الاسلامية علاوة على أرغام السلطات الجامعية على تطبيق أسلوب الفصل بين الذكور والاناث وعزلهم عن بعضهم البعض .

وفى كل مكان ومن خلال التحالف مع حزب الوفد الجديد نجد أن الاخوان المسلمين قد نجحوا فى السيطرة على نقابات الصحفيين والمحامين والأطباء والمهندسين . كما أن الصحفيين الاسلاميين قد سيطروا على اثنتين من الصحف الأربع المعارضة التى كانت تنشر معلومات تمجد الحياة فى جمهورية ايران الاسلامية . كما أن العديد من شركات البناء وشركات البضائع الاستهلاكية المملوكة لسبعة شركاء مهيمنة اسلامية كبرى لها أصول يبلغ حجمها بلايين الدولارات الأمريكية ممولة بمعرفة مليون شخص مصرى يعملون بالخليج قد أصبحت مشهورة بأنها تضم مستثمرين أصوليين . وكانت هذه الشركات تدفع حصة من الأرباح تتوافق مع المفاهيم الاسلامية ولا تدفع نسبة أرباح محددة وثابتة . وقد قيل عن هذه الشركات انها هى التى تمول المنظمات الاسلامية . ومما لا شك فيه أن ظهور قاعدة اقتصادية مستقلة تساعد الجماعات الاسلامية كان بمثابة تطور بالغ الأهمية فى تاريخ الأصولية فى مصر .

وفى أواخر فبراير ١٩٨٦ قام ١٧ ألفا من أفراد شرطة الأمن المركزى بالثورة فى خمس محافظات بما فى ذلك محافظة القاهرة وقد اهتزت الحكومة تماما بسبب قيام احدى هيئات أمن الدولة بها بذلك التمرد الشديد الذى تم على نطاق واسع . ولم يتمكن الجيش من سحق هذا التمرد الا بعد انقضاء خمسة أيام من القتال مما أدى الى قتل ١١٥ شخصا من بينهم ٨٩ من رجال الشرطة ، وقد قام رجال الشرطة المتمردون بنفس الأعمال التى سبق أن قام بها أعضاء التكفير والهجرة خلال تمرد يناير لعام ١٩٧٧ حيث قاموا بتدمير وتحطيم البارات والملاهى الليلية والفنادق الفاخرة والعمارات الضخمة — التى ترمز الى الفساد والترف — مما أدى الى خسائر مالية فى حدود ٥٠٠ مليون دولار . ومما أزعج السلطات الحكومية أن نصف عدد رجال الشرطة المتمردين قد لاذوا بالفرار وأخذوا معهم أسلحتهم .

وبدأ للحكومة أن الحماسة الاسلامية آخذة فى الانتشار بين أفراد الجيش وضباطه . حيث لا يذهب بعضهم أثناء أوقات الفراغ لمشاهدة الأفلام السينمائية أو الانخراط فى الألعاب الرياضية وانما يعكفون على الصلاة أو مناقشة المسائل الاسلامية المهمة .

وقد كشفت دراسة أجريت على ٣٠٣ من أعضاء منظمة الجهاد الذين سجنوا قبل اغتيال السادات عن أن ٤٪ منهم من ضباط الجيش أو الشرطة أو المخابرات . ولم يكن هذا الأمر مثيرا للدهشة . حيث من السهل أن يقوم أعضاء المجموعات الأصولية بتجنيد بعض أقاربهم العاملين فى أجهزة الأمن أو المخابرات وضمهم الى المنظمات الخاصة بهم نظرا لأن نظام الأسرة أو العائلة الموسعة مازال منتشرا فى جميع أرجاء مصر . وفى ديسمبر ١٩٨٦ اتضح أن تنظيم الجهاد مازال مستمرا فى نشاطه فى داخل المؤسسة

العسكرية فى مصر وذلك عندما ألقى القبض على ٣٠ من أعضاء الجهاد من بينهم اثنان برتبة رائد وواحد برتبة كابتن وآخر برتبة ملازم حيث كانوا ينشئون مراكز للتدريب العسكرى بهدف الاطاحة بالحكومة .

وقد تفجرت ثورات شرطة الأمن فى فترة كانت مصر تعانى فيها من أزمة اقتصادية حادة . اذ كانت جميع المصادر الرئيسية للدخل مثل البترول والسياحة فى حالة من التدهور الشديد . حيث كان أسعار البترول قد انخفضت بنسبة ½ فى خلال ثلاثة شهور كما كانت السياحة قد هبطت بنسبة ٤٠٪ . هذا بالاضافة الى أن الثلاثة الملايين من المصـــريين العاملين فى دول الخليج والعراق والذين سبق لهم الاسهام بـــ ٤ بلايين دولار سنويا كايراد لمصر قد بدأوا يرجعون الى مصر بأعداد كبيرة . بل كانت ديون مصر تقترب من ٣٢ بليون دولار .

كل هذا قد جعل أعدادا متزايدة من المواطنين العاديين الذين يعانون فى حياتهم اليومية من التضخم المالى والظروف المعيشية المتدهورة يميلون الى اعتناق آراء الأصوليين التى يمكن تلخيصها على النحو التالى : مادام الأســـلوب الرأســـمالى الذى انتهجه السادات قد فشل مثلما فشل من قبل أسلوب عبد الناصر الاشتراكى فقد حان الوقت الملائم لكى نجرب النموذج الاســـــلامى . ويذهب الاسلاميون الى أنه عندما تنهى مصر اعتمادها على الغرب غير المسلم وتطبق نظاما اقتصاديا يرتكز على المبادىء الاسلامية فانها سوف تتمكن من حل أسوأ المشاكل الاجتماعية الاقتصادية بما فى ذلك الفســـــاد .

ونظرا لأن الأصوليين متواجدون خارج نطاق السلطة الحاكمة فانه أصبح بمقدورهم تقديم الوعود الوردية المشرقة المبالغ فيها

مع رسم صورة وردية للنموذج الاسلامى الذى يعرضونه . أما الرئيس مبارك فكان فى وضع على النقيض من ذلك تماما . فهو الرئيس المسئول عن اقتصاد آخذ فى التدهور الشديد بالاضافة الى انه قد فشل فى تقديم أيديولوجية اجتماعية اقتصادية خاصة به . كما أن عدم اتسامه بالتوجهات القوية قد خلق فراغا فى القيادة عند القمة . فقد كان فى حالة من التشوش والارتباك وعدم معرفة الأمور التى ينبغى أن يفعلها . فهو اذا قام باستخدام العنف لقمع الأصوليين (مثلما فعل السادات فى أواخر فترة حكمه) فانه سيتهم بأنه يضطهد أبناء الاسلام ويصبح شخصية كريهة مثلما حدث مع السادات . ومن ناحية أخرى فانه اذا أعطى الحرية للأصوليين فانهم سيحرزون المزيد من الانتصارات ويشكلون تهديدا حقيقيا على حكومته .

وقد أظهرت الانتخابات البرلمانية التى تمت فى أبريل ١٩٨٧ مدى تزايد قوة الأصوليين . ففى هذه المرة تحالف الاخوان المسلمون مع حزب الأحرار وحزب العمل الاشتراكى ، واتخذ التحالف شعارا بسيطا : « الاسلام هو الحل » . ومثلما حدث من قبل تم تزوير الانتخابات كما تم القاء القبض على ٧٥٠ من مؤيدى المعارضة معظمهم من الأصوليين . وتم حشو صناديق الانتخابات بأصوات للموتى والغائبين لصالح الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم كما تم اغلاق لجان الانتخابات فى العديد من القرى لساعات عديدة قبل حلول الموعد المحدد بهدف منع الناخبين من ممارسة حقهم الانتخابى . ومع كل ذلك فان التحالف تحت قيادة الاخوان المسلمين قد حصل على ١٧ ٪ من أصوات الناخبين وعلى ٦٠ مقعدا فى البرلمان بحيث حل هذا التحالف محل حزب الوفد كحزب رئيسى للمعارضة .

ومع وصول ٣٦ عضوا من الاخوان المسلمين الى البرلمان الجديد بدأت جماعة الاخوان المسلمين فى التخطيط للسيطرة على النشاط

البرلمانى للتحالف وتكرار نفس مطالبها بالتطبيق الفورى للشريعة الاسلامية وتنشيط وتدعيم شركات الاستثمار الاسلامية على حساب البنوك التقليدية (وهى البنوك التى ينظرون اليها على أنها تنتهك الأوامر القرآنية) وانهاء روابط مصر الاقتصادية والاستراتيجية مع الولايات المتحدة الأمريكية واجهاض عملية السلام القائمة على اتفاقية كامب دافيد .

ونظرا لأنه لا يوجد أمام حكومة مبارك فرصة لتطبيق أى سياسة من هذه السياسات تطبيقا كاملا فقد أصبح من المتوقع تزايد حدة الخلافات بين الحكومة والأصوليين مع خلق مناخ يؤدى الى تزايد الجماعات السرية الراديكالية التى وصل أعضاؤها الى عدد يتراوح ما بين ٧٠ ألفا و ١٠٠ ألف عضو فى منتصف عام ١٩٨٧ وفقا لما يقوله المتخصصون المصريون والاجانب .

وبزوغ جماعة الاخوان المسلمين من حيث هم يشكلون المعارضة الرئيسية فى مصر قد نبه الناس لتواجد الأصوليين فى جميع أرجاء الوطن العربى وايران . وعلى كل حال يمكن القول بأن جماعة الاخوان المسلمين هى أقدم تنظيم اسلامى شعبى له اتصالات رسمية وغير رسمية مع المنظمات المماثلة بالشرق الأوسط وشمال أفريقيا .

وحقيقة الأمر أنه قبل حل جماعة الاخوان المسلمين فى عام ١٩٥٤ نجد أنها كانت تحتفظ باتصالات دولية نشطة من خلال اقامة علاقات مع الجماعات الاسلامية المماثلة المتواجدة فى خارج مصر . واثناء الزيارات التى قام بها حسن البنا للأردن وفلسطين فى الفترة من عام ١٩٤٢ حتى ١٩٤٥ تمكن من فتح فروع لجماعة الاخوان المسلمين فى العديد من المدن . وعندما فرض الحظر على جماعة

الاخوان المسلمين لأول مرة فى مصر فى عام ١٩٤٨ ذهب المئات من أعضائها النشطاء للعيش فى المنفى فى دول عربية أخرى . وحدث نفس الشىء أيضا فى عام ١٩٥٤ . وبالتالى يمكن القول بأن الاخوان المسلمين يتواجدون فى كافة الدول العربية سواء كان ذلك التواجد سريا أو علنيا . وهم أحيانا يعملون تحت نفس الاسم الصحيح الخاص بهم وأحيانا أخرى يعملون تحت أسماء مختلفة . ففى الجزائر نجد أن الاخوان المسلمين يعرفون باسم : « أهل الدعوة » وفى تونس يعرفون باسم : « حزب الاسلام » وفى الأردن المحظور انشاء أحزاب سياسة بها فان جماعة الاخوان المسلمين مسجلة على أنها مؤسسة خيرية . وفى المملكة العربية السعودية التى يقوم حكامها بالتمويل المالى الرئيسى لجماعة الاخوان المسلمين نجد أنه يوجد بها فرع للاخوان تحت رئاسة الشيخ محمد الخطار وهو من كبار المفكرين الاسلاميين . وفى دول الخليج الأخرى التى لا تسمح أيضا باقامة أحزاب سياسية فانه يوجد بها جماعة للاخوان المسلمين تحت اسم : « جمعية الاصلاح الاجتماعى » . أما فى سوريا فان الاخوان المسلمين يشكلون أقوى وأعنف معارضة سرية للحكومة فى تاريخ الشرق الأوسط المعاصر .

الاخوان المسلمون فى سوريا

لقد نشأت جماعة الاخوان المسلمين فى سوريا فى منتصف الثلاثينات من القرن العشرين وذلك عندما عاد طلبة سوريون كانوا يدرسون الشريعة الاسلامية فى مصر الى وطنهم وبدأوا يكونون فروعا فى مدن عديدة تحت اسم « شباب محمد » . وأهم هذه الفروع هو الفرع الذى أنشىء فى عام ١٩٣٥ فى مدينة حلب التى

تقع فى شمال سوريا . وأصبح هذا الفرع هو المركز الرئيسى للمنظمة . وكانت منظمة « شباب محمد » تكرس كل جهودها من أجل انهاء الانتداب الفرنسى (الذى فرض على سوريا فى عام ١٩٢٠) ومن أجل تحقيق اصلاح اجتماعى وسياسى يتوافق مع الخطوط والمبادىء الاسلامية . وفى عام ١٩٤٤ تم نقل مركز القيادة الى دمشق وتم انتخاب مصطفى السباعى Mustafa al Sibai ليكون هو المرشد العام . وقد ولد السباعى فى عائلة متدينة كانت تزود المسجد الكبير فى حمص بالوعاظ وقد تخرج السباعى فى جامعة الأزهر الشريف وكان صديقا حميما لحسن البنا . وكان يدير جمعية الاخوان المسلمين السورية وفقا للأسلوب الذى يتبعه حسن البنا . وبمجرد أن رحل الفرنسيون فى عام ١٩٤٦ بدأت الجمعية فى التركيز على المسائل الاجتماعية الاقتصادية مع تشديد معارضتها للعلمانية والماركسية . وجذبت معظم مؤيديها من صغار التجار الحضريين والحرفيين الذين يشكلون مع عائلاتهم ١/٩ مجموع السكان فى سوريا . ولكن كان ينقصها مساندة الطبقة المتوسطة الريفية (وذلك بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة لجماعة الاخوان المسلمين فى مصر) . وكان زرع اسرائيل فى العالم العربى وهزيمة الجيوش العربية فى حرب ١٩٤٨ له أثر كبير فى تأييد جماعة الاخوان المسلمين فى حماسة شديدة مع اعطاء الطابع السياسى لها .

كما احرز الاخوان المسلمون بسوريا تقدما كبيرا فى أعقاب الحظر الذى فرض على جماعة الاخوان المسلمين المصريين فى عام ١٩٥٤ بعد أن لجأ العديد من المصريين النشطاء الى سوريا . اذ نجد أن برنامج المنظمة السورية قد دعا بكل وضوح الى « انشاء حكومة فاضلة تقوم بتنفيذ أحكام وتعاليم الدين الاسلامى » . ولكن عندما انضمت سوريا الى مصر فى أوائل عام ١٩٥٨ وشكلتا

الجمهورية العربية المتحدة ثم امتد الحظر على الاحزاب السياسية المطبق فى مصر الى سوريا قام السباعى بحل جماعة الاخوان المسلمين بسوريا رسميا . الا أن الجماعة استمرت فى العمل فى الخفاء . وتزايد السخط فى سوريا ازاء تولى عبد الناصر رئاسة الجمهورية العربية المتحدة . فأدى ذلك الى توسيع قاعدة الاخوان المسلمين . والدليل على ذلك هو نتيجة الانتخابات التى أجريت فى ديسمبر ١٩٦١ عقب مرور شهور قليلة على انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة . اذ حصل الاخوان المسلمون السوريون على عشرة مقاعد أى حوالى نصف عدد المقاعد التى حصل عليها الحزب القديم الراسخ الذى يسمى « الكتلة الوطنية National Bloc أو الجبهة الوطنية .

ولكن صدر قرار بحل البرلمان وفرض الحظر على نشاط جماعة الاخوان المسلمين وغيرها من الاحزاب الأخرى فى مارس ١٩٦٣ فى أعقاب انقلاب عسكرى قام به حزب البعث العربى الاشتراكى . وكان حزب البعث قد تأسس فى عام ١٩٤٣ بمعرفة ميشيل عفلق وهو مسيحى وصلاح البيطار وهو مسلم سنى مع رفع الشعار الرئيسى : « الوحدة والحرية والاشتراكية » . وكان ميشيل عفلق هو فيلسوف الحزب وقال فى وصفه للاسلام انه حضارة واعطى تعريفا للاسلام فقال عنه انه تجسيد للنظرية العربية Arabism . واذ ما تم التركيز على النواحى الثقافية والحضارية فى الاسلام (وليس النواحى الدينية والتشريعية والقانونية) فانه يمكن للكيان العربى والكيان الاسلامى أن يندمجا تدريجيا . وهذا المفهوم الذهنى قد لقى ترحيبا من المثقفين ومن الممسكين بزمام السلطة فى هذه المجتمعات المتباينة المختلفة الذرية مثل سوريا والعراق . لأنه يقدم جسرا يربط بين الأكراد والعرب وبين أهل السنة والشيعة وبين الاسماعيليين والدروز وبين العلويين

والمسيحيين ولقد حصل حزب البعث السوري على ترحيب من جانب الطبقات الفقيرة غير المتمتعة بامتيازات ومن جانب الأقليات الدينية أو الطائفية . وكان العلويون من بين هذه الأقليات الدينية وكانوا يعملون فى الزراعة ويقيمون أساسا فى المنطقة الجبلية المحيطة بميناء أنطاكية Antakia المطل على البحر الأبيض المتوسط وكانوا أفضل المجندين العسكريين لدى الفرنسيين أثناء فترة حكمهم فى سوريا من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٤٦ . وكان العلويون يشكلون ١٢ ٪ فقط من مجموع السكان والدروز يشكلون ٣ ٪ والمسيحيون ١٤ ٪ .

أما السنيون الذين يشكلون ٦٩ ٪ من مجموع السكان فكانوا يحتكرون التجارة والصناعة والمهن والوظائف . وهكذا نرى أن التقسيم الطائفى قد دعمته الفوارق الاجتماعية الاقتصادية .

ورغم أن اللون السياسى لحكوماتهم قد اختلف اختلافا شاسعا فان السيطرة البعثية الرسمية على السلطة فى سوريا قد ظلت مستمرة بدون انقطاع منذ مارس ١٩٦٣ حتى الآن . ويمكن تقسيم الحكم البعثى الى ثلاث مراحل :

١ — من عام ١٩٦٣ حتى عام ١٩٦٨ .

٢ — من عام ١٩٦٨ الى عام ١٩٧٠ .

٣ — من عام ١٩٧١ فصاعدا .

وأثناء المرحلة الأولى من الحكم كان يشارك فى السلطة ضباط من الطائفة العلوية أو الدرزية أو السنية ممن لهم خلفية قروية أو خلفية المدن الصغيرة . وقاموا بتنفيذ مشروعات الاصلاح الزراعى وتأميم الصناعة والتجارة الخارجية (تجارة الجملة) وعلاوة على ذلك تم تغلغل سريع فى الدوائر المدنية بمعرفة رجال لهم خلفية

ريفية ومتحالفين مع ضباط عسكريين . فأدت هذه التطورات الى تقويض المصـــالح الاقتصـادية والســياسية لرجال الصناعة والرأسماليين وتجار الجملة علاوة على تقويض مصالح صـــغار التجار والحرفيين والمهنيين الذين كان معظمهم من السنيين الذين يؤيدون جماعة الاخوان المسلمين التى صدر قرار بحلها وفرض الحظر على نشاطها . وكان رجال الدين السوريون يحصلون على مرتبات ضئيلة للغاية من الحكومة مما كان يضطرهم الى اللجوء الى ممارسة التجارة أو شغل وظيفة حتى يتمكنوا من مواجهة نفقات الحياة اليومية . ونظرا لأن معظمهم كانوا من صغار التجار أو الحرفيين فانهم قد عانوا كثيرا من الناحية المالية وذلك بســبب السياسات الاشتراكية التى يطبقها البعثيون .

ونظرا للاستياء الذى انتشر بين جماهير الناس الحضريين والذى نجم عن الانهيار الاقتصادى فى أوائل عام ١٩٦٤ فقد تشجع الاخوان المسلمون وزادوا من أنشطتهم . وفى أبريل عقب تمرد مناهض للحكومة فى حماة وهى معقل السنية المتشددة قام مؤذن جامع السلطان الشهير باصدار صيحة الجهاد : « اما الاسلام واما البعث » . فأدى هذا الى مجىء قوات الأمن الى منطقة المسجد وعندما ردت قوات الأمن على النيران الموجهة اليهم من المسجد بفتح نيرانهم فان ذلك تسبب فى تدمير احدى مآذن المســجد . فاندلعت الاضطرابات فى المدن الكبرى ولكن بعد أن قامت الحكومة بتشكيل مليشيات من العمال تتألف من الناصريين البروليتاريين وبعد أن لجأت الى توفير قدر من العدالة للاخوان المسلمين بدأ الاحتجاج غير المنسق فى التلاشى .

والجولة الثانية بين الاخوان المسلمين والبعثيين حدثت فى أوائل مايو ١٩٦٧ عقب هجوم مرير على الحكومة شنه الشيخ محمد

حسن الحبنكة Habanka كبير علماء دمشق وذلك بسبب صدور مقال فى جريدة « جيش الشعب » وهى الجريدة الرسمية الناطقة باسم الجيش . وكان عنوان هذا المقال : « وسائل خلق الرجل العربى الجديد » ثم وردت بالمقال عبارة مسيئة للغاية : « الله والدين والاقطاع والرأسمالية والاستعمار وكافة المدلولات الكلامية التى سادت فى عهد المجتمع القديم لم تعد سوى مومياوات متواجدة فى متحف التاريخ أما الايمان المطلق بمقدرة الانسان فينبغى أن يكون هو المدلول الجديد الوحيد الذى له قيمة حقيقية » .

وتفجرت المظاهرات ضد الحكومة وصاحبها اضراب من جانب التجار فى مدينة دمشق . ومرة أخرى لجأت الحكومة الى اعادة تسليح مليشيات للبروليتاريا من العمال التى لعبت دورا حاسما فى انهاء اضراب التجار بالعاصمة . وقامت المليشيات بالقاء القبض على الزعماء المحتجين علاوة على القبض على الكاتب الذى كتب ذلك المقال المسىء لمشاعر الناس . وبعد محاكمة صورية صدر الحكم عليه بالسجن مدى الحياة . ولكى تظهر الحكومة طابعا اسلاميا فانها وضعت خطة طموحا لانشاء عدد كبير من المساجد . وفى خلال الثلاث السنوات التالية أنشأت عددا من المساجد يفوق عدد المساجد السابق تشييدها فى فترة الثلاثين عاما الماضية .

والذى مكن البعثيين الراديكاليين من الصمود أمام التهديدات التى يشلكها الاخوان المسلمون مع الاحتفاظ بالسلطة منذ فبراير ١٩٦٦ هو ذلك التأييد والمساندة الفعالة من جانب المليشيات القروية التى تضم سنيين وغير سنيين والتى تتواجد فى الريف وكذلك المليشيات العمالية المسلحة المتواجدة بالمدن والأهم من ذلك كله هو الولاء المستمر من جانب الجيش . فمنذ انقلاب عام ١٩٦٣ كان يتم باستمرار تطهير فيلق الضباط من الضباط السنيين الحضريين

وتعيين ضباط من العلويين والدروز ممن لهم خلفية ريفية وممن كانوا يشعرون بالعداء ازاء مصالح البرجوازية الحضرية (السنية) سواء كانت برجوازية صغيرة أو متوسطة أو كبيرة . وبحلول عام ١٩٦٨ أصبح الضباط العلويون هم القوة الرئيسية فى القوات المسلحة .

وقد أدت هزيمة العرب فى يونيو ١٩٦٧ الى تقسيم الاخوان المسلمين الى فئتين : فئة معتدلة متمركزة فى دمشق تحت قيادة عصام العطار الذى كان يعمل من منفاه فى المانيا الغربية . وفئة راديكالية متمركزة فى المدن الشـــمالية : حمص وحماة وحلب . وكانت تحت قيادة مروان حديد الذى اتخذ أسلوب الجهاد ضـــد الحكم البعثى . وسافر حديد ومعه مقاتلون شبان الى الأردن حيث تلقوا هناك تدريبات على الأعمال الفدائية تحت اشـــراف منظمة التحرير الفلسطينية فى احد المعســـكرات الفلسطينية . وكان هذا التدريب هو بداية اضفاء الطابع العسكرى على جماعة الاخوان المسلمين ، وهو طابع تزايد وتعاظم فى السبعينات .

وشهدت المرحلة الثانية من الحكم البعثى (١٩٦٨ — ١٩٧٠) خلافات بين اثنين من كبار الجنرالات العلويين هما : صالح جديد وحافظ الأسد . وهى خلافات وصلت الى مرحلة خطيرة . اذ اقترح جديد الذى يقود الجناح الراديكالى السياسى للحزب شن حرب شعبية ضد اسرائيل . وكان يعارض حافظ الأسد البراجماتيقى الذى يشغل منصب وزير الدفاع والذى يرأس الجناح العسكرى المعتدل فى حزب البعث . وفى أثناء هذا الصراع وقف العطار زعيم الاخوان المسلمين فى صف حافظ الأسد وسانده .

وتربع حافظ الأسد على قمة السلطة فى سوريا فى نوفمبر ١٩٧٠ من خلال انقلاب عسكرى غير دموى ودخل فى المرحـــلة الثالثة من الحكم البعثى . وحاول الأسد ترضية تلك القطاعات من

المجتمع الحضري التي كانت قد استبعدت من خلال السياسات الراديكالية العلمانية طوال السنوات السبع الماضية . وكانت الحكومة البعثية قد ساندت ودعمت القوات المسلحة والفلاحين والعمال الصناعيين والأقليات الطائفية والدينية ، ولكنها لم تساند العلماء الدينيين الذين يحصلون على رواتب منخفضة للغاية ولم تساند صغار التجار والحرفيين فقام حافظ الأسد بتخفيف القيود على استيراد السلع الاستهلاكية وشجع مشروعات القطاع الخاص الصغيرة والمتوسطة مما أدى الى ترضية التجار وصغار الصناع الذين يشكلون العمود الفقري بالنسبة لجماعة الاخوان المسلمين .

ولكن نظرا لأن حافظ الأسد من العلويين فانه كان يتعرض للهجوم عليه على أسس دينية . اذ كان الاسلاميون يذهبون فى تحليلاتهم الى أنه مادام العلويون ليسوا مسلمين وليسوا من أهل الكتاب (يهودا أو مسيحيين) فانهم يعتبرون من الكفار والوثنيين الذين عبدو « عليا » . وحاول حافظ الأسد اتخاذ صورة الرجل المؤمن المسلم من خلال المشاركة فى الصلاة والاحتفالات الدينية فى المساجد العديدة فى جميع أرجاء سوريا ومن خلال التصريح بأنه كرجل علوى يداوم على الصلاة والصوم بانتظام فى شهر رمضان . وكان حريصا على دحض الاعتقاد السائد بين السنيين وعلماء السنة وبين الناس العلمانيين بأن العلويين يعبدون « عليا » وبالتالى فهم وثنيون . وبدأ حافظ الأسد يحرص على استهلال خطبه الجماهيرية بآيات من القرآن الكريم واستبدل بالقسم العلمانى الذى يقوله الموظفون الحكوميون : « أقسم بشرفى ومعتقداتى » القسم التقليدى : « أقسم بالله العظيم » .

ومع ذلك ظل الاخوان المسلمون يعتقدون أن البعثيين يصرون على أبعاد سوريا عن تراثها الاسلامى . وعثروا على دليل جديد

وارد فى الدستور الجديد الذى أقرته الجمعية العمومية الشعبية فى يناير ١٩٧٣ . اذ ورد نص فى الدستور يفيد بأن « جمهورية سوريا العربية هى جمهورية ديموقراطية شعبية اشتراكية » . فهاجم عدد كبير من العلماء الدينيين الموالين للاخوان المسلمين الدستور ووصفوه بأنه « دستور علمانى والحادى » وطالبوا بادخال فقرة تنص على أن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة . وأعقب ذلك تمردات وثورات فى جميع أرجاء سوريا . فأذعن حافظ الأسد وأصدر تعليماته بأن ينص على أن رئيس الدولة ينبغى أن يكون مسلما . وتم ذلك بالفعل . ولكن الحكومة قامت فى نفس الوقت بالقاء القبض على العلماء وتعذيبهم واعتبرتهم هم المسئولين عن التمرد والاضطرابات .

الا أن العلماء لم يقتنعوا بهذا التعديل البسيط الذى أجرى على الدستور ودعوا الى تنظيم اضرابات ومظاهرات فى جميع أرجاء الدولة . وتمت بالفعل مظاهرات بالغة العنف . ثم أصدر العلماء تعليماتهم لأتباعهم بمقاطعة الاستفتاء الذى يجرى على الدستور . واستمر الهياج والاضطرابات فى الحدوث على فترات متقطعة . وحدثت مصادمات بين المتظاهرين ضد الحكومة وقوات الأمن فى حلب وحمص وحماة فى ليلة المولد النبوى الشريف فى شهر ابريل مما أدى الى مصرع ٢٠ شخصا وجرح ٦٠ شخصا . الا أن حافظ الأسد كان يختلف عن الرؤساء السابقين عليه من حيث انه كان يجمع ما بين القمع والاستقطاب . اذ قام بتقديم شهادات تقدير للعلماء علاوة على رفع وزيادة مرتباتهم بالاضافة الى عقد صداقات حميمة معهم .

وفى براعة استخدم حافظ الأسد حرب أكتوبر ١٩٧٣ التى شنت ضد اسرائيل فى مجال اعادة توكيد الطابع الاسلامى لحكومته . اذ أطلق اسم « بدر » على الهجوم العربى على اسرائيل

فى ٦ أكتوبر : لأن معركة بدر هى التى حققت السيادة لاتباع النبى محمد على الكفار الوثنيين . وفى البيانات التى أذاعها راديو سوريا أثناء الحرب وصف حافظ الأســــد هذه الحرب « بأنها جهاد ضد أعداء الاسلام » . وأشار الى أن القوات السورية بمثابة « جند الله » . وكان ذلك الكلام على النقيض تماما مما حدث خلال حرب عام ١٩٦٧ حيث قال البعثيون الراديكاليون كلاما علمانيا فى مجال توضيح وتفسير تلك الحرب . هذا بالاضافة الى أن حافظ الأسد قام بتسريح عدد كبير من الضباط العلويين بسبب أدائهم المنخفض خلال حرب ١٩٧٣ وأحل محلهم ضباطا غير علويين . فأدى هذا الاجراء الى تحسين صورة حافظ الأسد بين الضباط والعساكر السنيين وكافة المواطنين بوجه عام .

وفى فبراير ١٩٧٤ قام حافظ الأسد بزيارة فيصل ملك العربية السعودية فى الرياض وبعدئذ قام بزيارة قصــيرة الى مكة لأداء فريضة الحج . فأدى ذلك الى ترسيخه نهائيا كشخص مؤمن صادق فى ايمانه . وربط مثل هذه الخطوات مع المحاولات الرسمية الراميه الى تدعيم مطلب المجتمع العلوى بأن يكون مجتمعا مسلما فى صدق مع اصدار بيانات من علماء غير علويين للاعلان عن ذلك وتأكيده . فصدرت فتوى من موسى الصدر — وهو زعيم الشيعة بلبنان — تنص على أن العلويين هم جزء من مجتمع الشيعة . فأدى ذلك الى اضفاء الطابع الشرعى القانونى على ادعاء العلويين بأنهم مؤمنون صادقون وراسخون فى ايمانهم بالاسلام .

وتحت هذه الظروف خفت حدة العداوات من جانب جماعة الأخوان المسلمين تجاه الحكومة . وأصبحت انتقاداتهم تقتصر على الهجوم على حافظ الأسد لفقدانه مرتفعات الجولان التى استولى عليها الاسرائيليون علاوة على مشاركته فى عملية السلام التى شرع فيها وزير الخارجية الأمريكى هنرى كسينجر .

الا أن هذه الأوضاع لم تستمر لفترة طويلة . ففى يونيو ١٩٧٦ تدخل حافظ الأسد عسكريا فى الحرب الأهلية اللبنانية التى كانت قد اشتعلت منذ عام واحد تقريبا . وكان تدخله فى هذه الحرب لصالح المارون المسيحيين ضد التحالف الذى يضم المسلمين اللبنانيين والفلسطينيين . فأدى هذا الى احداث صدمة هائلة لقطاعات كبيرة من المجتمع السورى . كما أدى هذا الى تفجير مشاعر الغضب فى جماعة الاخوان المسلمين الذين كانوا قد بدأوا ينتقدون بشدة تعاظم اعتماد حافظ الأسد على الأسلحة السوفيتية والمستشارين السوفيت علاوة على انتقادهم للفساد الحكومى والتضخم المالى الكبير . وقام الاخوان المسلمون تحت قيادة عدنان سعد الدين (وكان عدنان فى يوم ما عضوا فى جماعة الاخوان المسلمين المصريين) باتهام حافظ الأسد بأنه عميل للمارونيين والاسرائيليين والأمريكان . وكان الهجوم الرئيسى للاخوان المسلمين المنصب على الحكومة يتركز حول أن القوة العسكرية التى هى أهم القطاعات فى الدول متركزة فى أيدى أقارب حافظ الأسد العلويين بينما السنيون قد أعطيت لهم وظائف قيادية فى القطاع المدنى فقط . اذ كانت هناك قوتان أساسيتان تسيرأن فى خط متواز فى داخل سوريا وكلتاهما برئاسة حافظ الأسد : القوة الأولى وتشمل الحكومة والبرلمان وحزب البعث السورى وتضم الكثيرين من السنيين . أما القوة الثانية وهى القوة الحقيقية فهى فى يدى حافظ الأسد رئيس الجمهورية وفى أيدى كبار مساعديه الخمسة : رئيس مخابرات سلاح الطيران ورئيس مخابرات الجيش ورئيس مخابرات الأمن الداخلى واثنين من رؤساء القوات الحربية الخاصة : فرق الدفاع والوحدات الخاصة . وعادة ما يصف الاخوان المسلمون حكومة حافظ الأسد بأنها حكومة « علمانية » وأنها تتألف من « مسلمين زائفين » . وقد صورت جريدة الاخوان المسلمين التى تصدر تحت اسم : « النضال » الكفاح الاسلامى على أنه

صراع « بين الغالبية الاسلامية المكبوتة (بمعنى السنيين) والأقلية الملحدة (بمعنى العلويين) الذين جعلوا من الاسلام عدوهم التقليدى » .

وعقب تدخل حافظ الأسد فى الحرب الأهلية اللبنانية قرر الاخوان المسلمون اعلان الجهاد ضد حكومته وسار الجهاد فى مرحلتين قبل أن يتعرض للانهيار :

المرحلة الأولى من يوليو ١٩٧٦ حتى مايو ١٩٧٩ .

٢ ـــ المرحلة الثانية : من يونيو ١٩٧٩ حتى أغسطس عام ١٩٨٠ .

خلال المرحلة الأولى من الجهاد قامت الوحدات العسكرية لجماعة الاخوان المسلمين ـــ التى تسمى طلائع المجاهدين الحربيين ـــ بتنفيذ علميات اغتيال للموظفين البعثيين والقادة العلويين وعملاء الأمن والمخابرات بهدف القاء الضوء على الأقلية التى تتألف منها الحكومة وبهدف دفع الحكومة الى ممارسة المزيد من القمع مما يؤدى الى اغضاب قطاعات كبيرة من المجتمع فاستخدمت الحكومة جهاز الأمن الداخلى التابع لها وفرق الدفاع من أجل القاء القبض على الأشخاص الذين نفذوا الاغتيالات والذين ساعدوهم على ذلك . ثم حدث هجوم فى فبراير ١٩٧٨ بمعرفة ضباط عسكريين منشقين على رفعت الأسد وهو الشقيق الأصغر لحافظ الأسد والذى يرأس فرق الدفاع القوية التى تضم ٣٦ ألف مقاتل مما أكد أن الاخوان المسلمين يتمتعون بتأييد كبير فى داخل فيالق الضباط . فأثار ذلك مخاوف حافظ الأسد الذى كان يعتمد بشكل كبير على فرق الدفاع علاوة على اعتماده على الوحدات الخاصة التى هى برئاسة على حيدر وهو أحد أقربائه العلويين . وفى حين أن الغالبية العظمى من السنيين اكتفوا بالتعبير عن

الاستياء من أعمال القمع التى تمارسها الحكومة نجد أن العلويين زادوا من تقاربهم واتحادهم ومساندة حافظ الأسد بقوة حيث كانوا يدركون أن الاطاحة بحافظ الأسد من شأنه أن يؤدى الى ذبحهم بمعرفة العسكريين السنيين الذين سينظرون اليهم على أنهم وثنيون مارسوا الاضطهاد لسنوات طويلة ضد المؤمنين الحقيقيين .

وكانت الوحدات العسكرية للاخوان المسلمين تضم الأبناء الصغار للأعضاء التقليديين فى جماعة الاخوان المسلمين . وهم على العكس من آبائهم كانوا حاصلين على تعليم جامعى ولديهم فى الغالب كفاءة مهنية . وقد شدت أنشطتهم عددا كبيرا من المجندين لصالح جماعة الاخوان المسلمين . ففى حلب — على سبيل المثال — كان أعضاء الاخوان المسلمين فى ١٩٧٥ أقل من ٨٠٠ عضو . ولكن بعد ثلاث سنوات زادت العضوية ووصلت الى عدد يتراوح ما بين ٥٠٠٠ و ٧٠٠٠ عضو . وقد وصل عددهم على المستوى القومى الى ٣٠ ألف عضو (فى حين أن أعضاء حزب البعث يصل عددهم الى حوالى ٢٠٠ ألف عضو) . وعلى الرغم من النمو المتزايد فى أعداد المنضمين الى جماعة الاخوان المسلمين فان الجماعة الاسلامية تحرص دائما على اضفاء السرية على أعدادهم وأسلوبهم وقادتهم الذين يظلون دائما شخصيات يكتنفها الغموض والتعتيم .

وفى المرحلة الثانية من الجهاد قامت الوحدات العسكرية للاخوان المسلمين بمهاجمة أقسام الشرطة ومكاتب حزب البعث ووحدات الجيش والمبانى الحكومية مع القيام بمظاهرات واضرابات على نطاق واسع . وقد بدأوا هذه المرحلة بشن هجوم جرىء على المدرسة الحربية لسلاح المدفعية فى حلب فى يوم ١٦ يونيو ١٩٧٩ . وبمساعدة من ضابط نوباتجى من السنيين قام عسكريو الاخوان المسلمين بفتح نيران المدافع والقاء القنابل اليدوية على اجتماع

يضم حوالى ٢٠٠ من الطلبة العلويين مما أدى الى قتل ٨٣ منهم . فأدى هذا الحادث الى اثارة جو من الرعب الشديد فى جميع أرجاء البلاد . فقامت السلطات الحكومية بحملة واسعة النطاق وألقت القبض على ٣٠٠ من الأعضاء النشطاء من الاخوان المسلمين وشنت حملة مناهضة للاخوان المسلمين فى جميع أرجاء البلاد من خلال أجهزة الاعلام الكبرى التابعة للدولة ووصفتهم بأنهم « عصابات تحصل على التمويل من العراقيين والاسرائيليين والأمريكان والمارونيين اللبنانيين » . وأكدت الحكومة فى بياناتها أنها « تحمى المصالح الحقيقية للاسلام » ولكن لم يحدث فتور أو توقف لأنشطة الاخوان المسلمين العنيفة حيث سقط الكثيرون من الضحايا ليس فقط من الشخصيات السورية ولكن أيضا من المستشارين الحربيين والمدنيين السوفييت بل من العلماء السنيين الموالين للحكومة .

وقد تمت هذه الأعمال فى جو يتسم بتصاعد السخط والاستياء بين البرجوازية الصغيرة الحضرية بسبب التضخم المالى والنقص فى المساكن وسوء التوزيع للحاجيات الضرورية اليومية وفى جو تسوده اشاعات كثيرة عن الفساد المتغلغل بين القادة المدنيين المدنيين والعسكريين وعدم الكفاءة الادارية وعدم الاتقان فى العمل .

وأدرك حافظ الأسد أن تشديد حدة القمع لن يأتى بالنتيجة المرجوة . وأدرك أن هذه الأزمة ينبغى أن تعالج سياسيا . فدعا الى عقد جلسة طارئة لحزب البعث فى أواخر ديسمبر وشجع الأعضاء الحاضرين البالغ عددهم ٧٠٠ شخص بالتحدث فى حرية تامة بما يجول فى أذهانهم . فعبروا عما يجول فى خاطرهم بالفعل . ثم صدر بيان عن المؤتمر جاء فيه أن الحزب يعانى من «اللامبالاة .. وفقدان الحماسة وافتقاد الروح الحزبية .. والانتهازية وسوء فهم

الديموقراطية وتزايد أمراض المجتمع الموروثة » . ثم صـــــدرت قرارات برفع الاجور فى القطاع الخاص والقطاع العام حتى يمكن للمواطنين مواجهة التضخم المالى . ثم قام المؤتمر بتشـــكيل لجنة خاصة تحت اسم « لجنة التفتيش والمراقبة » بهدف ضمان عدم قيام عضو فى الحزب باستغلال مركزه من أجل تحقيق مكاســـب شخصية . وتم الاطاحة بـــ ⅔ أعضـــاء القيادة القومية البالغ عددهم ٢١ عضوا مع اعطاء الكثير من المقاعد للقادة الســـنيين البارزين مثل حكمت الشهابى رئيس أركان الحرب بالجيش . كما تم تشكيل حكومة جديدة تضم ٣٧ وزيرا من بينهم عدد كبير من السنيين . كما تم طرد محافظ حلب ومحافظ حمص ومحافظ حماة (وهى المدن الرئيسية التى تصدر عنها أعمال الشغب التى يقوم بها الاخوان المسلمون) كما تم طرد ٢١ من كبار الموظفين الذين يعملون فى مشروعات القطاع العام الكبرى .

الا أن قادة الاخوان المسلمين لم يكترثوا بهذه الاجراءات . وبينما كان مؤتمر حزب البعث منعقدا فى دمشق كان قادة الاخوان منهمكين فى عقد تحالف مع بقايا القوى المعارضة المتواجدة فى حلب التى هى ثانية أكبر مدينة فى سوريا علاوة على تنظيم الاضرابات والمظاهرات فى أجزاء عديدة من المدينة . وتصاعدت الأمور فى أوائل مارس عندما أعلن التجار فى حلب القيام باضراب عام فورى نظرا لاحتجاجهم على القيود المفروضة على الاسعار . وفى نفس هذا الوقت تقريبا وعقب قيام رجل شرطة مرور باطلاق النار على زعيم اخوانى فى حماة وهى ثالثة أكبر المدن بسوريا فان الأهالى فى حماة تظاهروا من أجل تطبيق الانتخابات الحرة النزيهة ومن أجل تطبيق نظام الاقتصاد الحر ومن أجل اعلان الجهاد « بهدف انقاذ وتنقية العقيدة الاسلامية من أعدائها » . وسرعان ما طالبت نقابات المحامين والمهندســـين والأطباء والأكاديميين برفع قانون

الطوارىء والغاء حالة الطوارىء (التى ظلت سارية المفعول منذ مارس ١٩٦٣) واطلاق سراح السجناء السياسيين والقضاء على الطائفية .

وكان هذا بمثابة أكبر تحد تواجهه حكومة حافظ الأسد وأدرك أن هذه المظاهرات والاضطرابات الشاملة التى يقوم بها تحالف قوى المعارضة تحت قيادة الاخوان المسلمين قد يؤدى الى ظهور حركة ثورية اسلامية على غرار الثورة الايرانية ووفق خطوط ومبادىء الثورة الايرانية . كما أدرك أنه اذا احتدم العنف الشديد ضد هذا الهياج الشعبى فربما يأتى الأمر بنتيجة عكسية . ولذلك فانه حاول تهدمة الموقف من خلال اتخاذ بعض الاجراءات : مثل زيادة حجم حصص الواردات من البضائع الاستهلاكية التى يستوردها التجار ثم حاول أن يحدث انقساما بين الجناح العسكرى للاخوان المسلمين وباقى أعضاء الاخوان العاديين حيث قال : « ان الاخوان المسلمين فى سوريا لا يوافقون جميعا على أسلوب الاغتيالات » وذلك فى خطاب القاه يوم ٢٣ مارس ١٩٨٠ . وأضاف قائلا : « ان الغالبية العظمى من الاخوان المسلمين يعارضون الاغتيال ويقفون ضد الأشخاص الذين يمارسون الاغتيال . وهذه الأغلبية تعتقد أنه ينبغى عليهم أن يعملوا من أجل الدين الاسلامى وليس من أجل أى هدف آخر . ونحن ليس لدينا أى خلافات معهم .. فنحن نشجع أى شخص يعمل فى سبيل الدين الاسلامى ويتحلى بالقيم الأخلاقية الدينية » ثم قام باطلاق سراح ٢٠٠ من السجناء السياسيين وطرد العديد من المحافظين الاقليميين الذين لا يتمتعون بأى شعبية بين الناس كما طرد ٢٥ مديرا يعملون فى شركات القطاع الحكومى بسبب اتصافهم بالفساد أو عدم الكفاءة فى تأدية الأعمال . ولكن خصوم حافظ الأسد فسروا هذه الاجراءات على أنها دليل قاطع على ضعف حافظ الأسد . ولكى يسببوا له المزيد

من الضعف قرروا مواصلة ضغوطهم عليه . وظل تجار حلب وحماة مغلقين دكاكينهم ومحلاتهم التجارية .

فاضطر حافظ الأسد فى نهاية الأمر الى اللجوء الى أسلوب اليد الحديدية . اذ قام فى ٦ أبريل بايفاد ١١ ألف جندى من الوحدات الخاصة تحت قيادة قائدهم على حيدر الى حلب . وعلى الفور قاموا بفرض حصار حول المدينة وراحوا يفتشون المنازل الواحد تلو الآخر وأخرجوا من البيوت الآلاف من المقيمين بها وساقوهم الى مراكز اعتقال كانت قد شيدت على وجه السرعة لهذا الغرض . ثم قاموا بقتل أو تنفيذ حكم الاعدام فى مئات عديدة من الناس ، وتم تنفيذ نفس هذا الأسلوب على المواطنين فى مدينة حماة . وفى يوم ٩ أبريل قام حافظ الأسد بحل المجالس التنفيذية للنقابات المهنية وقام بسلسلة من الاعتقالات المكثفة والقبض على زعماء مثيرى الشغب مما أسفر عن اعتقال ٥٠٠٠ سورى وايداعهم فى السجون وبذلك زالت الأخطار التى كانت ستؤدى الى الاطاحة بالحكومة .

وبعدئذ أعلن الرئيس السورى حافظ الأسد أنه سيقوم فى القريب العاجل باطلاق سراح المسجونين السياسيين واحترام سيادة القانون . وعندما لم يقم بتنفيذ وعوده تجددت المظاهرات والاضطرابات والاضرابات فى كل من حلب وحماة مرة أخرى على نطاق ضيق فى شهرى مايو ويونيو الا أن السلطات الحكومية لجأت الى أسلوب القمع مرة أخرى .

وفى يوم ٢٥ يونيو توقف هذا التناحر الدائر بين حافظ الأسد وقوى المعارضة التى أصبحت تشتمل على عناصر متدينة وعناصر أخرى علمانية . ففى ذلك اليوم تمت محاولة فاشلة لاغتيال حافظ الأسد فى دمشق .

واستخدمت الحكومة كل قواها لسحق جماعة الاخوان المسلمين تماما . وعلى مدى الأيام العديدة التالية قامت قوات الأمن بتنفيذ حكم الاعدام فى أكثر من ١٠٠ من الاخوان المسلمين المحتجزين فى داخل السجون . وعندما حاول المسجونون السياسيون المتواجدون فى بالميرا Palmyra و (تدمر Tadhmur) تحطيم السجن قام جنود فرق الدفاع بذبح عدد منهم يتراوح ما بين ٢٥٠ و ٣٠٠ سجين . وفى ٧ يوليو ١٩٨٠ وافق البرلمان على قانون ينص على تنفيذ حكم الاعدام فى أى شخص يحصل على عضوية فى جماعة الاخوان المسلمين أو يعقد علاقات وروابط معهم . واستنادا على هذا القانون لجأت قوات الأمن الى اقامة محاكم فى الشوارع بالمدن التى تعتبر معاقل للاخوان المسلمين وتطبيق القانون على الفور على أولئك الذين لا يستطيعون انكار علاقاتهم بالاخوان المسلمين . وفى ١١ أغسطس انطلقت رصاصة من منزل فى حلب تجاه قوات الأمن فتم اخراج سكان هذا المنزل البالغ عددهم ٨٠ شخصا من الشقق التى يسكنون فيها وتم تنفيذ حكم الاعدام فيهم جميعا على الفور . وعلى نحو ما فان هذه المذبحة كانت بمثابة انتقام من مذبحة يونية ١٩٧٩ التى راح ضحيتها ٨٣ من العلويين . وهذا العنف الشديد من جانب الحكومة قد جعل الموالين للاخوان المسلمين وهم البرجوازية السنية فى حلب يعتقدون أن هذا القتال غير متكافىء وأن قدرة الحكومة فى بث الرعب تفوق كثيرا قوة الاخوان المسلمين . كما أن أصحاب الدكاكين من السنيين بعد أن عانوا فترة من الكساد الاقتصادى تزيد على سنة بسبب هذه الحرب الأهلية والفوضى التى نجمت أساسا عن المذبحة التى تمت فى مدرسة المدفعية أصبحوا غير راغبين فى الاستمرار فى المقاومة . وبذلك يمكن القول بان الثورة الاسلامية فى سوريا قد أصيبت بالانهيار والتداعى بالفعل .

وبعد أن تكبد الاخوان المسلمون هزيمة منكرة راح قادتهم يعيدون حساباتهم ويقيمون من جديد خططهم وتاكتيكاتهم واستراتيجيتهم . وقرروا التحالف مع المنظمات الاسلامية الصغيرة : جمعية أبو الدار ، والدائرة الشمالية ، والقطاع المعتدل من الاخوان المسلمين بقيادة عصام العطار . ومن هذا التحالف خرجت « جبهة سوريا الاسلامية » فى أكتوبر ١٩٨٠ . وكانت هذه الجبهة بقيادة كل من : الشيخ محمد البيويونى رئيس جمعية أبو الدار ، وعدنان سعد الدين أحد زعماء الاخوان المسلمين ، وسعيد حوى وهو من كبار المفكرين الاسلاميين بالدائرة الشمالية .

وفى برنامجها الذى يسمى « بيان وبرنامج الثورة الاسلامية فى سوريا » الذى صدر فى نوفمبر حاولت الجبهة الاسلامية تقديم نفسها على أنها البديل الذى يمكن أن يحل محل الحكم البعثى . كما حاولت أيضا دق اسفين بين القادة العلويين وجماهير الناس بالاضافة الى اعادة الطمأنينة لقوى المعارضة العلمانية واليسارية ولذلك نجد أن برنامج الجبهة الاسلامية كان بمثابة خلاصة وافية للمفاهيم الاسلامية والديموقراطية الليبرالية كما تضمن تفسيرا ليبراليا للنظرية الاسلامية والممارسات الاسلامية يهدف الى التوفيق بين الاسلاميين من ذوى الألوان المختلفة علاوة على التوفيق بين مصالح الطبقات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة والأقليات العرقية .

وبدلا من التهديد بابادة العلويين مثلما حاول بعض المتشددين من الجناح العسكرى للاخوان المسلمين أن يفعلوه من قبل نجد أن برنامج « الجبهة الاسلامية » ناشد « الرجال الحكماء » من بين العلويين « أن يتخلصوا » من وصاية حافظ الأسد وأخيه رفعت الأسد بهدف « منع مأساة الحرب الأهلية من الوصول الى نهاية مأساوية حزينة » كما شجب قانون الطوارىء والأحكام العرفية

والقرارات الاستبدادية وممارسات الشرطة غير الانسانية . كما طالب باطلاق سراح جميع المسجونين السياسيين وحرية التعبير والنشـــر والاجتماع والاحتجاج والمعارضـــة وتشـــكيل الأحزاب السياسية والاتحادات التجارية والحفاظ على حقوق الأقليات .. كما طالب بالفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية واستقلال السلطة القضائية واخضاع الحكومة للقانون المرتكز على الشريعة والاستشارة الشعبية . وفى المجال الاقتصـــادى تبنى برنامج الجبهة الاسلامية تمليك الأراضى للفلاحين والقضـــاء على الوسطاء والموظفين الحكوميين الذين يمتصون دماء الفلاحين باسم الدولة والحزب والاشـــتراكية . كما طالب البرنامج بنقل ملكية مصانع القطاع العام الى العمال الذين يعملون فى هذه المصانع . كما أوصى البرنامج بتوفير الحرية لرأس المال الخاص فى مجال الاستيراد والتصدير والتصنيع فى اطار « خطة مدروسة موافق عليها من مجلس الشورى » . والزم البرنامج نفسه بتدعيم العدالة الاجتماعية والشريعة الاسلامية . وتطرق البرنامج الى الصراع الدائر بين القومية العربية والأمة الاسلامية وأشار الى أنه ملتزم بالقومية العربية والوحدة فى داخل نطاق المفهوم الشامل للتضامن الاسلامى . وأشار البرنامج الى أنه يفضل الوقوف على الحياد فى مجال الشئون الخارجية والمعارضـــة الشديدة لاســـرائيل والصهيونية . وأخيرا وهو الأمر البالغ الأهمية فان البرنامج أشار الى قبوله وجهة نظر فرج عن الجهاد من حيث ان الجهاد هو التزام أو فريضة اجبارية فى الدين الاسلامى وأكد على التزام الجبهة الاســـلامية باعلان الجهاد بهدف تحويل الحكم العلمانى الحالى الى حكم اسلامى .

والجدير بالذكر أن برنامج الجبهة الاسلامية يتضمن ملامح من أفكار محمد رشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب وفرج ولكنه من

ناحية أخرى كانت به فروق واضحة بينه وبين البرنامج الذى اتخذته جماعة الاخوان المسلمين المصرية . وفيما يلى نقطة مهمة اشار اليها سيد قطب :

ان النظام الاسلامى لا يقتصر فقط على أن يكون صورة طبق الأصل من المجتمع الاسلامى الأول ولكنه هو كل شكل اجتماعى تحكمه وجهة النظر الاسلامية الشاملة فى الحياة . فالنظام الاسلامى به مكان لاستيعاب عشرات النماذج التى تكون متوائمة مع النمو الطبيعى لمجتمع ومتوافقة مع الاحتياجات الجديدة للزمن المعاصر مادام الفكر الاسلامى الشامل هو الذى يسود ويسيطر على هذه النماذج وعلى حدودها الخارجية الممتدة الشاسعة .

ان ظهور الجبهة الاسلامية السورية التى تتألف من حزب واحد كبير ومجموعة أحزاب عديدة صغيرة مع اتخاذ برنامج واحد مشترك قد جعل الحركة الأصولية السورية بمعزل عن الحركة الأصولية المصرية . اذ لم يكن بسوريا جماعات تؤمن بالرجوع الى العصر الألفى القديم السعيد مثل جماعة التكفير والهجرة المتواجدة فى مصر . وبوجه عام كانت الحركة الاسلامية السورية أكثر مرونة من الناحية الايديولوجية بل أكثر براجماتية من الحركة الاسلامية فى مصر . هذا بالاضافة الى أنها كانت متحررة من المجادلات النظرية المعقدة التى تسبب الكثير من العذاب والازعاج فى مسرح الحياة الاسلامية فى مصر . وهذه الفوارق تنجم أساسا عن اختلاف طبيعة المجتمع فى هاتين الدولتين . اذ أن مصر بها مجتمع متجانس يخضع لحكومة مركزية منذ آلاف السنين بينما سوريا بها مجتمع غير متجانس أو متغاير الخواص والعناصر كما ينقصه تواجد حكومة مركزية قوية .

وفى حين أن الأصوليين السوريين أقل من الأصوليين المصريين من حيث وضع النظريات فى مجال التطبيق العملى فاننا مع ذلك نجد أن الأصوليين السوريين قد شنوا جهادا طويلا ومريرا للغاية ضد الحكم العلمانى لحافظ الأسد . وكان الجهاد هو أشرس وأطول جهاد شهده الشرق الأوسط . وكان السبب فى ذلك يرجع الى أسباب كثيرة منها أن حافظ الأسد (شأنه فى ذلك شأن عبد الناصر فى مصر) كان متحالفا مع الاتحاد السوفيتى وهو دولة ماركسية ملحدة ومنها أن العلويين كانوا متربعين على عرش السلطة فى البلاد رغم أنهم أقلية متماسكة قد تمكنت من الصعود الى السلطة من خلال القضاء على الحكام التقليديين : مثل الاقطاعيين السنيين ورجال التجارة والصناعة السنيين . والمعتقدات والممارسات الابتداعية الهرطقية الخاصة بالعلويين كانت ذريعة فى أيدى الطبقة الحاكمة التى أطيح بها والتى كانت تساند ماليا وسياسيا جماعة الاخوان المسلمين التى يحتكرها السنيون من أجل العمل على الاطاحة بحكومة حافظ الأسد تحت ستار الاسلام أو تحت عباءة الاسلام . وآمال هذه الطبقة قد انعكست بوضوح شديد فى برنامج « الجبهة الاسلامية السورية » : أما فى مصر المتخذة الطابع السنى على نحو شامل فلم تكن بها طائفة ابتداعية هرطقية يهيمن أفرادها على قمة السلطة فى البلاد بالاضافة الى أن الطبقة البروجوازية المصرية التى نزع منها سلطانها السياسى والاقتصادى بمعرفة عبد الناصر قد رد السادات اليها اعتبارها وحقوقها . وهناك فارق آخر وهو أن الاخوان المسلمين فى سوريا لم يضربوا بجذورهم فى الريف السورى وذلك على العكس مما كان عليه الحال فى مصر . ومع كل ذلك كان هناك تشابه قوى بين الخلفية الاجتماعية للمحاربين الأصوليين أى أولئك الذين قاموا بالتخطيط أو التنفيذ لأعمال العنف فى كلتا الدولتين . اذ أظهرت دراسة تمت على ١٣٨٤ فردا من الأصوليين السوريين

المسجونين فى الفترة من عام ١٩٧٦ حتى عام ١٩٨١ أن ٢٧ر٧٪ منهم من طلبة المعاهد أو الجامعات و ١٣ر٣٪ منهم من المهنيين والأرقام المقابلة لذلك فى مصر كانت ٤٠٪ ثم ٦٪ على التوالى .

وما انتهى قادة الأصوليين فى سوريا من تشكيل « الجبهة الاسلامية » علاوة على وضع برنامج مشترك ودستور مشترك واعادة تنظيم الكوادر فانهم استأنفوا على الفور الجهاد فى أغسطس ١٩٨١ . اذ أصبحت « طلائع المقاتلين The Combat Vanguard of Fighters» تعمل على هيئة وحدات كوماندوز مزودة بالأسلحة الخفيفة والصواريخ التى تحمل على الكتف . وفى نوفمبر تفجرت القنابل بالقرب من مدرسة فى دمشق فأدت الى مصرع ما يزيد على ٢٠٠ شخص . ورغم أن الجبهة الاسلامية لم تعلن مسئولياتها عن ذلك الحادث فان الحكومة وجهت اللوم لها وحاولت أن تثير الاستياء ضد الاخوان المسلمين من خلال عرض مشاهد من أجساد الضحايا الذين قطعت أطرافهم أو تفحمت أجسامهم على شاشات التليفزيون . وفى يناير ١٩٨٢ نشرت تقارير تتحدث عن وقوع انقلاب فاشل قام به بعض ضباط سلاح الطيران مما أوضح أن الأمور لا تسير على ما يرام فى الحكومة .

وفى أوائل فبراير ١٩٨٢ قامت مجموعة مسلحة من الاخوان المسلمين بنصب كمين لوحدة من الفرقة المدرعة الثالثة العلوية المتمركزة فى مكان بالقرب من حماة . وكان ذلك يدل على تواجد عصيان فى هذه المدينة . وعلى مدى أيام عديدة نجح أفراد من الجبهة الاسلامية فى مقاومة قوات الأمن . وكان ذلك بمثابة أفضل عصيان مسلح ناجح يقوم به الأصوليون . كما كان قادة الجبهة الاسلامية الذين يعملون من داخل أراضى العراق يوجهون نداءات متكررة للشعب السورى وخاصة فى العاصمة دمشق بأن يقوموا باعلان

« العصيان المدنى » ضد الحكومة والعمل على « اغلاق المحلات والدكاكين والمدارس والجامعات والمعاهد والمصانع وكافة المنشآت والمؤسسات العامة » فأرسل حافظ الأسد ١٢ ألف جندى الى حماة وهى مدينة يبلغ عدد سكانها ٢٠٠ ألف مواطن . وقام الجنود بتطويق المدينة ومحاصرتها ثم استخدمت طائرات الهليوكوبتر والدبابات والمدفعية من أجل الحاق الهزيمة بالعصيان المسلح . واستمروا فى القتال على مدى أسبوعين الى أن تمكنوا فى النهاية من السيطرة الكاملة على المدينة . وأثناء ذلك القتال تهدمت بعض قطاعات من المدينة القديمة وتسوت بالأرض كما لقى عشرة آلاف شخص مصرعهم بما فى ذلك ألف شخص من الجنود . وعلى العكس مما حدث فى مارس ١٩٨٠ فان التمرد لم ينتشر الى باقى المدن الأخرى . وربما يرجع السبب فى ذلك الى القسوة الشديدة فى قمع المتمردين أو النقص فى الأسس التى وضعها الأصوليون أو يرجع الى هذين السببين فى آن واحد . ومن المؤكد أن الأصوليين كانوا أقل عددا مما كانوا عليه منذ عامين . وربما كان قانون يوليو لعام ١٩٨٠ الذى يحظر الانضمام لجامعة الاخوان المسلمين ويفرض عقوبة الاعدام على من ينضم اليهم هو السبب فى تخفيض العضوية فى جماعة الاخوان من ٣٠ ألف شخص الى ٥٠٠٠ شخص فقط . كما أن عدم استجابة التجار السنيين بدمشق للنداء الذى وجهته الجبهة الاسلامية بشأن « التمرد المدنى » لم يكن أمرا مثيرا للدهشة . فعلى مدى السنين كان زعماؤهم قد أنشأوا علاقات مع كبار الشخصيات المدنية والعسكرية ذات النفوذ والسلطة ولذلك كانوا غير حاسمين ازاء مسألة الاطاحة بالحكومة . هذا بالاضافة الى أن العاصمة دمشق كانت من بين الأماكن الرئيسية التى تستفيد من السياسات الحكومية كما أن تجار دمشق كانوا قد شاركوا فى الازدهار الذى نجم عن تلك السياسات . هذا بالاضافة الى أن أحداث حماة قد أوضحت بما لا يدع مجالا للشك أنه يتعذر

الاطاحة بحافظ الأسد مادامت تركيبة وأيديولوجية القطاع العسكرى الحكومى على ما هى عليه بدون أن يحدث فيها أى تغيير .

وفى سوريا تم الاحتفال بذكرى سحق العصيان المسلح الذى حدث فى مدينة حماة على هيئة عقد اجتماع جماهيرى موال للحكومة فى مدينة دمشق ثم أعقب ذلك اجتماع جماهيرى آخر فى ٨ مارس ١٩٨٢ للاحتفال بذكر استيلاء البعثيين على السلطة فى عام ١٩٦٣ عندما قاد حافظ الأسد مسيرة شعبية على نحو لم يسبق له مثيل . وقال حافظ الأسد فى خطبته أمام الجماهير : « ان الاخوان المسلمين يذبحون الأطفال والنساء والناس الطاعنين فى السن باسم الاسلام » وأضاف قائلا : « وهم يمدون أيديهم للناس الأجانب ولعملاء الأجانب وللحكومات العميلة للولايات المتحدة الأمريكية .. من أجل الحصول على الأموال والأسلحة لكى يخونوا وطنهم ويقتلوا اخوانهم المواطنين ... انهم مرتدون عن الدين . أما نحن فاننا فقط الذين ندافع عن الاسلام وعن الدين والوطن » .

واكتسبت كلمات حافظ الأسد أهمية كبرى بعد مرور ثلاثة شهور عندما قامت اسرائيل بغزو لبنان . اذ اشتبكت القوات السورية المتواجدة فى لبنان وشاركت بعض الشىء فى القتال الدائر هناك حيث تكبد سلاح الطيران السورى خسائر فادحة . وأدت تلك التطورات الدرامية الى تحويل انتباه الجماهير عن المقاومة الاسلامية والتمرد الاسلامى واتجهت فى تركيز نحو محاولات الحكومة السورية الرامية الى احباط المخططات الاسرائيلية فى لبنان .

وهذا أدى الى اصابة الحركة الاسلامية بالضعف والوهن خاصة أنها كانت قد أصيبت بالفعل بوباء الانقسام فى القيادة .

اذ كان العطار قد أبعد نفسه عن أسلوب الجهاد المليء بالمخاطر الشديدة . كما أصبحت الخلافات فى داخل الجماعة الاسلامية شديدة للغاية فيما يتعلق بالثورة الايرانية الاسلامية لعام ١٩٧٩ وازاء حرب الخليج . فالأصوليون السوريون الذين كانوا قد رحبوا بالثورة الايرانية الاسلامية بدأوا يشعرون بالاحباط وخيبة الأمل عندما أدركوا أن حكومة آية الله الخمينى تتحالف مع حافظ الأسد خلال حربها مع العراق . وهى الحرب التى كان يقودها صدام حسين الرئيس العراقى .

وكانت جماعة الاخوان المسلمين قد احتفظت بعلاقات حميمة على مدى بضع سنوات مع العراق . وأثناء حملات الاخوان المسلمين ضد حافظ الأسد حصل الاخوان على مساعدات مالية وعسكرية من صدام حسين ومن ملك الأردن . وكان الاخوان المسلمون من حيث هم العنصر الرئيسى فى « الجبهة الاسلامية » يرغبون فى أن تتخذ الجبهة سياسة موالية للعراق . الا أن هذا قد تسبب فى تقسيم الجبهة الى معسكرين : المعتدلون المهادنون بقيادة سعد الدين والمتشددون بقيادة عدنان عقلة الذى كان رئيسا لفرقة طلائع المحاربين التابعة لجماعة الاخوان المسلمين . وأشار المتشددون الى أن صدام حسين هو حاكم مناهض للاسلام مادام اعتدى على حكومة الخومينى الاسلامية وبالتالى لا ينبغى أن يكون هناك أى تعاون مع صدام حسين . أما المعتدلون فكانوا على استعداد للتعاون مع أى شخص ومع كل شخص يرغب فى معاونتهم على الاطاحة بحكومة حافظ الأسد البغيضة الكريهة .

وكان ذلك هو السبب الرئيسى الذى جعل سعد الدين يقود الجبهة الاسلامية فى مارس عام ١٩٨٢ الى الدخول فى ائتلاف مع ١٧ من أحزاب وجماعات المعارضة الاخرى من أجل تشكيل

« التحالف القومى من أجل تحرير سوريا » الذى كان يلقى الرعاية من العراق والأردن . ودعا هذا التحالف الى اقامة حكومة برلمانية دستورية والى أن يكون الاسلام هو الدين الرسمى للدولة وأن تكون الشريعة هى المصدر الرئيسى للتشريع والاصلاح . وبعدئذ عقد سعد الدين اجتماعات مع مسئولين أمريكيين فى عمان . وهذه الأعمال التى قام بها سعد الدين قد أثارت استياء بعض أتباعه الذين كانوا فى الغالب من الشباب الملىء بالمثل والمبادىء الخالصة النقاء . وفى أواخر أبريل ١٩٨٢ تم طـــــرد عقلة من « الجبهة الاسلامية » . فقام بعدئذ الى تحويل « فرقة طـلائع المحاربين » الى حزب ســــياسى . وقد أدى كل هذا الصراع الداخلى الى انخفاض هائل فى الأنشطة العنيفة التى يقوم بها الأصوليون .

ولفترة قصيرة فى أواخر عام ١٩٨٣ أدرك القادة الاسلاميون أن فرصهم السياسة آخذة فى التصاعد والازدياد . ففى نوفمبر تعرض حافظ الأسد لنوبة قلبية حادة فشهدت البلاد معركة من أجل الخلافة لعب فيها رفعت الأسد دورا بارزا . الا أن الرئيس حافظ تخطى الأزمة القلبية وتمكن من البقاء على قيد الحيـــاة وبعد أن استعاد سلطته الكاملة على أجهزة الدولة المدنية منها والعسكرية بحلول فصل الربيع التالى فانه قام بنفى وابعاد شقيقه الأصغر رفعت الأسد .

ومن خلال تحركات حافظ الأسد الواسعة النشيطة فانه تمكن من احباط المخططات الأمريكية الاســـرائيلية الرامية الى فرض سيطرة مارونية مسيحية على لبنان مما يضمن اقامة علاقة ودية بين اسرائيل ولبنان من خلال ابرام معاهدة سلام . فالمقاومة المسلحة النشيطة التى قام بها اللبنانيون ضد الاحتلال الاسرائيلى — وهى المقاومة التى لعب فيها حافظ الأسد دورا رئيسيا — قد أدت الى

اضطرار اسرائيل للانسحاب من لبنان بحلول يونيو ١٩٨٥ . وكان لهذه التطورات أثر عظيم فى تعزيز مركز الأسد فى داخل سوريا وفى المنطقة بوجه عام .

وقبل ذلك كان الأخ العقيد معمر القذافى زعيم ليبيا قد عرض ادماج بلاده فى وحدة مع سوريا . فوافق حافظ الأسد على ذلك على الفور . ثم قام الزعيمان بالتوقيع على اتفاقية رسمية فى ١٠ سبتمبر ١٩٨٠ . فأدت هذه الخطوة الى تخفيف حدة الأعمال التى يقوم السنيون السوريون ضد الحكومة السورية نظرا لأن ليبيا هى دولة سنية .

وبعد أن أطاح الضباط الأحرار الليبيون بالملك محمد ادريس ملك ليبيا فى أول سبتمبر ١٩٦٩ فانهم أقاموا حكومة جمهورية . ثم أعلنوا عن دستور وعن مجموعة من القوانين قالوا عنها انها ارتكزت على القيم الانسانية للتراث العربى الاسلامى فى ليبيا . وقد أشار القذافى الى أن الطريقة الصوفية السنوسية التى أضافت صفة الشرعية على النظام الملكى غير الشرعى غير الاسلامى كانت بمثابة افساد وتحريف للاسلام ، وأشـــــار الى أن قوانين الحكم الجديد قد تضمنت تحريم شرب الخمور واغلاق الملاهى الليلية واغلاق الكنائس وتعيين المفتى الأكبر من اجل ان يقدم التفسيرات الرسمية للشريعة الاسلامية . وهذه الاجراءات كلها قد جعلت ضباط الثورة الليبية محبوبين لدى العلماء الدينيين الذين كانوا يلقون التغاضى والاهمال من جانب الملك ادريس والسابقين عليه .

الا أن العلاقة بين العلماء الدينيين والحكومة أصابها التوتر عندما اتخذ القذافى اتجاها شديد المرونة ازاء الاسلام وقال أن الاسلام به مكان يتسع لأكثر من اجتهاد . وطالب بضرورة اللجوء الى المرونة واستشهد بالنبى محمد : فبينما كان محمد مازال مستمرا

فى تلقى الوحى الالهى فى المدينة فانه أصدر بيانا دستوريا رسميا هناك .

وعلى الرغم من أن القدافى ليس من رجال الدين فانه قام بتفسير الآية القرآنية التى تتناول الشورى ثم أصدر كتابا فى عام ١٩٧٥ تحت عنوان : « الكتاب الأخضر : الحل لمشكلة الديمقراطية — قوة الشعب » . وطالب فى هذا الكتاب الشعب أن يمارس السيطرة على حياته من خلال المشاركة المباشرة فى المؤسسات الديموقراطية . ومن هذا المنطلق بزغ مفهوم المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية . وتم عقد مؤتمر جماهيرى عام فى ٢ مارس ١٩٧٧ وأكد المؤتمر على السلطة المطلقة للشعب وأطلق اسما جديدا على ليبيا : الجماهيرية العربية الليبية .

والمجلد الثانى من الكتاب الأخضر قد صدر تحت عنوان : « الحل للمشكلة الاقتصادية .. هو الاشتراكية » وقد صدر هذا الكتاب فى أوائل عام ١٩٧٨ وكان بمثابة مرشد للحرية الاقتصادية من خلال « اشتراكية جديدة » تختلف تماما عن اشتراكية الغرب أو الشرق وفقا لما يؤكده القذافى . وعرف القذافى الاشتراكية على أنها قيمة مطلقة مثل الحق أو الحقيقة . وفى داخل ليبيا تبنى القذافى المفهوم الذهنى الذى يعنى « أن الأرض لا تخص أى فرد » وقال ان ذلك يرتكز على حديث للنبى محمد هذا معناه : « من يمتلك أرضا يجب عليه أن يزرعها . فاذا كان لا يستطيع زراعتها أو كان غير قادر جسمنيا على زراعتها فعندئذ ينبغى عليه أن يمنحها لأخيه المسلم لكى يزرعها . ولكن بدون أن يؤجرها له » . وفى مايو ١٩٧٨ اصدرت الحكومة الليبية قرارا ينص على تحديد حجم الممتلكات من الاراضى وطبق ذلك على جميع الأفراد والمؤسسات بما فى ذلك أراضى الأوقاف الحكومية الدينية مما أدى الى استياء العلماء الدينيين .

وفى منتصف ١٩٧٩ صدر المجلد الثالث والأخير من الكتاب الأخضـــــر تحت عنوان « الأســــس الاجتماعية للنظرية العالمية الثالثة » . وتعبير « النظرية العالمية الثالثة » كان يعنى أن القذافى يقدم بديلا عن الرأسمالية والماركسية . وفى هذا الكتاب تناول القذافى المفهوم الذهنى عن القانون الاجتماعى المرتكز على العرف والدين . وقال : « ان المحرك الوحيد لتاريخ الانسانية هو العامل الاجتماعى والعامل العرقى . والرابطة الاجتماعية تشكل العلاقات الأساسية بين الوحدات الأولية للمجتمعات البشرية من العائلة الى القبيلة ثم الى الأمة التى هى العامل الأساسى التاريخ » . ووفقا لما أورده القذافى فان الهوية العرقية كانت بمثابة الأسمنت الذى أدى الى تماسك مجموعات كبيرة من الناس مع بعضهم البعض . وكان الدين هو المنافس الوحيد لهذا العامل الاجتماعى المشترك . اذ كان الدين قادرا على تفكيك أناس متحدين عـــلاوة على توحيـــد مجموعات عرقية مختلفة . وفى حالة حدوث منافسة بين العامل الاجتماعى والعامل الدينى فان العـــــامل الاجتمـــاعى هو الذى ســينتصر .

وعلى كل حال فقد لقيت بعض آراء وأعمال القذافى ترحيبـــا من جانب رجال الدين الايرانيين الذين استولوا على السلطة فى أوائل عام ١٩٧٩ : فاستنكاره الشديد للنظام الملكى على أساس انه أسلوب غير اسلامى علاوة على أنشطة الثورة فى داخل ليبيا وخارجها قد أدخلته فى مواجهة ضد الاستعمار الأمريكى .

* * *

الفصل الخامس

المملكة العربية السعودية

هى أقدم دولة أصولية

لقد أدى انهيار الامبراطورية العثمانية وما أعقب ذلك من الغاء للخلافة على يدى مصطفى كمال أتاتورك فى مارس ١٩٢٤ الى خلق فراغ فى القيادة بالمجتمع الاسلامى العالمى . ومن بين أولئك الذين حاولوا ملء ذلك الفراغ : الشريف حسين بن على الهاشمى وهو من الأسرة الملكية الهاشمية التى كانت قد حكمت منطقة الحجاز التى تضم مكة والمدينة المنورة منذ القرن العاشر . وهى الأسرة التى ادعت انها من نسل وذرية محمد صلى الله عليه وسلم . وأثناء الحرب العالمية الأولى قام البريطانيون بتشجيع الشريف حسين على التمرد والثورة ضد رؤسائه العثمانيين وعقب انتهاء الحرب وضعوا أبنيه على عرش العراق وعرش « شرق نهر الأردن » . وهذا التحالف الهاشمى البريطانى قد اعتبر مناهضا للاسلام من وجهة نظر المسلمين من غير العرب وكذلك من وجهة نظر كثيرين من الزعماء العرب ولذلك فان مطالبة الشريف حسين بالخلافة قد لقيت تأييدا ضعيفا خارج اقليم الحجاز . بل أثار ذلك فى حالات

معينة عداوات صريحة وعلنية . ومن بين أولئك الذين استاءوا من الشريف حسين : عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (١٨٧٩ — ١٩٥٣) وهو الذى يعرف أيضا باسم ابن سعود الذى كانت قواته تسيطر على الأراضى المحيطة بمنطقة الحجاز .

وعبد العزيز كان بمثابة نقطة تحول فى الأقدار المتقلبة التى شهدها بيت آل سعود . فبعد أن تكبد بيت آل سعود الهزيمة على أيدى العثمانيين فى عام ١٨١٩ فانه تمكن من الاستيلاء على الرياض مرة أخرى . ولكنه أرسل الى المنفى فى عام ١٨٩١ بمعرفة رئيس قبيلة الرشيدى : محمد بن رشيد الذى كان مندوبا للعثمانيين . وفى عام ١٩٠٢ قام عبد العزيز بالمخاطرة خارجا من الكويت وتمكن من استعادة الرياض مرة أخرى . ومن الرياض قام بشن سلسلة من الهجمات والحملات من أجل تحقيق السيطرة على منطقة نجد وتمكن بالفعل من هزيمة محمد بن رشيد Rashid . وبعدئذ قام بمد نفوذه الى منطقة الحساء الشرقية التى تسكنها قبائل شيعية . وكان ذلك فى عام ١٩١٣ . الا أن محاولاته للهجوم على الحجاز التى يسيطر عليها الشريف حسين قد تعرقلت بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى .

وكانت منطقة نجد الواقعة فى أواسط شبه الجزيرة العربية يسكنها عدد ضئيل من الناس . وكان نصف سكان نجد من القبائل البدوية التى تعيش حياة الترحال والتنقل من مكان لآخر ولكنها مع ذلك كانت على صلة بأولئك السكان الذين يعيشون حياة استقرار فى القرى والمدن الصغيرة . وعلى الرغم من أن هذه القبائل من المسلمين من الناحية الاسلامية فانها اعتادت أن تلجأ فى حل للنزاعات التى تنشأ بينهما الى القانون القبلى بدون الاستعانة بالشريعة الاسلامية . بل كانوا يرتدون الى ممارسة طقوس

تعود الى الفترة السابقة على ظهور الاسلام . كما اعتادت هذه القبائل على تقسيم أنفسم الى فئتين : فئة النبلاء وفئة الحقراء أو الأدنى منزلة . (وكانت الأسرة السعودية تنتمى الى فرع موساليخ Musalish الذى ينتمى الى قسم الروالة Ruwalla الذى ينتمى الى قبيلة عنزة Anza التى تعتبر قبيلة نبيلة) . وقرر عبد العزيز العمل على تحويل المجتمع النجدى الذى يسوده التناحر والتمزق والانقسامات وتتواجد به طبقات هرمية الى أمة اسلامية موحدة بأن يجعل الولاء للاسلام وليس للقبيلة .. والولاء للامام وليس لشيخ القبيلة . وهو نفس الاجراء الذى سبق اتخاذه فى أيام محمد صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة العربية . واستخدم عبد العزيز المذهب الوهابى كوسيلة أيديولوجية تعينه على تحقيق هذا الهدف . وفى نفس الوقت كرر القول عن التراث الاسلامى والعربى للأسرة السعودية الحاكمة وحالات الزواج التى تمت من وقت لآخر بين الأسرة السعودية وسلالة محمد بن عبد الوهاب البالغة الوقار والاحترام وذلك كتبرير لتولى الأسرة السعودية الامامة فى البلاد .

وكانت أهم ملامح المذهب الوهابى هو التركيز على عقيدة التوحيد علاوة على المساواة الاجتماعية والدينية بين المسلمين .. وقام عبد العزيز بصفته زعيما وهابيا بالتركيز على هذه الملامح الرئيسية للمذهب الوهابى . اذ قام بالغاء ضريبة الحماية التى كانت تدفعها القبائل المحتقرة ذات المستوى الاجتماعى المنخفض للقبائل النبيلة مؤكدا بذلك على مبدأ المساواة التامة بين الناس اجتماعيا وسياسيا وهو المبدأ الذى نادى به المذهب الوهابى مما أسفر على الولاء الشديد له من جانب القبائل ذات المستوى الاجتماعى المنخفض . وبعد أن انتهى عبد العزيز من هذه الخطوة أصدر قرارا ينص على قيام جميع القبائل بدفع الزكاة له شخصيا

وذلك أدى الى ترسيخ أقدامه من حيث هو امام للجماعة كلها رغم أن هذا اللقب قد ظل من الناحية الاســـــمية منصبا على والده عبد الرحمن الى أن توفى عبد الرحمن فى عام ١٩٢٨ .

وكان الوهابيون ينظرون الى أنفسهم على أنهم هم « المجتمع الاسلامى الحقيقى الصادق » وبذلك بدأوا فى شن الهجمات على المشركين بالله والملحدين والمنافقين (المنافقون هم أولئك الناس الذين يدعون أنهم مسلمون بينما يكون سلوكهم غير متسم بالطابع الاسلامى وغير ملتزم بالقوانين الاســــلامية) . وكان الوهابيون يصفون الانحراف عن خط الشريعة الاسلامية بأنه بدعة والبدعة هى أمر غير اسلامى . وأى شخص لا يتفق فى الرأى مع التفسير الوهابى للاسلام كان الوهابيون يعتبرونه مارقا يســـتحق أقصى العقاب .

وكان الوهابيون يعتقدون اعتقادا راسخا فى أن العالم ينقسم الى قسمين : دار الاسلام والقرين لها هى دار الحرب (أى عالم الحرب الدائرة بين المؤمنين وغير المؤمنين) علاوة على اعتقادهم الراسخ فى المفهوم الذهنى عن الهجرة . فهم قد نظروا الى رحيل محمد بن عبد الوهاب فى عام ١٧٤٤ من العيينة Uyaina الى الدرعية Diriya على أنه رحيـــل مشـــابه تماما لهجرة محمد صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة المنورة ، وبذلك أطلقوا اسم الهجرة أيضا على رحيل عام ١٧٤٤ الذى قام به محمد بن عبد الوهاب .

وقدم عبد العزيز الرعاية للمعتنقين الجدد للمذهب الوهابى واعتبرهم كأنهم « مهاجـــرون » الى هذا المذهب وأن اعتناقهم للوهابية هو بمثابة « هجرة » نحو هذا المذهب . وهى هجرة تتصف بأنها مادية فيزيقية ودينية روحية فى آن واحد . وهى هجرة تعنى

التخلى عن الحياة البدوية والانتقال من القانون البدوى الى الشريعة الاسلامية ومن الروابط القبلية الى العضوية فى جماعة الاخوان الاسلامية .

وعقب استيلائه على منطقة الحساء فى عام ١٩١٣ أنشأ مستوطنات اخوانية . وكل مستوطنة كانت تضم أراضى زراعية ومراعى ومصادر للامداد بالمياه . الا أن معظم هذه المستوطنات قد فشلت فى أن يصبح بها اكتفاء ذاتى مما كان يضطر عبد العزيز الى تقديم الاعانات والدعم لها . وبعد فترة وجيزة أصبحت هذه المستوطنات بمثابة المراكز الدينية والسياسية والعسكرية والادارية والتعليمية للمذهب الوهابى مما مكن عبد العزيز من تحقيق شىء لم يستطع تحقيقه أى زعيم آخر من قبل : ألا وهو فرض حكم مركزى على ما يزيد على ٤٠ قبيلة كبيرة تسكن فى جميع أرجاء منطقة نجد . ولكى يقلل عبد العزيز من الصراع الداخلى والتناحر بين القبائل مع بعضها لبعض فانه أصدر أوامره بعدم ترك أية قبيلة لأراضيها بدون اذن خاص منه شخصيا . وكان يحتفظ بالكثيرين من مشايخ القبائل لديه فى العاصمة الرياض تحت اشرافه ومراقبته وتحت ستار تلقينهم مبادىء المذهب الوهابى .

وكانت الحياة فى كل مستوطنة من مستوطنات الاخوان التى تضم فى المتوسط ٢٠٠٠ شخص بالغة التنظيم ومتركزة حول المسجد المتواجد بالمستوطنة .

وقد لعب العلماء الدينيون دورا مهما فى هذا الصدد وكذلك لعب المطوعون (الشرطة الدينية) دورا بارزا . وكان يتم تدريب المطوعين فى الرياض . وكانت مهمة المطوعين هى تعليم المذهب الوهابى للناس ومعاقبة أولئك الذين يدخنون التبغ أو ينخرطون فى

الغناء والرقص أو يتحلون بارتداء الذهب والحرير أو يتخلفون عن أداء الصلوات الاسلامية فى مواعيدها المحددة . وكانت شـئون مستوطنة الاخوان تدار بمعرفة قيادة مشتركة تضم أميرا ومحافظا (حاكما) والأمير الذى يتم انتخابه بمعرفة المجلس الاستشارى المحلى كان مسـئولا أمام الامام المتواجد بالرياض . أما المحافظ (الحاكم) الذى يحكم بالشريعة الاسلامية فكان مسئولا أمام شيخ الاسـلام أو رئيس العلماء الدينيين الذى كان متواجدا أيضـا فى الرياض .

وكان عبد العزيز يجمع ما بين الحماسة الأيديولوجية والمذهب العملى البرجماتيقى . اذ كان يحرص على أن يتزوج من احدى فتيات عائلة شيخ القبيلة التى تم اخضاعها بهدف تدعيم سيطرته ونفوذه فى الأراضى التى فتحها واستولى عليها بدون تقويض البنيان الداخلى للقبيلة المهزومة بأى حال من الأحوال . ولكى يطبق هذا الأسلوب فانه أصبح متزوجا من ١٧ زوجة وصار لديه ٥٤ ابنا بالاضافة الى ٢١٥ ابنة . وهكذا نرى أن الوحدة الدينية لدار الاسلام الجديدة الموسـعة ـــ التى أصبحت تشـتمل على ٢٠٠ مستوطنة اخوان وتضم الآلاف من العساكر ـــ وقد تدعمت وتقوت من خلال روابط البنوة او الأبناء .

وتماما مثل أوائل الناس الذين اعتنقوا الدين الاسلامى فى منتصف القرن السابع الميلادى فان الاخوان الوهابيين كانوا يتفجرون بالحماسة الشديدة والرغبة فى نشر الطابع الوهابى للاسلام الى أقصى الأماكن بشبه الجزيرة العربية والى ما هى أبعد من ذلك . وبحلول عام ١٩٢٠ كانت مستوطناتهم قد أصبحت هى المصـدر الرئيسى لجيش عبد العـزيز . وقد برهنـوا على أنهم مقاتلون ممتازون . حيث كانوا يتميزون بسرعة الانتقال من مكان لآخر علاوة

على اتسامهم بالصلابة والخشونة الشديدة .. والأهم من ذلك كله أنهم كانوا مدفوعين من خلال الحماسة الدينية . وأثناء القتال والاشتباكات الحربية كانوا يستخدمون صيحات اسلامية فاذا كسبوا المعركة وتمكنوا من البقاء على قيد الحياة فانهم يشعرون بالفخر لأنهم كانوا السبب فى انتصار الفضيلة على الرذيلة . واذا لقوا حتفهم فانهم يعتقدون أنهم ماتوا شهداء فى سبيل اعلاء كلمة الله مما يضمن لهم مكانا فى جنة الخلود . اذ سبق أن قال تقى الدين بن تيمية وهو أحد كبار أساتذة محمد بن عبد الوهاب : « ان وفاة الشهيد الذى استشهد من أجل توحيد كافة الناس فى سبيل الله واحياء كلمته هى أسعد وأفضل وأسهل وفاة بين كافة أنواع الوفيات » . وأخيرا مادام الاخوان كانوا منهمكين فى الجهاد الاسلامى فانهم من الناحية الدينية لهم الحق فى الحصول على ٤/٥ الغنائم مع ترك الـ ١/٥ فقط من الغنائم من أجل الدولة .

وفى عام ١٩٢٠ نجح عبد العزيز فى الاستيلاء على اقليم عسير الذى يقع جنوب الحجاز . وهو اقليم يتميز بالأراضى الخصبة . وفى السنة التالية وجه ضربة حاسمة ونهائية لمنافسة محمد بن رشيد Rashid واستولى على حائل Hail وأعلن عن نفسه سلطانا أو قائدا وهو لقب علمانى . وبعد أن نجح فى اضافة المزيد من الأراضى الى ممتلكاته فى عام ١٩٢٢ أصبح سلطانا على نجد والأماكن التابعة لها . وكان يضفى تعبيرات وكلمات اسلامية على كل حملة حربية يقوم بها مثل أن يقول أنه يكافح من أجل معاقبة المنشقين عن الاسلام أو معاقبة أولئك الذين حادوا عن الطريق الحقيقى للاسلام . وعندئذ فقط كان بمقدور جنوده الاستيلاء على الغنائم من حيث هى مكافأة شرعية لهم .

وقد اراد عبد العزيز الاستيلاء على الحجاز من أجل أن يسيطر على طريق الحج المؤدى الى المدينة المنورة ومكة والذى

يدر أرباحا ومكاسب كثيرة . وفى ذلك الوقت كان حريصا على أن يضفى على أعماله الطابع الاسلامى . وعندما أعلن الشريف حسين عن نفسه خليفة للمسلمين وجد عبد العزيز فى ذلك السبب الوجيه الملائم الذى كان يبحث عنه من أجل اتخاذه مبررا . وفى نفس ذلك الوقت تقريبا كان البريطانيون قد قرروا معاقبة الشريف حسين على رفضه المستمر التوقيع على معاهدة أنجلو حجازية بأن قطعوا عنه الاعانات المالية التى كانوا يرسلونها اليه . وكانت تلك التطورات هى التى شجعت عبد العزيز على تنفيذ مخططاته . وأعلن أن الشريف حسين قد ارتكب أعمالا اجرامية لادعائه أنه الخليفة ولأنه يتخذ أساليب فاسدة فى ادارته لشئون مكة والمدينة المنورة . ولأنه تسبب فى تدنيس الأماكن المقدسة بأن سمح للمسيحيين بدخولها . وأثناء موسم الحج لعام ١٩٢٤ اتخذ عبد العزيز الاجراءات لعقد مؤتمر لكبار رجال الدين وكبار الشخصيات البارزة . وكان ذلك المؤتمر تحت رئاسة والده عبد الرحمن الذى يعتبر هو الامام من الناحية الاسمية . ووجه هذا المؤتمر نداء للاخوان الوهابيين لكى يقوموا نيابة عن الأمة الاسلامية بالاطاحة بالخليفة الزائف الشريف حسين . وأرسلت خطابات بهذا المعنى الى زعماء المجتمعات الاسلامية فى جميع أرجاء العالم من أجل الحصول على تأييدهم وموافقتهم على اتخاذ ذلك الاجراء . وشعر معظم القادة المسلمين بالعالم الاسلامى بالخوف من احتمال استيلاء الوهابيين على مكة والمدينة المنورة واحكام السيطرة الادارية عليهما ولذلك لم يستجب منهم سوى عدد قليل للغاية . ولكن التمرس والخبرة قد خدمت عبد العزيز اذ أوجد هالة اسلامية بشأن العمل الحربى الذى هو على وشك القيام به . ومن خلال ذلك تمكن من تثبيط همة البريطانيين وجعلهم لا يقفون فى صف الشريف حسين .

وفى أوائل أكتوبر قام الاخوان الوهابيون بفرض حصار حول

مكة ، وحتى يمكن تجنب سفك الدماء والدمار قام العلماء الاهليون والتجار باقناع الشـــــريف حسين بالتنازل عن الخلافة لابنه علي ومغادرة مكة . ووعد عبد العزيز بأنه لن يكون هناك تكرار لذلك الاستيلاء العنيف الذي تم في عام ١٨٠٣ والذي قام به الوهابيون . ثم هرب علي من مكة . فقام عبد العزيز باحتلال مكة . وبعد مرور عام استسلمت المدينة المنورة للاخوان الوهابيين .

وكتب عبد العزيز رسائل موجهة لرؤساء الحكومات المختلفة بالدول الاسلامية جاء فيها « انني لا أرغب في أن أكون حاكما على الحجاز . لقد عهد الى بهذا التفويض الى أن يقوم أهالي الحجاز باختيار حاكم يعتبر نفسه خادما للعالم الاسلامي ويعمل في حرص شديد على خدمة ورعاية الشعب المسلم » . اذ كان عبد العزيز يدرك من خلال خبرة آبائه وأجداده أن منطقة الحجاز لها أهمية بالغة من وجهة نظر قادة المسلمين الأجانب وان من السخف تجاهل هذه الحقيقة المهمة . وهو في نفس الوقت كان يعرف تماما من هو ذلك الشخص الذي « سيختاره » أهل الحجاز ليكون حاكما على منطقة الحجاز .

وفي أوائل عام ١٩٢٦ أعلن عبد العزيز أنه أصبح ملكا على الحجاز . وهو نفس اللقب الذي كان قد استخدمه الشريف حسين من قبل . وكان الهدف من استخدام هذا اللقب هو ادخال الطمأنينة في نفوس المسلمين الأجانب الذين كانوا سيبدون احتجاجا عنيفا لو كان عبد العزيز قد أعلن عن نفسه اماما للحجاز . اذ كان يدرك أنه بحاجة لأن يطمئن المجتمعات الاسلامية الأعجمية الأجنبية بأن مكة والمدينة المنورة ستظلان مفتوحتين أمام كافة الطوائف الاسلامية . ولكي يثير اعجاب الحجاج بالتغييرات المفيدة التي أدخلها فانه أصدر قرارا بتنفيذ حكم الاعدام في أي شخص من أهل الحجاز يحاول

ان يغشى الحجاج ويسلب أموالهم أو يستولى منهم على أموال بهدف توفير الحماية لهم . وكانت تلك ممارسات شائعة أثناء الحكم الهاشمى . وأصدر أوامره للمحاكم بالحجاز باتباع قوانين المذهب الحنفى وعلى النحو الذى كانوا يفعلونه قبل قيامه بالغزو وعدم اتباع المذهب الحنبلى الذى كان سائدا فى كل مكان آخر يقع بالأماكن التابعة لعبد العزيز .

وفى حين أن هذه الخطوات قد أعادت الطمأنينة بعض الشىء الى أهالى الحجاز والحجاج الأجانب نجد أنها سببت تصدعا بين عبد العزيز وأتباعه من الاخوان الوهابيين الذين أصبحوا يقيمون آنئذ فى ٢٢٢ مستوطنة وصار عددهم يزيد على ١٥٠ ألف رجل .

فالنمو السريع لمستوطنات الاخوان الوهابيين سواء من حيث العدد أو الحجم كان يعنى المزيد من الطلب على خزانة عبد العزيز . وكانت الغنائم التى يتم الحصول عليها من وراء سلسلة من الحملات العسكرية الناجحة فى أوائل العشرينات هى فقط التى كانت تسمح لعبد العزيز بالتغلب على هذه المشكلة . هذا بالاضافة الى أن تولى الشئون الادارية فى الحجاز كان عملا باهظ التكاليف . وأثناء الحكم الهاشمى بالحجاز كانت هناك ضريبة تفرض على التبغ وكانت بمثابة مورد كبير للدخل بالحجاز . وعندما قرر عبد العزيز الاستمرار فى تحصيل ضريبة التبغ فانه واجه معارضة شديدة من جانب العلماء الوهابيين . وأشاروا الى أنه مادام تدخين التبغ يعتبر غير اسلامى (وهو أمر يعاقب عليه الناس فى نجد) فان فرض ضريبة على التبغ يعتبر اجراء غير اسلامى . فتقبل عبد العزيز على مضض وجهة نظرهم . ولكنه سرعان ما بدأ يعانى من العجز فى ميزانيته مما جعله يرفض دفع المرتبات للجنود أو صرف المنح والمكافآت للاخوان . فخلق ذلك نوعا من التذمر والاستياء بينهم .

وفى أواخر عام ١٩٢٦ قام اثنان من القادة العســــكريين للاخوان الوهابيين بعقد مؤتمر . ووجه الحاضـــــرون فى المؤتمر انتقادات لعبد العزيز بسبب قيامه بفرض ضرائب غير اسلامية وفشله فى فرض المذهب الوهابى على الشيعة المتواجدين بالحساء بالاضافة الى قيامه باستخدام التليفونات والتلغرافات والسيارات والطائرات وكلها أشياء تحتوى على أعمال سحرية شيطانية .

ورد عبد العزيز بأن عقد مؤتمرا فى يناير ١٩٢٧ . وقام بالغاء كافة القوانين غير الاسلامية الخاصة بالحجاز . وأصدر أوامره بأن يحضر جميع الشيعة فى الفصول الدراسية التى يتم فيها تدريس المذهب الوهابى . كما أصدر تعليماته بمنع الشيعة من الاحتفــال بعاشوراء . وقال العلماء الذين حضـــــروا ذلك المؤتمر أن فرض ضرائب غير اسلامية لا يعتبر مبررا كافيا يجعل المؤمنين يرفعون راية العصيان ويصرون على عدم طاعة الامام .

وكل هذه التحركات قد تسببت فقط فى تأجيل المواجهة التى بدت محتومة بين عبد العزيز والاخوان . والتى كانت لها سابقات عديدة فى التاريخ الاسلامى .

وراح عبد العزيز يدرس هذه المشاكل دراســــة واقعية وعملية . انه قد استولى على ٨٠٪ من شبه الجزيرة العربية التى تبلغ مساحتها ما يزيد على مليون ميل مربع والتى يبلغ عدد سكانها حوالى ٣ر١ مليون نسمة وبذلك فانه لم يعد أمامه المزيد من الأراضى التى يمكن له الاستيلاء عليها . ومن هنا بدأ يدرك انه من الناحية العملية لم يعد بحاجة الى قوة عسكرية تضم ١٥٠ الف مقاتل من الاخوان المتعصبين للمذهب الوهابى . وبعد أن أعلن عن نفسه ملكا على نجد والأماكن التابعة لها فى يناير ١٩٢٧ فانه راح يسعى للحصول على الاعتراف الدولى به ملكا على نجد .

وكان حريصا على الحصول على هذا الاعتراف من بريطانيا بصفة خاصة لأن بريطانيا كانت بمثابة أهم قوة أجنبية في شبه الجزيرة العربية . وأسفرت الجهود عن ابرام معاهدة جدة لعام ١٩٢٧ . لقد اعترفت لندن بعبد العزيز ملكا على الحجاز ونجد والأماكن التابعة لنجد . وفي مقابل ذلك وافق عبد العزيز على أن تكون بريطانيا « حماية » على الامارات في الخليج وعمان كما وافق على ادماج شرق الأردن والعراق تحت الانتداب البريطاني . وكان ذلك معناه كبح جماح الاخوان الذين كانوا يعتقدون أن تثبيت الحدود بالأسلوب الغربي بين الدول لا معنى له والذين كانوا يموجون بالحماسة الشديدة والرغبة في نشر العقيدة الوهابية الى باقي أجزاء العالم .

وقام الاخوان الوهابيون بغارات مستمرة خارج نطاق الأراضي التابعة لعبد العزيز مما وتر العلاقات بينهم وبين حكام تلك الأراضي وطالب البريطانيون بضرورة وقف الغارات التي يشنها الاخوان الوهابيون . فلجأ عبد العزيز الى مصادرة الغنائم التي يحصل عليها الاخوان في مثل هذه الحالات (في حالة ما اذا كانت أعمالهم قد حصلت على موافقة من الامام أو العلماء الدينيين) . وفي أوائل عام ١٩٢٩ وبعد أن فشل الاخوان في العبور الى العراق الواقع تحت السيطرة البريطانية فانهم راحوا يبددون طاقاتهم العدوانية على القبائل الواقعة عند الجانب الحدودي الخاص بهم . فأثار هذا غضب وضيق عبد العزيز . فأصدر أوامره بتسريح جيش الاخوان . فتجاهل الاخوان تلك الأوامر . فاستصدر فتوى من العلماء الدينيين تفيد بأن الهجمات التي يشنها الاخوان غير شرعية . وبدأ عبد العزيز في نفس الوقت في التوسع في الجيش التابع له من خلال الحصول على متطوعين من القبائل ومن سكان المدن الصغيرة . ثم قاد جيشا مكونا من ٣٠ ألف مقاتل ومزودا بأسلحة ميكانية حديثة

تم الحصول عليها من البريطانيين لكى يواجه ثمانية آلاف مقاتل من الاخوان كانوا تحت قيادة فيصل الدراويش وسلطان بن بجاد فى منطقة سبيلة فى مارس ١٩٢ . ونجح فى الحاق الهزيمة بهم .

ولكن الاخوان لم يتوقفوا نهائيا عن هذه الأعمال الا بعد حلول شهر ديسمبر حيث وجدوا أنفسهم محاصرين بين قوات عبد العزيز المتقدمة والكتائب البريطانية المتواجدة بالكويت . فهرب عدد كبير منهم . ثم استسلموا فى نهاية الأمر للبريطانيين الذين قاموا بدورهم بتسليمهم لعبد العزيز . فقام عبد العزيز بمعاقبتهم فى قسوة شديدة لكى يضمن عدم تكرار ذلك التمرد مرة أخرى مستقبلا .

وفى سبتمبر ١٩٣٢ قام عبد العزيز بتوحيد نجد والحجاز وأطلق عليهما اسم : المملكة العربية السعودية وأعلن نفسه ملكا على العربية السعودية . وكان العلم الوطنى به الشهادة الاسلامية (أشهد الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله) والسيفان المتقاطعان اللذان يخصان محمد بن عبد الوهاب وبيت سعود لتكون رموزا معبرة عن الكيان السياسى الجديد .

وبعد أن انتهى بيت سعود من تشييد دولة (بالمعنى المعاصر لكلمة دولة) فانه استخدم الاسلام لاضفاء الطابع الشرعى على الحكم الملكى لهذه الدولة . ان المملكة العربية السعودية فريدة من نوعها . اذ تم خلقها من خلال سلسلة من الحملات العسكرية الاسلامية فى الأزمنة الحديثة ثم ظل طابعها من حيث هى دولة أصولية ثابتا بدون حدوث أى تغيير منذ انشائها فى عام ١٩٣٢ . ومن هنا يمكن القول انها أقدم دولة أصولية اسلامية مستقلة سياسيا فى العالم أجمع .

ان النظام الملكى والسلطة الموروثة هو أمر لا يحظى بموافقة اسلامية . وهذا واضح تماما منذ التاريخ المبكر للاسلام . اذ كان الخليفة يتم اختياره من خلال استشارات تتم بين كبار الشخصيات بالمجتمع أو تتم بمعـــــرفة مجلس انتخابى يعينه الخليفة المتولى السلطة . وعلى العكس تماما من هذا الأسلوب كان أئمة بيت سعود يلجأون الى تحديد أسماء من سيجيئون بعدهم فوضـــــعوا بذلك أسلوب السلالة الحاكمة .

وعندما تعرض عبد العزيز وخلفاؤه على السلطة لهذا الانتقاد فانهم أشاروا الى أن القرآن هو دستور العربية السعودية ومادام الملك خاضعا للأمور والتعاليم القرآنية مثل أى مؤمن آخر فان النظام الملكى يصبح شرعيا فى الاسلام .

ومع ذلك فقد هزأ بيت سعود من مبدأ اسلامى آخر : حيث يوجد نص قرآنى يفيد بأن الحاكم يجب عليه أن يستشير الشعب وجماهير الناس اثناء ممارسته الحكم عليهم . (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين) صدق الله العظيم .

وما حدث هو أن عبد العزيز عندما حصل على لقب : ملك الحجاز بادر الى تشكيل مجلس استشارى يضم ٢٤ عضوا ويتألف من العـــلماء الدينيين وكبار الشـــــخصيات والتجـــــار . وقد لعب هذا المجلس الاســـتشارى دورا هزيلا لفترة ضئيلة وبعدئذ اختفى من الوجود تماما على نحو غير رسمى . ومنذ ذلك الحين لم يوافق أى ملك جاء بعد عبد العزيز على مجرد التطرق الى فكرة

انشاء مجلس استشارى وبالتالى لم يقوموا بتعيين أى مجلس استشارى أو السماح للمواطنين بانتخاب أعضاء مجلس استشارى .

وامتلاك مكة والمدينة المنورة قد مكن عبد العزيز من التأكيد على دوره من حيث هو الحارس العام على الأماكن المقدسة وحامى حمى الحج علاوة على اضفاء طابع اسلامى عميق على بيت سعود . الا أن موقف ووضع عبد العزيز كان فى حقيقة الأمر معقدا ومتسما بالأهمية الشديدة . فهو لم يكن يشغل فقط منصب رئيس الدولة والقائد الأعلى للقوات المسلحة ورئيس الأسرة الملكية الحاكمة وانما كان أيضا قائدا على كافة مشايخ القبائل (شيخ المشايخ) . وهو بوصفه حامى حمى الأماكن المقدسة فانه اكتسب صفة حامى حمى وراعى العقيدة الاسلامية .

ولكن عبد العزيز وجد مملكته تتعرض لأزمة اقتصادية ناجمة عن الهبوط الشديد فى اعداد الحجاج (وكان ذلك بسبب فترة الكساد العالمى) مما أدى بالتالى الى انخفاض ضريبة الحج التى تسدد للحكومة . وتحت هذه الظروف الاقتصادية الصعبة فانه منح امتيازا للتنقيب عن البترول لشركة ستاندرد أويل بكاليفورنيا فى عام ١٩٣٣ فى مقابل ٥٠ ألف جنيه تسدد بالجنيهات الذهبية كسلفة من المبالغ المستقبلية التى ستتحدد وفق الانتاج الفعلى من البترول . وعلى الفور بدأ التنقيب عن البترول فى منطقة الحساء . وبعد مرور خمس سنوات بدأ استخراج البترول بمعدلات اقتصادية ضئيلة .

وتوقف انتاج البترول بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية ولكن ما انتهت الحرب حتى قفز الانتاج من ٥٠ الف برميل يوميا الى ٩٠٠ الف برميل يوميا فى عام ١٩٥١ مما أدى الى تعاظم الازدهار

الاقتصـــادى الذى شمل المؤسسات المختلفة الدولة التى يشرف عليها عبد العزيز كما شمل بعض أفراد من أقرب اقربائه . ومع ذلك فان الملك عبد العزيز لم يصدر قرارا بانشاء مجلس للوزراء كهيئة استشارية الا فى أكتوبر ١٩٥٣ أى قبل وفاته بشهر واحد .

ومرت خمس سنوات قبل أن يقوم الحاكم الجديد وهو الملك سعود بن عبد العزيز باعطاء سلطات تنفيذية وتشريعية للوزراء . وقد اضطر لأن يفعل ذلك لسبب واحد وهو أن الشئون الادارية للبلاد فى ذلك الوقت كانت قد توقفت بالفعل بسبب النقص فى الميزانيات وعدم وجود أنظمة حسابية مما جعله يصدر قرارا بتعيين الأمير فيصل بن عبد العزيز مسئولا عاما عن شئون الدولة .

وفى عام ١٩٦٠ تم اعداد مشروع دستور ينص على أن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة ويصف الملكية الخاصة ورأس المال الخاص بأنها « فئات أساسية للثروة الطبيعية » وينص على تشكيل مجلس وطنى يضم عددا يتراوح من ٩٠ الى ١٢٠ عضـــــوا بحيث يتم انتخاب ثلثى الأعضــــاء والباقى يتم تعيينهم بمعرفة الملك . ثم قدم مشروع الدستور هذا الى الملك سعود لكى يوافق عليه . الا أن الملك رفض الموافقة على هذه الوثيقة وقال « ان القرآن الكريم هو أعظم وأقدم وأكفأ دستور فى العالم كله » .

ولكن الاطاحة بالنظام الملكى الدينى فى اليمن الشمالية فى ٢٧ سبتمبر ١٩٦٢ قد أثار انزعاج وقلق الأسرة الحاكمة السعودية . وفى ٦ نوفمبر قام الأمير فيصل بن عبد العزيز باصدار برنامج من عشرة بنود تغطى المجـــالات الدســــــتورية والدينية والقضائية والاجتماعية والاقتصادية فى الدولة . وأشار البرنامج الى التزامه بتحسين أحوال جماهير المواطنين العاديين من خلال اللجوء الى

تنمية اقتصادية مكثفة وتنفيذ « تشريع اجتماعى » . ووعد البرنامج باصدار « قانون أساسى » (بمعنى دستور) يرتكز على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة . ويزود المواطن بالحقوق الأساسية بما فى ذلك « الحق فى التعبير بحرية عن رأيه فى نطاق المعتقدات الاسلامية والسياسة العامة » . كما تعهد هذا البرنامج بادخال اصلاحات على جمعيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بما يتمشى مع الشريعة الاسلامية . علاوة على انشاء « مجلس قضائى أعلى » يضم عشرين عضوا من أجل تناول المشكلات القانونية بالمجتمع الحديث فى ضوء الشريعة . (وبعد مرور ٢٥ سنة نجد أنه لم توضع صياغة مبدئية للدستور ناهيك عن صدوره . ولم يتم تشكيل المجلس القضائى الأعلى الذى سبق الوعد بتشكيله الا فى منتصف عام ١٩٧٥) .

ففى داخل المملكة العربية السعودية نجد أن النظام الملكى الدينى متداخل فى نسيج متشابك مع السلطة العلمانية الدنيوية على جميع المستويات . فعلى المستوى المحلى نجد أن المؤسسة الدينية — الامام والعلماء والقاضى الدينى — تعمل فى ترابط مع الشئون الادارية الحكومية بما يتمشى مع الخطوط والأساليب السابق اتباعها فى مستوطنات الاخوان الوهابيين . فالمطوعون — الشرطة الدينية — يقومون بتنفيذ قرارات الامام المحلى . وهم يحرصون على قيام الناس بتأدية الممارسات الاسلامية بكل دقة مثل اغلاق المحلات والدكاكين أثناء أوقات تأدية الصلاة ومثل ارتداء النساء الملابس اسلامية متواضعة أثناء تواجدهن بالشوارع ومثل عدم تناول الخمور فى الأماكن العامة ومثل صوم رمضان والامتناع عن تناول الطعام من شروق الشمس الى غروبها . كما يقومون أيضا بتعليم المواد الدينية فى المؤسسات التعليمية والعمل على اتباع الناس للتعاليم الاسلامية فى كل مكان . وعلى المستوى

القومى يقوم بمساعدة الملك فى الشئون الدينية والقضائية وزير الشئون الدينية والعدل وهو عادة ما يكون من سلالة محمد بن عبد الوهاب كما يساعده فى هذا الشأن كبير القضاة الدينيين .

وفى عام ١٩٧٠ نجد أن منصب المفتى الأكبر (ويسمى أيضا شيخ الاسلام) وهو رئيس المحاكم الشرعية قد حل محله منصب وزير العدل . وسيرا وراء الأسلوب السابق نجد أن الوزارة الجديدة كان يرأسها عالم دينى موقر ينتمى لعائلة محمد بن عبد الوهاب التى تعرف باسم أهل الشيخ . وفى حين كان منصب المفتى الأكبر بمثابة سلطة دينية مستقلة فان وزير العدل من حيث هو عضو فى الحكومة كان من المتوقع منه أن يتبع تعليمات الملك . وهذا التغيير قد وضع اللمسات الأخيرة فى اخضاع العلماء الدينيين للسلطة السياسية التابعة للملك السعودى وهو موقف يذكرنا بما كان عليه الحال فى البلاط العثمانى . ولو أنه فى منتصف القرن الثامن عشر كان مؤسسو الأسرة المالكة السعودية ومؤسسو المذهب الوهابى يعتمدون على بعضهم البعض بصورة متساوية . ولكن التوازن قد تحول بشكل حاسم لصالح بيت سعود أثناء فترة حكم عبد العزيز . وحقيقة الأمر أنه لما استبدل عبد العزيز (بشكل تدريجى) بالقضاة الحنفيين بالحجاز قضاة من الحنابلة أصبح العلماء الدينيون يعتمدون فقط على الدولة فى اكتساب رزقهم ومنزلتهم الرفيعة . وبهذا الوضع تكون العربية السعودية قد سارت فى خط مماثل لمعظم الدول السنية الأخرى حيث يكون العلماء الدينيون معتمدين على الدولة فى اكتساب أرزاقهم .

ومع ذلك فانه يمكن القول أن العلماء الدينيين بالسعودية العربية يتمتعون بالمزيد من النفوذ والهيبة والسلطة عما هو الحال فى أى دولة سنية أخرى . فهم بمثابة العنصر الرئيسى فى اضفاء

صفة الشرعية على الحكم السعودى . اذ أصبح ذلك واضحا أثناء الأزمة التى حدثت فى أوائل الستينات عندما اتضح أن الملك سعود ابن عبد العزيز غير كفء ومبذر . ففى أواخر مارس ١٩٦٤ أصدر ١٢ من كبار العلماء الدينيين قرارا ينص على أن الأمر يستلزم قيام الأمير فيصل بن عبد العزيز بالاشراف على كافة الشئون الداخلية والخارجية بدون استشارة الملك سعود ولكن مع بقاء الملك سعود فى منصبه كملك على البلاد . وكان فيصل وهو ابن من أم تنتمى لأهل الشيخ مشهورا بالتقوى والورع والصلاح والزهد والتقشف والحرص على النواحى المالية . وفى اليوم التالى قام سبعون من كبار الأمراء بتأييد رأى العلماء فى هذا الصدد . الا أن الملك سعود رفض أن يكون ملكا من الناحية الصورية أو الشكلية فقط . ووجه نداء للعلماء الدينيين لكى يعيدوا النظر فى قرارهم . وفى ٢٩ أكتوبر ١٩٦٤ تم عقد اجتماع سرى يضم كافة كبار العلماء الدينيين وقرروا أن الأمر يستلزم تنفيذ رأى الشريعة الخاص بمراعاة « الصالح العام » وبالتالى توصلوا الى أنه ينبغى على الملك سعود أن يتخلى تماما عن العرش لكى يتربع فيصل على قمة السلطة بالبلاد . وقام حوالى مائة من كبار الأمراء باعلان موافقتهم على رأى العلماء . وفى مواجهة مثل هذا التيار الجارف من التحالف بين المؤسسة الدينية والغالبية العظمى من أفراد الأسرة الملكية الحاكمة اضطر الملك سعود الى التنازل عن العرش . وقدم تنازله عن العرش بالفعل فى ٢ نوفمبر ثم غادر البلاد . وقام فيصل بممارسة الحكم فى البلاد الى أن تم اغتياله فى مارس ١٩٧٥ على يدى أمير شاب يموج بالاستياء والسخط .

ومن بين الأعمال المهمة التى يقوم بها كبار العلماء الدينيين تقديم المشورة بشأن سن الأوامر الملكية التى تسمى « نظام » والتى تنظم المجتمع السعودى فى تلك المناطق التى يكون فيها الفقه

غائبا أو غير كاف، أو غير متلائم مع العصر الحديث . والحكومة السعودية ترى أنها تصدر مثل هذه التنظيمات كجزء من جهودها الادارية الرامية الى تنفيذ وتطبيق الشـــــرعية وليس من قبيل التوسع فى الشريعة أو ادخال تغييرات عليها . ومثل هذه الممارسة التشريعية متأصلة بعمق فى تاريخ الاسلام وترجع الى تسعة قرون على الأقل . وكان العثمانيون يستخدمون كلمة « قانون » للتعبير عن مثل هذه التشريعات . وأقدم نموذج لقانون صادر فى المملكة العربية السعودية كان هو القانون التجارى الذى أصدره عبد العزيز فى عام ١٩٣١ . وأثناء فترة حكم الملك سعود حدثت مراجعة على القانون التجارى بما يتمشى مع الخطوط الرئيسية للقانون التجارى العثمانى الخاضع لتأثيرات غربية مع الاعلان عن القوانين التى تتعلق بجنسية الأفراد والتزوير والرشوة والتعدين . ومن بين القوانين المهمة التى أصدرها الملك فيصـــــل تلك القوانين التى تتعلق بالعمل والعمال والتأمين الاجتماعى والخدمة المدنية .

ومثل هذه الأعمال مسموح بها وفقا للمذهب الحنبلى . ففى حين أن المذهب الحنبلى يطالب بالتطبيق الصارم والدقيق لما جاء بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية فانه مرن للغاية فى المجـــالات التى لم يرد فيها نصوص صريحة بالقرآن أو الأحاديث النبوية . كذلك نجد أن القضاة الحنابلة لم يغلقوا الأبواب أبدا أمام «الاجتهاد» فى تلك الأماكن التى يكون فيها القرآن والأحاديث غامضا ومستغلقا على فهم الناس . والأكثر من ذلك أن القضاة يسمح لهم باختيار حكم فى موضوع معين من بين المذاهب الأخرى المعترف بها اذا كان المذهب الذى يتبعونه لم يتعرض لذلك الموضوع المعين أو كان مشوشا وغير واضح . وأخيرا يمكن القول بأن المذهب الحنبلى يقبل المبدأ الاسلامى العام بشأن « المصلحة العامة » أو « مصلحة المجتمع » التى عبر عنها — على سـبيل المثال — العلماء عندما طالبوا باقالة الملك سعود .

وعندما يواجه الحكام السعوديون مشاكل تتعلق بمدى شرعية الاختراعات الحديثة أو المواقف الجديدة من وجهة نظر الاسلام فانهم كانوا يلجأون الى المعيار العام ألا وهو « مصلحة المجتمع » . وعلى هذا الأساس لم يجد عبد العزيز حرجا فى استخدام التليفونات والسيارات والطائرات . الا أن معظم الاخوان الوهابيين كانت لهم آراء مختلفة . اذ كانوا يرون أن هذه البدع الغريبة الشكل هى من عمل الشيطان . وتحت ضغوطهم اضطر عبد العزيز الى تأجيل استخدامه لهذه المخترعات الحديثة ولكن ليس لفترة طويلة .

ولكن الاخوان الوهابيين لم يكونوا هم فقط الذين عارضـــوا استخدام التكنولوجيا الحديثة . اذ عارض ذلك أيضا بعض كبار العلماء الدينيين . فعندما وصل الأمر الى استخدام الراديو نجد أن الشيخ عبد الله بن حســين رئيس القضـــاء بالحجاز اعتقد أن الشيطان نفســه هو الذى ينقل الكلام عبر الهواء وأن جميع العاملين فى محطات الاذاعة بالملكة يعبدون الشيطان . فحرص عبد العزيز على اذاعة القرآن الكريم من محطـة اذاعة الرياض لكى يسمع ذلك الشيخ عبد الله بن حسين وهو متواجد فى مكة ولكى يبرهن له أن الشيطان ليس له علاقة بهذا الموضوع . فمن غير المعقول أن ينقل الشيطان كلام الله ولو لمسافة متر واحد الى الأمام . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا أصبح الراديو هو من معجزات الله سبحانه وتعالى .

وعقب التوسع فى أعمال التنقيب عن البترول واستخراجه تزايد تواجد المهندسين والعمال الفنيين الأمريكيين فى الملكة العربية الســـعودية . فانتقد أبو باز Abu Bahz وهو زعيم وهابى سابق الملك عبد العزيز على ذلك وذهب فى تقديراته الى أن الملك يساعد الكفار على تحقيق الأرباح المالية من وراء المسلمين . فقام

عبد العزيز باستدعاء أبو باز ومجموعة أخرى من كبار العلماء الدينيين الى قصره بالرياض . وأظهر لهم كيف أنه ضليع فى التاريخ الاسلامى وأشار الى حالات عديدة قام فيها النبى محمد بتشغيل أناس غير مسلمين من أجل أن ينجزوا أعمالا معينة . ثم سألهم : « هل أنا على خطأ أو على صواب ؟ » فرد عليه الحاضرون قائلين له أنه على صواب . ثم استطرد عبد العزيز قائلا : « اذن فهل أنا أتخطى الشريعة عندما أستخدم خبراء أجانب للعمل من أجلى .. وتحت اشرافى وتوجيهاتى بهدف زيادة الموارد المادية للبلاد وبهدف الحصول على الربح الخاص بنا من المعادن والبترول والمياه والتى وضعها الله تحت أراضينا من أجل أن نستخدمها ؟ » . فاجتمعت آراء المتواجدين بالجلسة على أن الملك لم يخرق قوانين الشريعة . وأوضح الملك أن الأمريكيين والبريطانيين هم من أهل الكتاب وبذلك فهم مفضلون على الوثنيين والمرتدين عن الدين .

وتجادل عبد العزيز مع العلماء بشأن التصوير الفوتوغرافى . وأوضح أن الاسلام يمنع أو ينهى عن تدخل الانسان فى خلق الاشكال والقوالب البشرية بمعنى أنه ينهى عن كافة الفنون المكتوبة أو المرسومة التى تحتوى على اشكال وقوالب بشرية . ثم أشار عبد العزيز الى أن التصوير الفوتوغرافى ليس سوى تجاور للضوء والظل المخلوقين بمعرفة الله . وهو بذلك أمر مختلف تماما عن الفنون التشكيلية والرسم بالزيت وغير ذلك . وبذلك أصبح التصوير الفوتوغرافى مسموحا به فى السعودية العربية . ومن نفس هذا المنطلق حاول الملك فيصل ادخال التليفزيون فى عام ١٩٦٥ . وقد واجه معارضة عنيفة من العلماء الدينيين المحافظين . ولذلك حرص الملك فيصل على الاكتفاء ببث الصلاة وتلاوة القرآن الكريم والندوات والمناقشات الدينية فى بادىء الأمر .

وفى حين كان عبد العزيز ومن جاءوا بعده فى الحكم يتوددون

من وقت لآخر للعلماء لكى يوافقوا على ادخال التكنولوجيا الحديثة والتطوير الاقتصادى السريع الى البلاد فانهم كانوا متفقين فى الرأى تماما مع العلماء من حيث أنه ينبغى على أهالى المملكة السعودية العربية الا يتخلوا عن أساليبهم التقليدية فى الحياة والتفكير ويجب أن يبتعدوا عن الأساليب الغربية . وهذا ينطبق بصفة خاصة على عبد العزيز الذى كان يؤمن بأن الأوربيين أو الأمريكان ليسوا أكثر تحضرا من الأهالى بالسعودية العربية . ونظرا لأن العربية السعودية لم تتعرض أبدا لأى استعمار غربى كما لم يحكمها حكام محليون لهم الطابع الغربى ومعجبون بالأساليب الغربية فى الحياة فان ملوك السعودية كانوا يؤمنون ايمانا راسخا بأن الاسلام من حيث هو نظام أخلاقى اجتماعى أفضل وأسمى وأرقى من أى نظام آخر .

ومع التوسع فى صناعة البترول ومع زيادة أعداد الناس الأجانب من مسلمين وغير مسلمين ومع زيادة سفر السعوديين أنفسهم الى الدول الأجنبية وحصولهم على شهادات علمية من الجامعات الغربية بدأت المملكة العربية السعودية تفقد بعض الشىء جانبا من وجهها الصارم المتزمت . فأدى هذا الى شعور العلماء والملك بالقلق والانزعاج . ولذلك أصدر الملك فيصل فى خريف عام ١٩٦٧ بيانا حذر فيه الشباب السعودى من الانحلال فى السلوك والملبس كما أصدر أوامره بأن يتوقف الموظفون المدنيون عن العمل لدى حلول أوقات الصلاة وأن يتم الفصل بين الأولاد والبنات بالمدارس اعتبارا من سن التاسعة وأنه ينبغى على الاناث اعتبارا من سن التاسعة فصاعدا ارتداء الحجاب . وقد ساند العلماء هذا البيان فى حماسة شديدة .

وكان العلماء آنئذ يحصلون على مرتبات عالية وكانوا يحظون بقدر هائل من التبجيل والاحترام . وكانوا يحرصون على مداومة

الاتصال بجماهير الناس بهدف تقديم المشـــورة لهم فيما يتعلق بالمشكلات الشخصية علاوة على التوسط فى المنازعات ومساعدة المواطنين فى معاملاتهم مع البيروقراطية . وكانوا يديرون شئون النظام القضائى حيث كانت تنفذ عقوبات « الحد » الخاصـــة بالشريعة السلامية : ألا وهى المعاقبة بالجلد لمن يشرب الخمور وقطع اليد بالنسبة للسارق والرجم بالحجارة حتى الموت بالنسبة للأشخاص المتزوجين الذين يرتكبون الزنا . وكانت محاكم الشريعة التى يترأسها العلماء تلقى كل احترام من الجماهير لأنها من وجهة نظرهم تتسم بالعدالة . وكان العلماء يقدمون المنح الدينية الوفيرة التى تتمثل ليس فقط فى بيوت الشباب العديدة التى تمنح لكى يستخدمها الفقراء من الحجاج وإنما أيضا فى جامعة الامام ابن سعود الاسلامية المتواجدة بالرياض . وكان العلماء هم المسئولين عن تنظيم الحج الذى يستمر على مدى ستة أيام والذى اجتذب فى منتصف الستينات اعدادا تصل الى مليون مسلم من داخل السعودية وخارجها . وكانوا يديرون جميعات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويشرفون على المطوعين (الشرطة الاســـلامية) التابعين لهذه الجمعيات . وكان المطوعون المزودون بالعصى والهراوات يرغمون أصحاب الدكاكين والمحلات على الاغلاق فى أوقات الصلاة ويحطمون الدميات الموجودة بالمحلات (على أساس أن أى دمية تشـــبه الأوثان) ويشنون غارات على المساكن أو المخازن التى يشتبه أن بها مشروبات كحولية ويضربون بالعصى على سيقان النســـاء الأوربيات لأن سيقانهن مكشوفة أمام أعين الناظرين .

وفى العربية السعودية نجد أن دور المرأة محدد على نحو حاسم وفقا لما هو وارد فى القرآن الكريم : وهذه القيود تنطبق على كافة النساء سواء كن مسلمات أو غير مسلمات . فوضـــع المرأة ينبع من المقدمة المنطقية التى تفيد بأن الأســـرة هى الركن

الأساسى فى المجتمع الاسلامى وأن الدولة الاسلامية ينبغى أن تخلق بيئة لا يشعر فيها الرجال بالرغبة فى الانغماس أكثر من اللازم فى العلاقة الجنسية الزوجية مما يؤدى الى تقويض الأساس الذى تقوم عليه الحياة العائلية . ومن هذا المنطلق ينبع الحظر المفروض على قيام النساء بقيادة السيارات أو السفر بمفردهن أو العمل جنبا الى جنب مع رجال ليسوا أقرباء لهن . وهناك رأى عام سائد بين العلماء وآخرين مفاده أن الاسلام فى حقيقة الأمر قد رفع من شأن النساء بالعربية السعودية فى خلال القرن السابع وذلك بمنحهن الحق فى الزواج والطلاق والميراث . ونظرا لأن الرجال — بوجه عام — مستقرون عاطفيا وأعلى وأسمى من الناحية الذهنية والثقافية فقد أصبح لهم الحق فى أن يقودوا المجتمع بوجه عام والأسرة بوجه خاص . أما دور المرأة الرئيسى فيحصر فى أنها زوجة وأم . ومن ثم ينبغى أن يكون تعليمها موجها أساسا وفق هذه الخطوط .

وكانت هناك معارضة فى تعليم المرأة فى حد ذاته بالمملكة العربية السعودية من جانب العلماء الدينيين . ولكن فيصل بالاشتراك مع زوجته (وهى زوجة واحدة فقط حيث لم يتزوج من أخرى على الاطلاق) التى تسمى عفت بنت أحمد الثنيان al Thunayan هما أول من أدخلا تعليم الفتيات فى عام ١٩٦٠ . اذ ذهب فيصل فى مجادلاته الى أن القرآن أنعم بالتعليم على كل انسان مسلم سواء أكان ذكرا أم أنثى . ورغم كل ذلك فلم يوافق العلماء على هذا الرأى رسميا الا بعد مرور سنوات قليلة .

وكان فيصل يتمتع بشخصية كبيرة بين العلماء الدينيين قبل وبعد أن أصبح ملكا على البلاد . وهو يمت بصلة القرابة من خلال والدته الى محمد بن عبد الوهاب صاحب المذهب الوهابى .

وكان فيصل يعيش حياة تتسم بالصرامة والزهد والتقشف والصبر والجلد كما كان يتصف بالتقوى والورع على نحو أسطورى . وقد قام برفع أجور ومرتبات العلماء الدينيين وفى نفس الوقت شدد من سيطرة الدولة عليهم . كما قام بادخال أسلوب السيطرة على الأسعار والاشراف عليها علاوة على اهتمامه بالخدمات التعليمية والصحية مما زاد من التأييد الشعبى له .

كما أن حرب أكتوبر ١٩٧٣ العربية الاسرائيلية قد زادت من هيبته ونفوذه . فهو قد حقق هدفين فى آن واحد عندما قاد فى حماسة عملية فرض الحظر على تصدير البترول للدول التى تساند اسرائيل . الهدف الأول أنه أوضح للجميع أنه زعيم مؤمن بالقومية العربية والهدف الثانى أنه ساعد على رفع سعر البترول . فاذا كانت الخطة الخمسية الأولى ١٩٧٠ — ١٩٧٥ قد تكلفت ٨ بلايين دولار فان الخطة الخمسية الثانية ١٩٧٥ — ١٩٨٠ قد وصلت الى ١٤٢ بليون دولار . وكان أكثر من ٨٠٪ من اعتمادات الخطة الخمسية الأولى مخصصة لبناء أو التوسع فى البنية الأساسية للطرق والمواصلات ومحطات توليد الطاقة الكهربائية . وكان لا يمكن تنفيذ هذه الخطط الطموح بدون الاستعانة بأعداد هائلة من العمال الأجانب من دول عربية وغيرها من الدول الأخرى . وقد أدى تواجد عدد كبير من الناس العزاب غير المتزوجين فى السعودية الى خلق عدد كبير من المشاكل الاجتماعية وغيرها من المشاكل الأخرى .

والمجتمع السعودى فى حد ذاته قد طرأت عليه تغييرات اجتماعية عميقة . فالانتاج الغزير للغاية من البترول قد أدى الى توسع سريع ودرامى فى المراكز الحضرية كما أدى الى الاختفاء السريع للقرى والقبائل البدوية . ففى منتصف السبعينات كان

البدو الرحل لا يشكلون سوى ١٠٪ فقط من مجموع السكان البالغ عددهم ٣ر٤ مليون نسمة . كما أن انتشار وتسيد الطابع الحضرى والتجارى قد قوض وهدم الولاء القبلى ومما عمق ذلك التقويض هو قيام الحكومة بتوفير مصادر الامداد بالمياه علاوة على عدم تشجيع القبائل على الارتباط بآبار مياه معينة أو مناطق للرعى محددة .

ومن جهة أخرى نجد أن الزيادة الهائلة فى البترول قد ساعدت على تماسك الأسرة الملكية المتزايدة الأعداد بشكل كبير للغاية . اذ كان عدد الأمراء آنئذ قد وصل الى ما يزيد على ٤٠٠٠ أمير . ينحدر نصفهم مباشرة من عبد العزيز والنصف الآخر ينحدر من اخوة عبد العزيز الخمسة ومن أبناء أعمامه . وكان من بينهم من يشغل أهم المناصب المدنية والعسكرية . ويمكن القول بأن الأسرة الملكية السعودية بأعدادها الهائلة كانت تماثل نظام الحزب الواحد الحاكم فى الكثير من دول العالم الثالث العلمانية .

ومع ذلك كان هناك دائما شىء من السخط والتبرم من الحكومة . مثال ذلك أن الأمير طلال قد لجأ الى مصر فى اغسطس ١٩٦٢ التى كانت تحت قيادة عبد الناصر الذى كان معاديا للملك فيصل . وشكل « جبهة تحرير المملكة العربية السعودية » وبعدئذ هدأت ثورته وعاد الى السعودية حيث لقى الترحيب من الأسرة الملكية مرة أخرى . وفى أغسطس ١٩٦٥ قام أمير آخر يسمى خالد بن مساعد بالاشتراك مع أتباعه فى الهجوم على محطة الارسال التليفزيونى بالرياض . فتعرضت لهم شرطة الأمن وقتلته هو ورفاقه . وقد اتضح فيما بعد أن الأمير خالد بن مساعد كان قائدا لحركة احياء الاخوان الوهابيين وأنه كان يعارض خطط فيصل الرامية الى اضفاء الطابع الحديث على البلاد حيث كان قد عبر عن ذلك فى أحاديثه الخاصة مع المقربين

اليه قبل أن يقوم بالهجوم الدرامى على محطة التليفزيون بالرياض .. وبعد حوالى عشــر سنوات وفى يوم ٢٥ مارس ١٩٧٥ قام أخوه الأصغر فيصل بن مساعد باغتيال الملك فيصل وكان هذا الأمير البالغ من العمر ٢٨ عاما لديه أسباب شخصية وسياسية تدعوه الى هذا الاغتيال . اذ كان ينتقم من مقتل أخيه الأكبر الذى هاجم محطة التليفزيون . وأيضـــا كانت العداءات الداخلية بين القبائل من بين الأسباب نظرا لأن والدة هذين الأميرين كانت تنتمى لقبيلة الرشيدى وهى منافسة تقليدية لبيت سعود . وكان فيصل ابن سعود مخطوبا لابنة الملك سعود الذى عزل عن العرش من خلال الدور الحاسم الذى لعبه الأمير فيصل بن عبد العزيز . وقد اتضح فيما بعد أن الأمير الشاب كان يتلقى تدريبات عسكرية فى احدى معسكرات التدريب الفلسطينية المتواجدة فى لبنان وذلك يدل على أن ذلك الأمير الشاب كان راديكاليا من نوع ما من الناحية السياسية .

وكانت توجد معارضة للنظام الملكى من جانب الأوســاط العلمانية . الا وهم القوميون العرب الذين قاموا بدور الناصريين أو البعثيين أو الماركسيين . وفى السبعينات بدأت مجموعات المعارضة هذه ــ التى كانت تعمل فى سرية تامة ــ فى الاضمحلال كنتيجة لنجاح الحكومة السعودية فى استقطاب الخصوم والمعارضين لها . فحلت محلهم مجموعات الأصوليين . اذ كان احياء الاخوان الوهابيين بمثابة جزء من تلك العملية . وفى أواخر السبعينات بدأوا يتخذون طابع الهجوم الدرامى على مدى شرعية النظام الملكى السعودى .

وعندما اعتلى الأمير خــالد العرش فى مارس ١٩٧٥ كان اقتصاد السعودية يدخل فى مرحلة ازدهار سريع وهائل للغاية . وقد أسفر هذا الازدهار المتعاظم وما صــاحبه من مشـكلات اجتماعية ودينية عن ظهور خلافات فى الرأى فى داخل نطــاق

الطبقة العليا الحاكمة اذ ظهرت مجموعة بقيادة الملك خالد والأمير عبد الله رئيس الحرس الوطنى تتبنى فكرة السير ببطء فى مجال التصنيع مع المزيد بالتمسك بالمذهب الوهابى . أما المجموعة الثانية فكانت بقيادة الأمير فهد ولى العهد والأمير سلطان وزير الدفاع وهؤلاء كانوا يرغبون فى السير بخطوات أسرع فى مجال التصنيع مع ادخال المزيد من التحرر الدينى والثقافى وعقد المزيد من الروابط الحميمة مع أمريكا .

وكانت المملكة العربية السعودية متسمة بالكرم عندما اشترت سندات ضمان من الخزانة الأمريكية بهدف تدعيم ومساندة الدولار الأمريكى الآخذ فى التدهور . كما قامت السعودية بتقوية روابطها فى مجال المخابرات مع وشنطون . كما كانت العلاقات السعودية مع الغرب قد أصبحت قوية للغاية حتى أن عدد الطلبة السعوديين بالجامعات فى الدول الغربية وخاصة فى أمريكا كان أكبر بكثير من عدد الطلبة السعوديين بالجامعات المحلية بالسعودية والبالغ عددهم ١٤٥٠٠ طالب . كما أن تنفيذ الخطط الطموح الاقتصـــــادية منها والعسكرية بما فى ذلك تشييد ثلاثث مدن عسكرية قد أدى الى ارتفاع سريع فى التواجد الأمريكى بالمملكة السعودية . ففى أوائل عام ١٩٧٧ أصبح عدد الموظفين الأمريكيين المدنيين والعســكريين ٣٠ الفا : اى خمسة اضعاف عددهم فى عام ١٩٧١ . وهم فى انجازهم للأعمال اليومية كانوا يتعاملون فى الغالب مع الوزراء السعوديين وكبار المسئولين المدنيين السعوديين الذين كانوا هم أنفسهم حاصلين على تعليم أمريكى ومعتادين على أسلوب الحياة الأمريكية .

ووصل الفساد وأعمال الابتزاز فى مجال التعاقدات بالقطاع العام والقطاع الخاص الى نسب لم يسبق لها مثيل مما أسفر عن

ظهور أمراء يملكون البلايين من الدولارات . وصاحب هذا ظهور تدهور شديد فى المبادىء الأخلاقية العامة وساد الســـلوك غير الاسلامى بين الكثيرين من الأمراء وأصـــــدقائهم المقربين والتجار الأغنياء تحت ستار من السرية التامة فى داخل قصورهم ، بما فى ذلك احتســـاء الخمور ولعب القمار والزنا مما جعل القصـــص والشائعات تتناقل بين الناس فى داخل السعودية وخارجها . كما كان هناك شعور متزايد بالسخط والاستياء من التواجد الأمريكى الهائل وتزايد أعداد الأمريكيين العاملين فى القطاع الحربى وقطاع صناعة البترول بل فى الحرس الوطنى .

وبعد أن أصبح خالد بن عبد العزيز ملكا على السعودية راح يفكر على الفور فى انشاء مجلس استشارى الا أن شيئا من هذا القبيل لم يحدث بالفعل على الاطلاق . وفى منتصف عام ١٩٧٨ عارض فهد ولى العهد فكرة الحكومة النيابية وقال : أن الانتخابات لن تتيح الفرصة لأكثر الناس كفاءة من الوصول الى المناصـــــب القيادية الحكومية : ألا وهم الشباب السعودى الذين تلقوا تعليمهم الجامعى فى داخل السعودية أو فى الدول الغربية . وأضاف قائلا : « لقد أنفقنا الكثير من الأموال من أجل تعليم هؤلاء الشباب ونحن نريد الآن أن نجنى ثمرة هذه الاستثمارات وتلك الأموال التى أنفقناها على تعليمهم » . وقد أدلى بهذا التصريح لمجلة « التايم » واستطرد قائلا : « ولكننا اذا قمنا باجراء انتخـــابات .. فان كبار التجار الأغنياء هم الذين سيفوزون » .

ولكن الاطاحة بالديكتاتور محمد رضـــا بهلوى بمعرفة حركة اسلامية جمهورية شعبية بقيادة آية الله الخومينى فى فبراير ١٩٧٩ قد سبب ذعرا للأسرة المالكة السعودية . وراحت وسائل الاعلام الايرانية ـــ وخاصة الاذاعة الايرانية ـــ تهاجم اسلوب الحياة غير

الاسلامى للكثيرين من أفراد بيت سعود . فاضطر الملك خالد الى اصدار أوامر تنص على عدم قيام أى أمير بالذهاب فى أجازة الى الخارج خلال شهر رمضان حيث كان الأمراء وعائلاتهم قد دأبوا على تجنب الصوم الذى يبدأ من شروق الشمس حتى غروبها من خلال السفر الى دول اجنبية . وقد قطع رأس أميرة واحدة على الاقل بسبب ارتكاب جريمة الزنا . وتم بث النشاط مرة أخرى فى جمعيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فبدأت تمارس نشاطها وأغلقت صالونات التجميل وصالونات الحلاقة والكوافير ومنعت النساء من ارتداء الملابس الجديدة فى داخل محلات بيع الملابس بهدف اختيار المقاس الذى يتلاءم معهن . بل قامت الحكومة بفرض حظر على كافة الخدمات غير الاسلامية بما فى ذلك فصـــــول تثبيت العماد بالمدارس الأجنبية المتواجدة بالمملكة السعودية . كما فرض الحظر على بيع الصلبان حتى لو كانت على هيئة جواهر . وقد كان هناك حظر مستمر منذ أيام عبد العزيز على بناء أى كنيسة أو معبد تابع لأى عقيدة غير اسلامية .

وخلال موسم الحج فىأكتوبر/نوفمبر استعدت الســـلطات السعودية لوصول الحجاج الايرانيين الممتلئين بالحماسة الثورية وقد تملكهم الخوف والرعب من الايرانيين . الا أن مراسم الحج مرت فى هدوء وسلام . ولكن فى ١ محرم (الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩) الذى يوافق اليوم الأول فى القرن الخامس عشر الهجرى الاسلامى تعرض بيت سعود لهزة بالغة العنف .

ففى تمام الساعة الخامسة والثلث صباحا من ذلك اليوم قام حوالى ٤٠٠ من المقاتلين الاســـــلاميين المزودين بالأسلحة والذين يسمون أنفسهم : الاخوان بالاستيلاء على المسجد الكبير فى مكة الذى يعتبر أكثر المساجد تقديسا فى الاســــلام . وكان القائد

العسكرى لهذه المجموعة هو جهينة بن سيف العتيبة Juhaiman Ibn Saif al Utaiba البالغ من المر ٤٠ عاما بالاضافة الى زعيمهم الدينى البالغ من العمر ٢٧ عاما والذى يسمى محمد بن عبد الله القحطانى وهو شقيق زوجة جهينة .

لقد ولد جهينة فى عام ١٩٣٩ فى مستوطنة عتيبة بمنطقة سجير Sajir الواقعة باقليم قاسم الغربى/الأوسط Qasim وهو حفيد لمقاتل اخوانى مات أثناء معركة ســـــبيلة Sabila فى عام ١٩٢٩ فى القتال الدائر ضد عبد العزيز . وقد شب عن الطوق عندما كانت ذكريات تلك المعـــركة مازالت ماثلة فى عقول القبائل العربية . وبينما كانت سنه تحت العشرين عاما التحق بالحرس الوطنى ووصـــل الى رتبة عريف ولكن يبدو أن النظام العسكرى أحبط من ولائه الشديد لأسرته وزاد من معارضته لتواجد الأشخاص الغربيين غير المسلمين فى مؤسسات المملكة (بما فى ذلك الحرس الوطنى) وفى كل مكان آخر . فترك الحرس الوطنى فى عام ١٩٧٢ بعد أن كان قد أمضى به ١٥ عاما . والتحق بجامعة المدينة المنورة الاسلامية وهى مؤسسة كان قد أنشأها كبار قادة الاخوان المسلمين المصـــــريين فى عام ١٩٦١ بعد أن أقنعوا الملك السعودى أن الرئيس جمال عبد الناصر يسىء استخدام الأزهر الشريف وأن الأمر يتطلب انشاء مركز بديل آخر للدراســـــات الاسلامية وتدريس الدين الاسلامى . وفى هذه الجامعة أصبح جهينة أحد تلامذة الشيخ عبد العزيز بن الباز Baz رئيس الجامعة منذ عام ١٩٦٩ والذى أصـــبح فيما بعد رئيس مجلس العلماء الدينيين . وكان الشيخ ابن الباز يتبنى فكرة العودة الى رسالة القرآن والأحاديث النبوية الشريفة كما كان ينتقد فى قسوة وعنف أية بدع أو ابتكارات من أى نوع . وتشرب جهينة تعاليم ابن الباز وطبقها على تصرفات وأعمال الأسرة الحاكمة السعودية

وانتهى فى رأيه الى أن الحكام السعوديين قد حادوا عن طريق الاسلام الحقيقى . وهذا الموقف المتشـــدد من جانب جهينة ازاء بيت سعود قد خلق تصدعا فى العلاقات بينه وبين ابن الباز مما أدى فى نهاية الأمر الى طرد جهينة فى عام ١٩٧٤ .

فعاد جهينه برفقة عشرة من أتباعه الى منطقة قاسم Qasim التى نشأ فيها وبدأ يلقى الخطب والمواعظ الدينية التى تتمشى مع أفكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب التى كانت سائدة فى منتصف القرن الثامن عشر . وكان جهينة شـــخصية تتميز بحب الخير للناس والشجاعة كما كان قائدا بطبيعته . علاوة على أنه كان شاعرا محبوبا وكاتبا ناجحا فى المسائل التى تتعلق بالشـــئون الاسلامية . وشرع فى اقامة خلايا فى العديد من المستوطنات البدوية بمنطقة قاسم . وفى عام ١٩٧٦ ذهب هو وأتباعه المقربون الى الرياض . وهناك قام بطبع ونشر كتاب صغير تحت عنوان « أسس الولاء والطاعة : سوء التصرف لدى الحكام » . وهاجم فى هذا الكتاب الحكام السعوديين لأنهم حادوا عن الشـــريعة لأنهم يتسمون بالشراهة والفساد وسوء استخدام القوانين بهدف تحقيق منافع خاصة بهم بالاضـــافة الى اختلاطهم مع الملحدين والكافرين .

وفى صـــيف عام ١٩٧٨ قامت الحكومة بالقاء القبض على جهينة وعلى ٩٨ من أتباعه بالرياض . وتم استدعاء الشيخ الباز من المدينة لكى يعقد مقابلة شخصية معهم . وأشار الشيخ الباز الى ان الأفكار التى ينشرونها لا تتسم بالخيانة . وبذلك انتهت فترة احتجازهم التى دامت ستة أسابيع بعد أن تعهدوا بعدم اللجوء الى أعمال هدامة أو دعائية .

وظلوا موضوعين تحت الرقابة الشديدة . ولكن جهينة ورفاقه تمكنوا من الافلات من عملاء المخابرات . ودأب جهينة على الوعظ سرا وأضاف فكرة المهدى المنتظر الى المذهب الوهابى التقليدى . والمفهوم الذهنى عن المهدى المنتظر الذى سيعيد الايمان الى قوته ليس أمرا محددا بوضوح فى المذهب السنى مثلما هو واضح فى اليهودية والمسيحية والمذهب الشيعى الاسلامى . فالمفهوم الذهنى السائد بين السنيين يتعلق بالمجدد أو الشخص الذى سيجيء لكى يجدد العقيدة . وهذه الفكرة قد وردت فى حديث رواه أبو هريرة الذى كان مرافقا للنبى محمد وسجله أبو داود Abu Daoud . وهذا الحديث النبوى يشير الى أنه سيظهر مجدد كل مائة سنة لكى يدافع عن السنة ويحميها من البدعة . وهذا يعنى أن المجدد ليس « مسيحا » وليس « مهديا منتظرا » وربما لا يعرفه أحد ألا بعد أن ينتقل الى رحمة الله . مثال ذلك أن الكثيرين من المسلمين يعتقدون أن حسن البنا ليس سوى « مجدد » . أما المهدى المنتظر فانه يدعى أنه موفد من قبل الله وينظر اليه الناس على أنه « مسيح » أثناء فترة حياته على وجه الأرض . ومن أوائل الكلام الذى أشار الى المهدى المنتظر هو ذلك الذى ورد فى مقدمة عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦) وهو مؤرخ عربى بارز . وهذا هو ما جاء فى كتاب ابن خلدون :

« لسوف ينشأ نزاع عقب موت خليفة . ولسوف ينطلق رجل من المدينة ذاهبا على وجه السرعة الى مكة . وبعدئذ سيجيء اليه بعض الناس من أهالى مكة ويجعلونه يخرج بدون أن تكون له الرغبة فى الخروج ولسوف يقسمون يمين الولاء والطاعة بين الركن (فناء المسجد الكبير) ومقام ابراهيم (بناية بجوار الكعبة تضم حجرا به أثر لقدم النبى ابراهيم ، ولسوف يرسل ضده الجيش من سوريا . الا أن ذلك الجيش سوف تبتلعه الأرض فى الصحراء الواقعة ما بين مكة والمدينة المنورة) .

وعكف جينة العتيبى على دراســـــة ما كتب عن المهــدى فى دقة كبيرة وقام بنشر هذه الدراسة فى أغسطس ١٩٧٩ فى كتابه الصادر تحت عنوان « دعوة الاخوان » . وأدرك أن شخصية المهدى تنطبق على محمد بن عبد الله القحطانى وهو طالب سابق بالجامعة الاسلامية بالرياض لأن اسمه الأول مماثل لاسم النبى محمد بالاضافة الى أن اسم أسرته كان مشتقا من كلمة قحطان الذى هو الجد الأسطورى للعرب . كما أشار فى المادة العلمية التى كتبها الى تلك الفكرة الشائعة بين السنيين والتى تفيد بأنه يظهر فى العالم الاسلامى « مجدد » كل مائة سنة . وكان القرن الاسلامى الجديد من المقرر أن يبدأ فى ٢٠ نوفمبر الموافق ١ محرم وتوقع هو وزملاؤه ان يكون الملك خالد متواجدا فى ذلك اليوم فى المسجد الكبير بمكة لكى يؤدى صلاة الفجر وكان جهينة العتيبى هو الشخص الملائم تماما للقيام بمثل هذا التمرد ضد بيت سعود نظرا لأنه يتميز بالخبرة فى الشئون العسكرية ونظرا لأنه يرغب فى الانتقام لمقتل جده الذى كان من الاخوان الوهابيين ونظرا لاتسامه بشدة التقوى والورع ونظرا لايمانه بالتقليد القبلى القديم الخاص بفكرة الثواب والعقاب .

وأثناء موسم الحج قام جهينة العتيبى بارسال رسائل لاتباعه فى الريف لكى ينجمعوا فى المسجد الكبير بمكة فى ليلة العيد الهجرى الجديد . ففعلوا ذلك وراحوا يجمعون الأســـــلحة ويخفونها فى مخازن المسجد الذى يشغل مساحة شاسعة .

ورغم أن الملك خالد لم يتم العثور عليه فى داخل المسجد الكبير لأداء الصلاة فى ذلك اليوم المحتوم فان جهينة العتيبى ومحمد محمد القحطانى قررا تنفيذ خططهما . وبعد أن قام أتباعهما باغلاق بوابات المســـجد الكبير البالغ عددها ٤٨ بوابة قام جهينة بالقاء

خطاب أوضح فيه أيديولوجيته وأفكاره الأساسية . فأشار الى أنه ينبغى على المسلمين الصادقين فى ايمانهم أن يسيروا على نهج النبى محمد المتمثل فى الوحى ونشر الدعوة والكفاح المسلح .. وينبغى على المسلمين الصادقين فى هذه الظروف الراهنة أن يعملوا على الاطاحة بحكامهم السعوديين الحاليين . لأن هؤلاء الحكام تنقصهم الخصال والصفات الاسلامية ولأنهم قد فرضوا على جماهير الشعب وعلى كل حال فلا يوجد فى الاسلام مكان للملوك أو الأسر الملكية الحاكمة . والحاكم المسلم الشرعى ينبغى عليه أن يحكم وفقا للشريعة ويجب أن يكون انسانا مسلما متصفا بالورع والتقوى وينبغى أن يكون نابعا من قبيلة قريش وينبغى أن يتم اختياره بمعرفة الأمة الاسلامية . ولكن كل هذه الشروط لا تنطبق على الملوك السعوديين . والاسلام ينبغى أن يكون مرتكزا على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وليس على التقليد الأعمى للتفسيرات والشروح التى يقدمها العلماء الدينيون مثلما هو الحال فى شبه الجزيرة العربية المعاصرة . ومن هنا ينبغى على المؤمنين أن يعزلوا أنفسهم عن نظام الحكم الحالى بأن يرفضوا كافة الوظائف الرسمية . والمهدى المنتظر سوف يجىء من بيت النبى من خلال ذرية الامام الحسين بن على لكى يقضى على الفسق والضلال ويجلب السلام والعدالة للمؤمنين . وان من الواجب على كافة المسلمين الصادقين أن يشيدوا أمة تحمى الاسلام من الكفرة وتحجبهم عن موالاة الأجانب غير المسلمين . وقصارى القول أن جهيمان العتيبى قد وجه نداء من أجل الاطاحة بالأسرة المالكة السعودية علاوة على قطع العلاقات مع الغرب الملحد الكافر . وأشار جهيمان الى أن القحطانى هو المهدى المنتظر ثم أشار الى التقاليد القديمة التى تقول : « ان المهدى ورجاله سوف يلجأون الى المسجد الكبير لكى يحتموا فى داخله لأنهم مضطهدون فى كل مكان الى الا يصبح أمامهم أى مكان يلتجئون اليه سوى المسجد الكبير » . فأصيب آلاف الناس

المحتشدون بالمسجد بالذهول الشديد من هذا الحادث وذهلوا من السرعة الهائلة التى تمكن بها المقاتلون المسلحون من الاستيلاء على المسجد الكبير الذى يشغل مساحة شاسعة حيث أن فناء ذلك المسجد يتسع لاستيعاب ½ مليون شخص .

وكان من المهم أن احياء الاخوان بقيادة جهينة العتيبى والقحطانى وتحدى انحراف الملك خالد عن الاسلام الحقيقى وتحالفه مع الأمريكان كان اجراء مشابها لما قام به الاخوان الأقدمون الأوائل الذين حاربوا الملك عبد العزيز بسبب ابتعاده عن الايمان الحقيقى وبسبب تحالفه مع البريطانيين .

واستدعى الملك خالد مجلس العلماء لكى يصدروا حكما بالنسبة لاقتحام المسجد الكبير . فسارع المجلس الى الاشارة للآية القرآنية : « ((**ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه . فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين**)) صدق الله العظيم .. سورة البقرة . آية رقم ١٩١ .

وقد اتضح أن عملية استعادة المسجد الكبير كانت عملية دموية وملتوية بالنسبة للحكومة . اذ كان عليها أن تنشر عشرة آلاف جندى من قوات الأمن الحكومية علاوة على الآلاف من الجنود الباكستانيين بالاضافة الى كتيبة من الخبراء الفرنسيين المتخصصين فى مقاومة الارهاب . ثم شنت الحكومة معركة استمرت ١٤ يوما من أجل استعادة الأمن والنظام . وقتل فى هذه العملية ١٢٧ جنديا بالاضافة الى مقتل ٢٥ من الحجاج و١١٧ من أعضاء الاخوان بمن فيهم محمد القحطانى . والقى القبض على ١٧٠ من الاخوان . وتم قطع رؤوس ٦٧ منهم . وكان من بين من قطعت رؤوسهم ٢٦ شخصا من غير العرب السعوديين . ومما لاشك فيه أن هذا التمرد الذى حدث بالمسجد الكبير وأحداثه الدموية قد الحق دمارا شديدا

بهيبة وسمعة بيت سعود وهو البيت المسئول عن حماية ورعاية هذا المسجد المقدس .

وقد فرضت رقابة على الصحف فى العربية السعودية طوال الفترة التى استغرقتها الأزمة . ولكن الحكومة أصرت بعدئذ على تنفيذ قطع رؤوس الـ ٦٧ شخصا من المتمردين فى الميادين العامة بالمدن الكبيرة المختلفة لكى تؤكد الحكومة للشعب تصميمها على معاقبة كل من تسول له نفسه الخروج على القوانين . وقد أجريت دراســـة عن الخلفية الديموجرافية والقبلية للاخوان الحربيين السعوديين فجاءت نتيجة الدراســـة محيرة ومربكة للســـلطات الحكومية . اذ اتضح أن غالبية هؤلاء الراديكاليين قد جاءوا من منطقة نجد وهى نفس المنطقة التى نبعت منها الأســـرة الملكية السعودية . كما أن الكثيرين من المقاتلين كانوا من العتيبيين أى أعضاء فى القبيلة التى كان ينتمى اليها سلطان بن بجاد Ibn Bijad وهو الزعيم الاخوانى الذى حارب الملك عبد العزيز فى عام ١٩٢٩ . وكان من الواضح أن الولاء للقبيلة مازال يجرى بعمق فى العروق وكذلك نفس الحال بالنسبة للمنازعات الداخلية بين القبائل وكانت صفوف الاخوان تشتمل أيضا على عدد كبير من طلاب الدراسات الدينية من السعوديين وغير السعوديين . وكان من بين هؤلاء الطلبة : طلبة من الاخوان المسلمين من مصر وطلبة من الاخوان « الأنصار » من السودان وطلبة أعضاء فى جمعية الاصـــلاح الاجتماعى من الكويت وكان من الصعب على المراقبين فى داخل السعودية أو خارجها معرفة مشاعر السعوديين العاديين الحقيقية ازاء ذلك التمرد . وأخيرا بعد أن أتضح مدى القسوة الشـــديدة التى اكتنفت هذا التمرد بدأ المراقبون يدركون أن هناك تعـــاطفا هائلا لصالح المتمردين بين الطلبة وصغار العلماء الدينيين والطبقة المتوسطة من الأهالى الذين يسكنون فى المدن الصـــغيرة والمدن

الكبيرة بل بين مشايخ القبائل الذين كانوا يعارضـــون سياسات الحكومة الرامية الى توطين البدو وخلق سلطة مركزية شاملة . وأشار المراقبون فى تقاريرهم الى أن الانتقاد لم يكن موجها أساسا ضد هذه الأعمال التى قام بها المتمردون وانما كان موجها ضد اختيار المتمردين للمسجد الكبير ليكون مسرحا لهذه الأحداث . لأن هذا المسجد الذى يسمى : المسجد الحرام هو أكثر الأماكن الاسلامية تقديسا فى العالم كله . اذ اكتشفت كتابات على حوائط دورات المياه بجامعة الرياض عقب مرور شهور عديدة على هذا الحادث تلخص المشاعر بين جماهير الناس : « ياجهينة ... ياشهيدنا .. لماذا لم تقم بالهجوم على القصور ؟ ان الكفاح مازال فى بداياته الأولى » .

ومما لاشك فيه أن أحداث التمرد فى مكة كانت أقوى ضربة تلقتها الأسرة السعودية الحاكمة فى خلال نصف القرن منذ تمرد الاخوان لعام ١٩٢٩ . لقد اعتادت هذه الأسرة على أن يقع هجوم عليها من جـــانب المؤيدين للأيديولوجيات الأجنبيـــة مثل الليبرالية والماركسية وكانت تعرف كيف تتعامل معهم . ولكن الهجوم الدموى من جانب الأصوليين الاسلاميين والأصولية الاسلامية التى ترتكز عليها الأسرة السعودية الحاكمة فى شرعيتها كأسرة حاكمة كان أمرا جديدا ومليئا بالتعقيدات البالغة الخطورة . وكان رد الأسرة الحاكمة على ذلك هو وصم المتمردين ووصفهم بأنهم خوارج مثل الخوارج الذين ظهروا فى صدر الاسلام والذين اشتهروا بأعمالهم الارهابية التى أدت الى مصرع العديدين ومن بينهم الامام على بن أبى طالب . أما ردود الفعل السياسية والادارية لدى الأســـرة السعودية الحاكمة فكانت تتمثل فى الاستمرار فى القمع بالاضافة الى السير قدما نحو تحقيق الاصلاحات فى آن واحد . اذ قامت الحكومة بالقاء القبض على ٧٠٠٠ من الاخوان وفرضـــت قيودا

مشددة على حرية التنقل بالنسبة للعمال المغتربين . وهذا التمرد قد جعل الأسرة الحاكمة تدرك أن هناك نزاعا قبليا داخليا متسما بالمرارة والكراهية الشديدة . وبالتالى خفضت من ثقتها فى الحرس الوطنى العسكرى وهو الحرس الذى جاء بعد « الحرس الأبيض » الذى كان قد أنشأه عبد العزيز فى عام ١٩٣٢ وألحق به عددا ضئيلا من المحاربين الاخوان السابقين . وقد أسفر هذا عن وضع خطط للاستعانة بثلاثة ألوية باكستانية يرتدى أفرادها الزى العسكرى السعودى ليكونوا بمثابة الحرس الملكى الخاص . ولأنهم من المرتزقة وليست لهم جذور فى داخل المجتمع السعودى فقد اعتقدت الطبقة الحاكمة أن هذه القوات الباكستانية يمكن الاعتماد عليها الى حد كبير . وقام الملك خالد بعمل تغيير فى ١٧ منصبا من المناصب العليا المدنية والعسكرية . وحاول أن يطمئن جماهير الناس حيث قال لهم انه تتم دراسة تهدف الى ادخال بعض الاصلاحات السياسية ثم قام بتشكيل لجنة لاعداد مشروع دستور ثم أعلن بعد ذلك ولى العهد الأمير فهد أنه سيتم « فى القريب العاجل » تشكيل مجلس استشارى يتألف من ٦٠ الى ٧٠ عضوا . كما كررت الحكومة قولها بأن التطور السريع الفعال فى الشئون الاقتصادية والتكنولوجية هو أفضل وسيلة لحماية الاسلام .

وفى مارس ١٩٨٢ أعلن ولى العهد الأمير فهد أن المجلس الاستشارى سيظهر بالفعل « بعد فترة قصيرة » . وفى يونيو عقب وفاة الملك خالد أصبح فهد ملكا على السعودية . ولكن المجلس الاستشارى ظل مجرد فكرة . بل لم تكن توجد هناك أية دلائل تشير الى أنه يتم اعداد دستور للبلاد .

وفى تلك الأثناء عقب تمرد مكة كانت هناك دلائل متزايدة تشير الى تصاعد الأصولية فى المملكة العربية السعودية . اذ ارتفع عدد أعضاء « جماعة الدعوة » بشكل كبير للغاية . وأصبح

أعضاء هذه الجماعة يتميزون باللحية الطويلة وبشعر الرأس القصير للغاية والجلباب الأبيض الذى يصل الى الركبة وطاقية وغطاء فوق الرأس . وفى رأيهم أن الجلباب التقليدى الطويل يدل على الغرور والتفاخر بالثروة والممتلكات . وتتمتع « جماعة الدعوة » بالكثير من العون والتأييد فى كليات العلوم والتكنولوجيا بالجامعات ويرفض أفراد هذه الجماعة الالتحاق بالجامعات الغربية من أجل الحصول على دراسات عليا ، وهم يعتقدون أن الحكومة تشجعهم على الالتحاق بالجامعات الغربية بهدف القضاء على حماستهم الاسلامية . والتحاق مثل هؤلاء الاسلاميين بكليات العلوم والتكنولوجيا ليس من قبيل المصادفات البحتة . اذ أوضح أحد هؤلاء الطلبة قائلا : « نحن لا يمكن لنا أن نقوى أنفسنا فى ظل هذه الحكومات الضعيفة من خلال قراءة القرآن والتاريخ الاسلامى فقط وانما ينبغى علينا أيضا أن ندرس العلوم ونستخدم التكنولوجيا الغربية ضد الغرب » . وهذه الفكرة التى تدعو الى اكتساب التكنولوجيا الغربية والتخلى فى نفس الوقت عن القيم الاجتماعية الغربية هى نفس الفكرة التى نادى بها فى بادىء الأمر جمال الدين الأفغانى . وهذه الفكرة لا تتضمن أية اتجاهات هدامة . وجماعة الدعوة لا تهدد الحكومة السعودية وتعمل على المكشوف وفى وضوح . ولكن هناك بعض الشكوك فى أنها ربما تكون هى الأساس الذى تنطلق منه منظمات أخرى أكثر عنفا وأكثر اتساما بالطابع العسكرى فى المملكة .

ومن أكبر نقاط الضعف المتواجدة فى النظام السعودى الحالى أن الأسرة الملكية الحاكمة قد رفضت الى حد بعيد أن تختار أشخاصا من من التكنوقراطية الصاعدة ليكونوا أعضاء فى جهاز اتخاذ القرار بالدولة . ومن نقاط الضعف الأخرى أنها تستمر فى تجاهل الشيعة . فرغم أن الشيعة لا يشكلون سوى ٨٪ من

مجموع سكان العربية السعودية فانهم يتركزون فى أقليم الحساء الغنى بالبترول .

وقد تفجرت مشكلة الشيعة على نحو درامى بعد أن تشجعوا عقب المناخ الناجم عن تمرد مكة حيث قام المجتمع الشيعى البالغ عددهم ٤٠٠ ألف مواطن بالاحتفال بيوم عاشوراء الحزين فى يوم ٢٧ نوفمبر ١٩٧٩ بدون أن يكترثوا بالحظر المفـــــروض على هذا الاحتفال والذى استمر لفترات طويلة للغاية وأصبح أمرا راسخا . ومما أزعج السلطات الحكومية أن مواكب الاحتفال بعاشـــــوراء قد تحولت الى مظاهرات مؤيدة للخومينى فى ثمان مدن مهمة بمنطقة البترول . فأرسلت الحكومة ٢٠ ألفا من رجال الأمن لفض المظاهرات الا أن المصادمات والمعارك بين رجال الأمن الحكوميين والمقاتلين الشيعة قد استمرت لفترة تقترب من شهرين مما أدى الى مقتل ٥٧ من رجال الأمن و٩٩ من الشيعة . هذا بالاضافة الى القاء القبض على حوالى ٦٠٠٠ شـــــخص من الأهالى . وأثناء هذه الأحداث قفزت الى الضوء المنظمة الثورية الاسلامية الشيعية لشبه الجزيرة العربية .

ومنذ أن سقطت منطقة الحســـــاء فى أيدى عبد العزيز آل سعود دأب سكانها من الشيعة على الاحتجاج من وقت لآخر ضد الحكومة . وهو احتجاج يرتكز على أســـس طائفية أو أســـس اجتماعية اقتصادية بدون الحصول على أى انصاف أو اصلاح . ففى عام ١٩٢٦ عندما قام محمد الحبشى وهو زعيم شيعى بانشاء مجلس محلى للتعبير عن المظالم والشكاوى قام عبد العزيز بفرض حظر على هذا المجلس على الفور . ثم أصدر عبد العزيز بعد ذلك قرارا ينص على أنه ينبغى على الشيعة أن يتوافقوا مع المذهب الوهابى مما أدى الى الاستياء الشديد بين جماهير الشيعة . كما

أن الحكام الذين يتقلدون السلطة فى اقليم الحساء والذين ينتمون الى عشيرة جلوى Jiluwi التى هى فرع من بيت سعود (وهى العشيرة التى ينتمي اليها الملك خالد) قد دأبوا باستمرار على ممارسة التفرقة ضد الشيعة اما بمنعهم من ممارسة مهنة التدريس واما حرمانهم من المنح والمكافآت والسلف التى تقدمها الحكومة .

واكتشاف البترول فى اقليم الحساء قد حوله الى منطقة بالغة الأهمية والخطورة . فالعمال فى مجال البترول — حوالى ثلثهم من الشيعة السعوديين وثلث آخر من الأجانب — كانوا مستائين من المرتبات الفلكية التى يحصل عليها الموظفون الأمريكان الذين يعملون فى شركة البترول العربية الأمريكية وكانوا يقارنون بين الأمريكيين ومرتباتهم الضئيلة وظروفهم السيئة . وقد اضرب العمال عن العمل لفترة قصيرة فى عام ١٩٤٤ ثم فى عام ١٩٤٩ ثم أعقب ذلك اضراب لفترة طويلة تصل الى أسبوعين خلال اكتوبر ١٩٥٣ . فبادر الملك عبد العزيز الى وضع نهاية لذلك الاضراب الأخيرة من خلال استخدام العنف والضرب بيد من حديد . وكان عمال البترول من أوائل الناس الذين نفذوا المقاطعة العربية البترولية فى يونيو ١٩٦٧ ثم أكتوبر ١٩٧٣ ضد الغرب . وقد شعر العمال الشيعة الذين يعملون فى مجال البترول فى الحساء بالابتهاج الشديد عندما استولت على السلطة فى ايران حكومة شيعية بقيادة الزعيم آية الله الخومينى المناهض للأمريكان . وكانوا يشعرون بالاستياء الشديد من الحكومة السعودية التى تمارس التفرقة ضدهم وتحرمهم من الفوائد الناجمة عن البترول الذى يقومون باستخراجه بأنفسهم .

وفى أعقاب تمردات وثورات الشيعة فى شهر نوفمبر/ ديسمبر ١٩٧٩ قامت السلطات السعودية بزيادة معدلات التنمية

الاقتصادية فى اقليم الحساء بل بذلت محاولات لاستقطاب قادة الشيعة وتعيينهم فى الجهاز الادارى والسياسى . الا أن هذه المحاولات لم تلق سوى قدر ضئيل من النجاح .

وعلى الرغم من القمع الشديد الذى تعرضت له المنظمة الثورية الاسلامية لشبه الجزيرة العربية علاوة على ارغام زعيمها سعيد صفران للعيش فى ايران فانها استمرت فى ممارسة أعمالها سرا . اذ أجرى أعضاء هذه المنظمة اتصالات مع الحجاج الايرانيين أثناء موسم الحج — حيث يتجمع حوالى ١½ مليون مسلم أجنبى فى مكة والمدينة — مما أدى الى تضايق السلطات السعودية وتعرضها للتوتر الشديد . وقام صفران بتأسيس جريدة فى ايران وراح يبث من هناك التعليقات الثورية الاسلامية ضد الأسرة الملكية السعودية مما أثار الغضب والارتباك فى الرياض . وفى الماضى كان وابل الشتائم التى تنصب على الملكيين السعوديين يصدر أساسا عن حكومات علمانية مثل حكومة عبد الناصر فى مصر وحكومة البعثيين فى سوريا أو العراق . أما الهجوم الحالى القادم من معسكر اسلامى — رغم لونه المختلف — قد أربك وأزعج بيت سعود الذى كان قد تمكن على مدى العشر السنوات الماضية من خلق مركز مرموق لا ينافسه فيه أحد فى العالم الاسلامى مما جعل يفاخر بأنه يتبع سياسات اسلامية حقة فى الداخل والخارج .

السياسة الخارجية الاسلامية

للمملكة العربية السعودية

لقد كان ملوك السعودية يحرصون دائما فى سياستهم على التركيز على دورهم من حيث هم القائمون على توفير الحماية والرعاية للأماكن المقدسة والحج ومن حيث أنهم يساندون القضايا الاسلامية فى جميع أرجاء العالم .

ونظرا لأن شبه الجزيرة العربية لم تتعرض ابدا لاستعمار أوربى امبريالى فان فكرة القومية لم تترسخ وتضرب بجذورها هناك . فاقتسام الجزء العربى من الامبراطورية العثمانية بمعرفة البريطانيين والفرنسيين لم يمس شبه الجزيرة العربية على الاطلاق. كما أن الأهالى والأراضى التى وضعها عبد العزيز تحت سيطرته لم تشكل مايسمى بالدولة القومية(*) Nation-State ولم تبدأ

(*) الدولة القومية : دولة متألفة من قومية واحدة لا من قوميات متعددة .
المترجم

البنية الأساسية لدولة حديثة فى الظهور الا فى عهد الملك فيصل وان كانت قد ظهرت تباشيرها الأولى فى عهد الملك سعود . وبوجه عام تكون السياسة الخارجية فى أية دولة مرتكزة على فكرة المصلحة القومية . ولكن المملكة العربية السعودية بتركيزها المستمر على الاسلام من حيث هو أيديولوجية عالمية كانت تميل الى عدم التأكيد أو التركيز على فكرة القومية .

وعلى أية حال فان المفهوم الذهنى عن أمة عربية واحدة تشتمل على ٢٢ دولة أو ولاية كان يلقى الرعاية والتشجيع من عبد الناصر وذلك أثناء فترة حكم سعود وفيصل . وقد كان الملك فيصل وأتباعه يفخرون بأنهم عرب نظرا لأن النبى محمدا كان رجلا عربيا من شبه الجزيرة العربية وأنه هو الذى نزل عليه الوحى وكلام الله باللغة العربية لكى ينقله الى الانسانية جمعاء . ومن وجهة نظرهم أن تبنى فكرة الأمة العربية من حيث هى كيان منفصل أو مستقل عن الأمة الاسلامية هو أمر لا يمكن اغتفاره أو التسامح بشأنه . وقد عبر فيصل عن وجهة النظر هذه فى قوة وفعالية من أجل الرد على الهجمات الموجهة اليه والى مملكته من جانب عبد الناصر الذى اتهمهم بالفساد والرجعية . وأكد فيصل أن القومية العربية ليست سوى حصان طروادة وأنها تهدف أساسا الى ادخال نظريات أجنبية مثل الاشتراكية الى العالم العربى .

وما توقعه فيصل قد حدث بالفعل فى مصر . ففى مايو ١٩٦٢ قام عبد الناصر بتحويل « الاتحاد القومى » وهو الحزب الحاكم فى مصر الى « الاتحاد الاشتراكى العربى » الذى له برنامج قومى يتبنى المذهب الاشتراكى كنظرية له . وقد حدث ذلك فى موسم الحج . فأصدر مجموعة من كبار العلماء بالعربية السعودية ـــ وذلك بناء على تعليمات صادرة لهم من فيصل ـــ بيانا يستنكرون فيه

الاشتراكية لأن الاشتراكية معادية للاسلام . بل أصدر فيصل بنفسه بيانا جاء فيه « نحن لا نؤمن بالاشتراكية أو الشيوعية أو أى نظرية أخرى تقع خارج نطاق الاسلام . فنحن لا نؤمن الا بالاسلام » .

ثم سارع فيصل الى انشاء « الرابطة الاسلامية العالمية «World Muslim League فى جنيف . وكانت مهمتها عقد المؤتمرات والحلقات الدراسية التى تتعلق بالاسلام وذلك بهدف التعبير عن وجهة نظر العربية السعودية فى تفسيرها للاسلام . وقد جاء فى دستور الرابطة الاسلامية العالمية ما يلى :

« العالم الاسلامى هو عالم متحد من خلال النظريات الاسلامية. ولكى يكون هذا الاتحاد بمثابة حقيقة واقعة وملموسة فان من الضرورى أن يكون الولاء للنظرية الاسلامية ولمصالح الأمة الاسلامية فى مجموعها فوق الولاء للقوميات وغيرها من النظريات الأخرى » . وقد قام فيصل بتوظيف الكثيرين من الاخوان المسلمين المنفيين والمبعدين عن بلادهم لكى يعملوا فى المركز الرئيسى لرابطة العالم الاسلامى .

ورغم أن هذه كانت حركة فى الاتجاه الصحيح من جانب فيصل فانها كان لها تأثير ضئيل على المنطقة العربية التى هى بمثابة القلب النابض للاسلام . اذ كانت الاشتراكية العربية الناصرية مازالت تحظى بالشعبية وتشد انتباه الجماهير . وفى أواخر عام ١٩٦٥ حاول الملك فيصل انشاء كيان اسلامى رسمى تحت اسم « التحالف الاسلامى » وذلك من خلال التعاون مع محمد رضا بهلوى شاه ايران ومع الحسين ملك الأردن . الا أن هذا المشروع صادفه الفشل الذريع منذ بدايته .

ولكن هزيمة مصر على أيدى عبد الناصر فى يونيو ١٩٦٧ أثناء الحرب الاسرائيلية العربية بالاضافة الى استيلاء اسرائيل على القدس العربية التى تضم المسجد الأقصى الذى هو بمثابة المكان الثالث المقدس فى الاسلام قد غيرت الموقف تغييرا جذريا . اذ بدأ الكثيرون من العرب يعتقدون أنهم قد هزموا لأنهم قد حادوا عن طريق الاسلام . ووافقت الدولتان العلمانيتان : مصر وسوريا عقب التعرض للاذلال الناجم عن النكسة على قبول الاعانات المالية من العربية السعودية وغيرها من الدول الاسلامية الأخرى الغنية بالبترول بهدف العمل على اعادة بناء قواتهما المسلحة وتدعيم اقتصادهما . ولكن رغم كل ذلك فان هذا لم يكن كافيا لتمكين الملك فيصل من تحقيق « التحالف الاسلامى » الذى نادى به من قبل .

ومن العجيب حقا أن العمل الذى قام به شخص مسيحى استرالى مجنون هو الذى ساعد على انقاذ الملك فيصل ونجدته . ففى يوليو ١٩٦٩ حاول ذلك الرجل الاسترالى اشعال النار فى المسجد الأقصى بالقدس . وفشل فى مهمته . الا أن هذه المحاولة قد سببت صدمة هائلة لجميع المسلمين فى جميع أرجاء العالم الاسلامى . وبناء على تعليمات من الملك فيصل تم عقد مؤتمر قمة اسلامى حضره مندوبو ٢٥ دولة اسلامية فى الرباط عاصمة المغرب فى شهر سبتمبر . وأعلن فيصل فى هذا المؤتمر « الجهاد » ضد اسرائيل وأقسم أمام الحاضرين بأنه سيعمل على تحرير المسجد الأقصى من الاسرائيليين .

وكان عبد الناصر قد أوفد السادات نائب رئيس الجمهورية لكى يحضر هذا المؤتمر . وتقرر فى هذا المؤتمر انشاء سكرتارية دائمة لهذا المؤتمر . وانبثق عن هذه السكرتارية منظمة المؤتمر الاسلامى Isalmic Conference Organization وكانت بمثابة أول

مؤسسة اسلامية شاملة رسمية للتعاون الحكومى بين الحكومات الاسلامية . واتخذت منظمة المؤتمر الاسلامى من جدة بالسعودية مقرا رئيسيا لها . وبذلك يمكن القول بأن العربية السعودية هى التى قامت بالدور الرئيسى فى انشاء هذه المنظمة . ومنذ ذلك الحين تزايد عدد المؤسسات الاسلامية المتخطية للحدود القومية والتى تحصل على تمويلها الرئيسى من العربية السعودية مثل : بنك التنمية الاسلامى ، ووكالة الأنباء الدولية الاسلامية ، والمركز الدولى للبحوث فى الاقتصاد الاسلامى ، ومعهد شئون الأقليات المسلمة . وكل هذه المؤسسات قد اتخذت من العربية السعودية مقرا لها .

ومع تزايد الأرباح من البترول على نحو خيالى فى خلال السبعينات تعاظم أيضا نفوذ الرياض بشكل حاسم فى العالم الاسلامى خارج السعودية . وأصبحت العربية السعودية على قمة الدول التى تمنح الهبات والمساعدات المالية الضخمة . الا أنها قصرت مساعداتها المالية على الدول الاسلامية وعلى تلك الدول التى توافق على سياسات السعودية . ولكى تحصل أى دولة غير اسلامية على معونات مالية من السعودية كان ينبغى عليها أولا وقبل كل شىء أن تشن حربا ضد الماركسية وضد الاتحاد السوفيتى نظرا لأن الماركسية الملحدة — من وجهة نظر الرياض — هى العدو الأول للاسلام . والشرط الثانى هو أن تقوم الدولة الاسلامية التى تحصل على المعونات بالانضمام « للجهاد » ضد اسرائيل . وحقيقة الأمر أن هاتين النقطتين تعتبران مرتبطتين أو لهما علاقات متبادلة من وجهة نظر فيصل : اذ كان يؤمن ايمانا راسخا بأن الصهيونية تلقى كل تأييد وعون من الشيوعيين كجزء من مؤامرتهم الشاملة . وثالثا ينبغى على الدولة الاسلامية أن توافق على تطبيق الشريعة الاسلامية ولو بشكل تدريجى ووفق الخطوط المتبعة بالفعل فى داخل العربية السعودية .

وكانت السنوات الأولى من رئاسة السادات على مصر تتلاءم تماما مع الشروط السعودية ومع الدعوة التى ينادى بها الملك فيصل . ولكن عندما قام السادات بمبادرة شخصية منه بالتوقيع على اتفاقية سلام منفردة مع اسرائيل فى مارس ١٩٧٩ فانه أصبح بغيضا لدى الحكومة السعودية .

وعلى كل حال فانه يوجد تناقض كامن فى تحالف السعودية مع الولايات المتحدة الأمريكية التى تعتبر الشريك الاستراتيجى والضامن الرئيسى والمؤيد الأساسى لاسرائيل من النواحى السياسية . وهذا من شأنه أن يعرض الحكومة السعودية للهجوم من جانب اليساريين العلمانيين والأصوليين الاسلاميين الراديكاليين الذين يقولون أن الجهاد ضد اسرائيل والصهونة هو نوع من التدريب على النفاق .

وكان لأزمة الرهائن الأمريكيين فى ايران فى نوفمبر عام ١٩٧٩ وكذلك التدخل العسكرى السوفيتى فى افغانستان فى ديسمبر ١٩٧٩ أثر كبير فى زيادة التوتر فى المنطقة العربية حيث زادت واشنطون من ضغوطها على الرياض لكى توافق على تأجير قواعد عسكرية للولايات المتحدة الأمريكية . ونظرا لأن الملك خالد كان يدرك أن مثل هذا التحالف المكشوف العلنى مع أمريكا من شأنه أن يدمر موقف السعودية فى نظر العالم الاسلامى فانه حرص على اتخاذ موقف محايد فى الشئون الدولية . وقال الملك خالد فى الخطاب الذى ألقاه فى مؤتمر القمة الاسلامى الثالث بالطائف فى يناير ١٩٨١ : « ان ولاءنا ينبغى ألا يكون للكتلة الشرقية أو الكتلة الغربية . اذ لا يمكن لنا أن نضمن توافر الأمن للأمة الاسلامية من خلال الدخول فى تحالف عسكرى ولا من خلال اللجوء الى مظلة احدى الدول الكبرى » . ولم يكن كلامه هذا ينطوى على فكرة

جديدة . فنفس ذلك الكلام سبق أن قاله سيد قطب أحد زعماء الاخوان المسلمين فى مصر منذ ثلاثين عاما . اذ كتب سيد قطب ما يلى : « توجد كتلتان كبيرتان : الكتلة الشيوعية فى الشرق والكتلة الرأسمالية فى الغرب . وكل منهما تنشر دعاية مخادعة مفادها أنه لا يوجد بالعالم سوى أيديولوجيتين فقط لا بديل عنهما : الشيوعية والرأسمالية وأن كافة الدول الأخرى ليس أمامها سوى التحالف مع احدى هاتين الكتلتين » . والفارق الوحيد هو أن سيد قطب لم يسبق له أن تقلد السلطة فى البلاد وذلك بعكس الملك خالد الذى تربع على عرش السعودية . ومع ذلك فان البيان الذى ألقاه عاهل السعودية الملك خالد والذى تحدث فيه عن عدم الانحياز لاحدى الكتلتين كان بيانا متسما بالبلاغة والفصاحة اللغوية ولا شىء أكثر من ذلك . لأن من المعروف تماما أن العربية السعودية تحتفظ بعلاقات وثيقة للغاية مع الغرب وخاصة أمريكا من الناحية العسكرية والاقتصادية والدبلوماسية والتخابرية بحيث لا يمكن لها أن تتخذ بالفعل لنفسها موقفا حياديا صادقا .

وعلى أية حال فان العربية السعودية تعتبر ممولا رئيسيا للعديد من الحركات الرامية الى الاطاحة بالحكومات اليسارية المتحالفة مع موسكو . فهى تصب أموالا طائلة فى خزائن المجاهدين الأفغان الذين يحاربون ضد الحكومة الماركسية فى كابول . كما أن الباكستان وهى صديقة حميمة لأمريكا قد أصبحت من الدول الرئيسية التى تتلقى مساعدات مالية من السعودية وبالتالى أصبحت حليفة من الناحية السياسية والعسكرية للرياض وفى آسيا نجد أن الأموال السعودية تتدفق باستمرار على بنجلاديش وماليزيا وأندونيسيا وجزر الملديف . وعلى مدى سنوات عديدة ظلت الرياض تساند ثوار أريتريا ضد الحكم الماركسى بأثيوبيا .

بل فى الدول الافريقية غير العربية مثل الكاميرون وتشاد والجابون ومالى والنيجر ونيجيريا وأوغندا كانت تنصب أيضا المعونات والأموال السعودية .

وهناك اعتقاد سائد بأن الرياض هى الممول المالى الرئيسى للاخوان المسلمين المتواجدين بالدول المختلفة علاوة على تمويل « جماعة اسلامى » المتواجدة فى الباكستان . هذا بالاضافة الى أن العربية السعودية تزود الوزارات التابعة لها بأموال اضافية من أجل القيام بأنشطة متنوعة مثل : تقديم الرعاية والأموال للطلبة الأجانب الذين يدرسون فى الجامعات السعودية ، وانتاج برامج اذاعية وتليفزيونية تتعلق بالدين الاسلامى ، وتعليم اللغة العربية فى الدول غير العربية ، وبناء المساجد والمدارس الاسلامية والكليات الاسلامية بالخارج . كذلك تقوم العربية السعودية بتمويل المؤتمرات الاسلامية والحلقات الدراسية التى تتناول الاسلام والموضوعات الاسلامية هذا علاوة على توزيع الكتب والمطبوعات الاسلامية مجانا .

وعلى مدى عشر سنوات منذ تشكيل منظمة المؤتمر الاسلامى فى عام ١٩٦٩ حتى تفجر الثورة الايرانية فى أوائل ١٩٧٩ كانت السعودية تحرص على ابراز نفسها كزعيمة للعالم الاسلامى كله مع تقديم سياساتها الرأسمالية فى الداخل وصداقتها مع أمريكا فى الخارج على أساس أن ذلك هو النموذج الاسلامى المرغوب فيه والذى ينبغى أن يحذو حذوه ويقتدى به كافة الدول الاسلامية الأخرى .

ولكن بعد تفجر الثورة الخومينية الأصولية فى ايران فى عام ١٩٧٩ نجد أن الزعامة السعودية والنموذج السعودى فى الحكم قد واجه تحديات خطيرة من جانب الأصولية الخومينية . وأدى ذلك الى تخفيف حدة بريق وتألق الرياض ووضع الرياض فى موقف الدفاع عن النفس . ومازالت ايران تجد صعوبة كبيرة فى انتزاع القيادة من العربية السعودية . والسبب الرئيسى فى ذلك يكمن فى أن ايران هى دولة شيعية بينما العالم الاسلامى بوجه عام يسوده المذهب السنى .

***

الفصـــل الســادس

ايــران :

الأصولية الثورية تتولى السلطة

رغم أن الشيعة يشـــكلون أقلية فانهم شـــهدوا فترات من السيادة فى التاريخ الاســـلامى : اذ قام ملك شـــيعى باخضـــاع العباسيين السنيين فى عام ٩٣٢ كما بزغت خلافة شيعية متمثلة فى الفاطميين فى القارة فى عام ٩٦٩ . وقد تعرض الشيعة لنكسة نتيجة للاطاحة بالخلافة الفاطمية فى عام ١١٧١ على يدى صلاح الدين الأيوبى وهو جنرال سنى . ولكن هذه النكسة كانت مؤقتة . فالدمار الذى لحق بالخلافة العباســـــية فى عام ١٢٥٨ على يدى القـــائد المغولى هولاكو خان Hulagu Khan قد خلق فراغا سياسيا أيديولوجيا مما أتاح الفرصة للمذهب الشيعى والصوفية للازدهار . اذ قام العلامة جمال الدين بن يوسف الحلى (١٢٥٠ — ١٣٢٥) باحياء المفهوم الذهنى عن « الاجتهاد » وممارسة الاجتهاد وهذا أدى بدوره الى تدعيم وتقوية المذهب الشـــيعى الى درجة هائلة .

وكانت هناك أوضاع غير مستقرة فى غرب آسيا مما أدى الى ظهور طرق صوفية عديدة . وكان من بين هذه الطرق : الطريقة الصفوية التى أسسها الشيخ صفى الدين الاسحاق (توفى عام ١٣٣٤) بالقرب من أردبيل Ardebil الواقعة فى ذلك الاقليم من ايران الذى يتكلم باللغة الآذارية(*) Azeri . وكانت هذه الطريقة سنية وظلت سنية على مدى قرن من الزمان على الأقل .

وفى أواخر القرن الرابع عشر كانت ايران واقعة فى داخل نطاق امبراطورية تيمور لنك Timur Lang (١٣٣٦ — ١٤٠٥) التى كانت تمتد من نهر أسوس Oxus بأفغانستان الى الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط . وبعد موت شاه روح Rukh Shah — وهو سنى — فى عام ١٤٤٧ تفككت هذه الامبراطورية، ونجم عن ذلك فراغ فى السلطة والنفوذ مما أثار الطموحات الدنيوية للصفويين Safavids . وتمكن شاه اسماعيل زعيم الصفويين من الاستيلاء على تبريز التى تقع فى هضاب أذربيجان فى عام ١٠٥١ بعد أن ساعده رجال القبائل الحربيين الذين كانوا يربطون معتقداتهم الصوفية بالتبجيل الشديد للامام على . وفى خلال سبع سنوات تمكن شاه اسماعيل من التوسع فى الأراضى التى يبسط عليها نفوذه وسيطرته بحيث أصبحت تمتد من حيرات Herat بأفغانستان الى بغداد .

وما تولى الصفويون السلطة حتى اتخذوا « المذهب الشعى الاثنا عشرى Twelver Shiaism» لكى يتوافقوا مع مشاعر الهرطقة والابتداع السائدة بين جماهير الناس وخاصة رجال القبائل ولكى يميزوا أنفسهم عن الأتراك العثمانيين السنيين المنافسين الذين يرغبون فى ضم ايران الى امبراطوريتهم .

(*) نسبة الى أذاربيجان . المترجم

وأعلن الصفويون رسميا أن الديانة الرسمية للدولة هي المذهب الشيعي الاثنا عشرى . وهو أمر لم يفعله فى الماضى الفاطميون أو البويهيون Buyids وكان هذا يعنى أن الأمر يستلزم تصنيف القانون الشيعى والثيولوجيا الشيعية والفلسفة الشيعية بطريقة منهجية ولكى يتم تحقيق ذلك ولكى يتم تعليم وتلقين المذهب الشيعى لرعاياهم قام الصفويون بجلب العلماء الدينيين من جنوب العراق وسوريا ولبنان . وهم باجرائهم هذا قد منحوا العلماء الوضع الرفيع والهيبة والثروة . وفى مقابل ذلك سمح العلماء للحاكم الدنيوى . بمد نفوذه وسلطانه « لكى يضمن النظام والهدوء والاستقرار » . كما أعلن العلماء أن الصفويين ينحدرون من سلالة الامام السابع : الا وهو موسى الكاظم الامام المختفى . وبالطبع حاول شاه اسماعيل وكذلك الشاهطهمسب Tahmasp أن يقدما نفسيهما على أساس أنهما « ظل الله على الأرض » . لأنهما بهذه الصفة أصبح العلماء يتوقعون منهما أن يقوما بتنفيذ الشريعة . ونظرا لأن الشاه قد منحت له صفة الاحتجاب التى يتسم بها الامام المختفى فانه كان عليه أن يعتمد على الاجتهاد الذى يقدمه له كبار المجتهدين . وفى غمرة حماسته ازاء نشر المذهب الشيعى أصدر الشاه اسماعيل أوامره لكافة الوعاظ بأن يؤموا المسلمين فى صلاة الجمعة باسم الأئمة الاثنى عشر مع توجيه اللعنات الى الخلفاء السنيين الثلاثة الأوائل : أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان بسبب اغتصابهم للمنصب الذى يستحقه الامام على بن أبى طالب . وهذا الاتساق الأيديولوجى قد ساعد شاه اسماعيل على أن يضمن وحدة الأراضى ، وهذا ما فعلته أيضا المنافســــة والمواجهة مع الامبراطورية العثمانية السنية . وبسبب الحروب المتكررة كانت الحدود بين الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الصفوية Safavid تتحرك الى الوراء والى الأمام . وفى عام ١٦٣٨ تمكن العثمانيون من الاستيلاء على العراق وأخذها من الصفويين وكان ذلك عقب انتهاء حكم شاه عباس

الذى امتد حكمه من عام ١٥٨٧ حتى ١٦٢٩ وكان بمثابة قمة الأسرة الصفوية الحاكمة .

وفى أواخر العشرات من عام ١٧١٠ حاول الشاه سلطان حسين تحويل القبائل السنية بأفغانستان الى المذهب الشيعى . ولكنهم ثاروا وتمردوا عليه . وفى عام ١٧٢٢ قاموا بغزو أصفهان والاستيلاء عليها وكانت أصفهان هى عاصمة الصفويين . ثم حاولوا فرض المذهب السنى من جديد على ايران التى كانت قد أصبحت آنئذ منتمية للمذهب الشيعى ولكنهم فشلوا فى ذلك . وغادر معظم كبار العلماء الشيعة أصفهان وذهبوا الى أكثر المدن الشيعية تقديسا بالعراق العثمانية : وهما مدينة النجف ومدينة كربلاء . ورغم أن الحكم الافغانى لم يدم سوى ثمان سنوات فان ممارسات لكبار علماء الشيعة المقيمين بالعراق قد استمرت وبرهنت فيما بعد على أنها مصدر قوة للعلماء فى مواجهتهم مع الأسرة الملكية الايرانية .

وحاول الأفشار Afshars الذين جاءوا بعد الأفغان ادخال تعديلات على المذهب الشيعى على نحو يجعل المذهب الشيعى مقبولا لدى الرأى العام السنى . اذ قام نادر شاه أفشار (١٧٣٦ — ١٧٤٧) بمنع توجيه اللعنات للخلفاء الثلاثة الأوائل وسمى المذهب الشيعى بالمدرسة الجعفرية نسبة الى الامام جعفر الصادق وهو المنسق الرئيسى للتشريع الشيعى . الا أن كل هذه الاجراءات اتضح أنها غير كافية لتضييق الهوة الطائفية الداخلية . اذ كان الانقسام بين المذهب الشيعى والمذهب السنى قد وصل الى درجة عميقة ومتسعة للغاية . فالفوارق والخلافات قد امتدت لتشمل النظرية والطقوس والقانون والثيولوجيا والمؤسسة الدينية .

ويشير علماء الشيعة أن النبى محمد قد ذكر اسم على ليكون خليفة له عندما قال : « من اتخذنى معلما له ينبغى عليه أن يتخذ

من على معلما له .. وعقب موت محمد كان المسلمون بحاجة لأن يحكمهم قادة معصومون من الخطأ يمتلكون معرفة عميقة بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشـــريفة مما يمكنهم من قيادة المجتمع فى الاتجاه السليم . وأولئك الذين كانوا قريبين للغاية من النبى محمد هم فقط الذين امتلكوا مثل هذه المعرفة العميقة وأصبحوا معصومين من الخطأ . والمعصـــومية من الخطأ تنبع من العصـــمة أو النقاء والطهارة . وكان على هو الصحابى الوحيد للرسول الذى يمتلك ذلك النقاء وتلك الطهارة الشديدة . وبعد الامام على فان أولئك الذين انحدروا من سلالة على وفاطمة (ابنة محمد عليه الصـــلاة والسلام) هم فقط المؤهلون لأن يحكموا الأمة الاسلامية . ووفقا لما يعتقده الشيعة فان الأئمة معصومون من الخطأ . كما يعتقدون أن قيادة الأمة الاسلامية ينبغى أن تكون فى أيدى بيت النبى . ومن ناحية أخرى نجد أن السنيين يتمسكون بالمبادىء أكثر من تمسكهم بالشخصيات . وهم يشـــيرون الى أن النبى محمد قد تعمد ترك مسألة الخلافة مفتوحة وترك الأمر للأمة الاسلامية لكى تقرر هذا الأمر عقب وفاته . والطريقة التى تم بها هذا الاختيار بمعرفة أولئك الذين فى أيديهم « الحل والعقد » هى التى أوجدت فكرة الاجماع فى الرأى لدى علية القوم . وتطور هذا فيما بعد الى الاجماع بين العلماء أو الأكاديميين الدينيين المدربين الذين بزغوا فى العصور الوسطى . وعلى العكس من الشيعة نجد أن أهل السنة يعتقدون أن الخلفاء معرضون للخطأ من حيث هم شارحون ومفسرون للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة .

ويصر الشيعة على أن الحاكم ينبغى أن يكون عادلا ويشيرون الى الآية القرآنية الآتية :

« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمـــات فأتمهن قال انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينـــال عهدى الظـــالمين »

« صدق الله العظم » سورة البقرة . الآية رقم ١٢٤ .

ومن ثم يقول علماء الشيعة انه اذا كان الحاكم ظالما فانه ينبغى الاطاحة به على الفور .

ووفقا لما يقوله الشيعة فان القرآن يتعهد بمنح السيادة على الأرض للمظلومين . ولكى يبرهنوا على ذلك فانهم يشيرون الى الآيات القرآنية التالية :

— ((ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون))

سورة الأنبياء — الآية رقم ١٠٥ .

— ((قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين))

سورة الأعراف — الآية رقم ١٢٨ .

— ((ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين))

القصص — الآية رقم ٥ .

ويتمسك الشيعة بهذا التعهد بمكافأة الناس المتواضعين والمظلومين ويستخرجون من ذلك المفاهيم الذهنية عن عودة الامام المختفى وعن مجىء المهدى وعن رد الاعتبار للمجتمع . وبكلمات أخرى يمكن القول بأن الشيعة يعتقدون أن التاريخ الاسلامى يتحرك نحو هدف محدد وأن قوى الظلم سوف تنهزم فى نهاية الأمر . وهذا يعمل كحافز نحو التنشيط الراديكالى . وعلى العكس من ذلك نجد أن أهل السنة يرون أن التاريخ الاسلامى هو بمثابة انجراف أو انحراف وابتعاد عن خط الأمة المثالية الاسلامية التى كانت متواجدة أثناء حكم الخلفاء الأربعة الراشدين .

والأمزجة الشيعية مختلفة عن المزاج الســـــنى . فالنزعة العاطفية الشيعية تجد مخرجا لها فى الندب والحداد والتفجع فى حزن شديد على الأئمة : على والحسن والحسين علاوة على التضرع والتوسل الذى يقدمونه عند الأضرحة الخاصة بهم . فالشــيعة يعتقدون أن المرء يمكن له من خلال الزهد والمعاناة أن يزيل الآثار السيئة الناجمة عن الخطيئة . وهذا هو السبب فى أن سيرة حياة الأئمة مليئة بأحداث تعرضوا فيها للاذلال والمعاناة حتى عندما كان لديهم القوة التى تعينهم على الحاق الهزيمة بخصومهم . فالاذلال والاضطهاد والاستشهاد هى الموضوعات الرئيســـــية فى سيرة حياة هؤلاء الأئمة . وتنفيذ العروض العاطفية السنوية المتعلقة باستشهاد الامام الحسين علاوة على جلد الناس لأنفسهم بالسوط هو بمثابة مخرج للتنفيس عن مشاعر الحزن والتكفير عن الشعور بالذنب والآلام التى كابدها أساسا سكان واهالى الكوفة بســـبب تخليهم عن الامام حسين بعد توجيه الدعوة له للمجىء الى مدينتهم وتولى المسئولية بها . أما أتباع المذهب السنى فلا يقومون بمثل هذه الأعمال التنفيسية على الاطلاق .

والسنيون والشيعة يختلفون فى الرأى بشأن الكيفية التى يتم بها تنظيم الدين والأنشطة الدينية . فالسنيون يرون أن الأنشطة الدينية هى من اختصاص الدولة المسلمة فقط . وأنه عندما يقوم العلماء بالعمل كقضاة أو وعاظ أو مدرسين فانهم يفعلون ذلك تحت رعاية واشراف الدولة . ولا مجال لأن يقوم العلماء بتنظيم الدين بمعرفتهم وتحت مســـــئوليتهم وبمعزل عن الدولة وليس هذا هو الوضع بين الشيعة . وسوف يتضح ذلك من الدراسة عن ايران .

وقد أصبح علماء الشـــــيعة المتمركزون بالعراق موضوعيين وحرفيين على نحو متزايد حيث صاروا يهتمون ببث ونقل المعلومات الدينية أكثر من اهتمامهم بالتشجيع على ممارسة « الاجتهاد » .

ولذلك أصبح الناس يطلقون عليهم اسم : « الاخباريون » . وظل الأمر كذلك حتى أوائل الثمانينات من عام ١٨٧٠ وبعدئذ بدأ هذا الأسلوب الموضوعى الحرفى فى الضعف والذبول تحت المعارضة القوية التى مارسها : عقا محمد بكير بهبهانى Aqa Muhammad Bagir Behbehani (توفى عام ١٧٩٣) اذ أشار الى أن الأمر يستلزم وجود « مجتهد » متواجد على قيد الحياة لكى يفسر الأسس الرئيسية للعقيدة ولذلك ينبغى على كل مؤمن أن يختار « مجتهداً » كمصدر للمحاكاة والتقليد أو كمرجع للتقليد . وقد سميت هذه المدرسة باسم : المدرسة الأصولية . وكلمة أصول باللغة العربية تعنى الجذور أو الأصل . وقد ارتكز الأصوليون فى رأيهم على أنه مادام المجتهدون يستمدون سلطتهم فى اتخاذ القرارات من الامام المختفى فانهم يكونون بذلك مخولين لتفسير الشريعة بمعنى أن يكون لهم الحق فى شرح وتفسير الشريعة . وفى أوائل القرن التاسع أصبح الأصوليون هم العنصر السائد بعد أن تفوقوا على « الاخباريين » . وفى هذا الصدد يقول نيكى ر . كيدى وهو باحث أمريكى متخصص فى شئون ايران : « ان الحاجة لاتباع أحكام رجل « مجتهد » معاصر ومازال على قيد الحياة يكون أقل عرضة فى الوقوع فى الأخطاء من أى حاكم دنيوى قد أتاحت الفرصة لاعطاء السلطة للمجتهدين وبذلك أصبحت سلطة المجتهدين أكبر بكثير من سلطة العلماء السنيين » . وهكذا نرى أن المجتهدين قد اكتسبوا الأساس الذى يجعلهم يتخذون قرارات سياسية ويخرقون المبادىء الاسلامية فى جو من الاستقلال عن الحكام الدنيويين . وقد نشأ عن هذا ذلك الاستقلال الذى مارسه علماء الشيعة خلال الفترات التالية فى ايران .

وكانت ايران آنئذ محكومة بمعرفة القاجار Qajars ، ورغم أنهم من الشيعة فانهم كان تنقصهم تلك القوى الروحية التى ينمتع

بها الصفويون Safavid السابقون عليهم . وقد قام عقا محمد خان قاجار بالحاق الهزيمة بحاكم زاند Zand فى عام ١٧٧٩ ثم تمكن من غزو معظم أراضى ايران بحلول عام ١٧٩٠ وبعد مرور سبع سنوات جاء بعده ابن أخته : فتح على شاه aFth Ali Shah الذى أثبت أنه نصير للعلماء .

وتحت الحكم المعتدل الدقيق لفتح على شاه تمكن العلماء من تدعيم وتقوية مركزهم . بل أصـــــبحوا يديرون أراضى الأوقاف الدينية ويحصلون على نسبة ١٠٪ من الايراد كمكافآت لهم . ونظرا لأنهم كان ينظر اليهم على أنهم بمثابة الأوصياء على الأمام المختفى فانهم كانوا يقومون أيضا بتحصيل الضرائب الاسلامية (الأخماس والزكاة وعلى الرغم من أن الأخماس كانت أساسا بمثابة ١/٥ الغنائم التى يحصل عليها المؤمنون من الكفار المنهزمين وبحيث يتم تسليم هذا الـــ ١/٥ الى الحاكم على الأمة الاسلامية فان الشيعة فسروا هذا الخمس على أنه بمثابة ضريبة عامة على الدخل . وكان العلماء يستخدمون هذه الأموال فى تســــــيير شئون المؤسسات التعليمية والاجتماعية والخيرية بالاضـــــافة الى الكليات والمعاهد الدينية . وكانوا يديرون العمل فى محاكم الشريعة التى تتناول قضايا الأحوال الشخصية والأسرية والعائلية . ولكى يتمكنوا من تنفيذ القرارات التى تصدرها المحكمة فانهم كانوا يلجأون الى فرق حربية خاصة تتألف من الطلبة الدينيين التابعين لهم . وكان هؤلاء العلماء يتمتعون بالهيبة والاحترام الشديد من جانب المؤمنين على نحو يفوق ذلك الاحترام الذى يكنه الناس للوعاظ المحليين الذين يؤمون المصلين فى أيام الجمعة وللقضاة المحليين الذين يحكمون فى القضايا والجرائم وفقا للقوانين الاعتيادية والذين يتم تعيينهم بمعرفة الملك القاجارى . بل الأكثر من ذلك انهم كانوا يشعرون انهم مستقلون بشكل استثنائى نظرا لأن رؤساءهم الروحيين الذين

يعيشون فى النجف وكربلاء كانوا يقعون خارج نطاق السلطان القضائى للقاجار . وتمشيا مع هذا ساد المفهوم الذهنى عن المنتجع أو الملاذ الدينى . حيث ادعى العلماء أن المساجد والأضرحة الدينية ومنازلهم من حيث المبدأ أراض تابعة للامام المختفى وبالتالى فان حكومة قاجار ليس لها الحق فى الدخول فى كل هذه الأماكن .. وبالتالى أصبحت كل هذه الأماكن هى الملاذ والمأوى لجميع الناس الهاربين والشاردين . والأهم من ذلك أن هذا الأسلوب قد ساعد على جعل المساجد بمثابة أماكن للمعارضة ضد الملوك الايرانيين الذين لا يلتزمون بتحقيق العدالة .

ومع مرور السنوات فى القرن التاسع عشر حرص « المجتهدون » على تسمية أعظم شخص موقر مبجل من زملائهم باسم : « المرجع المطلق » حيث كانوا يوافقون على قبول ارشاداته وتوجيهاته . وكل هذه التطورات قد أعطت العلماء المزيد من القوة السياسية والروحية والأيديولوجية كما دعمت الاتحاد والوحدة بينهم وأضفت التماسك على تعاليمهم . ومما يثير الدهشة أن ممارسة اختيار « المرجع الأقصى » بالاضافة الى تواجد قيادة عليا للعلماء خارج ايران كان يعنى أن المجتمع الايرانى قد انشأ كيانا كهنوتيا فى داخل ايران وفقا للخطوط والنماذج التى سبق أن شهدتها أوربا المسيحية من قبل .

ومع بزوغ قاعدة اجتماعية اقتصادية مستقلة فان ذلك أعطى للعلماء المقدرة على حرية الحركة والعمل المستقل . ولذلك راحوا يمارسون نفوذهم ويحتجون على ضعف التقاليد الاسلامية فى داخل المجتمع ويحتجون على التغلغل السياسى فى داخل ايران من جانب الدول الأوربية وخاصة بريطانيا وروسيا القيصرية . وخير مثال على ذلك هو احتجاجهم ضد التبغ فى عام ١٨٩١ ـ ١٨٩٢ .

اذ تحالف العلماء مع المثقفين العلمانيين والقوميين العلمانيين فى الاحتجاج ضد الامتياز الذى منحه ناصر الدين شاه (١٨٤٨ — ١٨٩٦) لبريطانيا بشـــأن احتكار انتاج وبيع التبغ . وقد لعب جمال الدين الأفغانى دورا كبيرا فى اقناع « المرجع الأقصى » : الحاج ميرزا الحسين الشيرازى لكى يصدر فتوى دينية فى هذا الموضوع . فأصدر الشيرازى بيانا جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . ان استخدام التبغ فى هذه الأيام فى أى شكل من أشكاله هو بمثابة حرب ضد امام العصر » . وكان العلماء يرغبون فى القضاء على التغلغل الأوربى من خلال تدعيم وتقوية الاســـلام ومقاومة أتوقراطية الشاه وحكمه الفردى المستبد .

وبذلك أظهر العلماء من خـــلال قيادتهم لاحتجاجات جماهير الشعب التى أحرزت النجاح أنهم كانوا بمثابة قوة ســـياسية حيوية بالغة الأهمية . وقد ثبت أن هذا الاحتجاج على التبغ كان مجرد مقدمة لشىء ما أكبر وأعظم : الا وهو الثورة الدستورية .

وقد لقيت الحركة الدستورية تأييدا وتدعيما من جانب الطبقات التى هى من ذوى الأملاك علاوة على تأييد الزعماء الدينيين وكبار رجال الفكر المثقفين . اذ كان ملاك الأراضى والموظفون الاداريون والتجار والحرفيون يريدون لايران أن تكون متحررة من الســيطرة الأوربية وذلك حتى يمكنهم تطوير وتنمية امكانياتهم مع التحرر من ممارسات الشاه الرامية الى منح امتيازات اقتصادية للأوربيين . وكان الزعماء الدينيون يدركون أن التقليل من سلطات الشاه من شأنه أن يزيد من قوتهم فى التعامل مع مشايخ القبائل والأرستقراطيين الاقطاعيين ورجال الدين .

ورغم أن العلماء كانوا يشكلون أغلبية فى المؤتمر الذى عقد فى أكتوبر ١٩٠٦ من أجل وضع دستور للبلاد فانهم فشلوا فى العمل

ككتلة واحدة فالتدريب الذى تلقوه لم يزودهم بنظرية سياسية علاوة على أنهم لم يكن لديهم فى أذهانهم نموذج دستورى . وكل ما فعلوه هو أنهم راحوا يستجيبون للمبادرة التى اتخذها العلمانيون بشأن اتخاذ الدستور البلجيكى كنموذج يحتذون به .

وكان العلماء الدينيون منقسمين الى فئتين :

١ ــ المتمسكون بنقاء الدين .

٢ ــ البرجماتيون العمليون .

وأشارت الفئة الأولى الى أنه فى ظل عدم تواجد الامام المختفى ، الذى يعرف بين جماهير الناس بامام الزمان أو والى العصر فانه ينبغى الاطاحة بحكومة الطاغية الحالية بحيث يحل محلها حكومة دستورية تتألف من « المجتهدين الحكماء » . أما البرجمانيون العمليون الذين يشكلون أكثرية كبيرة بين العلماء فانهم اتفقوا فى الرأى مع المتمسكين بنقاء الدين ولكنهم أشاروا الى استحالة تنفيذ ذلك الرأى ووضعه موضع التنفيذ الفعلى .

وكان يوجد بين البرجماتيين علماء معتدلون وآخرون راديكاليون . وكان المعتدلون يرغبون فى عمل مراجعة على مدى استبدادية الملك مع الاسترشاد بالخطوط الواردة فى الدساتير الأوربية مثل ذلك الدستور الخاص ببلجيكا . أما الراديكاليون الذين كانوا تحت قيادة الشيخ فضل الله نورى **Fablollah Nuri** فكانوا يريدون لسلطة الحاكم أن تكون محصورة فى نطاق اطار اسلامى .

وبالنسبة للسلطة العليا أشار الراديكاليون الى انه مادامت السلطة العليا قد أعطاها الله بالتفويض الى الامام المختفى ومنه الى « المجتهدين » فانها لا تتعلق بجماهير الشعب . وقد لقى رأيهم

هذا معارضة من جانب رجال الدين المعتدلين ومن جانب الدستوريين العلمانيين . وخسر الراديكاليون الجولة . اذ نصت المادة ٣٥ على ما يلى : « ان السلطة العليا هى الثقة التى يعهد بها الشعب الى الذات الملكية .(كمنحة مقدسة) » .

أما الوثيقة الأخيرة التى تسمى « القوانين الأساسية » والتى كتبت وفق نموذج الدستور البلجيكى فكانت تتخذ طابع التوفيق بين آراء المعتدلين وآراء الراديكاليين مع احراز رجال الدين الراديكاليين لبعض النشاط القليلة لصالحهم . وظل نفس هذا الدستور معمولا به — ولكن مع ادخال تعديلات معينة — الى أن تفجرت الثورة الخومينية فى عام ١٩٧٩ .

وكان الدستور مصوغا فى اطار اسلامى وقد جاء فى المادة الأولى أن الجعفرية Jaafari أو المذهب الشيعى الاثنا عشرى هو الدين الرسمى للدولة . والشخص الجعفرى الشيعى هو فقط الذى يمكنه أن يصبح الملك أو وزيرا أو قاضيا . والمادة رقم ٣٩ أنعمت على العاهل الملك بمهمة القيام « بتدعيم وتنشيط النظرية الجعفرية والسعى الى مساعدة الأرواح المقدسة لقديسى الاسلام لكى يقدموا خدماتهم الرامية الى تقدم ايران وازدهارها .. والمادة ١٨ نصت على توفير التعليم المجانى بشرط الا يتعارض هذا التعليم مع الشريعة . اما المادة رقم ٢٧ فقد أكدت على حق محاكم الشريعة فى التواجد .

وفى السنة التالية جاءت القوانين الأساسية التكميلية المطولة التى حددت ميثاق حقوق للمواطنين وحددت شكلا برلمانيا للحكومة مع تركيز السلطة فى الهيئة التشريعية على حساب الهيئة التنفيذية والجدير بالذكر أن المادة رقم ٢ نصت على أن اى مشروع قانون

يصدره المجلس (البرلمان) لا يصبح سارى المفعول الا بعد أن تقوم لجنة مكونة من خمسة من « المجتهدين » — يتم اختيارهم بمعرفة البرلمان من ضمن قائمة تضم عشرين مجتهدا مقدمة من العلماء — بالاقرار بأنه يتلاءم مع الاسلام . وهكذا نرى أنه على الرغم من أن لجنة المجتهدين تمتلك سلطة الفيتو فانها لا يمكن أن تعمل كهيئة خلاقة من تلقاء نفسها وعلى النحو الذى كان يريده رجال الدين الراديكاليين بقيادة نورى Nuri وعلى كل حال فاننا نجد من الناحية العملية أن هذه المادة لم تنفذ على الاطلاق . حيث كان القاجار يتجاهلون هذه المادة علاوة على تجاهل البهلويين لها .

والجدير بالذكر أن بعض كبار العلماء المقيمين بالعراق قد أيدوا هذ الدستور ورأوا أنه بمثابة فرصة للمجلس (البرلمان) للعمل على تطبيق الشريعة . وقد قال أحدهم وهو الشيخ اسماعيل المحلاتى Ismail Mahallati ان هذا الدستور يتميز بالتوازن والتوافق المعقول ما بين هدف اقامة حكومة برئاسة الامام المعصوم من الخطأ وهو هدف يتعذر الوصول اليه ، والعبودية غير المقبولة للنظام الملكى المطلق .

وفى عام ١٩٠٩ قاد محمد على شاه ثورة مضادة ملكية ضد الدستور عام ١٩٠٦/١٩٠٧ . ولكن تم احباط هذه الثورة . وبعدئذ أرغم الشاه على التنازل عن العرش لصالح ابنه البالغ من العمر ١٢ عاما والذى يسمى أحمد ولكن لكى يتم احباط مخططات احتلال طهران على أيدى القوات الروسية قام الملك بحل المجلس (البرلمان) فى نوفمبر ١٩١١ . وكان ذلك بمثابة نهاية الثورة الدستورية وليس نهاية للدستور .

وخلال فترة هذه السنوات الستة اى من ديسمبر ١٩٠٥ الى نوفمبر ١٩١١ كان العلماء منهمكين فى نشاط فى المجالات السياسية

وهو أمر لم يقوموا به مرة أخرى حتى أواخر السبعينات . اذ كانوا يهتمون أســــاســا بتوسيع نطاق نفوذهم الاجتماعى والسياسى على حساب السلطات العلمانية وعلى حساب المكاسب الاقتصادية وقد كان الكثيرون من كبار رجال الدين يمتون بصلة القرابة للتجار الأغنياء الذين وجدوا أن طموحاتهم نحو انشاء مشروعات تجارية أو صناعية عظمى تنحدر أمام تفضيل الشاه للأوربيين فى مجال التنمية الاقتصادية بايران .

وعلى الرغم من وقوف طهران على الحياد خلال الحرب العالمية الأولى فان قوات روسيا القيصرية وبريطانيا وتركيا العثمانية قامت بغزو ايران . وقد حرمت ثورة أكتوبر البلشفية لعام ١٩١٧ فى روسيا شاه ايران من نصير أجنبى كبير . وبعد عامين فرضت بريطانيا بالاكراه معاهدة على الحكومة الايرانية أصـــبحت ايران بمقتضاها بمثابة محمية واقعة تحت نفوذ لندن الا أن المجلس (البرلمان) رفض التصديق على هذه المعاهدة استجابة للمشاعر الوطنية لجماهير الشـــــعب .

وكانت ايران آنئذ قد أصبحت دولة مهمة من حيث انتاج البترول برأس مال بريطانى وخبرة بريطانية وقد لعب رأس المال والخبرة البريطانية دورا رئيسيا فى هذا الصدد . اذ رأت بريطانيا أن من المهم للغاية أن تكون هناك حكومة قوية فى ايران بهدف تسهيل مهمة استخراج البترول وغير ذلك من أعمال أخرى . فشجعت العقيد رضا خان Reza Khan الضابط بفرقة القوزاق على الاطاحة بالحكومة القائمة وتعيين نفسه وزيرا للحرب ، وبعد أن قام رضا خان بتنفيذ ذلك فى فبراير ١٩٢١ فانه عمل على تدعيم مركزه من خلال قمع الثورات الداخلية . ثم عين نفسه رئيسا للوزراء وراح يتطلع لأن يصبح شاه ايران . وبدأ يتودد الى القيادة الدينية ..

حيث قام فى أبريل ١٩٢٤ بزيارة مدينة قم Qam وهى مدينة مليئة بالأضرحة المقدسة وكان يقيم بها آنئذ كبار علماء الشيعة العراقيين المنفيين . وهناك أصدر بيانا جاء فيه : « نظرا لأن هدفى الشخصى ومنهجى منذ البداية كان ولايزال العمل على المحافظة على جلال الاسلام واستقلال ايران . . فاننى وكافة الناس الآخرين بالجيش قد رأينا من البداية أن الحفاظ على وقار الاسلام وحماية هيبة الاسلام هو أحد الواجبات العظمى الملقاة على عاتقنا » .

وبعد شهور قليلة صرح كبار « المجتهدين » فى بيان رسمى تأييدهم لحكومة رضا خان . وقد مكن هذا رضا خان من كسب التأييد اللازم للاطاحة بالحاكم القاجارى Qajar الذى يسمى أحمد شاه فى ديسمبر ١٩٢٥ وتعيين نفسه قائما بأعمال الملك فى ايران . وبعد مرور أربعة شهور توج نفسه ملكا على البلاد . . وبعدئذ قام رضا خان — وفقا للقانون الصادر فى ربيع عام ١٩٢٥ الذى ينص على ضرورة أن يحصل جميع الايرانيين على شهادات ميلاد موضح بها اسم العائلة — باختيار اسم لعائلته من بين الأسماء الواردة باللغة الايرانية القديمة فاختار كلمة : بهلوى وهو اجراء يرمز الى تفضيله لايران فى فترة ما قبل الاسلام .

وبعد أن تربع رضا بهلوى شاه على عرش ايران بدأ يعمل على تقليص سلطات العلماء الدينيين . اذ أصدرت حكومته قرارا مدنيا ينص على وضع المحاكم الشرعية تحت اشراف الدولة علاوة على زيادة نفوذ الادارة الدينية التابعة للحكومة . وبعدئذ صدر قانون الزى الرسمى لعام ١٩٢٨ : الذى ينص على أنه ينبغى على كافة المواطنين الذكور أن يرتدوا الزى الغربى والطاقية المستديرة التى لها حافة ناتئة . وقد نص قانون محاكم الشريعة لعام ١٩٣٠ على أن تقتصر هذه المحاكم على الموضوعات المتعلقة بالزواج

والطلاق والوصاية على أن يتم فقط تحديد ما اذا كان المتهم مذنبا أم بريئا . أما قانون تسجيل الوثائق والممتلكات الصادر فى عام ١٩٣٢ فقد أنهى دور المحاكم الشرعية من حيث قيامها بدور تسجيل الوثائق . وكان ذلك بمثابة مصدر كبير للدخل بالنسبة للعلماء . وقانون الأوقاف لعام ١٩٣٤ قد دعم ســــلطات ادارة الأوقاف التابعة لوزارة التعليم . اذ خول لادارة الأوقاف الاستيلاء على كافة الأوقاف الدينية التى ليس لها مديرون أو لها مديرون غير معروفين بالاضافة الى الاشراف على الأوقاف الدينية الأخرى مع الموافقة أو عدم الموافقة على ميزانياتها . ونظرا لأن هذه الأوقاف الدينية كانت بمثابة المصدر الرئيسى للدخل بالنسبة للعلماء فان هذا القانون قد قلص نفوذهم الاقتصادى واستقلالهم الى درجة كبيرة . وفى عام ١٩٣٤ أصدر الشــاه أوامره بفتح جميع الأماكن العامة أمام النساء .. وفى السنة التالية أصـــدر أوامره بالغاء الحجاب وخاصــة الشادور وهو ذلك الغطاء الذى يغلف الجسد من جميع الجوانب والذى كان شائعا بين النساء والفتيات الايرانيات . وقد اعترض العلماء فى عنف على هذا القرار نظرا لأن الحجاب — من وجهة نظرهم — قد أقره القرآن الكريم وجعله من الأمور التى ينبغى الالتزام بها وذلك وفقا للآيات الكريمة الآتية :

« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن . ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى اخوانهن أو نسائهن أو ما ملكت ايمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعــا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » . صدق الله العظيم .

سورة النور — آية رقم ٣١ .

كما أصدر الشاه أوامره بتغيير الطاقية ذات الحافة التى يرتديها جميع الرجال بالقبعة اللباد الأوربية . وقد تعارض هذا مع الطريقة الاسلامية فى الصلاة والتى تتطلب من المسلم أن يلامس الأرض بجبهته أثناء تأدية الصلاة . وفى عام ١٩٣٦ سعى الى منع الحداد الشعبى على الوفاة التى حدثت بالنجف للشيخ ميرزا حسين النينى Mirza Hussein Naini المبجل — من حيث أنه « المرجع المطلق » — لدى الشيعة الايرانيين . وبعد مرور ثلاث سنوات أصدر قرارا يحظر على الناس القيام بجلد أنفسهم علنا أمام الجماهير فى ذكرى وفاة الامام الحسين . وبعدئذ سعى الى منع العرض الجماهيرى الذى يقوم به الناس على شكل مسرحيات عاطفية قبل الحداد ومنع الحج الى مكة . ولكى ينال ما يريده من المجلس (البرلمان) فانه قام بالتلاعب فى الانتخابات وتزويرها . ففى حين كان المجلس السادس (١٩٢٦ — ١٩٢٨) به ٤٠٪ من النواب من رجال الدين أصبح المجلس الحادى عشر (١٩٣٦ — ١٩٣٨) لا يضم سوى رجل واحد فقط من رجال الدين المشهورين . وقد لخص لنا نيكى ر . كيدى سيئسات رضا شاه فكتب ما يلى : « لقد أصبحت الطبقة العليا والطبقة المتوسطة متخذة الطابع الغربى بشكل متزايد حتى أنهم نادرا ما كانوا يفهمون الثقافة التقليدية أو الدينية لزملائهم المواطنين من جماهير الشعب . ومن ناحية أخرى ظل الفلاحون والمزارعون والطبقات الفقيرة الحضرية يتبعون العلماء رغم التهديدات السياسية التى كانت تنصب على العلماء .. وكانت هذه الطبقات تتصرف ازاء الأمور بما يتلاءم مع الاسلام وليس بما يتلاءم مع الغرب » .

وعندما أرغمت القوات البريطانية والسوفيتية رضا شاه على التنازل عن العرش لابنه محمد رضا البالغ من العمر ٢٣ عاما فى سبتمبر ١٩٤١ كان العلماء من بين الذين رحبوا بتنازله عن العرش

واحتفلوا برحيله . فهم قد عانوا على مدى ١٥ عاما من الضغوط التى فرضها عليهم الشاه مما أسفر عن تقليص نفوذهم وهيبتهم الى درجة كبيرة .

وكان محمد رضا شاه صغيرا فى السن للغاية وعديم الخبرة بحيث لا يمكنه أن يحكم البلاد حكما أوتوقراطيا حتى لو كان قد أراد ذلك . كما كانت القوات الأجنبية تحتل مملكته بالاضافة الى أن حكومته كانت مثقلة بالمشاكل الحادة الناجمة عن الحرب العالمية الثانية . واستسلم لضغوط رجال الدين التى مارسوها عليه . ثم قام بالغاء الحظر الذى فرضه والده على مسـرحيات وعروض العاطفة الشيعية وعلى الحج الى مكة . بل أصـدر تعليماته للمكاتب الحكومية لكى تراقب تنفيذ المنوعات الاسلامية أثناء الصوم فى شهر رمضان . وكانت هذه خطوة لها أهمية كبيرة للغاية وكان يدرك أنه ينقصه العون الفعال من قطاعات المجتمع . لذلك حاول أن يكسب تعاطف العلماء نظرا لأن العلماء كانوا على اتصال وثيق يومى مع جماهير الشعب .

وفى يناير ١٩٤٨ عندما أصدر ١٥ من المجتهدين قرارا دينيا ينص على ضرورة ارتداء النساء للحجاب أثناء قيامهن بشـراء الحاجات من الأسواق فان كل ما فعلته الحكومة هو مناشدة آية الله محمد موسوى البهبهانى Barujerdi زعيم رجال الدين بالعاصمة العمل على وقف الهجوم على النساء غير المتحجبات من جانب المتعصبين .

وكان كل من : البهبهانى وآية الله محمد حسين البروجيرودى Behbahani المرجع المطلق من المعتدلين . بمعنى أنهما كانا يؤكدان على ضرورة أن يبتعد رجال الدين عن السياسات اليومية

وكان رأيهما هذا يلقى المعارضة من جانب آية الله أبو القاسم الكاشانى Kashani وهو من كبار رجال الدين المناهضين المجاهدين . وكان قد أنشأ عقب الحرب العالمية الثانية حزبا سياسيا تحت اسم « مجاهدى الاسلام » . وقد استمد هذا الحزب قوته من صغار التجار والطلبة الذين يدرسون العلوم الدينية وكبار قادة العائلات التجارية التى تمتلك المحلات والدكاكين التجارية . وكان هذا الحزب يطالب بالغاء جميع القوانين العلمانية التى أصدرها رضا شاه وتطبيق قوانين الشريعة (على النحو الوارد فى دستور عام ١٩٠٦ — ١٩٠٧) واعادة تطبيق زى الحجاب على السيدات وتوفير الحماية للصناعات الايرانية .

وكان الكاشانى قد ألقى القبض عليه فى أعقاب المحاولة الفاشلة لاغتيال الشاه التى قام بها مصور فوتوغرافى فى ٤ فبراير ١٩٤٩ . وقد تم قتل ذلك المهاجم على الفور فى نفس مكان الحادث . ولكن نظرا لأن أوراق تحقيق الشخصية الخاصة به قد أوضحت أنه يعمل فى « بارشامى اسلام «Parcham-e Eslam (علم الاسلام) وهى صحيفة دينية فقد قرر الشاه توجيه ضربة للقوى الاسلامية المجاهدة المناضلة . وبناء على تعليمات وتوجيهات صادرة منه أصدر المجلس (البرلمان) قانونا ينص على فرض الحظر على النشاط السياسى . ووقف قادة العلماء المعتدلون الى جانب الحاكم . وتم عقد مؤتمر يضم ٢٠٠٠ من رجال الدين فى مدينة قم بدعوة من بوروجيردى Borujerdi فى يومى ٢٠ و ٢١ فبراير وأصدر المؤتمر قرارا بحظر النشاط السياسى بالنسبة لرجال الدين والتهديد بفصل أى رجل دين من عمله اذا تحدى ذلك القرار .

الا أن هذا لم يمنع العديد من كبار رجال الدين من اصدار قرارات دينية لصالح تأميم شركة البترول الانجلو ايرانية المملوكة للبريطانيين (AIOC) وهو ذلك الموضوع الذى سيطر على

الانتخابات للمجلس (البرلمان) السادس عشر التى أجريت فى الفترة من يوليو ١٩٤٩ حتى فبراير ١٩٥٠ . وقال الكاشانى Kashani الذى يؤيد التأميم أنه يحذو حذو الشيرازى الذى تبنى « الاحتجاج ضد التبغ » . ووقف آية الله محمد تقى الخنصارى Khonsari فى وصف الكاشانى وأشار الى الحديث النبوى الشريف الذى معناه كالآتى : « ذلك الذى لا يهتم بشئون المسلمين ليس مسلما » . ومثل هذه البيانات والتصريحات أحدثت تأثيرا عميقا على الشباب من المجاهدين الاسلاميين . وفى ٧ مارس ١٩٥١ قام خليل الطهماسيبى Tahmasibi وهو عضو فى منظمة « فدائيين اسلام » السرية بالاعتداء على رئيس الوزراء الموالى للبريطانيين الجنرال على رازمارا Ali Razmara .

وسرعان ما أصدر المجلس (البرلمان) مشروع قانون ينص على الاستيلاء على شركة البترول الانجلو ايرانية AIOC . وفى أول مايو ١٩٥١ وافق الشاه على مشروع القانون الخاص بتأميم البترول وعين محمد مصدق زعيم الجبهة الوطنية فى منصب رئيس الوزراء لايران .

وكان الكاشانى واتباعه من أبرز الناس الذين حركوا مشاعر الجماهير لصالح التأميم ولصالح مصدق وكان الكاشانى يتحرك بدافع من المشاعر المناهضة للاستعمار وبدافع من رؤية اسلامية تتعلق باندماج السياسة مع الدين . اذ قال فى هذا الصدد : « ان الأفكار والنظريات الاسلامية تنطبق على الحياة الاجتماعية والحماسة الوطنية وتسيير شئون العدالة وتتعارض مع الظلم والطغيان والحكومة الاستبدادية . فالاسلام يحذر المسلمين من الخضوع للاستعباد الأجنبى . وهذا هو السبب فى أن المستعمرين يحاولون تشويش عقول المسلمين من خلال الفصل بين الدين والسياسة » .

وبعد مرور ربع قرن من الزمان عبر عن نفس هذه المشاعر والآراء آية لله روح الله الخومينى الذى فجر الثورة الاسلامية .

وعندما بدأت المقاطعة الغربية لبترول ايران تحدث تأثيرات ضارة للغاية على ايران وتسبب أزمة اقتصادية حادة فان التحالف بين الكاشانى ومصدق بدأ فى التوتر والتصدع . اذ انشق الكاشانى — وهو عضو فى المجلس (البرلمان) — على مصدق فى مارس ١٩٥٣ . الا أن باقى الأعضاء الدينيين الثمانية بالمجلس ظلوا يؤيدون مصدق . وهذه الحركة التى قام بها الكاشانى جعلته مقبولا لدى منظمة « فدائيين اسلام » التى كانت تعتقد أن مصدق قد وقع تحت النفوذ الغربى والتأثيرات اليسارية .

وذهبت منظمة فدائيين اسلام التى اسسها فى عام ١٩٤٥ طالب شاب يدرس العلوم الدينية ويسمى : سيد نواب صفوى Sayyid Navab Safavi (الذى كان يتخذ الاسم المستعار . سيد موجتبا ميرلوحى) الى ما هو أبعد من مجرد المطالبة بتطبيق الشريعة على النحو الوارد بالدستور . اذ طالبت بفرض حظر على التبغ والكحول ودور السينما والأفيون والقمار بل ارتداء الزى الأجنبى . كما تبنت اعادة ارتداء المرأة للحجاب وغير ذلك من الاجراءات الواردة بالشريعة مثل قطع يد السارق . كما طالبت بتطبيق شامل لمشروع الاصلاح الزراعى وتأميم الصناعة وتطبيق كافة اجراءات الرعاية الاجتماعية . وجذبت أتباعا كثيرين من الطبقات الفقيرة بالمجتمع مثل : البوابين والشيالين والعتالين وصغار العمال بالمحلات والدكاكين والباعة المتجولين . واتخذت منظمة « فدائيين اسلام » من الاغتيالات سلاحا سياسيا . وقد نفذوا الاغتيال فى ضحيتهم الأولى : وهو أحمد كسراوى Kasravi المؤرخ والمحامى العلمانى الشهير فى مارس ١٩٤٥ .

كما نفذوا الاغتيال فى ضـــحيتهم الثانية فى نوفمبر ١٩٤٨ حيث اغتالوا عبد الحسين حزهير Hazhir وهو وزير بالبلاط الملكى وكان يعتبر عميلا للاستعمار البريطانى . وبعدئذ جاء اغتيال الشنرال بازمارا Bazmara مما دفع المجلس (البرلمان) الى تأميم البترول .

وبدأ مصدق يعتمد بشكل متزايد على تأييد حزب توده Tudeh (أى حزب الجماهير) الموالى لموسكو لكى يتمكن من الصمود أمام ضغوط حكومتى بريطانيا وأمريكا اللتين تساندان فرض الحظر على البترول الايرانى . وقد أدى ذلك الى ابعاده عن العلماء الدينيين المعتدلين بقيادة البهبهانى Behbahani وبوروجيردى Barujerdi بل أشارت بعض التقارير الى أن بهبهانى قد عمل على حشـــر جماهير من العاملين فى الدكاكين والأسواق فى جنوب طهران لكى يتجمهروا ضد حكومة مصدق فى ١٩ أغسطس ١٩٥٣ خلال الانقلاب المضـــاد الرامى الى اعادة الشاه والاطاحة بمصدق الذى قادته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وضباط الجيش الموالون للشاه .

وبعد أن عاد الشاه الى العرش فانه حاول أن يبدو أمام الناس وكأنه منقذ للاسلام اذ دأب على اصطحاب زوجته ثريا على زيارة الأضرحة المقدسة المتواجدة فى مدينة قم Qam ومدينة مشهد Mashhad ومدينة كربلاء . كما قاما بزيارة مكة لأداء فريضة الحج . كما زادت الحكومة من التعليم الدينى والثقـــافة الدينية بالمدارس . وفى مقابل هذا امتنع القادة الدينيون عن التعليق على القرارات العلمانية التى يصدرها الشاه . ومثال ذلك أنهم لم يعلقوا بأى تعليقات على الاتفاقية المتسمة بالغبن والظلم التى أبرمها الشاه مع الاتحاد البترولى الغربى فى أغسطس ١٩٥٤ والتى عارضتها بشدة منظمة فدائيين اسلام . وقام عضو بمنظمة فدائيين بمحاولة

فاشلة لاغتيال رئيس الوزراء الايرانى حسين علاء Hussein Ala مما جعل الشاه يقوم بسحق هذه المنظمة .

وفى حين أن العلماء الدينيين قد فقدوا السيطرة على الأجهزة القضائية والتعليمية فانهم كانوا لايزالون أقوياء الى درجة تجعل الشاه يحترمهم ويستشيرهم كما كانوا متماسكين بالقدر الذى يسمح لهم بتكوين وتبنى وجهة نظر فيما يتعلق بنواح معينة فى السياسة الايرانية . وكان من بين هذه الأمور حق المرأة فى اعطاء صوتها فى الانتخابات . اذ كرر بوروجيردى معارضـــــته لحق المرأة فى التصويت فى أوائل عام ١٩٥٩ .

وعندما قدمت الحكومة مشروع قانون بشأن الاصلاح الزراعى للمجلس (البرلمان) فى ديسمبر ١٩٥٩ وصف بوروجيردى ذلك القانون بأنه ضد الشريعة وضد الدستور . وكان ما يقلقه بصفة خاصة هو أن الاستيلاء على ضـــيعات وأراضى الأوقاف الدينية — وهى التى تدر الأموال التى تنفق على ادارة شئون المساجد والمدارس والمعاهد الدينية علاوة على الانفاق على احتفالات الشيعة أثناء شهر محرم — سيدمر الاستقلال الاقتصادى للعلماء الدينيين . وقد تضمن مشروع قانون الاصلاح الزراعى فى مايو ١٩٦٠ العديد من الاستثناءات من بينها الاســـــتثناء الخاص بأراضى الأوقاف الدينية .

وعندما أصبح جون كنيدى رئيس أمريكا فى يناير ١٩٦١ تزايدت الضغوط على الشاه لكى ينفذ اصلاحات على نطاق واسع بالاضافة الى تعيين على أمينى Ali Ammi وهو أرستقراطى ايرانى غنى وصديق شخصى لكنيدى فى منصب رئيس الوزراء . فاضطر شاه ايران للاذعان لهذه المطالب فى مايو ١٩٦١ . ثم قام الشاه — بناء

على نصائح من أمينى بحل المجلس (البرلمان) ثم شرع فى ادخال الاصلاحات .

وقد حدث هذا فى وقت كان يشعر فيه العلماء بأنهم بدون قيادة وذلك فى أعقاب موت بوروجيردى فى مارس ١٩٦١ . بعد أن ظل هو « المرجع المطلق » على مدى ١٦ عاما متواصلة . وأصبح آية الله محسن حاكم **Muhsin Hakim** هو « المرجع المطلق » الجديد وكان يقيم آنئذ فى مدينة النجف . ونظرا لأن حاكم كان عربيا بالمولد وكان يعيش فى العراق فانه كانت تنقصه المعرفة الدقيقة بالشئون الايرانية . وهذا الوضع الجديد قد تلاءم مع الشاه ولكنه لم يتلاءم مع العلماء الايرانيين الذين انقسموا بحدة فيما بينهم الى ثلاث فئات : فئة المحافظين التقليديين وفئة الوسط وفئة الراديكاليين .

المحافظون التقليديون كانوا يؤيدون وجهة نظر بوروجيردى من حيث الابتعاد عن النواحى السياسية . وبعد موته تبنى هذا الخط الثلاثى آيات الله : محمد رضا جلبيجانى وشهاب الدين مراشى نجافى ومحمد كاظم شريتمدارى وهؤلاء الثلاثة هم أكبر رجال الدين فى مدينة قم Qam . وقد عارضوا فكرة استيلاء الدولة على الاراضى التى تتخطى كمياتها حدا معينا وكان ذلك بمثابة جانب حاسم فى مشروع الاصلاح الزراعى . وقالوا أن مشروع الاصلاح الزراعى يعتبر هجوما على الملكية الخاصة وانتهاكا لها بينما الملكية الخاصة هى حق أقرته الشريعة ووافقت عليه وبذلك فهو حق لا تنتهك حرمته . أما فئة الوسط فانهم لم يوافقوا على الأوامر الصادرة عن بوروجيردى الخاصة بالابتعاد عن السياسة ولكنهم لم يفعلوا سوى القليل من الناحية العملية لكى يتحدوا تلك الأوامر . اذ كانوا يميلون الى تركيز اهتمامهم على النواحى

التعليمية والاجتماعية الخاصة بمعاهد ومؤسسات الشيعة . وكان أشهر زعمائهم : آية الله مرتضى مطهارى وآية الله محمد الحسينى بحشتى وكانا يقيمان فى طهران العاصمة . وكانا على اتصال مع آية الله محمود طلقانى وهو زعيم الراديكاليين الذى كان يسكن أيضا فى طهران العاصمة . وفيما يتعلق بالاصلاح الزراعى أوضح محمود طلقانى أن الأراضى تشتمل على : أراضى القطاع الخاص وأراضى الدولة وأراضى الوقف والأراضى البور . وأشار الى أن الأراضى البور هى فقط التى ينبغى منحها للناس المعدمين الذين لا يملكون أية أراض لكى يقوموا باستصلاحها ولكى نساعدهم على تخليصهم من الفقر المدقع الذى يعيشون فيه .. وكان الراديكاليون ينادون بمشاركة الجماهير فى العملية البرلمانية ووضع حد لسلطات الشاه التى تزايدت بشكل رهيب بسبب حل المجلس (البرلمان) .

وفى يناير ١٩٦٢ وافقت الحكومة على مشروع جديد للاصلاح الزراعى به اضافات وتوسعات على القانون السابق عليه ولكنه لم يتعرض أيضا لأراضى الأوقاف وتركها كما هى بدون أن تمس على الاطلاق . وبدأ التنفيذ على الفور . وبعد ستة شهور لم يستطع أمينى رئيس الوزراء الحصول على موافقة الشاه على تخفيض الميزانية العسكرية فقدم استقالته . وجاء بعده كرئيس للوزراء أسد الله علم Assadollah Alam الذى نادى بفكرة الديموقراطية المتعددة الطبقات والتى تبدأ بانتخابات المجالس المحلية . ولم ينص القرار الانتخابى الجديد — وذلك على العكس من كافة القرارات الانتخابية السابقة — على أن المرشحين ينبغى أن يكونوا من الذكور المسلمين . فأدرك العلماء أن الهدف من وراء ذلك هو تحرير المرأة فقاموا بشجب القرار الجديد .

ورد الشاه بتصعيد هجومه الشديد على العلماء ووصفهم بالرجعية ومعاداة المفهوم الذهنى الاسلامى عن المساواة . ومنذ ذلك الوقت حتى سقوطه فى أوائل ١٩٧٩ ظل الشاه متخذا موقفا عدائيا من العلماء . وفى أوائل يناير ١٩٦٣ أطلق الشاه « ثورة بيضاء » تتألف من ست نقاط . اذ اشتملت ــ بالاضافة الى الاصلاح الزراعى ــ على تأميم الغابات وبيع مصانع القطاع العام حتى يمكن تسديد التعويضـــات لكبار ملاك الأراضى الزراعية واعطاء حق التصويت للنساء والمشاركة فى الأرباح بالمصانع ومحو الأمية .

وبدلا من أن يصدر الشـــــاه قرارا بشأن انتخابات المجلس (البرلمان) فانه أصدر أوامره باجراء استفتاء شعبى على « الثورة البيضاء » فى ٢٥ يناير وكانت نتيجة الاستفتاء هى الموافقة بنسبة ٩٩٫٩٪ . وفى أوائل مارس قامت هيئة الاســــتعلامات الموالية للحكومة بطبع سلسلة من النشرات والمطبوعات التى تشير الى أن الاصـــــلاحات التى ادخلتها الدولة كانت متوافقة ومتمشـــية مع الشريعة . كما أوضحت هيئة الاستعلامات أن الاسلام وغيره من الأديان التوحيدية الأخرى يتسم « بالخلود » وبالتالى « فان الدين هو أمر مختلف تماما عن السياسة . لأن السياسة متقلبة مع الحياة اليومية بينما له طابع الثبات والخلود » .

وكانت مثل هذه البيانات والتصريحات ملعونة من وجهة نظر رجال الدين الراديكاليين وخاصة الخومينى فأدى ذلك الى اشتعال الموقف . اذ تفجرت المظاهرات والمسيرات فى قم وطهران وتبريز ومشهد . وقام جنود المظلات عملاء الســــافاك **Savak** (الشرطة الســـــياسية) بالهجوم على الكليات والمعاهد الدينية المتواجدة فى قم وتبريز . وأشارت التقديرات غير الرسمية الى مقتل المئات على أيدى قوات الأمن . كما ألقى القبض على الخمينى ولكنهم أطلقوا سراحه بعد فترة قصيرة .

وتصاعدت حدة التوتر فى أواخر مايو لدى اقتراب شـــــهر محرم . وفى ٣ يونيو (الموافق ١٠ محرم) القى الخومينى خطابا موجها للمؤمنين هاجم فيه الشاه . وجاء فى هذا الخطاب ما يلى : « أيها الشـاه التعيس البائس ألم يحن الوقت لك لكى تفكر وتتدبر مليا وتسائل نفسك عن المصير الذى تدفعك اليه كل هذه الأمور ؟ » وأشـار فى خطابه الى عدد من العلماء المقيمن فى طهران والذين اقتيدوا الى مكاتب الشرطة السياسية وصدرت لهم الأوامر بألا يقولوا أى كلام يسىء الى الشاه وألا يهاجموا اسرائيل وألا يقولوا ان الاسلام تحدق به الأخطار . ثم أضاف قائلا : « ولكن كل خلافاتنا مع الحكومة تتألف على وجه الدقة من هذه النقاط الثلاثة . هل الشرطة السياسية تريد أن تقول لنا أن الشاه رجل اسرائيلى ؟ » .

وفى اليوم التالى ظهرت نسخ من خطاب الخومينى ملتصقة على حوائط ضريح فاطمة وعلى حوائط معهد فايزة الدينى المجاور لضريح فاطمة بمدينة قم . وتجمع الآلاف لكى يقرأوا ويناقشـوا ذلك الخطاب . وقد أدى هذا الخطاب الى ترســـــيخ أقدام الخومينى كزعيم جرىء له معتقدات راسخة وقوية وكزعيم على اســـتعداد للهجوم على سياسات الشاه وشخصية الشـاه علنا أمام الجماهير وقد حوله هذا الخطات بين يوم وليلة الى بطل قومى بين الجماهير الدينية التى كانت تحتقر الأتوقراطية الملكية ولكنها كانت لا تجرؤ على التعبير عن آرائها أو مشـاعرها .

وألقى القبض على الخمينى فى الساعات المبكرة من يوم ٥ يونيو (أو يوم ١٥ من شهر خورداد وفقا للتقويم الايرانى) . فأدى ذلك الى تفجر مظاهرات معادية للحكومة فى مدينة قم وغيرها من المدن الكبرى الأخرى . وظهرت المشـاعر المناهضة للشـاه التى تراكمت على مدى السنوات العشرة الماضية فى تفجر هائل وفى

عنف لم يسبق له مثيل . فقام الشاه بنفسه بتولى شئون الحكومة ومحاولة السيطرة على التمردات . وأعلن قانون الطوارىء فى المدن الكبرى التى تجتاحها الثورات وأصـــــدر أوامره للدبابات وقوات الجيش بدخول المدن « واطلاق النيران بهدف القتل » . ولم تتمكن قوات الجيش من السيطرة على التمرد الا بعد مرور يومين . وكان بعض كبار العلماء يؤيدون ذلك التمرد ويدعون الناس الى الجهاد ضد حكومة الشاه غير الاسلامية . وتشير الاحصائيات الى أن عشرة آلاف من الثائرين قد قتلوا فى ست من المدن الكبرى .

وبعد أن فرغ الشاه من القضاء على المعارضة خفف بعض الشىء من حدة قبضته الحديدية . اذ أصـــــدر أوامره باحتجاز الخومينى كسجين فى داخل منزله . ثم أصـــــدر تعليمات باجراء انتخابات للمجلس (البرلمان) فى سبتمبر . وعندما وجه الخومينى نداء بمقاطعة الانتخابات تم ايداعه فى السجن مرة أخرى وظل متواجدا بالسجن حتى أبريل ١٩٦٤ .

وسرعان ما تركز انتباه الجماهير على مسألة قرض بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار من أمريكا من أجل شراء أسلحة ومسألة منح حصانة دبلوماسية لمواطنين أمريكيين — بعضهم من العسكريين والبعض الآخر من المدنيين— يعملون فى مشروعات عسكرية بايران . اذ أثار ذلك ذكريات قديمة تتعلق بالامتيازات التى كانت تمنح للدول الأوربية . ونظرا لأن الخومينى كان من أشد المتحمسين للاستقلال الايرانى والسيادة الايرانية فانه وقف فى صلابة شديدة ضـــــد تحول ايران الى دولة خاضعة للسيادة الأمريكية أو لسيادة ونفوذ أى دولة أخرى . وبعد أن استنكر الخومينى هذه التصرفات التى يقوم بها الشاه تم نقله الى تركيا فى نوفمبر ١٩٦٤ . وبعد أن أمضى عاما فى مدينة بورصة Bursa التركية ذهب الى مدينة النجف بالعراق .

وهناك فى مدينة النجف أمضى الخومينى أوقاته فى الصلاة والتعبد وتعليم أتباعه وتوجيه النصح والارشاد لهم . وانتهز فرصة الحج السنوى بمكة المكرمة (فى يناير/فبراير ١٩٧١) لكى يوجه خطابات مفتوحة الى مسلمى ايران والى المسلمين فى جميع أرجاء العالم من خلال مبعوثيه المتمركزين بالنجف . وفيما يتعلق بالاحتفالات التى كان من المقرر أن يقيمها الشاه فى شهر أكتوبر بمناسبة ترسيخ النظام الملكى بايران منذ ٢٥٠٠ عام قال الخومينى محذرا « ان أى شخص يشارك فى هذه الاحتفالات أو يقوم بتنظيمها هو انسان خائن للاسلام وللأمة الايرانية » .

ووجد الخومينى أن الاحتفالات الملكية بمدينة برسبوليس Persepolsi التى كانت ذات يوم عاصمة للأسرة الملكية الحاكمة الأخمينية Achemenian فى يوم ٢٥ أكتوبر ١٩٧١ هى بمثابة فرصة ذهبية له لكى يوجه هجوما على الأنظمة الملكية ، اذ قال : « ان التراث يذكر لنا أن النبى محمدا قال أن لقب ملك الملوك الذى يحمله حاليا ملوك ايران هو أسوأ أنواع الألقاب التى يبغضها الله » وأضاف الخومينى : « ان الاسلام يعارض تماما فكرة النظام الملكى .. فالملكية هى أكثر الظواهر الرجعية اتساما بالخزى والعار » .

وكان النظام الملكى هو أحد الموضوعات التى تناولها الخومينى بطريقة منهجية فى سلسلة المحاضرات التى ألقاها على تلاميذه فى عام ١٩٧٠ والتى نشرت فى السنة التالية تحت عنوان » حكومة الاسلام : ولاية الفقيه » . ويقول الخومينى فى هذه المحاضرات ان مهمة العلماء الدينيين ينبغى الا تقتصر على مجرد تعليم المسلمين ما ينبغى عمله وما لا ينبغى عمله بتلك الطريقة التقليدية ثم الاخلاد الى الانتظار بطريقة سلبية لحين مجىء الامام المختفى . اذ ينبغى

عليهم أيضا العمل على طرد الموظفين الفاسـدين والحكومات الاستبدادية الفاسدة واستبدال حكومات رشيدة بها تعمل تحت قيادة القضاة الصالحين فى القوانين الاسلامية . كما حث الطلبة الذين يدرسون العلوم الدينية فى مدينة النجف وقم ومشهد « على العمل على اثارة جماهير الناس » . وكان الخومينى يطالب بضـرورة اخضاع السلطة السياسية للمفاهيم الاسلامية والمعايير والأهداف الاسلامية ويناشد العلماء الدينيين خلق دولة اسلامية والمشاركة فى الهيئات التشريعية والتنفيذية والقضائية وتقديم برنامج عمل يهدف الى اقامة دولة اسلامية .

ويوضح الخومينى فى كتابه سالف الذكر أن هناك حركة تهدف الى جعل الاسلام مقصورا على مجرد أداء الصلاة والطقوس الدينية والابتعاد عن الايمان الحقيقى . وأشار الى أن الغرب الاستعمارى يشجع هذه الحركة بهدف اضعاف المسلمين ودولهم الاسلامية . وأوضـح الخومينى أنه مادام الاســلام هو أولا وقبل كل شىء القانون الالهى فان الأمر يســتلزم تطبيقه من خلال اقامة دولة اسلامية . فالدولة الاسلامية هى فقط التى تستطيع أن تحصل الضرائب الاسلامية مثل : ضريبة الأخماس والزكاة والتى تستطيع أن تنفق الأموال التى تم تحصيلها فى أمانة على الفقراء والمحتاجين من أفراد المجتمع . وهى فقط التى تستطيع تنفيذ التعاليم الاسلامية فيما يتعلق بالواجبات الملقاة على عاتق المؤمن ومعاقبة المنتهكين المخالفين للتعاليم الاسلامية . وأشار فى كتاباته الى أن : « من الأمور المنطقية أنه ينبغى أن تكون هناك حكومة تقوم بمهمة تنفيذ القوانين الاسلامية ووضعها موضع التنفيذ وتطبيق كافة الاجراءات الاسلامية تطبيقا كاملا » .

والحكومة الاسلامية تتطلب حاكما اسلاميا . وجميع المسلمين يتفقون فى الرأى على أن الحاكم الاسلامى ينبغى أن يكون فقيها

عادلا . وينبغى على الفقيه ان يكون دارسا للشريعة بكل دقة وأن يلتزم بالعدل المطلق أثناء التطبيق العملى . وطبقا لمعتقدات الشيعة فقهاء عادلين لأنهم يمتلكون هذه المؤهلات . بل أنهم أكثر من مجرد فقهاء عادلون لأنهم آدميون متفوقون ومعصومون من الخطأ .

وفى غياب الامام — الذى ظل متغيبا على مدى القرون السبعة الماضية — فانه ينبغى على المسلمين العثور على بديل لكى يتجنبوا العيش فى فوضى أو تحت نفوذ وسيطرة حكومة أجنبية ملحدة . وذلك وفقا لآراء الخومينى . كما يذهب الخومينى الى أنه على الرغم من أن الفقيه العادل تنقصه صفة المعصومية من الخطأ التى يتميز بها الامام فانه مع ذلك مؤهل لأن يقود دولة اسلامية . وهو ينبغى أن يساعده رجال ضالعون فى القانون على كافة المستويات التشريعية والتنفيذية والقضائية . ومهمة البرلمان المنتخب من الجماهير هى العمل على حل الصراعات التى يحتمل أن تنشأ أثناء تطبيق النظريات الاسلامية . وهو يعتقد أن الشئون الادارية ينبغى أن تنفذ بمعرفة موظفين مدنيين على دراية بالقوانين التى تتعلق بالوظائف المحددة الخاصة بهم . وعلى كل حال فان المهام القانونية ينبغى ألا يضطلع بها سوى رجال ضالعين فى الشريعة . ومثل هؤلاء الرجال الضالعين فى الشريعة ينبغى عليهم ايضا أن يشرفوا على الجهاز التنفيذى والتشريعى . فالاشراف العام على البرلمان والسلطة القضائية ينبغى أن يتم بمعرفة الفقيه العادل الذى يجب عليه أيضا أن يتأكد من أن السلطة التنفيذية لا تتجاوز السلطات المخولة لها . وأخيرا مادام الهدف الرئيسى من وراء اقامة حكومة اسلامية هو تلبية احتياجات الجماهير فان الضالعين فى القانون ينبغى أن يتأكدوا من عدم تركيز الثروة فى أيدى قلة من الناس من خلال استغلالهم لجماهير الشعب والموارد الطبيعية .

أن ولاية الفقيه بمثابة حكم القانون الالهى على النحو الذى فسره وطبقه الفقيه العادل . ونظرا لأنه لا يحكم وفقا للارادة الخاصة به فان الأسلوب لا يكون ديكتاتوريا .

ونظرا لأن الخومينى ينظر الى الشعب على أنه قوة سياسية فان النظام يمكن أن يوصف بأنه نظام جمهورى ولكنه مصوغ فى اطار اسلامى . وفى هذا الصدد كتب ما يلى : « ان أعظم حركات الاصلاح فى التاريخ لم تكن تمتلك القوة أثناء البدايات الأولى لها . ولكن كوادر الحركة الاصلاحية تقوم باثارة انتباه الناس نحو الظلم المتواجد وتنبهم الى الأخطار التى تنجم عن حكم الطغاة وبعدئذ يصبح الناس أنفسهم هم القوة الفعالة التى تكتسح كافة العقبات التى تعترض سبيلهم » .

ومما يجعل آراء الخومينى جذابة لدى جميع المسلمين هو أنها بسيطة ومباشرة وخالية من التأثيرات غير الاسلامية . فهى مستوحاة من المبادىء الأساسية للاسلام بالاضافة الى انها تتجنب الجدل الدينى المعقد الذى يصيب معظم الناس بالحيرة والارتباك . والى جانب ذلك فهى كما أشار سامى زبيد وهو أخصائى بريطانى فى علم الاجتماع الاسلامى : « أفكار يتم تناولها ومناقشتها فى اطار تقليدى وبدون الاشارة الى أية أفكار سياسية أو أيديولوجية غربية أو موحية بأنها غربية . اذ لا توجد اشارة الى مصطلحات مثل القومية أو الديموقراطية أو الاشتراكية .

وقد أحدث كتاب الخومينى آثارا مدمرة على الحكم البهلوى بعد مرور بضع سنوات . وعلى كل حال فقد كان الشاه فى عام ١٩٧١ منهمكا فى تقويض نفوذ رجال الدين التقليديين وتغييرهم بمجموعة جديدة من نتاج المؤسسات التابعة لحكومته .

وفى نفس الوقت اتبع الشاه سياسة بث بذور الشقاق بين العلماء الدينيين من خلال استخدام الرشاوى ومعاقبة أولئك الذين يرفضون التعاون معه . وفى أواخر عام ١٩٧٣ قام بنفى ٤٠ من رجال الدين البارزين وابعادهم الى أماكن نائية ومهجورة من ايران كعقاب لهم على تعاطفهم مع الخومينى . الا أن كل هذه الأعمال لم تحدث أى تأثير على الطابع الدينى التقليدى لجماهير الشعب الايرانى . وعلى كل حال فان فاشستية الشاه وقمعه للعلماء الدينيين واندفاعه فى اضفاء الطابع العصرى الحديث على ايران قد أسفر عن زيادة تمسك جماهير الشعب الايرانى بدينهم . وليس أدله على ذلك من الزيادة الهائلة فى أعداد الحجاج الى ضريح الامام على رضا بمدينة مشهد . ففى عام ١٩٦٤ استقبلت مشهد ٢٢٠ ألفا من الحجاج وارتفع الرقم بعد عشر سنوات الى ٣ر٢ مليون من الحجاج . وفى دولة يبلغ عدد سكانها ٣٠ مليون نسمة أى حوالى ٦ ملايين أسرة فان هذا كان يعنى أن كل أسرة ترسل حاجا واحدا منها مرة كل عامين .

وزاد الشاه من ضغوطه على العلماء الدينيين اذ تم فرض الحظر على طبع الكتب والمطبوعات والنشرات الخاصة بهم عندما أصدرت الحكومة أوامرها بعدم طبع مطبوعات لهيئة الأوقاف . كما قام عملاء حزب البستاخيز Bastakhiz (بمعنى : الانبعاث الجديد) وهو الحزب الوحيد الحاكم المتكون فى مارس ١٩٥٧ بفحص حسابات الأوقاف الدينية التى تدار بمعرفة العلماء . وكل هذا قد سار جنبا الى جنب مع محاولات حكومة حزب البستاخيز الرامية الى اظهار الشاه على أنه ليس فقط زعيما سياسيا وانما أيضا زعيم روحى . بل الأكثر من ذلك أن الحكومة أدخلت التقويم السنوى الملكى الذى يرجع الى أسرة أخيمين الملكية الحاكمة فى فترة ما قبل الاسلام بمناسبة انقضاء نصف قرن على حكم أسرة

بهلوى الملكية بحلول ٢٤ أبريل ١٩٧٦ . ونظرا لأن هذا التقويم منفصل عن التراث الاسلامى فقد استقبله العلماء بعداء شديد . حيث هاجم حجة الاسلام أبو الحسن شمسبارى — وهو من مدينة أصفهان — هذا التقويم علنا أمام الجماهير . وبعد أيام قليلة تم اغتياله .

وخلال خريف عام ١٩٧٦ قال جيمى كارتر مرشـح الحزب الديموقراطى فى انتخابات الرياسة الأمريكية أن ايران هى احدى الدول الكبيرة التى ينبغى أن تؤدى لها أمريكا المزيد من المساندة من أجل حماية الحريات المدنية والانسانية . وبعد أن تولى كارتر الرئاسة فى أمريكا فى يناير ١٩٧٧ فانه بادر الى الاهتمام بالحقوق الانسانية على أساس أنها جزء لا يتجزأ من سياسته الخارجية مشيرا الى أن الدول التى تنتهك الحقوق الانسانية ستحرم من الحصول على الأسلحة أو المساعدات الأمريكية أو تحرم منهما معا . ومثل هذه التصريحات قد هيأت الجو لحدوث تغييرات ثورية فى ايران .

وبدأت أعمال تخفيف القيود فى فبراير ١٩٧٧ باطلاق سراح ٣٥٧ من المسجونين السياسيين ثم بلغت هذه الأعمال ذروتها فى خلال فصل الصيف . وكان كل تنازل واذعان من جانب الشاه يجلب المزيد من المطالب من جانب المعارضة . وأصبحت الطبقات الاجتماعية المتوسطة سواء كانت حديثة أو تقليدية أكثر نشاطا ولكن بطرق ووسائل مختلفة . اذ راح الكتاب والأكاديميون ورجال السياسة والمحامون بل القضاة يوجهون خطابات مفتوحة للحاكم البهلوى فى حين راح التجار وأصحاب المحلات الصغيرة وطلبة المدارس والمعاهد الدينية يلجأون للوسائل العنيفة : مثل السير فى المواكب وتنظيم الاضرابات والمظاهرات علاوة على الاصطدام برجال الشرطة . ونظرا لقرب الطبقة الاجتماعية المتوسطة

التقليدية سياسيا وجغرافيا من الفقراء الحضريين فانهم كانوا يقدمون التوجيهات للطبقة الفقيرة الحضرية مما أسفر فى نهاية الأمر عن اتخاذ الشعار الثورى : « الموت للشاه » مع التشبث بذلك الشعار على الدوام . ومن المؤكد أن مطالب الجماهير كان يتم التنسيق لها من الخارج بمعرفة الخومينى .

وظلت العملية الثورية فى تصاعد عبر مراحل عديدة على مدى عامين من فبراير ١٩٧٧ حتى ١١ فبراير ١٩٧٩ .

وكان الخومينى — من خلال ميوله والتدريبات التى تلقاها — أستاذا ومعلما فى النواحى الدينية وليس سياسيا . وهو بالتأكيد لم يكن ثوريا ولا طالبا متمردا خطيرا . وعلى الرغم من عدم معرفته بديناميكيات الثورات فانه سرعان ما أدرك القوة الثورية الدافعة الكامنة وراء الاحتجاج الذى بدأ فى أوائل عام ١٩٧٧ . واستخدم فى ذكاء التاريخ الاسلامى والقومية الايرانية بهدف خلق نضال عسكرى ضد الأسرة الملكية . واعتمد اعتمادا كبيرا على الاسلام والعادات والأعياد الاسلامية من أجل تنشيط الحركة الثورية وتدمير الأسرة الحاكمة البهلوية . وكان أسلوب حياته الاسبرطى الملىء بالشجاعة والجلد والصبر سببا فى ازدياد شعبيته بين جماهير الناس الذين سئموا من رجال السياسة الفاسدين الغارقين فى الرفاهية والترف . وكان عميق التدين فمنحه ذلك السلطة الروحية التى يفتقدها الزعماء العلمانيون . هذا بالاضافة الى أن رسالته الى الشعب كانت تتسم بالوضوح الشديد والبساطة .

وكانت المرحلة من يوليو الى ٨ سبتمبر ١٩٧٨ هى أهم المراحل الحاسمة فى الحركة الثورية . اذ بدأت احتجاجات الطبقة العاملة فى رفق فى يونيو ثم اشتدت فى شهر سبتمبر . وعبرت عن نفسها فى شكل اضراب عن العمل علاوة على المشاركة فى المظاهرات

التى تم التوسع فيها عن المظاهرات السابقة . وفى ٢٢ يوليو انضم عشرات الآلاف من العمال الى موكب جنازة أقيمت لرجل دين من مدينة مشهد قتل فى حادث سيارة . وأعقب ذلك قيام الشرطة باطلاق النيران مما أسفر عن مقتل ٤٠ شخصا على الأقل . وفى ٧ سبتمبر مشى ½ مليون شخص فى مسيرة شعبية من شمال طهران الى المجلس (البرلمان) المتواجد فى قلب طهران مرددين هتافات : « الموت للشاه » «الخومينى زعيمنا» « نريد حكومة اسلامية » . وفى اليوم التالى الموافق يوم الجمعة تعرض المتظاهرون لمذبحة فى ميدان جالبه Jaleh بطهران على أيدى قوات الجيش مما أسفر عن استشهاد ٤٠٠٠ قتيل . وكان ذلك الحادث هو الذى حدد مصير الشاه .

وكان آية الله الخومينى يتميز بالحكمة لأنه تمكن من توحيد كافة القوى المتباينة المتفاوتة فى الرأى تحت أهم مطلب راديكالى : ألا وهو الغاء الملكية فى ايران . اذ أبقى على التحالف بين قوى الشعب وتوجيه كافة الناس الى تحالف مناهض للشاه مع الالتزام بالصمت ازاء القضايا التى تثير الخلافات فى الرأى والجدل مثل : الديموقراطية والاصلاح الزراعى ودور العلماء الدينيين بالنسبة لمستقبل الجمهورية الاسلامية ومثل وضع المرأة وغير ذلك من أمور . وكان يحيى الآمال بالتحرر والتقدم بين طبقات المجتمع المختلفة المتباينة . فالطبقة المتوسطة التقليدية قد رأت فى الخومينى نصيرا للملكية الخاصة ومدافعا عن صغار التجار ومؤمنا بالقيم الاسلامية والطبقة المتوسطة العصرية الحديثة قد رأت فى الخومينى رجلا وطنيا راديكاليا متمسكا بالبرنامج الذى سبق أن نادى به الدكتور مصدق من قبل : ألا وهو القضاء على الديكتاتورية الملكية والنفوذ الأجنبى فى ايران . وطبقة العمال الحضرية كانت تساند وتؤيد الخومينى بسبب التزامه بالعدالة الاجتماعية التى لا يمكن أن تتحقق

الا من خلال نقل السلطة والثروة من الموسرين الى المحتاجين .. واخيرا كان الفقراء الريفيون يرون فى آية الله الخومينى المنقذ لهم : فهو الرجل الذى سيقدم لهم الأراضى الصالحة للزراعة ووسائل الرى والطرق والمدارس والكهرباء .

وحقيقة الأمر أن الخومينى فعل أمورا أخرى أكثر من مجرد توحيد قوى الشعب فى حركة مناهضة للشاه . اذ أنه عمل على خلق غليان شعبى متصاعد ومستمر ودفعه الى موجات عالية وذلك من خلال تحويل مواكب عاشوراء التقليدية الى مظاهرات لصالح الثورة .

ومن انجازاته العظيمة أيضا العمل على تحييد قوات الشاه البالغ عددها ٤٤٠ الف مقاتل . وكان الخومينى مدركا للاستراتيجية التى تتبعها منظمة « مجاهدين خلق » الاسلامية الماركسية وكذلك منظمة « فدائيين خلق » الماركسية اللينينية : يقوم الفدائيون بالهجوم على أهداف معينة بهدف تشجيع الحكومة على القيام بالمزيد من مع القمع مما يؤدى بالتالى الى اثارة جماهير الناس ودفعهم الى المشاركة فى كفاح مسلح ضد الحكومة . وقد اعترض الخومينى على هذه الاستراتيجية وأشار الى أن جماهير الناس اذا شنت هجوما مسلحا ضد القوات العسكرية الحكومية فان ذلك من شأنه أن يخلق سلسلة من الانتقامات والأخذ بالثأر . اذ أن سفك الدماء سيدفع الجيش الى الوقوف فى صالح أسرة الشاه . ولذلك اختار الخومينى استراتيجية « الهجوم المعنوى » على الجيش . وقال « ينبغى علينا أن نحارب الجيش من الداخل ، ينبغى أن نحارب من داخل قلوب وأفئدة الجنود . ويجب أن نواجه الجندى بزهرة . يجب أن نقاتل من خلال الاستشهاد لأن الشهيد هو جوهر التاريخ . ولندع الجيش يقتل الأعداد التى يريد قتلها كما يحلو له الى أن يصاب الجنود بصدمة هائلة من جراء المذابح

التى ارتكبوها . وعندئذ فقط سيصاب الجيش بالانهيار وبذلك يمكن لكم أن تنزعوا سلاح الجيش » . وهذه النصيحة قد تلاءمت تماما مع « عقدة الشهيد » التى تكمن فى أعماق سيكولوجية الشيعة الايرانيين . وفى نفس الوقت حاول الخومينى أن يثنى الجنود عن اطلاق الرصاص على أفراد الشعب موضحا لهم أنهم اذا قاموا باطلاق النيران على اخوتهم واخواتهم « فانهم يكونون بذلك قد أطلقوا النيران على القرآن الكريم » ونظرا لأن هذه الكلمات قد صدرت عن آية الله الخومينى الذى هو « مرجع التقليد » ونظرا لأن معظم الجنود من الشيعة فانها كان لها تأثير فعال . وخلاصة القول أن الخومينى قد ابتكر تكتيكات ثورية تنبع من البيئة الثقافية الدينية لايران الشيعية ومن ثم تقبلها الناس بدون تردد وعلى نحو فعال .

ولقد لعب المسجد دورا حاسما فى الثورة . حيث كان يستخدم كمعهد دينى ومكان للصلاة وعقد الاجتماعات . ونظرا لأن الدولة قد اعتادت على عدم التدخل فى الأنشطة التى تتم فى داخل المساجد العلماء الدينيين على انشاء لجان ثورية محلية بالمساجد . وقد استفاد الخومينى من ذلك أعظم استفادة . كما حث الخومينى العلماء الدينيين على انشاء لجان ثورية محلية بالمساجد . وقد ثبت أن هذه اللجان كانت حيوية ومهمة وفعالة للغاية خلال الشهور الأخيرة الحاسمة من الحركة الثورية . اذ تولت هذه اللجان الشئون الادارية واحتلت مراكز الشرطة عقب رحيل الشاه فى ١٦ يناير ١٩٧٩ كما أحكمت من قبضتها عقب قيام الخومينى بطرد رئيس الوزراء الذى كان معينا من قبل الشاه والذى يسمى شهبور بختيار فى ١١ فبراير .

بزوغ الدولة الاسلامية والمجتمع الاسلامى :

وعقب عودة الخومينى من المنفى الى ايران فى أول فبراير ١٩٧٩ قام على الفور بتفكيك الدولة العلمانية التى ورثها وانشاء دولة اسلامية . ففى فبراير قام الخومينى بتعيين المهدى بزرجان Mahdi Bazargan — وهو رجل علمانى ورع يتمتع بالاحترام الشديد فى جميع أرجاء البلاد وتم ايداعه فى السجن مرات عديدة أثناء حكومة الشاه — فى منصب رئيس الوزراء فى الحكومة الاسلامية المؤقتة . وأصدر الخومينى تعليمات اليه « بأن يعمل على تغيير النظام السياسى للبلاد الى جمهورية اسلامية » . وقد استمد الخومينى سلطته من دستور السبع عشرة نقطة الذى تمت الموافقة عليه من خلال التصفيق الحاد من جانب اجتماع جماهيرى يضم مليونى مواطن عقد فى طهران فى عاشوراء يوم ١١ ديسمبر ١٩٧٨ وهو الدستور الذى نادى بالقضاء على النظام الملكى والموافقة على اختيار الخومينى زعيما على البلاد بالاضافة الى انشاء حكومة اسلامية .

وكان قد تحدد يوما ٢٩ مارس و ٣٠ مارس لاجراء استفتاء حول مسألة « هل ينبغى أن تصبح ايران جمهورية اسلامية ؟ » . ولكى يشتمل الاستفتاء على الشباب الايرانى الذين شاركوا فى حماسة فى الحركة الثورية وحتى يمكن ادخالهم فى هذه الاجراءات السياسية قامت الحكومة بتخفيض سن التصويت من ١٨ عاما الى ١٦ عاما . وأشارت التقديرات الرسمية الى أن نسبة من ذهبوا للادلاء بأصواتهم وصلت الى ٨٩٪ وهى نسبة عالية للغاية لم تتحقق من قبل . وأن نسبة من صوتوا لصالح اقامة حكومة اسلامية وصلت الى ٩٨ر٢٪ وهى تعكس أصوات ١٠٢٥١٠٠٠ من الناخبين الذين

قالوا « نعم » . فأعلن الخومينى أن يوم أول أبريل « هو اليوم الأول لحكومة الله » .

وكانت حكومة بزرجان تعمل فى خط متواز مع « المجلس الثورى الاسلامى » الذى كان الخومينى قد شكله (أثناء تواجده بالمنفى) فى يوم ١٣ يناير ١٩٧٩ والذى تم تكليفه بعقد مؤتمر جماهيرى لوضع دستور للجمهورية الاسلامية واجراء انتخابات ونقل السلطة الى النواب المنتخبين .

والجدير بالذكر أن الخومينى كان يعتقد أن الانتخابات والحكومة النيابية هى من صميم الأسلوب السياسى الاسلامى وذلك على النقيض تماما من موقف الملوك بالمملكة العربية السعودية .

وأثناء الغليان الثورى كان مساعدو الخومينى قد بذلوا جهودا خاصة ترمى الى التقليل من أهمية كتابه الصادر تحت عنوان « الحكومة الاسلامية : ولاية فقيه » . اذ كانوا يرون أن نشر أفكار محددة مما يدور فى ذهن الخومينى عن ايران فى فترة ما بعد النظام الملكى البهلوى من شأنه أن يدمر وحدة القوى المتباينة المناهضة للشاه والتى كان قد صاغها بجهوده الكبيرة .

وحقيقة الأمر أن مشروع الدستور الذى تسرب الى الصحافة بمعرفة المجلس الثورى الاسلامى فى أواخر ابريل لم يكن مشتملا على المفهوم الذهنى لولاية الفقيه أو حكم القاضى العادل . بل حتى ذلك الحين كانت وثيقة مشروع الدستور تثير الكثير من الجدل والخلافات فى الرأى . اذ عارض بعض قادة رجال الدين فكرة التدخل المباشر من جانب العلماء الدينيين فى ادارة شئون الحكومة اليومية على النحو الوارد فى مشروع الدستور . وكان من أبرز

هؤلاء القادة الدينيين : آية الله محمد كاظم شريعتمدارى وهو من كبار رجال الدين فى مدينة قم المقدسة . كما كانت هناك احتجاجات أيضا من جانب قادة وزعماء الأقليات العرقية مثل الأكراد والعرب والتركمان والبلوش Baluch الذين كانوا يريدون المزيد من النفوذ والسلطات للمناطق التى لا يتكلم سكانها اللغة الايرانية . ودرجة التفاوت تلك قد سببت احباطا للخومينى الذى كان يتوقع أن تتم الأمور بشكل سلس وسهل . كما أن المشـــروع الثانى للدستور الذى نشر رسميا فى ١٨ يونيو قد فشل فى ارضاء النقاد .. اذ أراد الاسلاميون الراديكاليون واليساريون العلمانيون ادخال تعديلات كبيرة عليه . وازاء هذه المواقف القلقة قرر زعماء الحزب الجمهورى الاسلامى IRP الذى هو بمثابة القوة الخومينية الرئيسية تجنب مناقشة نظرية « ولاية الفقيه » خلال المناقشات التى تدور حول الدستور . الا أن هذا لم يكن يعنى أنهم قد ألغوا هذه الفكرة تماما .

ووجد قادة الحزب الجمهورى الاســـــلامى أن نتيجة اختيار اللجنة المكونة من ٧٣ خبيرا فى يوم ٣ أغسطس وهى اللجنة المكلفة بعمل مراجعة على مشروع الدستور كانت مشـــجعة للغاية . فباستثناء المندوبين الثلاثة الذين يمثلون الأقليات الدينية (المسيحيين واليهود والزراديشت) بالاضافة الى مندوب واحد آخر غير كفء فان هذه اللجنة كانت تضم ٦٩ من الأعضاء المسلمين من بينهم ٤٥ من رجال الدين و ٣٦ منهم اما أعضاء فى الحزب الجمهورى الاسلامى واما متحالفون معه . ومن بين الـ ٢٤ العلمانيين المسلمين كان يوجد ١١ منهم ينتمون للحزب الجمهورى الاســـلامى أو الى احدى المجموعات المتحالفة معه . أما معظم باقى الخبراء فكانوا من المستقلين . وهكذا نرى أن الحزب الجمهورى الاســـــلامى والمتحالفين معه كانوا يشكلون غالبية بنسبة ⅔ من العدد الكلى وهى النسبة اللازمة لاصدار رأى بشأن بنود الدستور .

وبحلول الوقت الذى اجتمعت فيه اللجنة فى ١٨ أغسطس كانت هناك حملة منظمة يقوم بها العلماء الدينيون الاقليميون من أجل تضمين نظرية « ولاية الفقيه » فى الدستور . وساند هذه الفكرة كل من آية الله حسين على منتظرى رئيس اللجنة وآية الله محمد الحسينى بحشتى Beheshti نائب رئيس اللجنة . وقام بحشتى الذى يشغل منصب سكرتير عام الحزب الجمهورى الاسلامى بالدور الرئيسى فى مراجعة الفقرات الحاسمة المهمة الواردة بالدستور والتخطيط لها .

وأدى ادخال نظرية « ولاية الفقيه » فى الدستور الى حدوث جدل ومنازعات وخلافات فى الرأى فى داخل اللجنة وخارجها . وأشار آية الله الى أن المفهوم الذهنى عن « ولاية الفقيه » مثير للجدل والخلاف حيث يقوم بعض رجال الدين بتفسيره تفسيرا ضيقا على أساس أنه بمثابة الوصاية على الأرمل والقاصر الذى لم يبلغ سن الرشد بينما آخرون (مثل الخومينى) يفسرونه بالمعنى السياسى الواسع ولذلك ينبغى عدم تضمينه فى الدستور . كما أشار يد الله شهابى وهو عضو علمانى الى أن الفقيه يتوقع له أن يكون ضليعا ليس فقط فى العلوم الدينية والشريعة ولكن أيضا فى العلوم السياسية والاقتصادية والشئون الادارية وشئون المجتمع اليومية . وأشار الى انه « ربما يكون بالمستطاع العثور على فقيه له هذه الصفات وتلك المميزات ولكن نجد بوجه عام أن الوسائل التى يتم من خلالها تدريب الفقيه ليست من نوع الوسائل التى تهدف الى غرس مثل هذه الصفات والمميزات . وأشار عضو علمانى آخر الى أنه فى حين أن الخومينى كان مؤهلا لأن يكون هو الفقيه طوال فترة حياته فانه بسبب شخصيته الممتازة وصفاته السامية فانه لا يوجد هناك ما يؤكد لنا أن الخليفة الذى سيجىء بعده سيكون مضاهيا ومتساويا معه . وهذه النقطة قد وجهت بنجاح عندما اتخذت اللجنة مادة تشير الى أن قيادة المجلس

ينبغى أن تتكون من ثلاثة أو خمسة أعضاء نظرا لأن قائدا واحدا لا يمكن له « الحصول على الاعتراف من جانب غالبية جماهير الناس » .

ولكن غالبية الخبراء الذين فضلوا « ولاية الفقيه » كانوا ينظرون الى هذه القضية على أنها هى المحور الرئيسى للسياسة الاســـــلامية وعلى أنها ضــــــرورية تماما لضمان تنفيذ القوانين الاسلامية مع اضفاء الطابع الشرعى على رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والبرلمان . وفى هذا الصدد قال منتظرى « ان الحكومة لن تكون اسلامية الا اذا كان رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ووزير العدل من القضاة أو من المؤيدين من جانب الفقيه والواقعين تحت اشراف الفقيه » والموقف بالنسبة لنظرية « ولاية الفقيه » قد لخصــــه لنا حجة الاســــلام الحسين طاهرى خورامابادى على النحو الآتى : « لقد عهدنا بمنصب نائب الرئيس الى فقيه عادل من أجل أن تصبح حكومتنا اسلامية ولكى ينظر المسلمون الى أنفسهم على أنهم مسئولين أمام الحكومة ولكى ينظروا الى الأوامر الحكومية على أنها أوامر الهية وبالتالى فهى أوامر شرعية وملزمة » .

وعندما تسرب الجدل والخلافات فى الرأى من أبواب اللجنة الى الخارج تدخل الخومينى بأن ألقى خطابا جماهيريا فى ٢٢ اكتوبر جاء فيه « أن ولاية الفقيه ليس شيئا من ابتكار واختراع خبراء اللجنة وانما هى شىء قد أمر به الله » فأدى كلامه هذا الى حسم الأمر بشكل نهائى .

وتألف الدستور من ١٢ فصلا و١٧٥ مادة وتم استكماله فى ١٥ نوفمبر . وبعدئذ طرح لكى يتم التصويت عليه يومى ٢ ديسمبر و ٣ ديسمبر . وطبقا لما أوردته المصادر الرسمية فانه قد تمت

الموافقة عليه بنسبة ٩٩½٪ من مجموع الأصوات البالغ عددها ١٥٧٨٥٩٥٦ .

والجدير بالذكر أن واضعى الدستور قد أذعنوا لمطالب الأكراد والبلوش والعرب من السنيين بألا يتم الاعتراف رسميا بأية طوائف شيعية تدعى أنها مساوية للمذهب الشيعى الاثنا عشرى . اذ نصت المادة رقم ١٢ على ما يلى : « الدين الرسمى لايران هو الاسلام ومدرسة الفكر بايران هى مدرسة الاثنا عشر الجعفرية وسوف يظل هذا الوضع ثابتا الى الأبد وغير قابل للتغيير . أما مدارس الفكر الاسلامية الأخرى بما فى ذلك المذهب الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى والزيدى فهى تلقى كل التقدير والاحترام واتباع هذه المذاهب لهم الحرية الكاملة فى التصرف وفق التشريعات الخاصة بهم وتأدية العبادات والصلوات الخاصة بهم . وهذه المدارس الفكرية تتمتع بالاعتراف الرسمى بالتعليم الدينى الخاص بها وبالأحوال الشخصية التى تتعلق بها (مثل الزواج والطلاق والميراث والتوريث بالوصية) » .

وتشير المادة رقم ٥ الى أنه نظرا لاحتجاب حضرة والى العصر (وهو الامام الغائب الثانى عشر) « فان قيادة الأمة تؤول الى الفقيه العادل الورع التقى الذى يعرف ظروف العصر الذى يعيش فيه والذى يتميز بالاقدام والشجاعة والذى يتميز بأنه فطن وواسع الحيلة وذو مقدرة عالية فى النواحى الادارية والذى يكون مقبولا ومعترفا به كزعيم من جانب غالبية جماهير الشعب » . وقد وردت بالبند رقم ١٠ قائمة بالواجبات والسلطات الخاصة بالزعيم . فهو بصفته قائدا أعلى للقوات المسلحة ورئيسا للمجلس الأعلى للدفاع الوطنى تكون له سلطة تعيين أو طرد رئيس الأركان العامة وقادة الفروع الثلاثة الحربية بالاضافة الى قادة فيالق الحرس

الثورى كما تكون له سلطة اعلان الحرب أو السلام « بناء على توصية صادرة عن المجلس الأعلى للدفاع الوطنى » .

كما تكون له سلطة التصديق على المرشحين للرياسة بالاضافة الى تعيين الرئيس لدى انتخابه أو طرده اذا أقنعه المجلس الأعلى « بأنه فشل فى تحقيق الواجبات القانونية » أو اذا أقر المجلس الاستشارى الوطنى « بأنه تنقصه الكفاءة اللازمة » . وقصارى القول أن الزعيم يجمع بين الذى يقوم به رئيس الدولة والدور الذى يقوم به رئيس العدالة .

والاجراءات التى تتخذ للعثور على خليفة أو خلفاء للخومينى الذى وصف فى المادة رقم ١ بأنه « آية الله الكبير الامام الخومينى » قد وردت فى المادة رقم ١٠٧ على النحو التالى « الخبراء الذين يختارون بمعرفة ارادة الشعب سوف يقومون بدراســـة وتفحص أولئك الذين لهم مميزات بارزة والذين هم مؤهلون للقيادة ، ولدى العثور على زعيم سيتم تقديمه للشعب على أنه الزعيم . واذا تعذر ذلك فسيقوم مجلس القيادة العليا بتعيين ثلاثة أو خمسة من المرشحين وتقديمهم للناس » .

وفيما يتعلق بالسيادة وهو موضوع أثار الكثير من الجدل فى عام ١٩٠٦ فقد جاء بالمادة ٥٦ من الدســـتور الاســلامى ما يلى : « السيادة المطلقة على العالم والانسان هى لله وحده . والله هو الذى جعل الانسان مسئولا عن مصيره الاجتماعى . ولا أحد بمقدوره أن يحرم الانسان من هذا الحق الذى منحه الله للانسان أو يخضع هذا الحق لمصلحة فرد معين أو مجموعة معينة من الناس » . ولكن كيف يعبر الناس عن سيادتهم ؟ ان المادة رقم ٦ تنص على الآتى : « ان شئون البلاد ينبغى أن تدار وفقا للرأى العام الذى يتم التعبير عنه من خلال الانتخابات التى تجرى لاختيار رئيس الجمهورية ومن

خلال نواب المجلس الاستشارى الوطنى وأعضاء المجالس أو من خلال الاستفتاءات الشعبية على الأمور التى تم تحديدها فى مواد الدستور » .

وبعد أن نصت المادة ٥٧ على أن السلطات التى تنجم عن الحق فى السيادة الوطنية هى : السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية فانها تضيف موضحة أن « هذه السلطات الثلاثة مستقلة عن بعضها البعض وأن رئيس الجمهورية هو الذى سيضمن الربط بين هذه السلطات الثلاث » .

وتشير المادة رقم ١١٣ الى أن أهم شخصية — بعد شخصية الزعيم — هى شخصية الرئيس « فهو المسئول عن تنفيذ مواد الدستور وتنسيق العلاقة بين السلطات الثلاث وهو الذى يرأس السلطة التنفيذية باستثناء الأمور التى تتعلق بالزعامة مباشرة » . والرئيس بعد أن يتم انتخابه بأغلبية مطلقة من الناخبين يصبح هو الرئيس التنفيذى الذى يوقع على القوانين التى يصدرها المجلس (البرلمان) ويقوم بتنفيذ تلك القوانين . والرئيس ينبغى أن يكون من رجال الشيعة المسلمين . ويقوم الرئيس بترشيح نائب عنه من الشيعة المسلمين لكى يشغل منصب رئيس الوزراء وبمجرد أن يحصل ذلك المرشح على موافقة المجلس (البرلمان) فانه يقوم بحلف اليمين . والرئيس هو الذى يوافق على أعضاء الوزارة الذين يقترح رئيس الوزراء أسماءهم وذلك قبل أن يتم عرض تلك الأسماء على المجلس (البرلمان) من أجل التصويت على منحها الثقة .

ومن أجل ضمان عدم حدوث تناقض بين قرارات المجلس (البرلمان) والقوانين الاسلامية والدستور فان المادة رقم ٩١ قد نصت على انشاء « مجلس الأوصياء » الذى يضم ١٢ عضوا :

٦ من القضـــــاة العادلين الاســــــلاميين الذين على وعى ودراية بالاحتياجات السائدة ومسائل العصر الجارية يتم اختيارهم بمعرفة الزعيم أو بمعرفة مجلس الزعامة

و ٦ من المحامين متخصصين فى جميع فروع القـــــانون يتم انتخابهم بمعرفة المجلس الاستشارى الوطنى من بين المحاميين المسلمين الذين تقدم أسماؤهم بمعرفة مجلس القضاء الأعلى » .

وفترة مجلس الأوصياء هى ست سنوات اما فترة المجلس فهى أربع سنوات . وينبغى على المجلس أن يرســـــل كافة القوانين والتنظيمات الخاصة به الى مجلس الأوصياء لكى يقوم اعضاؤه الـــ ١٢ بفحصها ودراستها لمعرفة مدى توافقها مع المبادىء العامة للدستور .

وأحد « المبادىء العامة » الأربعة عشرة الواردة بالفصل الأول من الدستور تتناول النظام المتعدد الطبقات الخاص بالحكومة . اذ تنص المادة قم ٧ على أنه « وفقا للأوامر القرآنية الواردة فى الآية :

« **وشاورهم فى الأمر** » ســـورة آل عمران آية رقم ١٥٩ . والآية «**وأمرهم شورى بينهم** » سورة الشورى آية رقم ٣٨ فان المجالس والهيئات الاستشارية ـــ مثل المجلس الاستشارى الوطنى والمجالس الاقليمية ومجالس البلديات ومجالس المدن ومجـــالس الأحياء والاقسام ومجالس القرى تنتمى للهيئات الادارية صانعة القرارات والمتواجدة بالبلاد .

وبالنسبة للسلطة القضائية فان مجلس القضاء الأعلى هو أعلى هيئة قضائية . والمحكمة العليا ينبغى أن تنشأ وفقا لأسس المستويات والمعايير التى أرساها مجلس القضاء الأعلى . وينبغى أن يكون رئيس المحكمة العليا وكذلك المدعى العام من بين المجتهدين

اى من بين الممارسين للاجتهاد وينبغى أن يتم تعيينهما بمعرفة الزعيم مع استشارة قضاة المحكمة العليا . أما وزير العدل فينبغى أن يتم اختياره بمعرفة رئيس الوزراء من ضمن قائمة بأسماء مقدمة عن طريق مجلس القضاء الأعلى وبعدئذ ينبغى على وزير العدل أن يكون مسئولا عن « كافة المشاكل التى تتعلق بالعلاقات بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية » . ومن بين المهام البالغة الأهمية التى تضطلع بها السلطة القضائية التى توصف بأنها سلطة مستقلة ، وذلك وفقا لما هو وارد بالمادة رقم ١٥٦ هى : « استعادة حقوق الجماهير وتنشيط وتدعيم العدالة والحريات الشرعية القانونية » .

والفصل الثالث الذى يضم ٢٣ مادة يتناول « حقوق الأمة » . فالمادة رقم ٢١ تضمن حقوق المرأة « فى جميع النواحى بما يتمشى مع المعايير الاسلامية » . ويعقب ذلك المواد التى تتناول الملكية الخاصة والحرية الدينية وحرية الصحافة . اذ نصت المادة رقم ٢٤ على أن « المطبوعات والصحافة لهما الحرية فى عرض وتقديم كافة الموضوعات باستثناء تلك الموضوعات التى تلحق أضرارا بأسس الاسلام أو بحقوق الجماهير » . كما نصت المادة رقم ٢٦ على أن « تكوين الأحزاب السياسية والجمعيات المهنية أو الدينية سواء كانت جمعيات اسلامية أو متعلقة باحدى الجماعات الدينية المعترف بها هو أمر مسموح به تماما بشرط ألا تنتهك مبادىء الاستقلال أو الحرية أو الوحدة الوطنية أو معايير الاسلام أو أسس الجمهورية الاسلامية . ولا يجوز أن يمنع أحد من الاشتراك فى الأحزاب والجمعيات سالفة الذكر أو يرغم على الاشتراك فيها » .

والحق فى الملكية هو حق شرعى مادام لا ينطبق على الثروة التى تكتسب بطريقة غير شرعية . اذ نصت المادة رقم ٤٩ على ما يلى : « الحكومة لها الحق فى مصادرة كافة الثروات الناجمة

عن طريق استخدام الربا أو الاستيلاء على السلطة بأسلوب غير قانونى أو الرشوة أو الاختلاس أو السرقة أو القمار أو سوء استخدام الممتلكات التابعة للأوقاف أو سوء استخدام التعاقدات الحكومية والصفقات الحكومية أو بيع أراض غير مستصلحة وغيرها من الأراضى الأخرى الخاضعة للملكية العامة أو تشغيل منازل سيئة السمعة وغير ذلك من الأمور الشرعية . ولذلك فان مثل هذه الثروات ينبغى أن تعاد الى مالكها الشرعى . واذا تعذر تحديد المالك الشرعى لهذه الثوات والأموال فانها ينبغى أن توضع فى الخزانة العامة للدولة . وتطبيق هذا المبدأ ينبغى أن يصاحبه تفحص دقيق بما يتمشى مع قانون الاسلام وينبغى أن ينفذ بمعرفة الحكومة » .

والموطن تتوافر له حرية الوصول الى المحاكم القانونية اذ جاء بالمادة رقم ٣٥ « ان كلا من الطرفين المتنازعين لهما الحق فى كافة أنواع المحاكم فى اختيار محام . فاذا كانوا غير قادرين على اختيار محام فانه ينبغى اتخاذ اجراءات نحو تزويدهم بالمشورة القانونية » . كما أن المادة رقم ٣٨ تمنع التعذيب وتضيف موضحة أن عقاب أولئك الذين ينتهكون الحظر « سيحدده القانون » . كما أن المادة رقم ٢٥ تمنع « تفتيش وفحص الخطابات الشخصية أو التجسس على المكالمات التليفونية وتسجيلها أو افشاء اتصالات البرق والتلكس وتعمد عدم توصيلها لأصحابها » .

ومن الناحية العملية نجد أن الكثير من الحقوق المدنية الواردة بالدستور لم تمنح للمواطنين . اذ كانت هناك تقارير كثيرة تفيد بأن الحكومة تقوم بتعذيب المسجونين . فمبدأ حرية تشكيل أحزاب سياسية فى نطاق مبادىء « الاستقلال والحرية والوحدة الوطنية ومعايير الاسلام وأسس الجمهورية الاسلامية » وفقا لما هو وارد

بالمادة رقم ٢٦ لم يترجم الى حقائق واقعية . ومن ناحية أخرى فانه عندما وصل الأمر الى الطعن فى أول رئيس منتخب للجمهورية وهو أبو الحسن بنى الصــــدر فى يونيو ١٩٨١ فان الاجراءات الدستورية قد اتبعت فى تدقيق شديد .

وعلى كل حال فان دستور ايران لعام ١٩٧٩ يعتبر دستورا رائدا . فهو مستوحى من المفاهيم الذهنية الاسلامية وقد روعى فيه تلبية احتياجات جماهير الناس الذين يعيشون فى العصــــر الحديث مع تضمين مفاهيم مثل الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية مع ارتكاز سلطة الفقيه وسلطة الرئيس على ارادة شعبية يعبر عنها اما بشكل مباشر مثلما هو الوضع فى حالة الرئيس واما بشكل غير مباشر من خلال مجلس الخبراء الذى يعقد لاختيار خليفة أو خلفاء للخومينى .

وعقب الاعلان عن تاريخ الاقتراع من أجل اختيار الرئيس فى منتصف ديسمبر ١٩٧٩ أوضح الخومينى للجميع أنه لا يرغب فى أن يحتكر العلماء الدينيون السلطة . فأدى هذا الى استبعاد آية الله بحشتى Beheshti كمرشــــح للرئاسة . والتأييد العلنى الذى حصل عليه أبو الحسن بنى صدر — وهو عضو علمانى بالمجلس الثورى الاسلامى ووزير المالية — من جانب أحمد نجل الخومينى ومن جانب شهاب الدين اشراقى قد جعل منه شخصية مفضلة جماهيريا . وفى يوم الانتخابات الموافق ٢٥ يناير ١٩٨٠ حصــل على حوالى ٧٥٪ من الأصوات . أما الانتخابات الخاصة بانتخاب ٢٧٠ عضوا للمجلس (البرلمان) فقد أجريت فى الفترة من منتصف مارس حتى أوائل مايو . وهذه الانتخابات قد ساعدت على اعطاء الحكومة الاسلامية طابع الشرعية على نحو هائل .

وكان القادة الاسلاميون يتحركون بسرعة كبيرة للغاية . ففى خلال سنة واحدة تمكنوا من اجراء استفتاء لصالح اقامة جمهورية اسلامية بالاضافة الى صياغة مواد الدستور واجراء انتخابات الرياسة وانتخابات البرلمان وفقا لحقوق الانتخابات العالمية . وقد تمكنوا من جذب الايرانيين العاديين الى الأسلوب والنظام السياسى على نطاق واسع لم يشهدوه من قبل . وكان الخومينى هو المصدر الرئيسى لهذا النجاح حيث أصبح زعيما للثورة الاسلامية بدون منازع بعد أن وصل عمره الى ٧٧ عاما .

وأشار الخومينى الى أنه مادام كل من المجتمع والحكومة لهما الطابع الاسلامى فانه لا يوجد بهما مكان لأولئك الذين كانوا: يعارضون الاسلام أو يشككون فى أهمية الاسلام بالنسبة للحياة العامة . فالأحزاب السياسية مثل حزب « فدائيين خلق » الذى كان يؤمن بالماركسية ويروج للأفكار المادية الالحادية كانت أحزابا غير اسلامية . كما كان هناك الذين اتخذوا من الاسلام ستارا أو غطاء بهدف اخفاء معتقداتهم الماركسية وأيديولوجياتهم الماركسية . وهؤلاء من وجهة نظر الخومينى هم أناس منافقون وينبغى كشف مخططاتهم أمام جماهير الناس . وهذه الفئة من المنافقين كانوا أعضاء فى حزب « مجاهدين خلق » . وأخيرا كان هناك المنحرفون وهم أولئك الذين يتصرفون وفق تفسيرات خاطئة للشريعة . وقد اعتبر الخومينى نفسه الحكم أو الفيصل الأخير الذى يوضح من هو الشخص المسلم وما هى الأمور الاسلامية ومن هو الشخص غير المسلم وما هى الأمور غير الاسلامية . ومن ثم كان الأمر يستلزم طرد كافة العناصر غير الاسلامية من الشئون الادارية والعسكرية والقضائية الحكومية وكذلك من مشروعات القطاع العام والقطاع الخاص ومن المؤسسات التعليمية . وكان

الأمر يستلزم تحقيق ذلك من خلال اصدار سلسلة من القرارات الحكومية والانجازات الشعبية .

ولكن تحديد وتحييد العناصر غير الاسلامية كان مجرد مهمة واحدة فقط من بين مهام الحكومة الاسلامية وقادة الحكومة الاسلامية . أما المهمة الكبرى الأخرى فكانت تتمثل فى تنقية وتطوير المجتمع الذى أفسده النفوذ الأجنبى على مدى القرون القليلة الماضية واضفاء الطابع الاسلامى عليه . اذ كان الأمر يستلزم القضاء على السلوك الفاسد والعادات القديمة الفاسدة . ومن هنا تم على الفور فرض حظر على شـــرب الخمور ولعب القمار والنوادى الليلية والأفلام الجنسية الفاضحة الداعرة والاستحمام المشترك . اذ كان الأمر يستلزم اضفاء الطابع الاسلامى على المجتمع على نحو ايجابى وبمعنى الكلمة . ولذلك أصبحت تأدية صلاة الظهر فى أيام الجمعة هى النقطة البؤرية أو المركزية فى خلال الأسبوع . وكانت خطبة الجمعة تتم على نحو بحيث يستفيد منها المؤمنون ويتعلمون النواحى التعليمية والثقافية الدينية . وكان الخومينى يقوم بنفسه بتعيين الأئمة الذين يؤمون المسلمين فى صلاة الجمعة ويلقون خطبة الجمعة وكان يطلب منهم موافاته بالتقارير عن خطبة الجمعة وما تسفر عنه من نواح تعليمية واخبارية .

وأولئك الذين كانوا يقاومون الحكومة الاسلامية كانوا يعاقبون وفقا للقواعد الواردة بالشريعة الاسلامية . وجرائم رفع الأسلحة فى وجه الدولة الاسلامية أو نشر الفساد فى المجتمع كانت عقوبتها الاعدام .

وكان هذا هو الاطار الايديولوجى الذى أرساه الخومينى . وهو الاطار الذى كان يعمل من خلاله طوال المراحل المختلفة التى شهدتها الثورة الاسلامية .

وكان استيلاء الطلبة العسكريين على السـفارة الأمريكية بطهران بمن فيها من دبلوماسيين فى ٤ نوفمبر ١٩٧٩ بمثابة نقطة تحول فى الثورة الاسلامية حيث انها بذلك دخلت فى مرحلة مناهضة للأمريكيين . وكان التركيز فى ايران آنئذ متجها نحو طرد البقايا المتبقية من النفوذ الأمريكى الذى ظل مسيطرا على ايران منذ ربع قرن بالاضافة الى تعميق صورة الحكومة الاسلامية المناهضـة للاستعمار مع جعل الشباب الايرانى يرفض المحاولات التى يقوم بها « مجاهدين خلق » من أجل المزج بين الماركسية والاسلام .

وكان غزو العراق لايران فى ٢٢ سبتمبر ١٩٨٠ بمثابة مرحلة اخرى من مراحل الثورة الاسلامية حيث أصبحت نزعة حب الوطن والاسلام أمرين لا يمكن الفصل بينهما . كما أن المنافسة التقليدية بين العراق وايران قد ازدادت سوءا عندما بدأت القيادة الدينية الايرانية عقب تفجر الثورة الايرانية فى مناشدة المسلمين بالعراق الاطاحة بالحكومة البعثية العلمانية التى يرأسها صدام حسين . وكرد على ذلك قام الرئيس العراقى بتشجيع العرب الايرانيين المتواجدين باقليم خوذستان الغنى بالبترول على التمرد ضـد الحكومة الخومينية . وأخيرا تشجع صدام حسـين وقرر الهجوم العسكرى على ايران بعد أن وصلته تقارير عن انخفاض الروح المعنوية بالجيش الايرانى وعن الصراع الضارى المستمر بين القادة الايرانيين ومن الآثار التى نجمت عن الحرب العراقية الايرانية ذلك التوتر فى العلاقات الذى ظهر بين الرئيس بنى صدر الذى عينه الخومينى قائدا عاما للقوات المسلحة وقادة الحـزب الجمهورى الاسلامى IPP الذى كان يسيطر على فيالق الحرس الثورى الاسلامى الذى تشكل فى يونيو ١٩٧٩ بهدف « حماية مكاسـب الثورة الاسلامية » . اذ راح بنى صدر يوجه اللوم للحزب الجمهورى الاسلامى بسبب اتخاذه اجراءات قمعية وديكتاتورية وتعذيبية ضد

المسجونين السياسيين . واضطر الخوميني الى تكوين لجنة من ثلاثة أعضاء بهدف تقصى الحقائق فيما يتعلق باتهامات التعذيب .

وعندما تم حل مشكلة الرهائن الأمريكيين فى يناير ١٩٨١ بمعرفة حكومة رئيس الوزراء محمد على رجائى وهو تلميذ سابق لآية الله بحشتى بدون استشارة بنى صدر على الاطلاق شعر بنى صدر بالسخط الشديد وقام بالهجوم فى جريدته التى تصدر تحت اسم « انقلاب اسلامى » (بمعنى الثورة الاسلامية) على حكومة رجائى بسبب قيامها بعقد تسوية مع أمريكا . فاضطر الخمينى الى التدخل لفض هذا النزاع ودعا الجميع الى الالتزام بوحدة الصف الاسلامى .

وبحلول فبراير كان بالمستطاع ادارك العلاقات المتبادلة بين التطورات على جبهة القتال وتلك التطورات التى تحدث فى السياسة الداخلية . فالتحسن على جبهة القتال كان يشجع على حدوث المزيد من الشقاق فى الداخل . وبحلول منتصف فبراير ١٩٨١ أصبح الايرانيون أقوياء فى جبهة القتال مما مكنهم من صد التوغل الذى يقوم به العراقيون فى داخل أراضى ايران . وكانت النتيجة هو تجمد الموقف العسكرى بين الطرفين . وبعدئذ زادت حدة الصراع والشقاق بين بنى صدر والحزب الجمهورى الثورى IRP فى أوائل مارس . فحاول الخومينى تهدئة الموقف بأن اصدر قرارا بمنع الجانبين من القاء خطب جماهيرية . فساد الهدوء والسلام بين الجانبين لفترة تصل الى حوالى شهرين . وبعدئذ خرق بنى صدر الحظر المفروض على الخطب الجماهيرية بأن القى خطابا على الجنود فى المواقع العسكرية المتواجدين بها بالاضافة الى قيامه بالادلاء بأحاديث صحفية لمراسلى الصحف الأجنبية . وادعى فى أحاديثه الصحفية أن الحزب الجمهورى

الثورى يقود ايران الى « استبداد ونظام الحكم المطلق والطغيان » كما قال أن حكومة رجائى قد فشلت فى احياء الاقتصاد وانعاشه ووقف المجلس (البرلمان) فى صف رجائى وزاد من سلطات رجائى على حساب بنى صدر . وفى ٣٠ مايو ١٩٨١ شن رجائى هجوما على بنى صدر بدون أن يذكره بالاسم . اذ قال رجائى فى المجلس (البرلمان) : « أولئك الذين كانوا يدرسون بالخارج عندما قامت الثورة هنا بايران كان لديهم اتصالات ضئيلة للغاية مع جماهير الشعب الايرانى . وهم عقب عودتهم الى ايران طالبوا بالحصول على دور فى الثورة الايرانية » . وكان بنى صدر قد درس فى باريس ثم قام بالتدريس فيها فى الفترة من عام ١٩٦٤ حتى أول فبراير ١٩٧٩ وهو اليوم الذى عاد فيه مع الخومينى من باريس الى ايران .

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا سارت الأحداث بسرعة . اذ قام الخومينى فى ١٠ يونيو بطرد بنى صدر من منصبه كقائد عام للقوات المسلحة . وبعد مرور أربعة أيام اجتمع المجلس (البرلمان) لدراسة ومناقشة مدى كفاءة وصلاحية بنى صدر كرئيس للجمهورية . وفى ٢٠ يونيو تقرر أن بنى صدر غير صالح لهذا المنصب من خلال ١٧٧ صوتا ضد صوت واحد . وما تلقى الخومينى خطـــابا رسميا بهذا الشأن من المتحدث الرسمى باسم البرلمان وهو حجة الاسلام على أكبر هاشمى رفسنجانى حتى أقال بنى صدر من منصبه على الفور . وبعدئذ قام الخومينى بتعيين مجلس رئاســـة يضم ثلاثة أعضاء ويتألف من : رئيس الوزراء والمتحدث الرســـمى باسم البرلمان ، ورئيس العدل .

ووصف الحزب الجمهورى الايرانى طرد بنى صـــدر بأنه « الثورة الثالثة » على أساس أن الثورة الثانية كانت تتمثل فى

الاستيلاء على السفارة الأمريكية . وكانت الفترة التى قضاها بزرجان كرئيس للوزراء حتى أوائل نوفمبر ١٩٧٩ قد أكدت للطبقات المتوسطة العصرية الحديثة وللاقليات العرقية أنهم لن يضطروا للعيش تحت ظل حكومة شيعية عنيدة ومتشددة ومتعصبة . وكذلك نجد أن انتخاب بنى صدر رئيسا قد جعل المواطنين الأقل التزاما يشعرون أن الأصوليين الاسلاميين يرغبون فى أن يشاركهم فى السلطة آخرون . وحقيقة الأمر أن القادة المعتدلين نسبيا كانت لهم قيمة مؤقتة من وجهة نظر الخومينيين . اذ كان يستخدمهم الأصوليون من أجل كسب الوقت اللازم لبناء مؤسساتهم وتقوية قبضتهم على جهاز الدولة والشبكة الدينية .

ومنذ البداية كان هناك توتر بين نوعين من القادة فى داخل نطاق المعسكر الاسلامى : أولئك القادة الذين كانوا قد تلقوا تعليمهم فى الغرب وقضوا سنوات عديدة فى المنفى قبل عودتهم الى الوطن عقب تفجر الثورة الايرانية وأولئك الذين ظلوا مقيمين فى ايران وقاوموا فى همة ونشاط البهلويين وعانوا من ايداعهم فى السجون وتعذيبهم . والفرق بين رئيس الوزراء رجائى والرئيس بنى صدر يعطينا صورة مصغرة عن الفرق بين هذين النوعين من القادة . اذ كان رجائى له مظهر متواضع بعض الشىء كما كان سلوكه وتصرفاته تتسم بالتواضع أيضا حيث كان يرفض التحدث باللغة الانجليزية نظرا لأنها لغة أجنبية بينما كان بنى صدر على النقيض من ذلك تماما حيث كان سلوكه راقيا ومهذبا بالاضافة الى أنه كان يجد متعة بالغة فى التحدث بطلاقة باللغة الفرنسية .

وكانت هناك فوارق عميقة وتباين شديد بين هذين النوعين من القادة فيما يتعلق بطبيعة الثورة والاتجاه الذى ينبغى أن تتخذه وقد واجه الثوريون الايرانيون مشكلة سبق أن واجهت كافة

الثورات : من الذى عليه أن يسيطر على النظام الجديد ؟ هل هو الشخص الأيديولوجى المفكر أو هو الشخص الخبير العملى ؟ وكان المقاتلون الاسلاميون يضعون الأيديولوجية فى المقدمة من حيث الأهمية أما بنى صدر فكان يفضل الخبرات المهنية والاتجاهات العملية .

ومع نشوب الحرب فان هذا الصراع قد امتد من مجال تسيير الشئون والخدمات المدنية والاقتصادية الى مجال محاربة العراق . فقيالق الحرس الثورى الاسلامى IRGC والمتطوعون من « هيئة تعبئة المستضعفين » كانوا يموجون بالحماسة الوطنية أكثر من الخبراء مما جعلهم يندفعون بأعداد هائلة الى جبهة القتال لكى يشتركوا فى المعارك . وهم كانوا قد تقبلوا وجهة نظر الخومينى القائلة بأن غزو ايران على يدى الرئيس العراقى صدام حسين لا يعتبر مجرد غزو لأرض ايران فقط وانما هو غزو أيضا « لحكومة الله » وبالتالى فهو غزو للاسلام . اذ أنشأ الخومينى علاقة بين الواجب الذى يحتم مواجهة عدوان صدام حسين الذى وصفه الخومينى بأنه « شخص كافر وفاسد » والكفاح الثورى ضد الشاه . وأوضح الخومينى فى خطاب جماهيرى قائلا : « لسوف نحارب ونقاتل حتى النهاية .. لأنه ينبغى علينا أن نضطلع بواجباتنا الدينية .. فنحن ملتزمون بحماية الاسلام والحفاظ عليه .. وكان ذلك هو نفس المنطق الذى اتبعناه فى قتالنا ضد الحكومة البهلوية الفاسدة .. لقد تعرضت التعاليم الاسلامية والمبادىء الاسلامية لأخطار الابادة ومن ثم كان لزاما علينا من الناحية الدينية أن نقاوم بقدر ما نستطيع » . أما الضباط العسكريون الذين تأثروا بدافع الحماسة الوطنية أكثر من دافع الدين الاسلامى فكانوا يشعرون بالاستياء من اضطرارهم لاشراك أشخاص غير متخصصين فى خططهم العسكرية . وفى النزاع

الذى نشأ وتطور وقف بنى صدر الى جانب الضباط المتخصصين . فأدى ذلك الى القضاء على شعبيته بين عساكر الجيش الذين كانوا يتلقون تعليما سياسيا أيديولوجيا على أيدى العلماء الدينيين الذين تزايدت مكانتهم آنئذ من خلال المتطوعين الجدد من الاسلاميين واليساريين .

والزيادة الدرامية فى حجم فيالق الحرس الثورى الاسلامى IRGC و « هيئة تعبئة المستضعفين » قد سارت ضد مصالح بنى صدر الذى لم تكن له سيطرة على هذه الهيئات والكيانات . فمنذ أن تم استخدام المساجد كمراكز تجنيد لهذه القوات فان وضعها وأهميتها ازدادت بشكل كبير ، واهتم العلماء الدينيون بالتدريب على الأسلحة فى معسكر خاص بالقرب من مدينة قم بالاضافة الى عمل عروض عسكرية فى شوارع المدن بهدف اظهار حماستهم الوطنية والاسلامية . هذا بالاضافة الى أن المساجد أصبحت جزءا لا يتجزأ من الادارة المدنية عندما قرر الخومينيون الثوريون استخدامها لتنفيذ نظام توزيع الجرايات الذى أدخل فى أعقاب الحرب . وبوجه عام أظهرت التنظيمات الثورية نفسها على أنها تتسم بالمرونة والحيوية فى تلبية مقتضيات ومطالب الحرب . وكل هذا قد عمل لصالح قادة الحرب الجمهورى الاسلامى IRP الذين كانوا يسيطرون على هذه الهيئات والكيانات .

وكا بنى صدر بصفته خبيرا اقتصاديا محنكا يدرك أكثر من غيره من المنافسين له الحالة المتدهورة للاقتصاد الايرانى . ويدرك مدى الحاجة الملحة لاصلاح هذا الاقتصاد . لذلك كان يلح مرارا وتكرارا على انهاء « المرحلة الهدامة » من الثورة والدخول « فى مرحلة البناء والتعمير وأعادة التشييد » . الا أن خصومه كانوا ينظرون للأمور من زاوية مختلفة . اذ كانوا يعتقدون أن الجانب

السياسى الدينى للثورة أهم بكثير من الجانب الاقتصادى وكانوا يدركون بالفطرة الغريزية أن جماهير الشعب قد اعتبرت الاطاحة بالشاه بمثابة انتصار هائل روحانى وسياسى مما جعلهم على استعداد لتحمل المتاعب التى قد تنجم عن التدهور الاقتصادى فى أعقاب الثورة . وكان الاسلاميون الراديكاليون يعتقدون أن الثورة لم تستكمل ولذلك كانوا يريدون استكمالها من خلال تفجير الحماسة والفوران السياسى الدائم بين المؤمنين . ونظرا لأن خروج الأغنياء والمتمتعين بالثراء الفاحش قد خفض من الفساد وعدم المساواة الاجتماعية الاقتصادية فقد أراد الأصوليون أن يعتمدوا على هذا ويزيدوا من ايقاع اعادة توزيع الثروة واضفاء الطابع الاسلامى .

وكانت آراء الراديكاليين الاسلاميين فى الاقتصاد مستوحاة من كتاب « الاسلام والملكيات » بقلم آية الله الطلقانى ومن كتاب « اقتصادنا » من تأليف آية الله محمد باقر الصدر . وهذان الكتابان يقدمان الاسلام على أنه له أيديولوجيته الاقتصادية الخاصة به والتى تتميز بالشمول مثل الرأسمالية أو الاشتراكية ولكنها أيديولوجية تتفوق على الرأسمالية والاشتراكية فى آن واحد . بل أنهم يذهبون فى تحليلاتهم الى أنه مادام الاسلام مقترنا بمفاهيم ذهنية مثل العدالة الاجتماعية ومبدأ المساواة بين البشر جميعا ورفع مستوى المهضومين والمظلومين فانه يمكن أن يستخدم كوسيلة للتغيير الاجتماعى .

والمقدمة المنطقية التى يرتكز عليها الطلقانى هى أن الله كريم وأن الله قد منح البشر كل هذه الموارد الطبيعية الهائلة الشاسعة ومن هنا فانه يوجد قدر كاف من هذه الموارد لكل فرد . ومن المهام الكبرى للاسلام هى العمل على وصول هذه الموارد بالتساوى الى جميع أفراد الأمة الاسلامية ، وهى مهمة ينجزها الاسلام من

خلال مناشدة المؤمنين بأن يلتمسوا العدالة فى تصرفاتهم وسلوكهم ومن خلال وضع قواعد عامة تتعلق بالتبادل الاقتصادى والنشاط الاقتصادى وتركز على تفضيل الرعاية والرفاهية الاجتماعية على المكاسب الفردية مع منح الحكومة الاسلامية السلطات التى تخول لها اتخاذ الاجراءات التى تضمن تحقيق العدالة والمساواة .

وتأكيد الطلقانى على أن الملكية الخاصة تنبع فقط من العمل قد أوقعه فى مشكلات فيما يتعلق بالتعامل مع القوانين الاسلامية التى تتناول الميراث والتعاقدات . اذ أن المفهوم الذهنى عن الميراث يتناقض تماما مع آراء الطلقانى فى الملكية . ولذلك فهو يحاول اصلاح هذا التناقض من خلال القول بأن قوانين الميراث تساعد على اعادة توزيع الثروة وهو يحاول تغليف قوانين التعاقد الواردة بالشريعة مثل القوانين التى تتعلق بالايجار والمشاركة فى المحاصيل ومكافأة العاملين سواء على أساس الانتاج أو على أساس أجور ثابتة محددة أو على أساس المشاركة بغلاف المساواة بين البشر بأن قال أن العامل المسلم له الحق فى الاختيار ما بين الدخول فى المشاركة فى الأرباح أو الحصول على أجور ثابتة محددة .

وبالنسبة للضرائب الاسلامية التقليدية التى تتمثل فى : الخمس والزكاة نجد أن الطلقانى على استعداد لأن يضيف شرطا وهو أن الحكومة الاسلامية لها الحق فى فرض ضريبة على الأراضى الزراعية وفق أى مستوى تراه ملائما للصالح العام لجميع الفلاحين والمزارعين .

والعقبة الكبيرة الأخرى التى كان على الطلقانى أن يتغلب عليها من أجل أن يتمكن من تحقيق فكرة المساواة الواردة بالاسلام

كانت تتمثل فى مواجهة مجموعة التفســـيرات التى تراكمت عبر القرون والتى كانت تتخذ الطابع الرأسمالى على نحو حاسم . وهو قد تغلب على هذه العقبة بأن أشار الى أن التفسيرات الماضية التى سارت وفق خطوط رأسمالية كانت تتعلق بالأوضاع القائمة والظروف المتواجدة فى تلك الأوقات ولكنها تفسيرات لا تتمشى مع الروح العامة للاسلام . ويشير الطلقانى الى أن الروح العامة أو النغمة العامة التى تسود القرآن هى العدالة والمساواة : فالقرآن يعتبر الثروة مجرد وسيلة لتنفيذ مشيئة الله وارادته لأن الثروة من وجهة نظر القرآن ليست هدفا فى حد ذاتها ووجهة النظر الأخلاقية هذه يجب أن تنفذ الى داخل التفسيرات التى تقدم عن الشريعة بمعرفة الضالعين فى القانون المعاصرين فى الموضوعات التى تتعلق بالملكية الخاصة والتعاقدات والضرائب والميراث . وعلى كل حال فان الحكومة الاسلامية تتواجد من أجل أن تخلق مجتمعا تسوده المساواة والعدالة ولذلك فان الزعيم الاسلامى أو الفقيه هو المسئول عن الاشراف على اكتساب وتوزيع الملكيات فى ظل توفير المصلحة العامة للجميع . ومن هنا تبزغ سلطة الفقيه فى وضع حدود لحق المؤمن فى اســـتغلال هذه الموارد التى هى بمثابة ممتلكات للأمة الاسلامية .

ويشير الطلقانى الى أن الحكومة الاســـلامية التى تشاهد السيوف المخترقة التى يوجهها الملوك وملاك العبيد الى أجساد العبيد والفلاحين سوف ترفض مســـاندة كبار ملاك الأراضى والرأسماليين . فالمجتمع الذى تهدف الحكومة الاسلامية الى خلقه هو مجتمع مشـــابه ومتواز مع ذلك المجتمع الذى كان متواجدا أثناء تواجد النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة .

« ففى هذه المدينة النموذجية التى يمكن الاقتداء بها كانت تعطى نسبة من الثروة الخاصة التى يمتلكها الأنصـــار (أهالى

المدينة المنورة الذين ساعدوا النبى محمدا) للمهاجرين (أى الذين هاجروا من مكة المكرمة الى المدينة المنورة) وباستثناء نسبة ضئيلة من الثروات الخاصة فان الثروة كان يتم ادارتها والاشراف عليها بمعرفة الدولة . وباستثناء تلك الحصص الخاصة التى تمنح لأولئك المشاركين فى الجهاد أو الكفاح الدينى المسلح فان الثروة كانت توزع بين الجميع بالتساوى كل بحسب حاجته . ولم تكن هناك مميزات أو فوارق خاصة بين الأفراد لا فرق بين حاكم ومحكوم الا من حيث وضعهم كحكام ومحكومين اذ لم تكن هناك أية فوارق فى مساكنهم وملبسهم » .

أما كتاب « اقتصادنا » بقلم باقر الصدر فكان أكثر عمقا من كتاب الطلقانى . فبدلا من تقديم تفسيرات راديكالية لقوانين الشريعة التقليدية مثلما فعل الطلقانى نجد أن الصدر قام بمحاولة منهجية لتقديم الاسلام كنظام اقتصادى متميز ومستقل ومتمتع بالكمال فى حد ذاته . ولكى يفعل ذلك فانه قام بوضع المفاهيم الاقتصادية الأساسية مثل : العمل وتراكم القيمة والربح والايجار والأجور والبنية التحتية والبنية الفوقية فى مصطلحات اسلامية . واعتمد فى مجادلاته فقط على الاحكام الاسلامية ومجموعة الكتابات القانونية الاسلامية حيث كان يشير الى أحكام عديدة ويختار منها حكما واحدا مع ذكر الأسباب التى دعته الى ذلك الاختيار . وهكذا نرى أنه قد طبق فى مجال الاقتصاد ذلك المنهج الذى استخدمه كبار العلماء الدينيين فى مجالات الحياة الأخرى .

وهو يقدم تفسيرات راديكالية للقوانين الاسلامية التى تتناول الصفقات والتعاقدات الاقتصادية والأنشطة الاقتصادية من خلال تضييق تعريف الملكية الخاصة . اذ يرى أن الملكية الخاصة تعنى « علاقة خاصة بين الفرد والممتلكات مما يحرم الآخرين من

استخدام هذه الممتلكات » ولا شيء أكثر من ذلك . ولكي يرسخ باقر الصدر هذا التعريف في الاسلام فانه يشير الى الطريقة التي كانت تضم بها الأراضي التي يتم الحصول عليها من خلال الغزو والفتح الاسلامي الى أراضي دار الاسلام أثناء الفترات المبكرة الأولى من التاريخ الاســـلامي : فالأراضي كانت مملوكة للأمة الاسلامية والفرد كان يمنح فقط حق استغلال الأرض وهو حق يمكن أن يلغى أو يسحب من الفرد . ولكن ماذا عن تلك الحالات التي تمت خلال تلك الفترة عندما منح أوائل الناس الذين اعتنقوا الاسلام حق ملكية الأراضي ؟ وهنا يشير الصـــــدر الى أن هذا الحق لم يكن حقا مطلقا : اذ كان يشترط في هذا الحق أن يقوم المالك بزراعة الأرض مما يســـاعد بوجه عام في تدعيم المجتمع ورفاهيته . ونفس هذا الشـــرط ينطبق على استغلال الموارد الأخرى التي منحها الله للناس .

ويدعم باقر الصدر وجهة نظره هذه من خلال الرجوع الى الحظر الاسلامي على الزيادة في الاستهلاك والخسائر التي تنجم عن سوء الاستغلال بالاضافة الى الحظر المفروض على وضـــع السياج حول الممتلكات . فأي واحدة من تلك الأمور أو حتى مجرد سوء الاستغلال العام للثروة من جانب صـــاحبها كفيل بحرمان المالك من حقوق الملكية . ويتوسع الصدر في هذه النقطة حيث يضيف قائلا أن الحكومة الاســـلامية لها الحق في تحديد الملكية الخاصة بهدف العمل على توفير مســتوى معين من المعيشـــة للمجتمع ككل والحفاظ على التوازن الاجتماعي .

ويشـــير باقر الصـــدر الى أن التهديد يقع على التوازن الاجتماعي عندما يكسب رأس المال الخاص اتجاها استبداديا في مجال التجارة والصناعة . ويوضح ذلك في كتابه مشيرا الى أن النشاط الاقتصادي بالقطاع الخاص في الدولة الاسلامية سوف

يظل محصورا فى نطاق حـــدود معقولة .. بحيث لا تنجم عنه فوارق فى الطبقات الاجتماعية . ونتيجة لذلك فان خلق مشروعات صناعية كبرى سيقع فى مجال اختصـــاص وســـلطة ونشـــاط الحكومة .

والحكومة الاسلامية من خلال الســـيناريو الذى يقدمه باقر الصدر سوف يرأسها رجل ضليع فى القانون يسمى ولى الأمر ويكون فى نفس مرتبة الفقيه أو معادلا للفقيه وسوف يكون هو المسئول الرئيسى عن اعادة بناء المجتمع من الناحية الاقتصـــادية والاجتماعية وسوف يكون هو الشخص الذى يحل المشـــكلات الشائكة التى تظهر أثناء تطبيق النظرية الاســـلامية . ويوجد بالاسلام مجال للمرونة فى تلك النواحى المتعلقة بالأعمال الانسانية والتى تقع فى نطاق فئات الأعمـــال « الالزامية الواجب اتباعها وفئات الأعمال المحظور اتباعها » : اى الأعمال الموصى باتباعها والمسموح باتباعها والأعمال غير المحددة والأعمال غير المرغوب فيها وهى كلها تشكل جزءا من الشريعة ولكنه جزء متروك لحرية التصرف والاختيار . وفى هذا المجال يكون للفقيه أو ولى الأمر الحق فى اصدار أحكام ثانوية . فهو بامكانه أن يصنف الأعمال « غير المحددة » على أنها أعمال « غير مرغوب فيها » أو أعمال «ممنوعة» أو « أعمال موصى باتباعها » أو حتى أعمال « اجبارية ملزمة » وذلك وفقا للظروف . ونظرا لأن معظم القوانين الاسلامية المتعلقة بالأنشطة الاقتصادية والصفقات والتعاقدات الاقتصادية تقع فى داخل نطاق مجال حرية التصرف والاختيار بحيث يكون للفقيه الحق فى اصدار أحكام ثانوية فانه يمكن القول بأن الشريعة تتضمن فى ثناياها قدرا عظيما من المرونة . ولذلك تكون للفقية الفرصة لأن يحدث توافقا فى العلاقات بين الأفراد والمجتمع والموارد الاقتصادية

فى مواجهة الخلفية البيئية الآخذة فى التغير باستمرار اجتماعيا وثقافيا وتكنولوجيا .

ومما لاشك فيه أن كتاب باقر الصدر قد أصبح هو المصدر الرئيسى الذى ينهل منه القادة الاسلاميون فى ايران ليس فقط فى مجال القرارات الاقتصـــادية والمالية التى اتخذوها فى خلال الأيام الأولى من الثورة ولكن أيضا فى مجال صـــــياغة واعداد الدستور . وأكبر دليل على ذلك هو ذلك الفصل الوارد بالدستور الذى تناول الشئون المالية والاقتصـــادية . اذ تشـــير المادة رقم ٤٣ الى أن اقتصـــاد الجمهورية الاســـلامية ينبغى أن يرتكز على « منح قروض بدون فوائد (للمواطنين) أو اللجوء الى أية وسائل قانونية ومشروعة أخرى لا ينجم عنها تركيز الثروة فى أيدى عدد قليل من الأفراد أو تداول الثروة بينهم ولا ينجم عنها أيضا تحويل الحكومة الى صاحب عمل رئيسى ومهيمن » كما ينبغى أن يرتكز الاقتصاد الاسلامى على « منع الاسراف والتبذير والاتلاف فى جميع الأمور التى تتعلق بالاقتصاد بما فى ذلك الاستهلاك والاستغلال والانتاج والتوزيع والخدمات » . والمادة التالية تصـــــف النظام الاقتصادى للجمهورية الاسلامية على أساس أنه نظام يتألف من ثلاثة قطاعات : قطاع الدولة والقطـــاع الخاص والقطـــاع التعاونى . وقطاع الدولة يشتمل على « كافة الصناعات الكبرى التى هى نطاق واسع والتجارة الخارجية وموارد التعدين الكبرى والبنوك والتأمين والطاقة والخزانات والســـدود وشـــبكات الرى الكبرى والراديو والتليفزيون وأنظمة البريد والتلغـــراف والتليفون والطيران والشحن والطرق والسكك الحديدية وما شابه ذلك » . أما القطاع التعاونى فيشتمل على « الشــــركات والمؤسسات التعاونية التى تهتم بالانتاج والتوزيع والتى تقام فى المدن الكبرى وفى الأرياف بما يتمشى مع المعايير الاســـلامية » . أما القطاع

الخاص فيشتمل على « تلك الأنشطة التى تتعلق بالزراعة وتربية الحيوانات والصناعة والتجارة والخدمات التى تعتبر مكملة لأنشطة قطاع الدولة والقطاع التعاونى » .

وبينما كان القادة الاسلاميون يدرسون هذه المواد الواردة بالدستور وغيرها من المواد الأخرى ويتشاورون بشأنها فى صيف عام ١٩٧٩ كانت الدولة قد واجهت مشاكل اقتصادية هائلة ناجمة عن الحركة العنيفة المناهضة للشاه والتى تمثلت فى الاضرابات عن الأعمال المريرة الطويلة التى قام بها العمال فى مجال الصناعة والخدمات والنواحى المدنية الادارية . ومع هروب حوالى ١٣٠ ألفا من المديرين والفنيين العاملين فى الصناعات المحلية والأجنبية أغلقت مئات المصانع والورش والمحلات أبوابها أو هبط انتاجها بشكل خطير . كما أن النقص فى المواد الخام زاد من ارتبـاك المسئولين عن الادارة الذين لهم خبرات ضئيلة . وكان نتيجة كل ذلك هى انخفاض عدد العمالة التى بلغت فى فترة ما قبل الثورة رقما يصل الى ١٠½ مليون عامل . حيث ترك العمل ٢½ مليون عامل . هذا بالاضافة الى انخفاض اجمالى الدخل القومى بنسبة ٢١٪ .

وأعلن رئيس الوزراء بزرجان فى ٨ يونيو أن الحكومة قد حصلت على ٢٢ بنكا مملوكة للقطاع الخاص . كما صدر قراران آخران من قرارت التأميم خلال الشهور الأربعة التالية شملا ١٥ شركة من شركات التأمين بما فى ذلك ثمان شـــركات مملوكة للأجانب بالاضافة الى المصانع التى تنتج قطع الغيار للطائرات ومراكب الشحن والسيارات . وكل ذلك قد ساعد الحكومة على احكام قبضتها وسيطرتها على الاقتصاد بالبلاد بالاضافة الى أن تلك الاجراءات كانت متلائمة مع اتجاهات العدالة والمساواة التى

تنادى بها الحكومة . وفى أوائل يوليو نجد أن « قانون حماية الصناعة والتوسع فيها » قد أدى الى تأميم الصناعة الثقيلة وتأميم المصانع التى حققت ثروات طائلة من خلال وسائل غير مشروعة بالاضافة الى تأميم الشركات الصناعية التى تزيد ديونها على قيمة الأصول الخاصة بها . وفى خلال الشهر التالى اتخذت اجراءات لتأميم شركات الأدوية ومستودعات التبريد ومستودعات السلع والبضائع ومشروعات النقل بالشاحنات .

وبحلول ذلك الوقت كان قد تم انشاء « مؤسسة المستضعفين «Mustazafin» » فى أوائل مارس بقرار من الخومينى بهدف توحيد ممتلكات ٦٣ فردا من الأسرة البهلوية الملكية والأصول التى جمعها آخرون بطرق غير شرعية واستغلال الدخل الناجم عنها لصالح المستضعفين (بمعنى المحتاجين أو المظلومين) فأدى ذلك الى بزوغ أكبر كيان اقتصادى بالبلاد . وبدأ ذلك التجميع أو الكيان الاقتصادى الكبير بداية قوية عقب استيلائه على « المؤسسة البهلوية » التى كانت تمتلك ٢٠٪ من أصول كافة الشركات المملوكة للقطاع الخاص . وعلى مدى الشهور امتلك هذا التجميع الاقتصادى الأصول الخاصة بعشرات الآلاف من الايرانيين الأغنياء الذين هربوا من البلاد قبل وبعد قيام الثورة الايرانية . أو الذين تم تنفيذ حكم الاعدام فيهم . وهكذا نرى أن « مؤسسة المستضعفين » أصبحت تمتلك أكثر من مائة شركة تضطلع بأنشطة مختلفة ومتنوعة مثل الفنادق وأعمال البناء والمعمار والأطيان الزراعية وصناعة البضائع الخاصة بالشئون المنزلية واطارات السيارات وصناعة الورق والطبع والنشر وتعليب الأغذية . وقد تدعمت الحكومة من الناحية الاقتصادية عقب انشاء « مؤسسة المستضعفين » واتخاذ اجراءات التأميم .

ومن بين أولئك الذين أيدوا فكرة سيطرة الدولة على الاقتصاد رئيس الوزراء رجائى الذى شـــــغل منصب رئيس الوزراء عقب الاطاحة ببنى صدر فى يونيو ١٩٨١ والذى أصبح مرشح الحزب الجمهورى الاسلامى لكى يشغل منصب رئيس الجمهورية . ونظرا لأنه رجل علمانى تقى وورع وذو خلفية متواضعة فقد أحرز شعبية هائلة فى حملة الانتخابات . وطبقا للتقارير الرسمية التى صدرت عن نتائج الانتخابات فانه قد حصل على ٨٨٪ من مجموع الأصوات وقد حلف اليمين الدســــتورية فى ٢ أغســـطس . الا أن فترة رئاسته كانت قصيرة للغاية . ففى ٣٠ أغسطس انفجرت قنبلة فى اجتماع لمجلس الأمن القومى مما أودى بحياته وحياة رئيس الوزراء محمد جويد بحونار Javed Bañanar .

وقد أعلن حزب « مجاهدين خلق » مسئوليته عن القاء تلك القنبلة . وكان زعيم ذلك الحزب : مسعود رجاوى قد أعلن شن حرب العصابات ضد الحكومة عقب طرد بنى صــدر . ورأحت منظمة « مجاهدين خلق » تعمل على احباط الخطط الخاصة باجراء انتخابات على منصب الرئاسة فى ٢ أكتوبر . ففى ٢٧ سبتمبر قام مئات من كوادر مجاهدين خلق بالاصطدام مع الحرس الثورى بالقرب من الحرم الجامعى فى جامعة طهران الواقعة فى قلب مدينة طهران . ودارت معركة بين الطرفين استغرقت ســـبع ساعات وراح ضحيتها ١٧ من القتلى علاوة على ٤٠ من الجرحى وكانت تلك هى أكبر معركة تدور فى داخل العاصمة منذ قيام الثورة . ولكن الخومينى لم يتخاذل أمام هذه الأحداث وقال « هذه الفوضى لا تعنى أن الحكم الاسلامى يتسم بالضعف . فالاسلام يتم تجديده واحياؤه من خلال هذا النوع من ســـفك الدماء » . وبعدئذ واجهت الحكومة تحديات حزب مجاهدى خلق باللجوء الى

القمع الشديد . ففى خلال ثلاثة أشهر عقب طرد بنى صدر قامت الحكومة باعدام ما يزيد على ألف شخص .

وفى انتخابات الرياسة فاز حجة الله على حسين خمائينى Khamanei بالحصول على أكثر من ١٦ مليون صوت من بين المجموع الكلى للأصوات البالغ عددها ١٦٨٤٧٠٠٠ . ومما ساعده على احراز هذا الانتصار هو أنه كان سكرتيرا عاما للحزب الجمهورى الاسلامى بالاضافة الى أنه كان الممثل الشخصى لآية الله الخومينى فى المجلس الأعلى للدفاع . وفى أواخر أكتوبر وافق المجلس (البرلمان) على ترشيح خمائينى للسيد مير حسين موسوى لشغل منصب رئيس الوزراء .

ونظرا لأن كلا من موسوى وخمائينى كانا من زعماء الحزب الجمهورى الاسلامى منذ البداية فانهما كانا متلائمين للعمل فى توافق مع بعضها البعض . ونظرا لأن كلا من هاشمى رفسنجانى المتحدث الرسمى باسم البرلمان وآية الله عبد الكريم موسوى أردبيلى كانا عضوين فى الحزب الجمهورى الاسلامى فان هذه المجموعة أصبحت مسيطرة تماما على الأجهزة التنفيذية والتشريعية والقضائية بالدولة . أما تسيير الشئون الادارية اليومية فكان فى أيدى الصف الثانى من العلماء الدينيين الذين كانوا اما أعضاء فى الحزب الجمهورى الاسلامى واما من المتعاطفين مع الحزب . وهكذا نرى أن الخومينى قد تمكن فى أقل من ثلاث سنوات من تثبيت أقدام الحزب الأصولى (الحزب الجمهورى الاسلامى) فى السلطة بالجمهورية .

وقامت حكومة موسوى بحملة تطهير مكثفة شملت كافة المؤسسات الحكومية والثورية . حيث شمل التطهير .. أولئك الذين لهم معتقدات اسلامية غير كافية (على حد تعبير رئيس

الوزراء) . كما زادت الحكومة من سرعة اضفاء الطابع الاسلامى على البلاد . اذ اصدرت قرارا بطرد كافة العاملين بفيلق الحرس الثورى الاسلامى الذين اتضح أن لهم أبناء منضمين لحزب « مجاهدى خلق » وتم تنفيذ ذلك بكل حزم وقسوة . كما تم تطهير وطرد القضاة الثلاثين الذين تقبلوا الرشاوى من أجل تحويل عقوبة الاعدام الى عقوبة السجن مدى الحياة . كما تم تنفيذ القانون الصادر بشأن ارتداء السيدات للزى الاسلامى فى الأماكن العامة . كما تم تعيين قضاة من أجل القيام بمهام محددة وفقا لتوجيهات حجة الاسلام مرتضى حسين « من أجل محاربة الأعمال العاقة » التى تشتمل على : الزنا والشذوذ الجنسى والقمار والنفاق والتعاطف مع الملحدين والمنافقين والخيانة » .

وهذا الفصل من تاريخ الجمهورية الاسلامية كان دمويا بصفة خاصة . فرغم التدابير الأمنية المشددة التى اتخذتها الحكومة أعلن « مجاهدى خلق » فى أوائل فبراير ١٩٨٢ أن أعضاءها قاموا باغتيال ما يزيد على ١٢٠٠ من القادة الدينيين والسياسيين التابعين للحكومة . وفى المقابل قامت الحكومة باعدام ٤٠٠٠ من من رجال العصابات الذين ينتمى معظمهم لحزب « مجاهدين خلق » . ويبدو أن مسعود رجاوى زعيم الحزب قد بالغ فى أرقام الناس الذين أعدموا وجعلها ضعف الرقم الرسمى . ومهما كان العدد الحقيقى للناس الذين أعدموا فان اجراءات الحكومة كانت قوية وفعالة ما لهى ذلك شك .

لماذا قامت الحكومة الاسلامية بالضرب بيد من حديد وفى وحشية بالغة بقدر ما تستطيع ؟ لقد جاء الرد على لسان هاشمى رفسنجانى فى مقابلة أجرتها معه مجلة « العربية Arabia » التى تصدر من لندن . اذ قال « كان لزاما علينا أن نتخذ اجراء

حاسما على الفور .. والا أصبحت ايران لبنان أخرى فالاسلام يأمرنا بحسم الموقف على الفور » وهو بالطبع يشير الى الحرب الأهلية اللبنانية التى تفجـــرت فى ابريل ١٩٧٥ وظلت تتفاقم وتتصاعد على مدى السنوات التســـع التالية . وأثناء المرحلة النشطة من الحرب الأهلية اللبنانية والتى انحصرت بين ابريل ١٩٧٥ وأكتوبر ١٩٧٦ فقد لبنان ٨٠ ألف قتيل من بين مجموع السكان البالغ عددهم آنئذ ٣½ مليون نسمة . ولذلك فانه يمكن القول بأنه اذا حدثت حرب أهلية فى ايران البالغ تعداد سكانها ٤٠ مليون نسمة والتى تشـــترك فى حدود طويلة مع الاتحاد السوفيتى فانالنتائج كانت ستصبح أسوأ مما كان عليه الحال فى الحرب الأهلية اللبنانية .

وفى ربيع عام ١٩٨٢ بدأت تتجه حرب الخليج لصالح ايران . اذ قام الايرانيون بهجوم مضاد شامل فى شهر مايو وتمكنوا من استعادة ٥٣٨٠ كيلومترا مربعا من الأراضى الايرانية المحتلة بما فى ذلك ميناء خورامشاهر الذى اســـتولت عليه العراق فى بداية المعارك . وفى شهر يونيو رفضت طهران العرض الذى تقدمت به العراق بشأن الاتفاق على وقف اطلاق النار على الفور ورددت طهران مطلبها السابق الذى يتمثل فى الاطاحة بالرئيس العراقى صدام حسين « الملحد الفاسد » الذى يعتبر هو المسئول عن شن العدوان على حكومة ايران الاســـلامية . وفى ٩ يوليو هددت الحكومة الايرانية بنقل ساحة الحرب الى داخل العراق اذا لم يتم معاقبة صدام حسين على غزوه لايران علاوة على دفع مبلغ ١٠٠ بليون دولار كتعويض عن الدمار الذى لحق بايران بسبب الحرب . وبعد مرور أربعة أيام نفذت ايران بالفعـــل تهديداتها وتحركت للاستيلاء على ميناء البصرة العراقى . الا أنها فشلت فى الاستيلاء على البصرة . وعلى كل حال فان هذه الأحداث قد أظهرت أن

حرب الخليج قد دخلت فى مرحلة أصبح فيها زمام المبادرة فى أيدى طهران وذلك فى حد ذاته يعتبر دليـــــلا على قوة الثورة الاسلامية فى ايران .

وبينما كانت الحكومة ماضية فى سحق « مجاهدى خلق » اكتشفت وجود مؤامرة مناهضة للحكومة فى ابريل ١٩٨٢ . وكانت المؤامرة بقيادة صادق قطب زاده الذى كان عضوا فى المجلس الثورى الاسلامى كما كان وزيرا للخارجية قبل أن تطويه ظلال النسيان فى سبتمبر ١٩٨٠ وكان يشاركه فى قيادة هذه المؤامرة : أحمد عباس وهو زوج ابنة آية الله شـــريعت مدارى . وكانت المؤامرة تقضى بقتل الخومينى بضــــــرب منزله المتواجد فى حى جمرام بطهران بالصواريخ مع اغتيال أعضاء مجلس الدفاع الأعلى ثم القاء التهمة على حزب توده Tudeh ثم الاستيلاء على الحكم من أجل الانتقــام من أجل هؤلاء القتلى . فقامت الســــلطات الحكومية بالقاء القبض على ١٧٠ شخصا بما فيهم ٧٠ من الضباط العسكريين . وتم محاكمة الضباط محاكمة سرية ولكن قطب زاده قد حوكم أمام محكمة عسكرية أذيعت على شاشات التليفزيون فى منتصف أغسطس . وصدر عليه الحكم بادانته وتآمره للاطاحة بالحكومة الاسلامية من خلال استخدام الأسلحة وبعدئذ نفذ فيه حكم الاعدام فى ١٥ سبتمبر .

وخلال تاريخه السياسى الطويل الذى قضى معظمه بالخارج كان قطب زاده قد اتخذ سياسات نشطة مناهضة للشاه . وأثناء اقامته فى باريس لسنوات عديدة كان قطبزاده زعيما « لجمعية الاسلاميين » . وكان اعدامه بمثابة نهاية درامية لاختيار الحكومة الاسلامية لمثقفين ايرانيين علمانيين ممن كانوا نشطاء فى الحركة الاسلامية المناهضة للشاه بالخارج . فهذه العملية كانت قد بدأته

فى نوفمبر ١٩٧٩ وشملت بنى صدر . فهذه السنوات الطويلة التى قضاها مثل هؤلاء الزعماء بالغرب قد أضفت عليهم طابعا وأسلوبا غربيا . وهذا الطابع لم يكن متلائما مع الدولة الاسلامية والمجتمع الاسلامى الذى يتم تشـــكيله تحت القيادة النشـــطة للخومينى .

ورغم هذا الجو المشحون بالأحداث الدرامية ، مثل أعمال عصابات مجاهدى خلق والتآمر ضد الحكومة الايرانية وشـــن الحرب عليها من جانب العراق فان الحكومة الايرانية مستمرة فى برنامجها الرامى الى اضفاء الطابع الاسلامى على المجتمع . إذ وافقت الحكومة فى ٣٠ مايو على خطط شاملة تهدف الى جعل كافة القوانين : مثل قانون العقوبات والقانون المدنى والقـــانون التجارى وتسجيل وثائق الأراضى متمشـــية فى خط واحد مع الشريعة الاسلامية . علاوة على فرض الزى الاســـلامى على النساء بكل حزم ودقة . وفى أغسطس أعلنت الحكومة الغاء كافة القوانين العلمانية . ثم أصدر المجلس (البرلمان) قانونا بشأن المخالفات الأخلاقية فى ٢١ سبتمبر .

وبعد مناقشات داخلية مطولة قررت الحكومة فى نهاية الأمر أن تواجه مشكلة الخلافة التى ستعقب الخومينى عقب وفاته . وفى ٢٠ ديسمبر أعلنت الحكومة اجراء انتخابات فى ٢٠ ديسمبر من أجل اختيار « مجلس خبراء » يضم ٨٢ عضوا تكون مهمته بحث مسألة الزعيم التالى أو الزعامة التالية عقب وفاة الخومينى . وتقرر أن يكون « مجلس الخبراء » مجلســـا دائما ولا يدخل فى عضويته سوى العلماء الدينيين فقط . وتم انتخاب ١٣ عضوا من طهران ليكونوا أعضاء فى « مجلس الخبراء » وكان على رأس هؤلاء الأعضاء الـــ ١٣ كل من : خامائينى وهاشمى رفسنجانى

وموسوى أردبيلى وكان ذلك دليلا على شعبيتهم وشعبية الحكومة التى يقودونها .

وبالغاء حزب توده Tudeh فى مايو ١٩٨٣ أصبحت جميع الأحزاب التى كانت متواجدة فى فترة ما قبل الثورة ملغاة باستثناء « حركة التحرير » بزعامة مهدى بزرجان . وأصبحت بذلك الحياة السياسية محتكرة فى أيدى الحزب الجمهورى الاسلامى وبعض الكيانات الصغيرة المتحالفة مع هذا الحزب الجمهورى الاسلامى .

وفى الجيش تمت سلسلة من أعمال التطهير مما أسفر عن طرد أو استقالة جميع الضباط الذين ينتمون لفترة ما قبل الثورة باستثناء ألف ضابط فقط منهم . كما اتخذت الحكومة المزيد من الاجراءات الرامية الى غرس القيم والأفكار الاسلامية فى أذهان أفراد القوات المسلحة . بل تم انشاء قسم أيديولوجى سياسى فى داخل الجيش . وغالبا ما كان يتولى شئون ذلك القسم الشباب من العلماء الدينيين الذين يتميزون بالولاء الشديد للجمهورية الاسلامية الايرانية . حيث كانوا يقومون بتدريس التاريخ الاسلامى والايديولوجية الاسلامية للضباط وأفراد القوات المسلحة . وكان ذلك القسم يعمل على خلق التأييد للأعمال والسياسات التى تقوم بها الحكومة بالاضافة الى مراقبة الأفراد الذين من المحتمل أن يكونوا من المنشقين أو المنحرفين . هذا بالاضافة الى أنه كانت توجد فى داخل الجيش « جمعيات اسلامية » وهى جمعيات تطوعية مهتمة بتدعيم الوعى الاسلامى لأعضائها علاوة على توفير الأمن والرعاية للوحدات العسكرية الخاصة بها .

وكان من بين الدوافع المهمة لانشاء «فيلق الحرس الثورى الاسلامى » خلق قوة مضادة للجيش الذى يقوده ضباط لهم

ولاء مزدوج ازاء الحكومة الاسلامية . ولذلك نجد أنه عقب انشاء فيلق الحرس الثورى الاسلامى من شباب الحزب الاسلامى الذى بزغ الى الأفق أثناء الحركة المناهضة للشاه أصبح الانضمام لهذا الفيلق يخضع لشروط دقيقة وصارمة اذ ينبغى على من يريد الالتحاق بفيلق الحرس الثورى الاسلامى أن يجتاز الاختبارات التى تعقد له فى القرآن الكريم وفى كتاب « نهج البلاغة » بقلم الامام على وفى كتاب « الحكومة الاسلامية » بقلم الخومينى .

وفى بادىء الأمر كان الراغبون فى الالتحاق بفيلق الحرس الثورى الاسلامى يخضعون لتدريبات لمدة ستة شهور . ولكن بعد أن نشبت الحرب مع العراق تم تخفيض مدة التدريب الى ثلاثة شهور . ومع ذلك نجد أن مستويات التدريب العسكرى والأيديولوجى والسياسى كان آخذا فى التحسن باستمرار حيث كان العلماء الدينيون يلعبون دورا رئيسيا فى التدريب السياسى الايديولوجى . وقد شارك فيلق الحرس الثورى الاسلامى فى القتال فى جبهة الحرب منذ اليوم الأول الذى تفجرت فيه الحرب . ثم اكتسب هذا الفيلق وحدة جوية خاصة به عقب التوسع فى امكانياته . وأصبح هذا الفيلق بمثابة القوة التى يعتمد عليها قادة الحزب الجمهورى الاسلامى . وعقب طرد بنى صدر تدعم التعاون بين فيلق الحرس الثورى الاسلامى والجيش وتحسن على نحو درامى . وكان فيلق الحرس الثورى الاسلامى يستخدم تاكتيكات مبتكرة وغير تقليدية بشكل ناجح للغاية أثناء القتال فى الجبهة مما أثار اعجاب ضباط الجيش بشجاعتهم ومرونتهم وابتكاراتهم . الا أن القتال فى الجبهة كان مجرد مهمة واحدة من المهام الكثيرة الملقاة على عاتق فيلق الحرس الثورى الاسلامى . اذ كان مسئولا عن الحفاظ على الأمن الداخلى ومقاومة الأعمال التخريبية والتمردات العرقية .

وفى نوفمبر ١٩٨٢ تم انشاء وزارة للحرس الثورى الاسلامى وسرعان ما تم انشاء قسم مخصـــوص فى داخل فيلق الحرس الثورى الاسلامى له مهمة محددة وهى حماية العاصمة من أى انقلاب عسكرى متوقع . وفى أوائل عام ١٩٨٣ أصبح هذا الفيلق يضم ١٧٠ ألف مقاتل بالاضـــافة الى اشتماله على قوات جوية وبرية . وهو حاليا بمثابة أقوى قوة حربية فعالة تعتمد عليها الحكومة الاسلامية فى ايران .

وعقب الاستيلاء على السفارة الأمريكية فى نوفمبر ١٩٧٩ — مما جعل الغزو الأمريكى لايران أمرا متوقعا — نادى الخومينى بضرورة انشاء « جيش يضم ٢٠ مليون مقاتل » . فأدى هذا الى تدريب الطلبة على استخدام السلاح بالمساجد المحلية عقب انتهاء ساعات الدراسة بالمدارس أو الجامعات . وفى أوائل عام ١٩٨٠ أنشأ فيلق الحرس الثورى الاســـلامى رســـميا « وحدة تحريك المستضعفين » . فجذبت هذه الوحدة الكثير من المتطوعين من الشباب ممن هم أقل فى السن من ١٨ عاما . وكان من بينهم فتيات ورجال فى متوســـــط العمر وقد جاء معظمهم من الأحياء الفقيرة . وقد استخدمت المساجد المحلية كمراكز للتطوع والتدريب وفى مارس ١٩٨٢ ســـــمح للمتطوعين فى وحدة المســـتضعفين لأول مرة بالدخول فى الحرب على جبهة القتـــــال . وفى خلال السنة التالية كان ١٪ مجموع القوة البـــالغ عـــددها ٢½ مليون مقاتل متمركزين فى جبهات القتـــــال أو بالقرب منها . وهؤلاء الأشخاص الذين هم تحت سن العشرين والذين عاشوا فى بيئة تضطرم بالغليان الثورى قد أصبحوا متحمسين لقضية الاســـلام أكثر من معظم الأشخاص الأكبر سنا .

وقد اكدت الحكومة أن عائلات أولئك الناس الذين يستشهدون فى الحرب من أجل الاسلام سيتم تقديم كافة الرعاية لهم . وعهد بهذه المهمة « لمؤسسة الشهداء » التى أنشأتها الحكومة لهذا الغرض ومولتها باعتمادات مالية ضخمة من أموال الأوقاف الدينية . ونظرا لأن المساهمة فى الصراع ضد البهلويين قد اعتبره الخومينى واجبا اسلاميا فان الخومينى كان قد أنشأ « مؤسسة الشهداء » فى بادىء الأمر من أجل تقديم الرعاية لعائلات أولئك الايرانيين الذين استشهدوا خلال الحركة الثورية ضد الشاه والذين تقدر أعدادهم بحوالى ٤٠ ألف ايرانى كحد أقصى و ١٠ آلاف ايرانى كحد أدنى . وعقب نشوب حرب الخليج تزايد حجم ميزانية «مؤسسة الشهداء» عدة أضعاف .

وعلى العكس من المؤسسات سالفة الذكر نجد أن « منظمة الشباب الخومينى الثورى الاسلامى » لم تتشكل رسميا بقرار صادر عن الخومينى . وانما بزغ هؤلاء الشباب أثناء احتدام الكفاح الثورى . وبعد الثورة أصبحوا يقومون بحراسة الأمن الداخلى . وبعدئذ كلفوا بمهمة تطبيق الأخلاقيات الاسلامية . وأصبح لهم الجناح العسكرى الخاص بهم . وعقب نشوب الحرب تم تكليفهم بالاشراف على توزيع الجرايات وحصص الطعام . ومن خلال هذا العمل أصبحوا على صلة وثيقة بحياة كل عائلة وكل أسرة . وصارت الوحدة المحلية من منظمة الشباب الخومينى تعمل فى تعاون وثيق مع الوحدة المحلية التابعة لفيلق الحرس الثورى الاسلامى ومع الجمعيات الاسلامية التى تتواجد فى كافة الورش والمصانع والمدارس والجامعات والمستشفيات والأحياء السكنية والقرى .

وعقب نشوب الثورة الاسلامية تم ادخال تغييرات جذرية على الجهاز القضائى والقوانين . وتم ادخال المحاكم الثورية

الاسلامية فى القطاع المدنى والقطاع العسكرى . وفى بادىء الأمر كانت المحاكم الثورية الاسلامية تتعامل مع الأنشطة المناهضة للثورة علاوة على المخالفات الخطيرة مثل الجاسوسية والخيانة العمى . وبعدئذ مع انتشار عمليات اضفاء الطابع الاسلامى على المجتمع كلفت هذه المحاكم بالتعامل مع المخالفات الأخلاقية علاوة على الانحرافات التى توصف بأنها « نفاق » .

ولكن بعد أن واجهت الحكومة التحدى السياسى « لمجاهدين خلق » غير الخومينى اتجاهه الى العكس . فبعد أن أصدر قراره عن الحريات المدنية فى ديسمبر ١٩٨٢ قام بنقل قضايا المخالفات الأخلاقية من المحاكم الثورية الاسلامية الى المحاكم العامة التى تدار بمعرفة وزارة العدل . وبعد مرور عام أصدر « المجلس القضائى الأعلى » قرارا بالغاء وظيفة الرئيس الثورى للعدل علاوة على الغاء وظيفة المدعى العام بالاضافة الى وضع المحاكم الثورية تحت اشراف وزارة العدل التابعة للدولة . وتحت اشراف المدعى العام التابع لوزارة العدل بالدولة . وربما تكون الخطوة التالية هى الغاء المحاكم الثورية نهائيا . ويبدو أن عملية اضفاء الطابع الاسلامى قد تدعمت كثيرا من خلال الغاء كافة القوانين العلمانية بحلول عام ١٩٨٢ علاوة على اضفاء الصبغة الاسلامية على القوانين المدنية والتجارية وقوانين العقوبات .

وقد خلقت الثورة الاسلامية مجمعا اقتصاديا شاسعا من خلال انشاء « مؤسسة المستضعفين » . ففى ربيع عام ١٩٨٣ أصبحت هذه المؤسسة تمتلك — بشكل جزئى أو كلى — ٤٩٥ شركة تشمل ٢٠٠ شركة تصنيع و ٢٥٠ شركة تجارية و ٤٥ شركة تصنيع زراعى . بل أصبحت « مؤسسة المستضعفين » تضم ٨٥ الفا من العاملين بها مما جعلها بمثابة الكيان الوظيفى الرابع بعد

الخدمة المدنية والجيش وفيلق الحرس الثورى الاسلامى . وبناء على توجيهات الخومينى بضرورة تلبية احتياجات المستضعفين قررت « مؤسسة المستضعفين » فى أوائل عام ١٩٨٣ انشاء ٥٠ ألف وحدة سكنية فى خلال عام ١٩٨٤/١٩٨٥ من أجل تأجيرها بسعر منخفض للمحتاجين . وقامت بادماج خططها مع الخطط الخاصة بوزارة الاسكان وخطط « مؤسسة الاسكان » التى أنشئت عقب قيام الثورة .

وبينما أعطيت « لمؤسسة الاسكان » مهمة محددة تتمثل فى بناء المساكن والمنازل فان المهام التى ألقيت على عاتق « حملة التعمير Reconstruction Crusad» التى أنشئت فى يونيو ١٩٧٩ كانت تتمثل فى سد الثغرة ما بين المدينة الصغيرة والقرية . ونظرا لأن نصف تعداد سكان ايران يعيشون فى ٦٥ ألف قرية فانه يمكن لنا أن ندرك مدى الأهمية البالغة للأعمال الملقاة على عاتق « حملة التعمير » . اذ كان ذلك يعنى العمل على زيادة التنمية الاقتصادية بالمناطق الريفية وزيادة أعداد الناس الذين يعرفون القراءة والكتابة ونشر الثقافة الاسلامية والثورة الاسلامية بين الفلاحين الايرانيين وتحسين الاتصالات بين القرويين وسكان المدن المتعلمين وتوفير فرص العمل لخريجى المعاهد والجامعات العاطلين الذين لم يتمكنوا من الالتحاق بأى عمل . ولذلك قامت « حملة التعمير » بانشاء فروع لها فى المدارس العليا والكليات والجامعات. وقام أعضاء « حملة التعمير » ببناء الأعمال الهندسية : الطرق والكبارى والرى والحمامات العامة المدارس والمراكز الصحية . بالاضافة الى قيامهم بتوزيع السماد والمخصبات والمبيدات الحشرية ومضخات المياه والجرارات علاوة على منح القروض والسلف لصغار المزارعين . وفى فبراير ١٩٨٤ تم تحويل « حملة التعمير » الى وزارة حكومية .

ولكى تساعد الحكومة المحتاجين المتواجدين بالمناطق الريفية فانها أنشأت فى أوائل عام ١٩٧٩ « لجنة الامام الخومينى للاغاثة » وخلال السنوات الخمس الأولى تمكنت هذه اللجنة من انشاء ٥٣٠ فرعا لها تغطى ٤٠ ألف قرية بالاضافة الى تقديم مساعدات فى مجال الخـــدمات الاجتماعية والطبية والتعليمية لـ ١ر١ مليون أسرة . وفى نفس الوقت بذلت جهود مكثفة لخفض نسبة الأمية بالقرى . وفى هذا المجال عملت « حملة التعمير » بالتعاون مع « الحركة الخاصة لتنمية وتطوير التعليم بين الناس المحرومين » التى أنشئت فى عام ١٩٨٠ .

وكل هذه الاجراءات قد نبعت من وجهة النظر القائلة بأن الحكم الاســـلامى يهتم اهتماما بالغا بمفاهيم الرعاية الاجتماعية ورفع مستوى المحرومين والفقراء والمعدمين .

وفى أعقاب الثورة الثقافية التى أطلقها الخومينى فى يونيو ١٩٨٠ تكونت « الحملة الجامعية University Crusade» . وكانت مهمتها العمل على تطهير الجامعات من الأيديولوجيات غير الاسلامية علاوة على تطهير الجامعات من الطلبة والأساتذة غير الاسلاميين . وكان « الطلبة المسلمون الملتزمون » هم القوة الرئيسية التى تعتمد عليها « الحملة الجامعية » فى انجاز مهامها . وقبل انشاء «الحملة الجامعية » كان هؤلاء الطلبـــة المســـلمون الملتزمون يموجون بالحماسة والتدفق الاسلامى مما كان يدفعهم للدخول فى معارك ضارية ضد زملائهم من الطلبة العلمانيين واليساريين .

وما أغلقت كافة الجامعات والكليات البـــالغ عددها ٢٠٠ أبوابها فى شهر يونيو ١٩٨٠ حتى قامت الســلطات الحكومية ــ وذلك بناء على التقارير التى أعدتها « الحملة الجامعية » ــ

بطرد جميع المدرسين والأساتذة المؤمنين بأيديولوجيات شـرقية أو غربية مثل : الماركسية والرأسمالية والقومية والليبرالية والديموقراطية . وفى نفس الوقت لم يسمح للطلبة الايرانيين بالحصول على الوثائق التى تمكنهم من السفر الى الدول الأجنبية كما لم يسمح لهم بالالتحاق بالجامعات الغربية .

وتشكلت « لجنة الثورة الثقافية » من سبعة أعضاء من رجال الدين والعلمانيين . وكانت مهمة هذه اللجنة هى مواجهة الاستعمار الثقافى سواء أكان شرقيا أم غربيا علاوة على بث القيم الاسلامية فى داخل الجامعات . وقامت هذه اللجنة بوضع مناهج جديدة وكتب دراسية جديدة أو تعديل الكتب الموجودة بالفعل فى ضوء التعاليم الاسلامية بالاضافة الى مساعدة هيئات التدريس على الحصول على فهم أفضل وأعمق للاسلام مع تغيير المفاهيم الغربية فى التعليم بمفاهيم اسلامية .

وبذل العلماء الدينيون جهودا نشطة على جميع المستويات من أجل تقديم يد العون والمساعدة « للجنة الثورة الثقافية » . وشاركوا على الفور فى ادارة شئون « مركز الكتب المقررة الجامعية » وهو المركز الذى انشأته « لجنة الثورة الثقافية » . وبحلول ربيع عام ١٩٨٣ انتج هذا المركز ٣٠٠٠ كتاب مقرر على الطلبة سواء كان كتابا أصليا أو مترجما . ومعظم هذه الكتب كانت فى مجال العلوم والطب والهندسة وهى كتب لا يوجد بها تعارض مع العقائد الاسلامية أما الكتب الأخرى التى تتناول العلوم الاجتماعية فقد تم تزويدها بالقيم والمفاهيم الاسلامية .

وذلك هو السبب فى أن اعادة فتح الجامعات والكليات التى بدأت فى منتصف سبتمبر ١٩٨٢ قد تمت بشكل تدريجى ، وعندما تم فتح جميع المؤسسات التعليمية العليا بالكامل فى اكتوبر

١٩٨٣ فانها أصبح بها أعداد أقل من الطلبة والأساتذة عن ذى قبل . ولكن فى خلال ثلاث سنوات ارتفعت الأرقام الى المستوى الذى كانت عليه قبل قيام الثورة .

اما المدارس فقد تم بث الطابع الاسلامى بها فى مزيد من اليسر والسهولة . ففى خلال ثلاث سنوات عقب قيام الثورة كانت جميع المدارس المشتركة التى تضم البنين والبنات فى آن واحد قد تحولت الى مدارس تضم تلاميذ فقط أو تلميذات فقط . هذا بالاضافة الى تطهير حوالى ٤٠ ألف مدرس . وعقب مرور ستة شهور على قيام الثورة أصبحت الكتب الاسلامية متاحة فى جميع المدارس الابتدائية . وبنفس السرعة تم ايضا تزويد المدارس الثانوية بالكتب المقررة الاسلامية .. وأعطى اهتمام خاص بتدريس اللغة العربية التى هى لغة القرآن الكريم (بل تم بذل جهود لنشر اللغة العربية بين جماهير الناس من خلال اعطاء دروس فى اللغة العربية عبر برامج التليفزيون) وماج الأولاد الصغار بالحماسة الشديدة للدين الاسلامى واللغة العربية وذلك هو السبب فى تطوعهم للحرب على جبهة القتال ضد العراق . وفى أعقاب الثورة ظهرت الجمعيات الاسلامية فى جميع المدارس .. وكانت هذه الجمعيات تعمل على كشف النقاب عن المدرسين غير الاسلاميين وتراقب المنشقين من الطلبة وخاصة بعد أن قام « مجاهدى خلق » بشهر السلاح ضد الدولة .

وبالاضافة الى بذل الجهود الرامية الى اضفاء الطابع الاسلامى على المؤسسات الشعبية مثل المدارس والكليات والكيانات العسكرية فقد بذلت جهود فى نفس الوقت من أجل معالجة أمراض أخلاقية معينة مثل الدعارة والمخدرات . اذ تشكل فى أعقاب الثورة مباشرة « مكتب نشر الفضيلة ومنع الرذيلة »

وقام هذا المكتب بمحاربة الانحلال الأخلاقى . حيث قام فى مايو ۱۹۸۰ بهدم حى الأضواء بطهران وتقويم أخلاق ألف من المومسات .

كما قامت حملة أخرى للقضاء على تعاطى المخدرات بأنواعها الخفيفة والقوية . اذ كان تعاطى الهيروبين منتشرا فى أيام حكم الشاه بشكل كبير حيث وصلت أعداد المدمنين الى رقم يتراوح ما بين ٥٠٠ ألف و ٨٠٠ ألف مدمن . وقد تم تكليف حجة الاسلام صادق خلخالى بمهمة حل مشكلة المخدرات . فأصدر قرارا بتنفيذ حكم الاعدام فى أى تاجر يثبت تورطه فى الاتجار فى المخدرات . وفى الفترة من ٢١ مايو الى ١٨ يوليو ١٩٨٠ أصدر أوامره بتنفيذ حكم الاعدام فى حوالى ٢٠٠ تاجر ممن يتاجرون فى المخدرات . وكان ذلك الاجراء قويا وفعالا للغاية . حيث هبط تعاطى المخدرات على نحو حاسم . الا أن المشكلة لم تختف نهائيا .

وكل هذه الأعمال التى قامت بها الحكومة كانت جـزءا من عملية ذات شعبتين تهدف الى صبغ المجتمع بصبغة اسلامية : التطهير والتنوير . وكان التطهير بمعنى بنظيف الروح من كافة الرذائل أما التنوير فكان بمثابة ازالة كافة الآثار السلبية السيئة التى نجمت عن كافة الخطايا التى ارتكبها المواطن . اذ كان الهدف الشامل الذى تسعى اليه الحكومة الاسلامية هو خلق بيئة اجتماعية تدفع المؤمن الى زيادة الاقتراب من الحياة الفاضلة المليئة بالورع والتقوى .

ففى المجتمع الذى يكون فيه نساء محجبات وأخريات غـــير محجبات (مثلما كان عليه الحال أثناء الحكم البهلوى) فان النساء غير المحجبات يعملن على اثارة الفتنة والمغريات وينفثن الفســـاد فى الحياة العائلية . ولذلك ينصح الاسلاميون بضرورة أن ترتدى

كافة النساء الحجاب على الأقل ، ويتمثل فى جلباب فضفاض يخفى تفاصيل جسد المرأة علاوة على وضع غطاء على الرأس . واذا ذهبت بعض النساء الى ما هو أبعد من ذلك بحيث يرتدين الخمار الذى يخفى كل شىء من جسدهن فهذا يكون أفضل .

وانتهزت الحكومة فرصة تواجد ذلك الجو الروحى الدينى الذى ساد خلال شـــهر رمضـــان (الذى بدأ فى أواخر يونيو ١٩٨٠) فأصدرت قرارا فى ٥ يوليو ينص على أنه ينبغى على جميع السيدات العاملات فى الحكومة وغيرها من المكاتب العامة ارتداء الحجاب وفى خطبة الجمعة فى طهران قال حجة الاســـلام على خمائينى : « ان الحجاب هو واجب اسلامى ينبغى أن تلتزم به كافة السيدات . وارتداء الحلى والزينة واللجوء الى تسريحات الشعر اللافتة للأنظار مع وضع المساحيق والمكياج هى تصرفات غير اسلامية » . وبعد مرور عام أصدر المجلس (البرلمان) قانون الزى الاسلامى : وينص هذا القانون على فرض الزى الاسلامى على جميع النساء فى ايران سواء كن مسلمات أو غير مسلمات . وانتهاك هذا القانون عقوبته الحبس لمدة سنة كحد أقصى .

وقبل قيام الثورة كان يوجد « قانون حماية الأسرة الصادر فى عام ١٩٦٧ » والذى استمر حتى ١٩٧٥ وقد نص هذا القانون على منع تعدد الزوجات مع اعطاء المرأة الحق فى البدء فى اتخاذ اجراءات الطلاق . ولكن عندما قامت الثورة أوقفت الحكومة العمل بهذا القانون لفترة معينة ثم أصدرت قرارا بالغائه نهائيا . ولكن تطليق المرأة لزوجها قد أعيد مرة أخرى فى أواخر عام ١٩٨٣ . ثم صدر قرار بالغاء وسائل منع الحمل على أســـاس أنها غير اسلامية . كما كانت هناك مئات من حالات الجلد أمام الجماهير أو تنفيذ حكم الاعدام علنا تنفيذا للعقوبات التى نص عليها الاسلام لمن يرتكب جريمة الزنا .

كما نفذت أيضا عقوبة الاعدام وغيرها من العقوبات الأخرى كعقاب على ارتكاب جريمة الشذوذ الجنسى . وكانت كل تلك العقوبات متمشية مع الآيات القرآنية التى قدمت وصفا للعلاقات الجنسية المسموح بها ونصت على العقاب لمن ينتهك القوانين الاسلامية فى هذا الصدد .

والعلاقات بين الرجال والنساء ينبغى أن تتوافق مع النصوص الوارد بالقرآن فى هذا الشأن :

« **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان عليا كبيرا** » سورة النساء آية رقم ٣٤ .

« **يوصيكم الله فى أولادكم . للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس** » سورة النساء الآية ١١ .

« **وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم** » سورة النساء الآية رقم ١٧٦ .

« **واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا** » سور البقرة آية رقم ٢٨٢ .

وهناك اهتمام كبير منصب على النساء من حيث هن أمهات . وهذا يتلاءم مع الخطة بعيدة المدى للحكومة الايرانية ألا هى تربية

جيل جديد من المسلمين الأتقياء من خلال تقديم أطفال حصلوا على تعليم اسلامى بالمدارس ونبعوا فى بيئة اســــلامية فى بيوتهم ومنازلهم ملتفين حول الأم المتميزة بالتواضع والحشمة فى سلوكها المخلصة لزوجها المرتدية دائما ملابس محتشمة أمام الناس .

والمبادىء الاسلامية يتم تطبيقها أيضا بشــكل متزايد على النواحى الاقتصادية فى الحياة . فالأموال التى يضعها المودعون فى البنوك لم تعد تخضع لمعدل فائدة ثابت حيث حل معدل الربح أو الخسارة من خلال معاملة المودعين كشركاء فى الأعمال المالية التجارية محل معدل الفائدة الثابت .

ومع ذلك فقد اتضح وجود بعض المشـــكلات الاقتصادية الصعبة . ومن بين هذه المشكلات مشكلة الاصلاح الزراعى(*) . اذ نجد أن جهود حكومة موسوى الرامية الى تنفيذ اصلاح زراعى راديكالى قد واجهت معارضة من جانب « مجلس الأوصياء » .. وكان المجلس (البرلمان) قد وافق فى أواخـــر عام ١٩٨١ على مشروع قانون تضمن أمورا من بينها فرض حد أقصى على ملكية الأراضى بحيث يصــبح الحد الأقصى متراوحا ما بين خمســة هكتارات وثلاثين هكتارا وفقا لنوعية الأرض وبعض العــوامل الأخرى . ولكن قسم العلماء الدينيين فى مجلس الأوصياء أعلنوا أن مشروع القانون هذا يعتبر غير اسلامى . وعارضــوا البند الوارد بهذا القانون والذى يخول للدولة أن تشــترى الأراضى الزائدة على الحد الأقصى . وقالوا أن هذا الاستيلاء الشامل على الأراضى الزائدة على الحد الأقصى يعنى أن الدولة سوف تشترى

(*) الاصلاح الزراعى : توزيع الأراضى الزراعية بموجب قانون حكومى توزيعا أكثر عدالة . **المترجم**

الأراضى التى حصل عليها فرد بطريقة شرعية . وهذا من شأنه أن يقوض حق الفرد فى امتلاك الممتلكات والعقارات وهو حق لا ينتهك وفقا لما هو وارد فى نصوص القرآن الكريم . وكان رأى « مجلس الأوصياء » نهائيا ولا رجعة فيه . فسبب هذا الرأى الاحباط لأولئك الذين كانوا متحمسين لفكرة اعادة توزيع الثروات تحت حماية ومظلة الاسلام ، وبالطبع رحب بذلك كبار ملاك الأراضى الذين كانوا يمتلكون ويديرون ممتلكات شاسعة كما رحب به أولئك التجار الذين كانوا قد اشتروا أراضى زراعية بهدف تدعيم وتعزيز وضعهم الاجتماعى . وعلى كل حال فان قرار « مجلس الأوصياء » لم يحدث تأثيرا على سياسة الحكومة الخاصة باستصلاح الأراضى البكر المملوكة للدولة بهدف تخصيصها وتوزيعها على الفلاحين المعدمين الذين لا يملكون أراضى على الاطلاق .

وبينما كانت هذه التغييرات تشق مجراها فى الحياة الايرانية فان جهودا أخرى كانت تبذل بشكل مستمر بهدف خلق جو اسلامى وبيئة اسلامية فى الشارع وفى وسائل الاعلام الكبرى وفى جبهة القتال ومن بين هذه الوسائل كتابة الشعارات على الحوائط بالشوارع . وكان ذلك يتم على نطاق واسع فى جميع المدن الكبرى والصغرى الايرانية بمعرفة الشباب الخومينى الثورى المحلى من خلال قائمة شعارات حكومية طويلة . وكانت هناك ثلاثة أنواع من الشعارات : شعارات سياسية وشعارات دينية وشعارات المجهود الحربى . وكانت الشعارات السياسية تشجب أعداء الحكومة فى داخل ايران وخارجها : الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى واسرائيل والمنافقين (بمعنى مجاهدى خلق) . أما الشعارات الدينية فتعبر عن الشكر والثناء والاجلال لشخصية دينية أو تقتبس آيات من القرآن الكريم أو تقتبس عبارات من أقوال الخومينى أو تشجب سلوكا معينا . ومن أمثلة الشعارات الدينية :

« الامام الحسين شهيدنا الثالث هو الأنوار الأمامية فى سفينة انقاذنا » . وكانت شعارات حرب الخليج مليئة بالثقة مثل : « الحرب والحرب حتى النصر » أو « الاسلام هو الانتصار » .

وكانت أجهزة الاعلام الكبرى تساعد على خلق الجو الاسلامى والبيئة الاسلامية من خلال الاكثار من المناسبات الدينية الاسلامية المهمة على مدار السنة ناهيك عن اذاعة الصلاة اليومية عبر الراديو والتليفزيون . وبالاضافة الى شهر رمضان بأكمله توجد العشرة الأيام من شهر محرم والأيام الستة الخاصة بالحج ومولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومولد الائمة الاثنى عشر علاوة على احتفالات عيد الفطر المبارك وعيد الأضحى المبارك . هذا بالاضافة الى أحداث الثورة الاسلامية : وتشمل : ١٠ أيام من الاحتفال بالثورة والاحتفال لمدة أسبوع بذكرى حرب الخليج والاحتفال بالأيام التى تم فيها انشاء الجمهورية الاسلامية والحرس الثورى الاسلامى وحملة التعمير وغير ذلك من مناسبات أخرى .

وأتيحت الفرصة للفرد المؤمن أن يدخل نفسه فى العملية الاسلامية من خلال الالتحاق بالجمعية الاسلامية الموجودة فى داخل المصلحة الحكومية التى يعمل بها أو الموجودة فى الحى السكنى الذى يسكن فيه . وكانت هذه الجمعيات الاسلامية تضطلع بمهام عديدة من بينها تحديد ومعرفة العناصر غير الاسلامية المتواجدة فى داخل المجتمع والمساعدة فى المجهود الحربى وتدعيم الثقافة الاسلامية وتشجيع الناخبين على المشاركة فى الانتخابات والاستفتاءات .

وكان العلماء الدينيون متواجدين فى مقدمة كل هذه الأنشطة . وكانت أعدادهم قد تزايدت كثيرا عن ذى قبل . اذ تشير التقديرات

الى أن عددهم يتراوح من ٩٠ ألفا الى ١٢٠ ألف عـــالم . هذا بالاضافة الى أنه توجد أعداد غير محصورة من الوعاظ والأئمة ومدرسى الدين الاسلامى بالمدارس ومنظمى المواكب الدينية فى جميع أنحاء القرى . وعلاوة على الكليات الدينية المتواجدة فى مدن قم ومشهد وتبريز وأصفهان وشيراز ويازد Yazd فقد أنشئت أيضا فى عام ١٩٨٣ جامعة الامام صادق الدينية فى مدينة طهران . وقد تزايدت أعداد الطلبة الدينيين الى ثلاثة أضعاف العدد السابق الذى كان فى فترة ما قبل الثورة والذى كان فى حدود ١٠ آلاف طالب .

كما وصلت أعداد المساجد الى ٢٢ ألف مسجد فى عام ١٩٨١ مع تضاعف عدد المساجد بالمدن عما كان عليه فى فترة ما قبل الثورة والتى كان يوجد خلالها ٥٦٠٠ مسجد فقط . وبالاضافة الى ممارسة الأنشطة الدينية بالمســـاجد فانها أصـبحت مراكز لتوزيع الطعام والوقود ومخـــازن تعاونية للمســـــتهلكين ومراكز التطوع من أجل الالتحاق بفيلق الحرس الثورى الاسلامى وغيره من المنظمات الاســـلامية الأخرى ومراكز لجمع التبرعات من أجل المجهود الحربى ومراكز لتعليم اللغة العربية وتقديم سلف وقروض بدون فوائد للمحتاجين . وفى أوقات الانتخابات كانت المساجد تستخدم عادة كلجان انتخابية .

واقتداء بالنبى محمد أنشـــــأ الخومينى محل اقامته ومكاتبه الادارية بجوار مسجد فى جمران Jamran وهى حى سكنى يقع فى شمال طهران العاصمة . ومن حيث هو « المرجع الأقصى » فانه كان يتربع على قمة الشبكة الدينية التى يكون فيها قائد الصلاة المحلى فى يوم الجمعة شخصية رئيســـــية مهمة . وفى كل يوم جمعة يقوم رجل الدين هذا بالقاء خطبة الجمعة الرئيســـية التى

تتناول ليس فقط الموضوعات الدينية ولكن أيضا المسائل السياسية والاجتماعية . وهو يساند بالدرجة الأولى القرارات الرسمية ويحفز الرأى العام لكى يؤيد الحكومة الاسلامية . كما تذاع بعض المقتطفات المهمة من خطبة يوم الجمعة عبر شاشات التليفزيون الوطنى . ووفقا لتوجيهات الخومينى واشرافه أصبحت لخطبة الجمعة أهمية سياسية بالغة . كما أن الخومينى الذى له سلطة تعيين أو فصل الخطيب الذى يلقى خطبة الجمعة كان يتلقى تقارير دورية من هؤلاء الوعاظ عن الحالة النفسية السائدة فى المدن الكبيرة أو الصغيرة التى يعيشون فيها .

والخومينى من حيث هو « المرجع المطلق » يصدر من وقت لآخر أحكاما دينية فى الموضوعات التى تكون لها أهمية كبيرة . وهو أيضا يشرف على تقديم الرعاية الدينية للمؤمنين . مثال ذلك أنه أصدر تعليماته « للجنة الحج » فى عام ١٩٨٣ لكى تقدم أموالا للمسلمين الفقراء الذين يرغبون فى الحج ولا يملكون الأموال اللازمة لتغطية نفقات الرحلة الى مكة المكرمة والمدينة المنورة . ومنذ تفجر الثورة الاسلامية ارتفع عدد الحجاج بشكل كبير . ففى عام ١٩٨٤ وصل عدد الحجاج الى حوالى ١٥٠ ألف حاج فى مقابل ٦٩٢٣٩ منذ ثمانى سنوات .

وعملية الأسلمة (اضفاء الطابع الاسلامى) هذه وازدهار المنظمات الاسلامية قد أحدث تأثيرا عظيما على حياة جميع الايرانيين . اذ أصبح معظمهم يؤيدون فى حماسة ذلك التغيير الاسلامى الذى أصطبغت به الحياة . أما الأقلية التى تتألف أساسا من الطبقات الاجتماعية فوق المتوسطة والعليا فكانوا يبدون تذمرهم من القيم الاسلامية والسلوك الاسلامى وتشير التقديرات الى أن هذه الأقلية تشمل حوالى نصف مليون أسرة . وهم على علاقة

مستمرة مع حوالى ١½ مليون ايرانى يعيشون بصفة دائمة فى الغرب . وهم قد فضلوا البقاء فى ايران ليس بسبب انهم متعاطفون مع الثورة الاســـــلامية ولكن لأنهم يرغبون فى حماية ممتلكاتهم وعقاراتهم الغالية الثمن . فمادام يوجد فى ايران أخ أو أخت أو ابن أو ابنة فان ممتلكات الأسرة كلها تكون فى مأمن وبعيدة عن التهديد بمصادرتها .

وعقب الفترات الأولى من تفجر الثورة الاســـــلامية قررت الحكومة عدم الاستمرار فى ممارســـــة الضـــغوط على الأغنياء العلمانيين لأسبابعديدة . منها أنهم قد حرموا من الاســـــتمتاع بالسلطة السياسية التى كانوا يتمتعون بها أثناء العهد البهلوى وتقبلوا الى حد ما أقدارهم ومصائرهم التى تغيرت . وأية ضغوط شديدة تمارس عليهم من شأنها أن تبطل مفعول الجهود الحكومية الرامية الى اجتذاب الايرانيين المهرة المدربين الذين يعيشـــــون بالخارج . هذا بالاضافة الى أن الحكومة الثورية الايرانية كانت واثقة من أنها من خلال ادخالها للتعليم الاسلامى قد بذرت بذورا من شأنها أن تحدث صـــــــراعا بين أطفال المدارس وآبائهم غير الاسلاميين . ومن ثم فقد كان الزمن أو المستقبل فى غير صالح أولئك الذين يرفضون الخضوع للطابع الاسلامى .

وعلى نحو مؤقت وجدت الطبقات الاجتماعية فوق المتوسطة من الأمور ما يجعلها تشـــــعر بالاغتراب والابتعاد عن الحكومة الثورية : مثل القيود المفروضة على زى النساء بالشوارع ومثل كمية الدعاية الهائلة التى تبثها الصـــحافة والاذاعة والتليفزيون ومثل الحظر المفروض بشكل مستمر على الموسيقى والرقص فى الأماكن العامة علاوة على عدم توافر المطاعم الفاخرة وأماكن اللهو المتازة بالاضافة الى خوفهم المستمر من الانتقام منهم اذا عبروا

عن استيائهم بصوت مسـموع . وفى نفس الوقت منهم أغفلوا حقيقة مهمة وجوهرية : وهى أن الحكومة الاسلامية تساند حق الملكية على أساس أنه حق لا يمكن انتهاكه على الاطلاق . وكان ذلك يعنى أن الاغنياء لهم مطلق الحرية فى تأجير الشقق والمنازل وشراء وبيع الممتلكات والحصـول على الأرباح التى تنجم عن الاستثمارات والودائع بالبنوك .

واتخذت الحكومة التدابير التى تضمن انتقال السـلطة فى سـلاسة وهدوء فى حالة وفاة الخومينى . ففى نوفمبر ١٩٨٥ أصدر « مجلس الخبراء » قرارا بأغلبية ساحقة ينص على الآتى : « ان آية الله حسين على منتظرى مقبول لدى الأغلبية العظمى من الناس لكى يصبح هو زعيم الأمة مستقبلا عقب وفاة الخومينى » . ومن بين العوامل التى ساعدت على اختيار منتظرى لكى يشغل أعلى منصب فى البلاد هو أنه كان يعارض شاه ايران معارضة عنيفة وقوية وعانى من السـجن والتعذيب وهو أمر لم يكابده شخصيات أخرى من كبار رجال الدين مثل آية الله مراشى نجفى Marashi-Najafi وآية الله جلبيجانى Golpaygani . لقد ولد منتظرى فى عام ١٩٢١ . وهو أصـغر فى السـن من الخومينى بـ ١٩ عاما . وكان تلميذا للخومينى فى مدينة قم وكانت قد بدأت حملة فى ربيع عام ١٩٨٢ تهدف الى تعميق شعبية منتظرى فى قلوب الناس . وفى خلال عام واحد بدأ وجهه يظهر مرارا وتكرارا على شاشات التليفزيون مثلما يظهر وجه الخومينى . وفى جميع الدواوين والمصالح الحكومية أصبحت صور منتظرى توضع الى جوار صورة الخومينى . اذ كان القادة الايرانيون يرغبون فى حسم مسألة الخلافة أثناء تواجد الخومينى على قيد الحياة بهدف ضمان الحصول على تأييد ومباركة الخومينى على ذلك الترشيح مما يسد الطريق أمام ظهور خلافات فى الرأى لها طابع التدمير

عقب وفاة الخومينى . وفى نوفمبر ١٩٨٥ نجد أن قرار « لجنة الخبراء » قد نظر اليه على أنه خطوة مهمة للغاية نحو ترسيخ أقدام الحكومة الاسلامية . ومنذ أكتوبر ١٩٨١ كانت الدولة تحكم بمعرفة نفس القادة الكبار : خمائينى رئيسا للجمهورية وموسوى رئيسا للوزراء وهاشمى رفسنجانى المتحدث الرسمى باسم البرلمان ، مما أدى الى تدعيم الاحساس بالاستقرار والاستمرارية والنظام بين رجل الشارع الايرانى .

وقد أظهرت الحكومة الايرانية الاسلامية دلائل تشير الى رغبتها فى توطيد علاقاتها مع دول الخليج المجاورة باستثناء العراق فقط .

السياسة الخارجية للثورة الايرانية الاسلامية :

ان سياسة ايران الخارجية تسير وفق المبادىء الواردة فى ثلاثة مواد بالدستور . اذ تنص احدى هذه المواد الثلاثة وهى المادة رقم ١٠ على أن « جميع المسلمين يشكلون أمة واحدة » وذلك وفقا للآية القرآنية : **(ان هذه أمتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)** سورة الأنبياء الآية رقم ٩٢ .

وحكومة جمهورية ايران الاسلامية تدرك أن من الواجب عليها أن تشكل سياساتها العامة على نحو يضمن تحقيق ادماج واتحاد كافة الشعوب المسلمة . ومن ثم ينبغى على الحكومة الايرانية أن تناضل وتكافح باستمرار من أجل أن تخلق وحدة سياسية واقتصادية وثقافية للعالم الاسلامى . أما المادة رقم

١٥٣ فهى أكثر تحديدا حيث تشـير الى أن السياسة الخارجية لجمهورية ايران الاسلامية ترتكز على « الدفاع عن حقوق جميع المسـلمين مع الالتزام بعدم الانحياز فيما يتعلق بالدول العظمى المهيمنة والمسيطرة على دول أخرى » . أما المادة رقم ١٥٤ فهى تتناول الالتزام المقدس بضرورة تصدير الثورة. اذ تنص هذه المادة على أن « جمهورية ايران الاسلامية ترى أن تحقيق الاسـتقلال والحرية والحكم العادل هو حق لكافة شعوب العالم . ومن ثم فان جمهورية ايران الاسلامية تقوم بحماية الكفاح العادل الذى يقـوم به المحـرومون والمظلومون فى كل ركن من أركان الكرة الأرضية » .

وقبل نشر واذاعة الدسـتور بشـهور عديدة كانت حكومة الخومينى قد أعلنت أن من واجبها الاسلامى المقدس أن « تعمل على تدعيم ومساندة حركات التحرر الوطنية التى تقوم بها الشعوب المحرومة فى أى مكان فى العالم » ، وقد أوضح ابراهيم يزدى Yazdi وزير خارجية ايران فى يوليو ١٩٧٩ « أن حركات التحرر هذه قد نبعت من ظروف داخلية وطبيعية وهى قد أرادت فقط الاسـتفادة من تجربة ايران فى مجال التحـرر الوطنى والحصول على القوة من خلال التأييد الايرانى لها » .

وبعدئذ لدى تزايد المحاولات الرامية الى الاطاحة بالحكومة الخومينية والتى تقوم بها قوى فى داخل ايران وخارجها أقر القادة الايرانيون بأن الآراء المتعلقة بتصدير الثورة الايرانية لم تكن مجرد أفكار أيديولوجية وانما كانت متسمة بالطابع البراجماتيقى العملى : اذ كان ذلك بمثابة وسيلة فعالة للدفاع عن الثورة من خلال اتخاذ موقف هجومى ومد تأثيرات الثورة الى خارج ايران . وقد أوضح الرئيس خمائينى هذه النقطة فى شهر نوفمبر ١٩٨٣ حيث قال :

« لو ظلت الثورة محصورة فى داخل نطاق الحدود الايرانية فانها سوف تتعرض للسقوط تحت ضغط هجوم الأعداء » .

ولكن كانت هناك أضـــرار واضـــحة تنجم عن اتباع هذا الأسلوب . فالجهود الايرانية الرامية الى تدعيم أى منظمة ثورية فى دولة أجنبية كانت تفسد العلاقات بين حكومة تلك الدولة وطهران مما زاد من عزلة ايران فى المجتمـــع الدولى . ومن ثم فان هذا الأسلوب لم يرحب به موظفو وزارة الخارجية برئاسة على أكبر ولاياتى وهو معتدل نسبيا اعتبارا من نوفمبر ١٩٨٠ فصاعدا .

وتم حسم هذا الصراع من خلال انشاء ادارة مستقلة فى داخل وزارة الخارجية تكون مهمتها التعامل مع حـــركات التحرر الوطنى . وبعدئذ أوكلت هذه المهام لهيئة مستقلة تماما من وزارة الخارجية تسمى .. المنظمة العالمية لحركات التحرير الاسلامية » . وكان مقر هذه المنظمة فى مدينة قم Qom وكانت تعمل تحت رئاسة آية الله منتظرى . ومن بين الأعضاء البارزين المنتسبين لهذه المنظمة : حزب الدعوة الاسلامية الذى له نشاط ملحوظ فى العراق والكويت وجبهة التحرير الاســـــلامى بالبحرين والمنظمة الثورية الاسلامية لشـــــبه الجزيرة العربية المتمركزة فى داخل العربية السعودية وحزب الله ومنظمة أمل الاسلامية فى لبنان ، وجيش الحراس ومنظمة النصر فى أفغانستان .

ووجدت الأحزاب الثورية الاسلامية المتواجدة فى دول الخليج نفسها فى حالة من التوافق مع أفكار الخومينى وأعماله . ووافقوا على تفسيره للقرآن الخاص بأن السلطة الوراثية هى أمر لا يجيزه الاسلام ولا يقره . كما أنهم وافقوا على شجبه لحكام الخليج من حيث هم رجال فاسدون يتبنون ما يسميه الخومينى « بالاســـلام الأمريكى » أو « اسلام الذهب » . وكان الخومينى ينتقد فى قسوة

سياستهم الرامية الى استنزاف موارد البترول الغالية الخاصة ببلادهم من أجل تلبية المطالب الأمريكية الآخذة فى التصاعد والتزايد باستمرار ، وكان يصف أمريكا دائما بأنها بمثابة الشيطان الأعظم والمصدر الرئيسى للفساد على وجه الكرة الأرضية . وكان الخومينى يشجبهم ويستنكرهم لأنهم يحرمون رعاياهم من القيام بأى دور فى عمليات صنع القرار فى الدولة . وكان لخلق نظام برلمانى فى ايران أثر كبير فى جعل النظام الجمهورى جذابا من وجهة نظر الكثيرين الذين يعيشون فى دول الخليج التى تتبع النظام الملكى .

وكانت رسالة الخومينى جذابة بصفة خاصة من وجهة نظر جماهير الناس الشيعة والعلماء الشيعة فى دول الخليج . وقد جعل هذا البحرين أكثر الدول تعرضا للفوران الثورى . فرغم أن الشيعة بالبحرين يشكلون ٦٠٪ من السكان البالغ عددهم الاجمالى ٤٠٠ ألف نسمة فان أسرة خليفة السنية هى التى تحكم البلاد منذ عام ١٩٨٣ . وكان حاكم البحرين الحالى الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة قد حل الجمعية الوطنية المنتخبة وعلق العمل بالدستور فى أغسطس ١٩٧٥ وأطاح بكل أفراد المعارضة . فقامت الثورة الايرانية فى أوائل عام ١٩٧٩ بمساندة وتدعيم المعارضة فى البحرين . ونظرا لأن الحاكم بالبحرين كان يدرك مدى الشعبية الكبيرة التى يتمتع بها الخومينى والثورة الاسلامية الايرانية بين الشيعة الذين يشكلون غالبية وأكثرية بين السكان فانه فرض حظرا على كافة الأنباء التى تتعلق بالخومينى أو الثورة الايرانية . وقامت قوات الأمن بفض مظاهرة أقيمت فى ذكرى يوم القدس (١٥ مايو) مع القاء القبض على ٩٠٠ من المتظاهرين . وفى شجاعة باسلة قام أربعون من كبار علماء الدين باصدار

دستور يضم ١٢ بندا يطالبون فيه بأمور كثيرة من بينها اقامة جمهورية اسلامية فى البحرين . فما كان من الحاكم الا أن قام بقمع المظاهرات التى نظمها الطلبة وآخرون تأييدا لذلك الدستور علاوة على طرد السيد هادى المدرسى وهو أحد زعماء الشيعة البارزين .

ومع احتجاز الرهائن الأمريكيين فى طهران فى نوفمبر ١٩٧٩ تزايد التوتر السياسى بالمنطقة . فعقد وزراء الاعلام لدول الخليج اجتماعا فى الرياض وقرروا السير فى خط اعلامى موحد فيما يتعلق بالثورة الايرانية مع التركيز على « التقليل من أهمية الأنباء الواردة من طهران والتقليل من شأن الثورة الايرانية ووصفها بأنها ليست ثورة اسلامية شاملة وانما هى مجرد ثورة شيعية محضة لا أكثر ولا أقل . ثم بعدئذ التقليل أكثر من أهميتها ووصفها بأنها ثورة مقصورة على الشيعة فى ايران فقط » .

والجدير بالذكر أن العربية السعودية كانت هى المحرك الرئيسى فى الدعوة الى هذا المؤتمر وصياغة التوصيات الصادرة عنه . اذ كانت قد شهدت توا مظاهرات لصالح الخومينى وتمردات من جانب المواطنين الشيعة السعوديين المقيمين فى اقليم الحساء Hasa الغنى بالبترول ناهيك عن الاستيلاء على المسجد الحرام بمكة بمعرفة أصوليين عسكريين . وقد جعل هذا القادة السعوديين متيقظين للغاية من الناحية الأمنية مما دفعهم الى السعى الى ابرام اتفاقيات أمن داخلية مع الكويت والبحرين وقطر ودولة الامارات العربية المتحدة وعمان. وقد اتخذ هذا الموضوع أهمية خاصة لدى تفجر حرب الخليج فى سبتمبر ١٩٨٠ . وقد نصحت بريطانيا وفرنسا السعوديين بخلق كيان يتخطى الحدود القومية ويتألف من دول الخليج ويقوم هذا الكيان بمناشدة

الغرب من أجل مساعدته عسكريا فى حالة وقوع اى تهديدات خطيرة نابعة من الداخل أو الخارج ضد دولة أو أكثر من الأعضاء فى هذا الكيان . وهكذا نرى أنه فى أعقاب نشوب الثورة الايرانية وحرب الخليج بزغ الى الوجود « مجلس التعاون الخليجى GCC» فى مايو ١٩٨١ بهدف تنسيق الأمن الداخلى وجلب الاسلحة والاقتصاد الوطنى للدول الأعضاء الستة بالمجلس وهى : العربية السعودية والكويت والبحرين وقطر ودولة الامارات العربية المتحدة وعمان .

وبلغت المشاعر المناهضة لايران قمتها بالمنطقة فى يناير ١٩٨٢ عندما القت حكومة البحرين القبض على ٦٠ شخصا اتهموا بالتآمر لقلب نظام الحكم . وادعت حكومة البحرين أن هؤلاء المتمردين كانوا قد تلقوا تدريبات عسكرية على أيدى السيد هادى المدرسى الذى استقر به المقام فى ايران عقب طرده من البحرين بسبب تزعمه لجبهة التحرير الاسلامية للبحرين . وقال رئيس الوزراء البحرينى : « ان الحكومة الايرانية تقوم باثارة وتحريض الشيعة بالبحرين والخليج وتبث فيهم شعارات ثورية اسلامية .. بل تدربهم على استخدام الأسلحة وأعمال التخريب ثم ترسلهم الى بلادهم الأصلية لكى يبثوا الفوضى ويدمروا الأمن والنظام » . وسارع الأمير نايف وزير الداخلية السعودى بالذهاب الى المنامة عاصمة البحرين وعرض على السلطات فى البحرين امدادها بقوات سعودية . وقال : « ان خطة التخريب هى من تدبير الحكومة الايرانية وهى كانت موجهة ضد العربية السعودية » . وكان من الواضح أن ملوك الخليج بدأوا يقتربون أكثر من بعضهم البعض لمواجهة التدمير الذى تبثه وتشجع عليه القيادة الثورية الايرانية وذلك بهدف الحفاظ على حكمهم الفاشستى الاستبدادى . كما كانوا يدركون ايضا أن أية دلائل تشير الى موافقتهم على اشراك

رعاياهم فى الحكم سينظر اليها على أنها دليل على ضعف موقفهم ولذلك أصروا على مداومة احتكار السلطة والانفراد بها وعدم اشراك شعوبهم فى الحكم .

ومع ذلك كان ينبغى عليهم أن يضعوا فى الاعتبار توازن القوى فى المنطقة : وكان ذلك أمر يتوقف على تطورات أحداث الحرب الايرانية العراقية . وعندما بدأت ايران تحرز انتصارات عسكرية على جبهة القتال فى ربيع عام ١٩٨٢ أخذ أعضاء مجلس التعاون الخليجى GCC يهتمون كثيرا بالأقوال أو الأفعال التى تصدر عن طهران . وكان الهدف الرئيسى الذى تسعى اليه الجمهورية الاسلامية الايرانية هو ابعاد ملوك الخليج عن المعسكر الأمريكى بحيث يتوقفون عن الرضاعة من ثدى المعسكر الأمريكى . ووجه الخومينى نداء لدول الخليج لكى تتوقف عن طاعتها العمياء للافاقين النهابين الأمريكان وغيرهم من الهباشين الدوليين الذين ينبهون الثروات فى ضراوة ووحشية . وقال فى خطاب موجه لشعب الخليج : « ان حكومة وشعب ايران يرغبون فى تحريركم من هذا العبء المخزى الذى يثقل كاهلكم بسبب وقوعكم تحت نفوذ وسيطرة الدول الكبرى . وهذه الدول الكبرى تريد أن تخرج بالقوة الذهب الأسود (البترول) من أفواهكم » .

وبسبب الخوف من احراز انتصارات أخرى ايرانية فى الحرب وما يترتب على ذلك من نتائج ضارة بالنسبة لاستقرار حكوماتهم سارع وزراء مجلس التعاون الخليجى الى عقد اجتماع بالرياض فى ٢ يونيو ١٨٨٢ أسفر عن طرح خطة سلام : وقف لاطلاق النيران على الفور وانسحاب الطرفين المتحاربين الى حدود معاهدة ١٩٧٥ ودخول المتحاربين فى مفاوضات تهدف الى حل المشاكل الرئيسية وانشاء « صندوق الخليج لاعادة التعمير »

بأموال من دول مجلس التعاون الخليجى بهدف تعويض كل من ايران والعراق عن الخسائر المادية التى لحقت بهما من جراء الحرب . الا أن هذا الجهد قد ضاع هباء وسدى مع الغزو الاسرائيلى للبنان بعد مرور أيام قليلة .

وتسبب تقدم ايران فى داخل أراضى العراق فى شهر يوليو علاوة على تهديدات ايران بغلق مضيق هرمز فى خلال الشهر التالى فى شعور دول مجلس التعاون الخليجى بالهم والقلق والاحباط الشديد . وفى سبتمبر تبنت الجامعة العربية التى تضم ٢٢ دولة عربية خطة السلام التى سبق أن عرضها مجلس التعاون الخليجى ولكن طهران رفضت خطة السلام هذه واستمرت فى حربها ضد العراق التى كانت آنئذ تحصل على مساعدات مالية من السعودية والكويت . وظل الخومينى يوجه نداءات لدول الخليج باسم الاسلام والعقيدة الاسلامية اذ قال فى مقابلة أجريت معه وأذيعت فى راديو طهران من اذاعة راديو الخليج الموجهة من ايران لدول الخليج فى يونيو ١٩٨٣ : « ان ايران الاسلامية على استعداد لتقديم يد العون والمساعدة لدول المنطقة لتحريرها وانقاذها من القوى الأجنبية . ونحن نؤمن بأن الدول الكبرى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية تحاول منع قيام أى وحدة بين الدول الاسلامية وخاصة فى منطقة الخليج التى تعتبر منطقة مهمة وحساسة فى العالم » .

ولكن أسباب التصدع الذى يحدث بين صفوف المسلمين فى الخليج وفى غيره من الأماكن الأخرى بالعالم يرجع الى التصرفات والأعمال التى تقوم بها طهران وذلك من وجهة نظر الحكومة السعودية ووسائل الاعلام السعودية . اذ أشارت جريدة « المدينة » اليومية السعودية فى يوليو « الى أن هذه الحكومة

الايرانية قد حاولت بث المذهب الشيعى بين المسلمين ليس فقط من خلال سياساتهم ولكن ايضا من خلال مساجدهم . والحكومة الايرانية الخومينية تبعث بعمـــــلاء لها فى كل مكان بهدف اثارة الفوضى والاضراب » .

وهنا نجد امامنا دولتين أصوليتين تستقى كل منهما مفاهيمها من نفس الكتب الاسلامية المقدسة وتؤسس كل منهما شرعيتها على الاســـــلام وتتبادلان النقد الساخر العنيف ، اذ تتهم الدولة الأحدث وهى ايران الدولة الأقدم (السعودية) بالانحراف عن العقيدة الاسلامية بينما الدولة الأقدم تتهم ايران الثورية بمحاولة خلق الفوضى فى داخل الدول الاسلامية تحت ادعاء تدعيم قضية الاســــلام .

ولدى دخول حرب الخليج عامها الرابع فى أواخر سبتمبر ١٩٨٣ أعلن راديو الرياض أن تدريبات حربية مشتركة لدول مجلس التعاون الخليجى ستتم فى صحراء دولة الامارات العربية المتحدة فى أوائل أكتوبر وهو اجراء ضرورى نابع عن « الأحداث المعقدة المثيرة للقلق الناجمة عن الحرب العراقية الايرانية وعن الموقف فى لبنان » . وقد أشارت التقارير فى كل مكان الى أن القوات المشاركة فى التدريبات العسكرية ستكون بمثابة نواة « لقوة العمل السريع العسكرى لمجلس التعاون الخليجى » . وتساءل راديو طهران فى اذاعته الموجهة باللغة العربية وذلك فى ٢٦/٩/١٩٨٣ « ومن الذى سيواجه قوة العمل السريع العسكرى لمجلس التعاون الخليجى ؟ » وأضاف الراديو « تماما مثلما أن تشكيل مجلس التعاون الخليجى كان يقصد به مواجهة المد الاسلامى فان هذه المناورات تتم أيضا لنفس الهدف » .

ولكن ترد ايران على ذلك بأنها لم يكن أمامها سوى اللجوء الى زيادة تدعيمها لحركات التحرر الاسلامية فى دول مجلس التعاون

الخليجى . وعلى كل حال كانت هناك تقارير تصدر من وقت لآخر تتعلق بنزول بعض العملاء الايرانيين على شـــــواطىء البحرين والكويت سرا حيث يوجد بهما ٣٠٪ من السكان من الشيعة والعدد الاجمالى للسكان بهما ٧٠٠ الف نسمة . وتعتقد الأغلبية السنية التى تعيش فى الكويت أن كلمة الشيعة أصبحت مرادفة لكلمة ايران : فكلتا الكلمتين تنطويان على الخطورة وعدم الاستقرار ". وقد أشار وزير كويتى فى أواخر ديســـــمبر " الى أن الثورة الايرانية لا يبدو أنها تتقبل شرعية نظام حكومتنا . فالثورة الايرانية تصدر المذهب الشيعى تحت ستار البان ــ اسلام «Pan-Islam» وبدأت الحكومة الكويتية تطرد الشيعة الذين يعملون فى المراكز المهمة والحساسة بالشرطة والجيش .

وفى ١٢ ديسمبر انفجرت قنابل فى سفارة أمريكا وسفارة فرنسا وفى مبنى ســـكنى يضم خبراء الصواريخ الأمريكيين وفى مطار الكويت . فقامت الحكومة الكويتية بالقبض على ١٨ من المقيمين بالكويت ممن يحملون جنسيات عراقية ولبنانية . وأشارت التقارير الى انهم ينتمون « لمنظمة الدعوة » العراقية وهى المنظمة التى لها روابط وعلاقات بـــ « المنظمة العالمية لحركات التحرير الاسلامية » التى تتخذ من مدينة قم Qom مقرا لها . وافترضت العراق أن هذه الانفجارات قد تمت بناء على أوامر صادرة عن الحكومة الايرانية ومن ثم قامت بضرب خمس مدن ايرانية بصواريخ أرض/أرض . الا أن هذا الهجوم الصاروخى زاد من تصميم ايران على مواصلة الكفاح المسلح .

ونظرا لأن ايران لم تظهر أية دلائل تشير الى موافقتها الى وقف الحرب فان العواصم الخليجية بدأ تموج بالمزيد من الرعب والخوف اليأس . كما أن اســـــتيلاء ايران على جزر مجنـــون

Majnoon العراقية الغنية بالبترول فى خلال هجومها الشامل الذى شــنته فى فبراير ١٩٨٤ قد جعل أعضاء مجلس التعاون الخليجى يدركون أن الوقت ليس فى صالح العراق . وعقد وزراء مجلس التعاون الخليجى اجتماعا فى الرياض فى منتصف مارس وبذلوا محاولة أخرى ترمى الى التدخل والوساطة لانهاء الصراع المحتدم بين ايران والعراق . ولكن محاولاتهم باءت بالفشل شأنها شأن المحاولة السابقة .

وعلى طول تلك الفترة ظلت خطوط الاتصالات مفتوحة بين طهران والرياض . والسبب الرئيسى فى ذلك هو أن العربية السعودية كانت ملتزمة بالسماح للحجاج الايرانيين بالمجىء الى السعودية لتأدية فريضة الحج فى كل عام . وكانت هناك خلافات فى الرأى بين الرياض وطهران فيما يتعلق بحق الحجـــاج فى الصياح بشعارات لصالح الوحدة الاسلامية وضد أعداء الاسلام : أمريكا والاتحاد السوفيتى واسرائيل حيث كانت الرياض تصـــر على أن استخدام الحج فى أغراض سياسية يتعارض مع تعليمات النبى محمد للمسلمين بأن يحجموا عن الأخلاق السيئة والعنف أثناء تأدية فريضة الحج المقدسة . وبعد مناقشات حامية ومطولة وبعد نشـــوب حالات من العنف بين الحجاج الايرانيين وقوات الأمن السعودية تم تسوية الموقف فى عام ١٩٨٣ عندما سمحت الرياض للحجاج الايرانيين بحمل شعارات ضد أعداء الاسلام فى ميادين معينة فى داخل مكة والمدينة المنورة . وبعد أن قدم السعوديون هذا التنازل ظنوا أن الفرصة قد أصبحت سانحة وملائمة لتحسين العلاقات مع طهران . وفى منتصف يوليو قام مكتب الحج السعودى بتوجيه الدعوة لهاشـــمى رفسنجانى لأداء فريضة الحج فى شهر سبتمبر المقبل . فوافق الزعيم الايرانى على هذه الدعوة . وعلق قائلا : « قد تكون مثل هذه الرحلات مفيدة ومثمرة » .

وبعد أسابيع قليلة أعلن الخومينى عن شعوره بالحزن والاحباط بسبب العزلة الشديدة التى تعيش فيها ايران . وقال : « لم يعد لدينا سوى عدد قليل من الأصدقاء لا يزيد عددهم على عدد أصابع اليد الواحدة » وبعد شهرين أعلن أن عدم تكوين علاقات مع معظم الدول « يعتبر أمرا متعارضا مع المنطق والعقل والشريعة الاسلامية » .

ويبدو أن الخومينى قد أدرك أن ايران بحاجة الى توجيه كل طاقاتها من أجل هدف واحد الا وهو الاطاحة بالرئيس العراقى صدام حسين وبالتالى ينبغى عليها فض النزاعات بين ايران ودول الخليج . ومن العوامل الأخرى التى دفعت الخومينى الى اتخاذ موقف براجماتيقى عملى هو أن الحكومة الايرانية بدأت تدرك أن هناك ميزة كبيرة فى تخفيف التصلب والعناد فى جبهة القتال مع اللجوء الى المرونة فى العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع جيران ايران .

هذا بالاضافة الى ظهور فتور فى الحماسة الثورية فى ايران، بينما ثقة حكام الخليج فى استمرار أسرهم الملكية الحاكمة فى حكم البلاد والتى كانت قد اهتزت كثيرا فى خلال الفترات الأولى من الثورة الايرانية قد تم احياؤها ودب فيها العزم والقوة . هذا علاوة على أن ملوك الخليج بعد أن نجوا من العاصفة التى اكتنفت الفكر الجمهورى الاسلامى بدأوا يشعرون بالأمن بعض الشىء وأصبحوا يميلون الى تطبيع العلاقات مع طهران . بالاضافة الى ان ملوك الخليج شعروا بالارتياح الكبير عندما لم يتحقق ذلك الكابوس الرهيب الخاص باغلاق مضايق هرمز . والأكثر أهمية من ذلك أنهم اعتقدوا أن خليج هرمز لن يغلق على الاطلاق . حيث بدا عليهم أنهم يثقون فى ايران وبصدقون كلامها عندما قالت أنها ترغب فى استمرار فتح هذا الممر المائى المهم .

وكانت تلك هى الخلفية التى شجعت وزير الخارجية السعودى الأمير سعود الفيصل على زيارة طهران فى مايو ١٩٨٥ ومقابلة الرئيس خمائينى . ورغم أن مساعيه الرامية الى وقف اطلاق النار فى حرب الخليج خلال شـــهر رمضـــان لم تنجح فان مبادرته قد رسخت الحوار على أعلى المستويات .

وفى ديســـمبر ١٩٨٥ قام ولاياتى وزير الخارجية الايرانى بزيارة السعودية ردا على الزيارة التى قام بها سعود الفيصل لطهران . وتقابل فى الرياض مع سعود الفيصل وزير الخارجية السعودى كما تقابل مع الملك فهد . وطبقا لما أوردته وكالة الأنباء الايرانية الاسلامية فان الملك فهد أشار الى أن بلاده تحترم الأمة الايرانية وزعماءها وقادتها كما أشار الى أن الحكومة الســـــابقة (حكومة شاه ايران) كان تهمل النواحى الاسلامية . وأوضح الملك فهد أهمية تحقيق الوحدة بين المسلمين وأشار الى أن ايران والسعودية يمكن لهما أن تلعبا دورا مهما للغاية فى مجال تدعيم الوحدة الاسلامية . ثم ألقى ولاياتى وزير الخارجية الايرانى كلمة أوضح فيها أن التعايش السلمى مع الجيران هو من المبادىء البالغة الأهمية فى الســـياسة الخارجية الايرانية . وبعدئذ وقفت ايران والسعودية الاذاعات المعادية بينهما التى كانت تبث عبر الراديو فى كلتا الدولتين مما أدى الى المزيد فى التحسن فى العلاقات بين الدولتين .

وبدأت ايران فى تحســـــين علاقاتها مع جميع دول الخليج باستثناء الكويت . بل ان علاقات طهران مع الكويت ازدادت سوءا ومرارة فى مايو ١٩٨٥ عنـــدما قامت مجموعة من الأصـــــوليين الاســـلاميين الذين هم من أصـــل لبنانى وعراقى بمحاولة فاشلة لاغتيال الحاكم الكويتى . وانكرت ايران تورطها فى هذا الحادث

ومع ذلك اصبح الايرانيون المقيمون بالكويت هدفا رئيسا حيث دأبت الحكومة الكويتية على ترحيلهم من الكويت .

وشنت ايران هجوما ناجحا فى فبراير ١٩٨٦ على شبه جزيرة الفاو Fao التابعة للعراق والواقعة فى أقصى الجنوب من العراق فأثار ذلك القلق الشديد لدى الكويتيين . وشجبت الكويت الهجوم الايرانى ووضعت قواتها فى حالة من الاستنفار والطوارىء القصوى وراحت تزيد من تقوية علاقاتها مع العراق .

وبينما كان الايرانيون يستعدون للاحتفال بالعيد السابع لقيام الجمهورية الاسلامية فى أول ابريل ١٩٨٦ وجه الخومينى نداء قويا من أجل حشد وتعبئة كافة الرجال القادرين على القتال بهدف الاستمرار فى القتال والحرب الى أن يتم اسقاط صدام حسين . وقال الرئيس موسوى أن أمريكا هى العدو الرئيسى لايران ووصفها بأنها الشيطان الأعظم وأشار قائلا : « ولسوف نستمر فى الكفاح ضد التواجد الأمريكى فى ايران وفى منطقة الخليج وفى جميع أرجاء العالم » .

وفى مواجهة مثل هذا التصميم رأت السعودية أن من الحكمة أن تستمر فى علاقاتها الهادئة مع ايران . وأصبح هذا الاتجاه واضحا أثناء اجتماع منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبيك OPEC) فى أغسطس . اذ وقفت العربية السعودية الى جوار ايران فيما يتعلق بالخطة الرامية الى تخفيض الحصص بالنسبة لكافة الأعضاء متخلية بذلك عن سياستها التى اتبعتها منذ فترة طويلة وهى الوقوف بمعزل عن ايران فى اجتماعات الأوبيك . وقبل اجتماع الأوبيك فى أكتوبر ١٩٨٦ قام وزير البترول الايرانى بزيارة الرياض وأجرى محادثات ودية مع الملك فهد . ونتيجة لذلك

تم التوسع فى الحد الأقصى لانتاج البترول الايرانى أثناء مؤتمر الأوبيك . والأهم من ذلك أن الملك فهد قام بطرد الشيخ أحمد زكى اليمانى وزير البترول السعودى الموالى للأمريكان والذى استمر شاغلا لهذا المنصب على مدى ٢٤ عاما متواصلة بسبب فتوره ازاء الاستيراتيجية الايرانية الرامية الى رفع سعر البترول من خلال تخفيض انتاج البترول .

وبعد ذلك بفترة قصيرة قام الملك فهد بحركة رمزية أيديولوجية بالغة الاهمية بهدف ترضية طهران اذ أطلق على نفسه اسم « خادم الحرمين » بدلا من لقب « صاحب الجلالة » . ويقصد بالحرمين هنا : مكة المكرمة والمدينة المنورة . وقد استقبلت طهران ذلك بترحاب شديد .

وكانت ايران تود أن تؤيدها الرياض فى مطلبها الخاص بنقل اجتماع القمة القادم لمنظمة المؤتمر الاسلامى من الكويت نظرا لأن الكويت متحالفة بعمق مع عدوها فى حرب الخليج . ولكن الرياض لم توافق على ذلك . وتم عقد اجتماع القمة فى الكويت فى أواخر يناير ١٩٨٧ تحت اجراءات أمن مشددة للغاية . وأصدر مؤتمر القمة توصية بوقف اطلاق النار فى حرب الخليج بين ايران والعراق ولكن المؤتمر لم يرسل وفدا الى العاصمتين : بغداد وطهران بعكس ما كان يحدث عادة من قبل مما جعل ايران ترفض هذه التوصية .

ونظرا لأن الكويت كانت تقدم العون المالى والغذائى والطبى للعراق بهدف تدعيمه فى حربه ضد ايران فقد حرصت ايران على جعل السفن الكويتية هدفا رئيسيا أثناء هجماتها فى الخليج . ولكى تحمى الكويت منشآتها البترولية وناقلات البترول الضخمة التابعة لها فانها لجأت الى الدول الأعضاء الخمس التى لها عضوية دائمة

فى مجلس الأمن : أمريكا والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا والصين . ووافق السوفيت على تأجير ثلاث من ناقلات البترول التابعة لها للكويت وبعدئذ وافقت أمريكا على عقد اتفاقية تنص على اعادة تسجيل عدد ١١ ناقلة بترول كويتية على أنها أمريكية مع توفير الحماية لها بمعرفة البحرية الأمريكية . وسقط صاروخ عراقى بطريق الخطأ على فرقاطة أمريكية فى أواخر مايو ١٩٨٧ فاتخذت وشنطون ذلك ذريعة لتدعيم تواجدها العسكرى فى الخليج فزادت من سفنها الحربية الى ١٥ سفينة بعد أن كان عددها أربع سفن فقط علاوة على وضع خطط ترمي الى زيادة العدد الى ٤٠ سفينة حربية . وفسرت ايران هذه الحركة من جانب أمريكا على أن أمريكا ترغب فى التدخل عسكريا لصالح العراق لكى تحرم ايران من الانتصارات التى حققتها فى حرب الخليج . وهذا التواجد البحرى الأمريكى الآخذ فى التزايد بشكل درامى قد جعل ملوك الخليج الموالين للغرب يشعرون بالمزيد من الثقة فى أنفسهم وخاصة ملك العربية السعودية . واستنكرت طهران هذه التصرفات الأمريكية فى عنف شديد وراحت تردد موقفها ورأيها السابق : وهو أن أمن الخليج هو مسئولية دول منطقة الخليج ولذلك ينبغى على كافة الدول الأجنبية أن تنسحب من الخليج على الفور . وتصاعد التوتر بين طهران ووشنطون عندما اصطدمت ناقلة بترول أمريكية كويتية رافعة العلم الأمريكى فى ٢٤ يوليو بلغم بحرى (يفترض أن تكون ايران هى التى بثت ذلك اللغم) أثناء اتجاهها نحو الكويت .

وأثناء هذا الجو المشحون بالتوتر وصل الى مكة ١½ مليون مسلم أجنبى من بينهم : ١٥٥ ألف حاج ايرانى من أجل تأدية فريضة الحج السنوية — وهى فريضة تستغرق طقوسها ستة أيام — ابتداء من ٣١ يوليو . وقبل ذلك بأيام قليلة كان الخومينى قد ألقى

خطابا مطولا أشار فيه الى بعض التوجيهات التى ينبغى أن يلتزم بها الحجاج . وربط فى خطابه بين الرسالة السياسية للوحدة الاسلامية التى تواجه الدول الكبرى والفكرة الاسلامية التى تنادى باستنكار الكفرة والملحدين وهى احدى الأفكار الرئيسية التى يرتكز عليها التوحيد فى الدين الاسلامى والتى يمارسها المؤمن أثناء تأدية طقوس فريضة الحج . وحث الخومينى الحجاج على استنكار الكفرة والملحدين الذين ترأسهم أمريكا المجرمة على هيئة مظاهرات ومسيرات . وأذيع خطاب الخومينى مرات عديدة يوميا فى المنطقة الفضاء الشاسعة التى تضم الحجاج الايرانيين فى داخل مكة .

ومثلما كان يحدث فى الماضى قام وزير الحج السعودى بالتباحث مع قائد الحجاج الايرانيين حجة الاسلام مهدى كروبى Karoubi فى التفاصيل المتعلقة بالمظاهرة الايرانية والموكب الايرانى بالاضافة الى المراجعة على مضمون الشعارات والعبارات المكتوبة على الاعلام الايرانية . وكما كان عليه الحال من قبل كانت هناك ثلاثة شعارات موجهة ضد الدول الشيطانية : امريكا والاتحاد السوفيتى واسرائيل وثلاثة شعارات أخرى من أجل المسلمين المظلومين : أولئك المتواجدين فى افغانستان وفلسطين ولبنان . وتقرر أن تبدأ المظاهرة فى فترة ما بعد الظهر لمدة ساعتين فى مقر بعثة الحج الايرانية بمكة ويعقب ذلك مسيرة لمسافة نصف ميل الى أن تصل الى ميدان يقع على مسافة ميل من المسجد الحرام ثم ينصرف المشاركون فى المسيرة مع غروب الشمس فى حوالى الساعة ٧٫١٥ مساء .

وفى يوم ٣١ يوليو الموافق يوم الجمعة سارت المظاهرة فى هدوء وسلام . ولكن عندما أصبحت طليعة المسيرة التى تتألف من ١٠٠ الف ايرانى و١٠٠ من غير الايرانيين بقيادة نساء وحجاج

معوقين وجالسين فى كراسى متحركة على مسافة ٥٠٠ ياردة من نقطة النهاية المتفق عليها من قبل تبين للحجاج أن تلك النقطة قد سدتها الشرطة السعودية . فتصاعدت مشاعر الغضب ونشب التمرد . وعندما حاول المشاركون فى المسيرة التقهقر والعودة من حيث أتوا اكتشفوا أن أماكن الخروج قد سددتها الشرطة السعودية أيضا . واستمر الحصار المفروض على المشاركين فى المسيرة لمدة ساعة . وخلال فترة الساعة هذه تعرض المشاركون فى المسيرة للضرب بالعصى من جانب رجال الشرطة علاوة على فتح الغاز المسيل للدموع عليهم واطلاق وابل من الرصاص المطاطى عليهم . كما سمعت طلقات صادرة عن مدافع وبنادق فحدث هرج ومرج وفوضى مما أسفر عن موت المئات من الحجاج تحت الأقدام بسبب الزحام .

وطبقا لما قالته الرياض فان الايرانيين قادوا مظاهرة سياسية فيها انتهاك للمقدسات وبعدئذ فروا مذعورين مما تسبب فى موت ٤٠٢ حاج بينهم : ٢٧٥ ايرانيا و٤٢ غير ايرانى و ٨٥ سعوديا بسبب الاختناق والانسحاق تحت الاقدام أثناء الهلع والذعر . ولكن طهران أفادت أن الشرطة السعودية المسلحة فتحت النيران على الحجاج فى هجوم مفاجىء وغير متوقع مما أسفر عن موت ٣٢٢ ايرانيا حيث مات الكثيرون منهم بسبب الاصابة بطلقات الرصاص .

وصدر بيان رسمى ايرانى تعقيبا على مأساة مكة حيث قال هاشمى رفسنجانى « نحن من حيث اننا جنود الله والمنفذون للمبادىء المقدسة نتعهد بأن ننتقم لموت هؤلاء الشهداء بأسرع ما يمكن » وأضاف معلنا أن إيران « ستقوم بتحرير الأماكن المقدسة من الوهابيين العابثين الأشرار البغضاء ». واعتقد الخومينى أن أمريكا هى التى تقف وراء هذه الأحداث التى نفذها « أولئك الناس

المنحرفون زعماء الفتنة فى العربية السعودية أولئك الخونة للأماكن المقدسة » . وشنت القيادة الايرانية حملة شعواء ضد الحكام السعوديين مع انشاد الناحبين المرتدين لثياب الحداد « اقطعوا يدى الملك فهد » . وقام مراســــلو وكالة الأنباء الاســـــلامية الجمهورية بعقد لقاءات مع عشرات من الحجاج غير الايرانيين لدى عودتهم الى بلادهم عقب انتهاء مراسم الحج فيما يتعلق بأحداث « يوم الجمعة الدموى » التى حدثت فى مكة بهدف البرهنة على أن الحجاج الايرانيين كانوا يتصرفون بطريقة ســــليمة للغاية وأن الشرطة السعودية هى التى شنت الهجوم المدبر عليهم ، كما أرسلت طهران وفودا الى العديد من الدول الاســــلامية لاقناع رؤساء تلك الدول بأن اللوم يقع على القادة السعوديين فيما يتعلق بمأساة مكة .

وذكرت السلطات السعودية أن الحجاج الايرانيين هم الذين تسببوا فى هذه المأساة لأنهم لجأوا الى السلوك العنيف أثناء أيام الحج ولأنهم حاولوا أيضا أن ينقلوا صورا للخومينى الى داخل المسجد الحرام الذى ظل خاليا تماما من الصور والتماثيل منذ أن قام النبى محمد بتحطيم الأصنام والتماثيل المتواجدة حول الكعبة . وكانت هناك تلميحات عن وضع خطة ايرانية تهدف الى الاستيلاء على المسجد الحرام واعلان الخومينى زعيما لكافة المسلمين فى العالم .

ومهما يكن من أمر فان أحداث مكة المؤسفة قد أنهت فترة التقارب فى العــــلاقات بين طهران والرياض التى دامت ثلاث سنوات . وأصبحت هاتان الحكومتان الأصوليتان تبديان مشاعر العداء لبعضهما البعض علنا وتتنافسان علنا على قيادة العــــالم الاســــلامى .

وقامت منظمة المؤتمر الاسلامى ICO بمحاولات عديدة ومتكررة من أجل التوسط لانهاء الحرب بين العراق وايران . ولكن دون جدوى . اذ كان الخومينى يصر فى كل مرة على ضرورة معاقبة المعتدى بحيث يصبح ذلك مبدأ يحتذى به جميع الأعضاء فى منظمة المؤتمر الاسلامى وبحيث لا يقوم أحد الأعضاء فى هذه المنظمة بالاعتداء على دولة اسلامية مستقبلا .

وفى يونيو ١٩٨٢ فى أعقاب الغزو الاسرائيلى للبنان أشارت العراق الى أنها على استعداد للتوقف عن القتال فى حرب الخليج وتوجيه أسلحتها ضد اسرائيل التى هى العدو المشترك لكل من ايران والعراق . ولكن الخومينى رفض فى ازدراء هذا الاقتراح وأشار الى أن العراق يستخدم نفس التاكتيكات التى تستخدمها اسرائيل ، ألا وهو احتلال الأراضى الأجنبية أولا ثم السعى بعدئذ الى التوصل الى وقف لاطلاق النيران .

ونظرا للموقف المتشدد من جانب طهران نجد أن الاجتماع الرابع عشر لوزراء خارجية منظمة المؤتمر الاسلامى الذى عقد فى داكا Dhaka ببنجلاديش فى ديسمبر ١٩٨٣ قد فشل فى اتخاذ قرار بشأن حرب الخليج . وقد قاطعت ايران مؤتمر القمة الاسلامى الرابع المنعقد فى كازابلانكا بالمغرب فى يناير ١٩٨٤ لأن منظمة المؤتمر الاسلامى لم تبعث بوفد الى ايران لمشاهدة الدمار الناجم عن ضرب العراق للأماكن المدنية بايران بالقنابل .

وعندما فشلت اللجنة التى تقوم بالتحضير لعقد اجتماع القمة الخامس فى تغيير المكان الذى سيعقد فيه الاجتماع من الكويت الى أى دولة أخرى قاطعت ايران الاجتماع مرة أخرى وناشدت الأعضاء الآخرين بمقاطعة ذلك الاجتماع فاستجابت الدول المتعاطفة

مع ايران لهذا النداء واكتفت بارسال مندوب على مستوى أقل من رئيس الدولة الى ذلك المؤتمر .

وهذه الحركات التى تقوم بها ايران كان يستتر وراءها شيء ما أكثر عمقا يتعلق بالسياسات الايرانية تجاه الدول الاسلامية الأخرى . اذ كان القادة الايرانيون يعتقدون أن ايران هى الدولة الوحيدة التى يتم فيها تطبيق الشريعة الاسلامية على النحو الوارد فى القرآن الكريم . أما باقى الدول الاسلامية الأخرى فلا يوجد بها تطبيق للمبادىء الاسلامية . مثال ذلك أن العربية السعودية تحكمها أسرة ملكية حاكمة وهو أمر يتعارض مع المبادىء الاسلامية تماما هذا بالاضافة الى أن معظم أفراد هذه الأسرة لا يلتزمون بالمبادىء الاسلامية اذ يعكفون على شرب الخمور وتعدد الزوجات بما يفوق الحد الأقصى القرآنى وهو أربع زوجات ويمارسون لعب القمار وغير ذلك من الأمور . ولذلك يمكن القول بأن العربية السعودية هى دولة مسلمة — نظرا لأن شعبها من المسلمين — ولكنها ليست دولة اسلامية . وعلى العكس من ذلك قام الملايين من المؤمنين فى ايران بالاطاحة بالحكومة غير الاسلامية الفاسدة وأحلت محلها حكومة الله . ومن هنا فان ايران هى بمثابة نموذج تحتذى به كافة الدول المسلمة الأخرى .

ومثل هذا التقويم لثورتهم وبلدهم جعل القادة الايرانيين يعتقدون أنهم أقوم أخلاقا من الآخرين . وذهبوا فى تقديراتهم الى أنه اذا كان هذا قد عزل ايران عن مجموعة الدول المسلمة فانه ينبغى على الايرانيين ألا يشعروا بالاكتئاب والهم وضعف العزيمة . اذ ينبغى على المؤمن أن ينظر الى حياة الامام على . فقد كان رجلا مسلما بالغا حد الكمال . ومع ذلك تم تجاهله مما جعله يعانى ويقاسى من ذلك التجاهل . الا أن الأمة الاسلامية فى نهاية الأمر

أدركت قيمته العظيمة وانتخبته خليفة للنبى محمد صلى الله عليه وسلم . ولذلك ينبغى على الجمهورية الاسلامية الايرانية ــ شأنها فى ذلك شأن المسلم الصادق ــ أن تظل واقفة فى حزم على الطريق الاسلامى الصحيح . وفى نهاية الأمر ستضطر الدول المسلمة الأخرى الى تصحيح سياساتها وتحذو حذو ايران .

ويعتقد الزعماء الايرانيون أن ايران هى القدوة فى مجال اعادة تشكيل مجتمع اسلامى نموذجى . ويرون أن تقدمهم فى هذا المضمار له أهمية كبرى بالنسبة للمسلمين فى جميع أرجاء العالم وبصفة خاصة بالنسبة لأهالى وسكان الـ ٤٣ دولة اسلامية التى هى أعضاء فى منظمة المؤتمر الاسلامى . وأشاروا الى أنهم من خلال تنجير الثورة الاسلامية تمكنوا من طرد الحكومة الفاسدة الايرانية وتحرير ايران من سيطرة الدول الكبرى عليها وتدعيم الاستقلال الوطنى . وأفادوا أن كل هذه الانجازات العظيمة تلقى تقديرا كبيرا من جانب عواصم العالم الثالث . وقد أوضحت ايران للدول الاسلامية المنتمية للعالم الثالث مدى أهمية تطبيق النظرية الاسلامية فى معزل تماما عن الايديولوجيات الشرقية أو الغربية .. واذا ارتبطت النظرية الاسلامية بالتشدد فى الالتزام الأخلاقى والمناهضة الراديكالية للاستعمار على النحو الذى قدمه الخومينى فان ذلك يصبح أمرا جذابا للغاية للشباب المتعلم فى الكثير من الدول الاسلامية واتباع الخطوط التى سار عليها الخومينى فان ذلك يعنى ليس فقط رفض الرأسمالية ومفاسد الرأسمالية وانما أيضا رفض الماركسية الملحدة . وهذا يوضح لنا السبب فى أن « الخومينية » لها أتباع فى كل مكان فى جميع أرجاء العالم الاسلامى .

وحاولت ايران الاسلامية تدعيم التأييد لها بين المسلمين بالخارج . وقد استخدمت سكرتارية قادة صلوات الجمعة فى

مدينة قم Qom لاجراء اتصالات مع العلماء الدينيين المتواجدين فى جميع أنحاء العالم . وقد أصبح أحد رجال الدين المحليين بمدينة قم زعيما دينيا سياسيا بالخارج فى الستينات : ألا وهو الامام موسى الصدر . وكان قد أوفد الى لبنان فى عام ١٩٥٧ لكى يقدم الارشاد الدينى للشيعة اللبنانيين الذين كانوا أكثر الناس فقرا وتعرضا للاستغلال فى داخل لبنان . ونتيجة لاستنكاره لأعمال القمع التى مارسها شاه ايران ضد تمرد يونيو ١٩٦٣ فى بايران فقد صدر قرار من الشاه بحرمانه من الجنسية الايرانية . وأصبح موسى الصدر مواطنا لبنانيا . وبعد مرور أربع سنوات تمكن من تشكيل « المجلس الأعلى لطائفة الشيعة «Higher Shio Communal Council» برئاسته . ثم أنشأ « حركة المحرومين » التى جذبت الشيعة الذين كانوا ساخطين على قادتهم التقليديين . ونظرا لأن الشيعة فى لبنان يشكلون ما يزيد على ٣٠٪ من العدد الكلى للسكان الذى يبلغ ٣ر٦ مليون نسمة فانهم كانوا بذلك بمثابة أكبر طائفة فى لبنان بل يزيد عددهم على عدد المسيحيين المارون البالغ عددهم ٩٠٠ ألف نسمة . الا أن الميثاق الوطنى National Pact اللبنانى المرتكز على احصائية عام ١٩٣٢ لم يمنح الشيعة سوى ١٩ مقعدا فى البرلمان بينما أعطى للمارونيين ٣٠ مقعدا فى البرلمان الذى يضم ٩٩ مقعدا . وفى الثلاثينات كان الشيعة متركزين فى جنوب لبنان حيث كانوا قد وصلوا الى لبنان قادمين من دول عديدة مجاورة منذ عدة قرون مضت هربا من الاضطهاد الذى وقع عليهم عقب انهيار الخلافة الفاطمية . ثم حدثت اضطرابات سياسية فى لبنان فى الخمسينات فاضطر الشيعة الى التحرك شمالا الى صيدا Sidon وبيروت وهو اتجاه ازداد ترسخا بسبب الحرب العربية الاسرائيلية لعام ١٩٦٧ . ومن خلال الاضرابات والمظاهرات جعل موسى الصدر الشيعة يدركون مدى أهميتهم وقوتهم السياسية . ولكن عندما

تفجرت الحرب الأهلية بين المسيحيين المارونيين اليمينيين والتحالف الذى يضم اللبنانيين اليساريين والفلسطينيين فى لبنان وجد الشيعة أنفسهم فى موقف ضعيف لأنهم لم يكن لهم ميليشيا عسكرية خاصة بهم . ولكن موسى الصدر تمكن فيما بعد من انشاء مليشيا شيعية تسمى « أمل Amal» وذلك من خلال المساعدات التى قدمتها منظمة التحرير الفلسطينية .

وطوال فترة اقامة موسى الصدر بلبنان كان على اتصال مستمر بالخومينى الذى كان صديقا حميما له . ومما لاشك فيه أن الشيعة اللبنانيين قد اهتموا اهتماما بالغا بتفجر الحركة الاسلامية الثورية فى ايران بقيادة الخومينى الا أن موسى الصدر مات قبل أن يشاهد بنفسه النجاح الذى حققته هذه الثورة . اذ «اختفى» موسى الصدر أثناء رحلة قام بها الى ليبيا وايطاليا فى أغسطس ١٩٧٨ .

وعقب موت موسى الصدر انتقلت الزعامة على « المجلس الأعلى لطائفة الشيعة » الى الشيخ محمد مهدى شمس الدين . وقام مؤتمر « أمل » المنعقد فى أبريل ١٩٨٠ بانتخاب مجلس قيادة جديد واختيار المحامى نبيه برى سكرتيرا عاما لذلك المجلس . وتحت قيادة نبيه برى توسعت « أمل » وأصبحت من أكثر القوى الحربية المهمة . وفى أكتوبر ١٩٨١ قام وفد من « أمل » بزيارة طهران وعقدوا لقاء مع الرئيس خمائينى .

ولكن سياسات نبيه برى كانت متخذة للطابع الدستورى أكثر من اللازم وذلك من وجهة نظر رفقائه وخاصة حسين موسوى وهو شاب يعمل مدرسا . فانشق موسوى وانشأ «أمل الاسلامية» وجعل مقرها الرئيسى فى بعلبك التى تقع فى وادى البقاع الخاضع للاشراف السورى ، وكانت بعلبك أيضا هى مقرا « لحزب الله

اللبنانى الذى يعمل تحت قيادة كل من : الشيخ محمد حسن فضل الله والشيخ راغب حرب . وبعدئذ أصبحت بعلبك هى المكان الذى انشأ فيه الحرس الوطنى الثورى الايرانى مكاتب له بهدف صد الغزو الاسرائيلى للبنان لعام ١٩٨٢ .

وأشارت التقارير الى أن بعلبك أصبحت مركزا « للجهاد الاسلامى » وهى منظمة غامضة سبق لها أن ادعت مسئوليتها عن ضرب الثكنات الأمريكية والفرنسية فى بيروت بالقنابل فى أواخر عام ١٩٨٣ كما أعلنت مسئوليتها عن هجوم مماثل على مركز القيادة الاسرائيلى فى Tyre فى ٤ نوفمبر ، فقامت الطائرات الاسرائيلية والفرنسية بالانتقام والاغارة على بعلبك فى ٢٠ نوفمبر . فقتل ٤٤ رجلا من بينهم ١٤ من الحرس الثورى الايرانى .

وأدى هذا الى سلسلة من العنف والعنف المضاد علاوة على تكثيف هجمات « الضرب والجرى » ضد القوات الاسرائيلية المتواجدة فى جنوب لبنان الذى توجد به نسبة ٦٠٪ من الشيعة من مجموع الأهالى البالغ عددهم مليون نسمة . وقامت الطائرات الاسرائيلية بالقاء القنابل على بعلبك وعلى قريتين مجاورتين لها مما أسفر عن مقتل ١٠٠ وجرح ٤٠٠ من الأشخاص معظمهم من المدنيين . وبعد يومين قام حسين شيخ الاسلام نائب وزير الخارجية الايرانى بزيارة بعلبك . وأشارت التقارير الى أنه امتدح الهجوم الانتحارى بالقنابل على القوات الأمريكية والفرنسية والاسرائيلية . فأكد ذلك ما أشارت اليه تقارير المخابرات الأمريكية والفرنسية والاسرائيلية القائلة بأن ايران هى العقل الموجه للهجمات الانتحارية بالتعاون مع سوريا .

وأنكرت طهران هذه الاتهامات وقالت أن الدول الغربية واسرائيل تتلمس الاعذار فى فشلهم فى سياساتهم فى لبنان : لبنان

الدولة التى يسكنها غالبية من المسلمين ويحكمها أقلية من المارون المسيحيين المتحالفين مع الغرب واسرائيل . وقام آية الله هادى خسروشاى Khosrowshahi السفير الايرانى لدى الفاتيكان بتوضيح الظروف المحدقة بالهجمات الانتحارية . وأشار الى أن الشعوب المسلمة فى ايران وافغانستان وفلسطين ولبنان كان لها الحق فى الدفاع عن « حرياتها وعقيدتها وشرفها واستقلالها عن المعتدين بأية وسيلة يرونها ملائمة . فهذا الدفاع الشريف هو حق لكل انسان حر والموت فى سبيل هذه القضية النبيلة من وجهة نظرنا هو استشهاد فى سبيل الله » .

وسرعان ما أظهر الشيعة اللبنانيون أنهم على دراية عظيمة بفنون القتال التقليدية . وعندما أصدر الرئيس أمين الجميل أوامره للجيش اللبنانى بتدمير الأحياء التى يسكنها الشيعة فى جنوب بيروت وتسويتها بالأرض وتم ذلك بالفعل فى ٣ فبراير ١٩٨٤ بادر نبيه البرى الى اصدار أوامره لميلشيات أمل لكى تهاجم الجيش اللبنانى . وتمكنت مليشيات « أمل » بمساعدة من مليشيات الحزب الاشتراكى التقدمى الدرزى من الاستيلاء على غرب بيروت علاوة على تسديد ضربة قوية لجيش أمين الجميل ومكاتب شئونه الادارية . وتفكك بالفعل الجيش اللبنانى وسقطت الحكومة . وهذا النجاح الذى أحرزته القوات المسلمة من خلال التعاون مع سوريا على حكومة الجميل التى تساندها أمريكا واسرائيل قد ابتهجت له طهران ودمشق .

ورأت طهران فى هذا النصر الذى أحرزه المسلمون اللبنانيون فى منطقة بيروت أنه بمثابة خطوة الى الأمام نحو طرد الاسرائيليين من الجنوب اللبنانى . وكان للهجمات المتلاحقة التى قام بها أعضاء فى منظمة « أمل » ومنظمة « أمل الاسلامية » وحزب الله على

القوات الاسـرائيلية المتواجدة فى جنـوب لبنان أثر كبير فى انسحاب اسرائيل من لبنان فى يونيو ١٩٨٥ ، تشـجعت ايران وحلفاؤها اللبنانيون وقرروا مواصلة الكفاح المسلح الى أن يتحقق هدفهم النهائى ألا وهو تحرير القدس فهى مدينة الصخرة المعلقة وهى المكان الذى صعد منه النبى محمد الى السماء برفقة جبريل لكى يتلقى التعاليم الالهية التى ينبغى نقلها الى أتباعه المسلمين وهو ذلك الحدث المهم الذى بشر بنبوته رسولا للعالمين .

وتحرير القدس من المغتصبين الصهاينة هو هدف أسـمى أكدته وفود أكثر من أربعين دولة اسلامية ممن يحضرون المؤتمر العالمى لأئمة الصلاة فى أيام الجمعة الذى يعقد سنويا فى ايران . وأثناء زيارة هذه الوفود لجمهورية ايران الاسلامية يتم اصطحابهم لمشاهدة الانجازات الاسلامية للحكومة الثورية ويتم اطلاعهم على كافة الأعمال الأخرى المجيدة التى تقوم بها الحكومة . وفى حين أن السعودية ترعى وفود المؤتمر الاسلامى التى هى اتصـال بالدول المسلمة على المستوى الرسمى نجد أن ايران تفضل اجراء اتصالات خارج الدوائر الرسمية الحكومية . ومن خلال المؤتمر العالمى يحاول الزعماء والقادة الايرانيون الابقاء على الصـورة المشرقة لوجه ثورتهم الاسـلامية فى عقول المجتمعات المسـلمة بالخارج .

وهذه المثابرة التى التزمت بها ايران فى حربها ضد صدام حسين كانت بمثابة تدعيم للعناصر الموالية لايران بين المسلمين فى كل مكان . ودائما ما تضفى الحكومة الايرانية طابعا اسلاميا على كفاحها ونضالها . اذ تشير دائما الى قواتها المسلحة على أنها « جنود الله » أو « جنود الاسلام » . والفيالق الجديدة التى كونتها أثناء الحرب تسمى بهذه الأسماء : النبى محمد والخومينى . بل

دائما تعطى أسماء لشخصيات اســلامية أو أماكن اســلامية أو طقوس اســـلامية للعمليات العســـكرية التى تقوم بها مثل : عاشوراء وكربلاء ومسلم بن عقيل ورمضان المبارك وبيت المقدس وطريق الأقصى (أى الطريق المؤدى الى القدس) .

ودائما ما تؤكد طهران أن كفاحها المسلح ضد حكومة بغداد غير الاسلامية ليس سوى خطوة نحو تحرير القدس وفلسطين من المحتلين الصهاينة . وهى بقولها هذا تحث الدول العربية المسلمة على تعميق مساعيها نحو الاطاحة بالصهيونية الجاثمة على فلسطين هذا بالاضافة الى أن ايران تســـعى دائما الى اثارة القضـــية الفلسطينية على نطاق العالم الاســـلامى وليس فقط فى داخل الاطار العربى بالشرق الأوسط .

ومما لاشك فيه أن ايران اذا نجحت فى التسبب فى الاطاحة بصدام حسين فان الضغوط على الدول العربية المدعمة بمعرفة ايران المنتصرة قد تتصـــاعد بحيث تصـــل الى درجة المواجهة العسكرية مع اسرائيل .

واذا كانت ايران قد انهمكت فى مشكلات السياسة الخارجية على طول حدودها الغربية والى ما وراء تلك الحدود فانها لم تهمل أبدا حدودها الشرقية . اذ كانت تساعد فى نفس الوقت الفدائيين الأفغان المسلمين فى حربهم ضد الحكومة الماركسية فى كابول منذ أوائل عام ١٩٨٠ .

* * *

الفصل السابع

أفغانســـتان :

الأقدار المتغيرة للأصــولية

وفق ظروف خاصة جغرافية وتاريخية تشكلت أفغانســـتان على هيئة مجتمع محاط بالأرض اليابسة من جميع الجهات وهو مجتمع متشبث باسلام العصور الوسطى ويقاوم بشـــدة اضفاء الطابع العصرى الحديث باستمرار بل حتى خلال الربع الأخير من القرن العشرين . والشكل الحالى لافغانستان (أرض الأفغان) قد نجم عن خلق اقطاعيات قبلية عديدة فى منتصف القرن التاسع عشر بمعرفة بريطانيا الاستعمارية وروسيا القيصرية بحيث تكون حاجزا أرضيا بين روسيا والهند البريطانية وايران .

أما بالنسبة لأفغانســـتان التاريخية فانها أصبحت جزءا من دار الاسلام مع ظهور الخلافة العباسية فى عام ٧٥٠ ، وبعد مرور قرن من الزمان ضعفت الخلافة العباســـية فأدى ذلك الى ظهور أسرات ملكية حاكمة شبه مستقلة وهى الأسرات التى مارســت الحكم على ايران وأفغانستان وأجزاء من أواســط آسيا . وكان

أشهر هذه الأسرات : الأسرة الغورية Ghori (١٠٠٠ — ١٢١٥) التى كانت تحكم الباكســــتان الحالية وأجزاء كثيرة من أفغانستان والأجزاء الشرقية من ايران . وفى خلال الربع الأول من القرن السادس عشر نجد أن زهير الدين محمد بابار وهو من سلالة جانكيز خان وتيمور لنك قد اســـتولى على أراض فى أفغانستان واتخذ من كابول مقرا للحكم . وفى عام ١٥٢٥ تجرأ وقام بمغامرة فى داخل أراضى الهند وأنشأ الأســــرة المغولية Mogul الحاكمة . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا راحت امبراطورية المغول وامبراطورية الصفويين Safavia تتنافسان من أجل السيطرة على أفغانستان . وفى عام ١٧٢٩ نجد أن نادر شاه أفشار Afshar قد طرد القبائل الأفغانية من ايران وواصل جهوده لاخضاع منطقة قندهار Qandhar الواقعة فى جنوب أفغانستان . وبعدئذ تم اغتياله فى عام ١٧٤٧ على أيدى العبدالى الأفغان Abdali Afghans من المتمركزين حول قندار والذين اختاروا أحمد شاه عبدالى زعيما لهم . ولدى تقلده للسلطة اتخذ لنفسه اقب «در الدران Durr-eDurran» بمعنى لؤلؤة العصر وهو اللقب الذى تحول الى كلمة دورانى Durrani . ثم استولى على أراض من امبراطوريتى : الصفويين والمغول المتدهورتين . وأضاف اليها أجزاء من أراضى طاجق Tajik التى تقع فى الشمال . وفى عام ١٧٧٦ نقلت العاصمة من قندهار الى كابول . وهذا الكيان السياسى الجديد قد هزمته حرب أهلية استمرت من عام ١٨١٨ حتى عام ١٨٢٦ .

وبعدئذ اشتدت المنافسة بين بريطانيا وروسيا القيصرية مما أسفر عن نشوب حربين بين أفغانستان والهند البريطانية : الحرب الأولى من عام ١٨٣٩ حتى عام ١٨٤٢ والحرب الثانية من عام ١٨٧٨ حتى عام ١٨٨٠ . وقد قاوم الأفغان الاحتلال الذى شهدته

الأجزاء الشرقية من أفغانستان والذى جاء فى أعقاب الحرب الانجلو أفغانية الأولى . وفى أعقاب الحرب الثانية غادر البريطانيون تلك الأجزاء المحتلة ولكنهم ظلوا مسيطرين على العلاقات الخارجية لأفغانستان . وقد نجم عن هذه الصراعات احساس بالكيان الأفغانى علاوة على عزل أفغانستان سياسيا ودبلوماسيا . هذا بالاضافة الى أن التجربة الدموية اللعينة جعلت القادة الاسلاميين والقبليين التقليديين ينظرون الى كافة الاصلاحات وكافة أنواع اضفاء الطابع العصرى الحديث على أنها بدع غربية ينبغى مقاومتها .

وفى ظل هذه الخلفية وهذه الظروف تقلد عبد الرحمن السلطة فى عام ١٨٨٠ . وبدأ عبد الرحمن باحكام السيطرة على كابول والمناطق المحدقة بها ثم قام بشن هجمات عديدة لاخضاع قبائل البوشتون Pushtun المتواجدة فى الشمال والجنوب الشرقى وبعدئذ من أجل اخضاع قبائل الأزبك Uzbek وقبائل التركمان Turkoman المتواجدة بالشمال . وفى عام ١٨٨٨ عندما تمرد الشيعة الحزارا Shia Hazaras الذين كانوا قد دفعوا عبر القرون الى جبال حزراجات Hazarjat القاحلة القاسية قام عبد الرحمن بحشد قبائل البوشتون وقبائل الأزبك وقبائل التركمان وتجميعهم تحت راية الاسلام السنى وتمكن من اخضاع الحزارا فى عام ١٨٩١ . وبعد مرور أربع سنوات تمكن من الاستيلاء على كافرستان (أى أراضى الكافرين) الواقعة شرق كابول والتى توجد بها بعثات تبشيرية مسيحية وحول سكانها الكفار الى مسلمين سنيين وسمى المنطقة باسم جديد : « نورستان » بمعنى أرض النور والضياء ، وقد أدى ذلك الى رفع نسبة المسلمين فى أفغانستان الى ٩٩٪ : حيث أصبح ٨٠٪ منهم من السنيين

التابعين للمذهب الحنفى والباقى من الشيعة التابعين للمذهب الجعفرى .

وقد كان الاسلام فى أفغانستان مزيجا بين خط الخلفاء الراشدين والصوفية الاسلامية . وفى داخل المدن الكبرى والصغرى كان يوجد علماء دينيون مدربون تدريبا جيدا . ولكن فى معظم القرى البالغ عددها ٢٦ ألف قرية والتى يعيش بها ٨٥٪ من الشعب الأفغانى فان العلماء الدينيين المحليين المعينين (الملا Emullahs فكانوا غالبا حاصلين على تدريب بسيط بعد أن تعلموا على أيدى عالم دينى يقوم بالتدريس فى مدرسة دينية . اذ لم يكن يوجد سوى عدد ضئيل للغاية من المعاهد العليا الدينية الاسلامية الراسخة فى أفغانستان . ومن أجل التدريب السليم على المذهب السنى فان الأمر كان يستلزم ايفاد العالم الدينى أما الى الأزهر الشريف بالقاهرة واما الى المعهد العالى الدينى المتواجد فى دوباند Deoband التى تقع على مسافة ٦٠ ميلا شمال دلهى بالهند . ورغم أن هذا المعهد العالى كان يعارض تقديس الأضرحة فانه كان متسامحا مع بعض الطرق الصوفية مثل الطريقة النقشبندية . أما بالنسبة المذهب الشيعى فان الدراسات العليا المتعلقة به كانت تتم اما فى مدينة مشهد الواقعة فى شرق ايران واما فى مدينة النجف بالعراق .

وكان مدرس الدين بالقرية (الملا) جزءا لا يتجزأ من عملية القوم الريفيين بالقرية سواء من خلال الزواج أو المولد بل غالبا ما يكون هو نفسه من كبار ملاك الأراضى بالقرية . وهو علاوة على أدائه الطقوس الدينية كان يقوم بتدريس الدين والمواد التعليمية الأخرى لأطفال القرية بالاضافة الى قيامه بالعلاج

الروحى للناس الذين يعانون من بعض الأمـــراض والمتــــاعب الصحية .

ورغم اعتناق القبائل الأفغانية للدين الاســــــلامى فانهم لم يســــــتطيعوا التلخص تماما من القوانين والقيم التقليدية القبلية الخاصة بهم والتى كانت سائدة فى فترة ما قبل الاسلام . مثال ذلك « عادات البوشتون «Nang-ePusyun المنتشرة بين قبائل البوشتون التى تشكل نصف سكان أفغانستان . وعادات البوشتون تسمى أيضا باسم : بوشتونوالى Pustrunwali . والبوشـــــتونوالى هى أيديولوجية وهى فى نفس الوقت بمثابة مجموعة القوانين العامة التى لها تأسيساتها وجزاءاتها وعقوباتها . ومن بين الملامح المهمة للبوشتونوالى ما يلى : « أن تثأر الدماء ، وأن تقاتل حتى الموت دفاعا عن شخص احتمى بك بغض النظر عن نسله وذريته ، وأن تدافع حتى النهاية عن أية ممتلكات ائتمنت عليها ، وأن تكون كريما ومضيافا وأن تقدم الحماية للضـــــيوف وممتلكاتهم ، وان تتسامح ازاء الاهانات أو الاساءات (باســـتثناء القتل والاغتيال) لدى تدخل امرأة من ذرية الشخص الذى ارتكب الاساءة ، وأن تعاقب الزانية والزانى بعقوبة الموت ، وأن تحجم عن قتل رجل قد احتمى بالدخول الى مسجد أو ضريح مقدس » . وهناك الكثير من المواد الواردة بالقانون البوشـــــتونوالى والتى تتعارض مع أحكام الشريعة الاسلامية . مثال ذلك أن الشريعة تنص على ضرورة توافر أربعة شهود حتى يمكن تنفيذ عقوبة الاعدام بالنسبة للزانى المتزوج أما فى قوانين البشتونوالى فيكفى أن تحوم الشائعات حول ارتكاب الزنا . وكذلك نجد أن الطلاق هو أمر سهل فى الشريعة الاسلامية وخاصة بالنسبة للزوج أما الطلاق فى قوانين البشتونوالى فيكاد يكون أمرا مستحيلا . والنساء لهن الحق فى الميراث وفق ما ورد بالشريعة الاسلامية ولكن قوانين

البشتونوالى لا تسمح بتوريث النساء . والثواب والعقاب هو أمر مؤكد وشامل بالنسبة للشريعة الاسلامى ولكنه أمر محدود فى قوانين البشتونوالى. ومن ناحية أخرى نجد أن قوانين البشتونوالى قد تسببت فى استمرار الصراع والنزاعات بين القبائل ولكنها من جهة أخرى أثبتت أنها ملائمة وكافية من حيث هى مظهر للقانون والنظام بين القبائل المتناحرة المتحاربة .

والطرق الصوفية السائدة فى أفغانستان هى : الطريقة القادرية والطريقة النقشبندية . وكانت القادرية قد وصلت الى قبائل البوشتون المتواجدة فى شرق أفغانستان قادمة من الهند حيث كانت قد أصبحت راسخة فى الهند فى خلال القرن السادس عشر . وعقب الحرب العالمية الأولى وصل نقيب الجيلانية الى منطقة البوشتون قادما من بغداد التى تعتبر هى المنبع الأصلى للطريقة القادرية من أجل ممارسة المزيد من الاشراف على الاخوان فى الطريقة . وعلى العكس من ذلك نجد أن الطريقة النقشبندية قد نفذت الى أفغانستان أثناء انتشارها من مدينة بخارى وهى المدينة التى كان يعيش فيها مؤسس الطريقة النقشبندية بحيث شملت قبائل البوشتون وقبائل أخرى غير بوشتوية وفى أواخر الثمانينات من عام ١٨٨٠ نجد أن أشخاصا من سلالة الشيخ أحمد سيرهندى Siryindi وهو زعيم نقشبندى بارز يسمى « مجدد الألف الثانى » وقد وصلوا قادمين من الهند لكى يقيموا فى منطقة بازار Bazaar بكابول . وأثناء ذلك نجد أن الشيخ الجليل لأسرة « المجدد » أصبح يسمى حضرة شور بازار Hazrat of Shor Bazaar وكان الشيخ الأول يسمى قيوم جهان Qayum Jahan . وهاتان الطريقتان الصوفيتان كانتا تضمان اعضاء من كافة الأنواع مثل كبار المرشدين والمريدين والعلمانيين علاوة على مجموعة من المحافل والأضرحة المقدسة

مع القيام بالحج الى هذه الأضرحة المقدسة حيث يقوم المؤمنون بالاستنجاد بشفاعة الشيخ المدفون فى داخل الضريح . ورغم أن العلماء الدينيين الراشدين الأتقياء ينظرون الى مثل هذه الممارسات على أنها من قبيل البدع والهرطقات الا أن رأيهم لم يكن له أى تأثير على شعبية هذه الممارسات واقدام الناس عليها فى حماسة شديدة .

وفى ظل هذا الجو وهذه البيئة كان عبد الرحمن يمارس حكمه الذى استقاه — وفقا للتفكير الأفغانى التقليدى — من المجلس القبلى أو الجيرجا Jirga القبلية . وكان عبد الرحمن يعتقد أن « الهدى والارشاد الالهى » وحده هو الذى يضمن قيام الأهالى باختيار الحاكم العادل الصادق الشرعى . وذهب فى تحليلاته الى أن العرش هو من ممتلكات الله الذى يعين الملوك لكى يقوموا بدور رعاة الأغنام الذين يرشدون قطعان الأغنام التابعة لهم . ومن هنا يمكن القول بان الملوك هم مندوبون عن الله ويستقون واجباتهم ومسئولياتهم من الارادة الالهية . ومن بين الواجبات والمسئوليات التى رأى نفسه مضطلعا بها : الدفاع عن قضية الاسلام وتحرير تربة وأرض الأفغان من سيطرة القوى الأجنبية الكافرة . وقد قام باسم الاسلام باخضاع القبائل غير المتجانسة عرقيا وتأسيس دولة لها حكومة مركزية وهى نفس الاستيراتيجية التى استخدمها فيما بعد عبد العزيز بن سعود فى منطقة نجد بشبه الجزيرة العربية . اذ أنشأ عبد الرحمن مجلسا تنفيذيا علاوة على انشاء لويا جرجا Loya Jirga أو المجلس الوطنى العمومى الذى يتألف من أعضاء أرستقراطيين منتمين للعائلة الملكية أو العشيرة الملكية علاوة على أعضاء من الوجهاء بالقرى وكبار ملاك الأراضى والعلماء الدينيين . ونظرا لأنه لم يكن يهدف أساسا الى

أن يشاركه أحد فى السلطة فان هذه الهيئات كانت مجرد هيئات استشارية .

وانشأ أقساما وزارية من بينها قسم العدل وقسم التعليم . وكان العمل بهذين القسمين مقصورا على العلماء الدينيين الى درجة كبيرة . ومن ثم دخل فى صراع مباشر مع المؤسسة الدينية . وبعدئذ حسم ذلك الصراع بأن قام بدور مزدوج : دور قائد المجتمع الاسلامى ودور المفسر الوحيد للشريعة . وتلك هى نفس الطريقة التى سبق أن لجأ اليها الامبراطور أكبر Akbar فى الهند المغولية فى أواخر القرن السادس عشر . ثم راح بعدئذ بشن الهجوم والانتقادات على العلماء الدينيين لقيامهم ببث نظريات غريبة لم تكن فى أى وقت من الأوقات جزءا من تعاليم النبى محمد صلى الله عليه وسلم . ثم حرمهم من حق اعلان الجهاد وأكد أنه لا يمكن شن الجهاد الا بناء على أوامر صادرة من الحاكم . ونظرا لأنه قد أعلن عن نفسه بأنه « مجتهد » وأنه مفسر للشريعة فقد قام بطبع ونشر العديد من الكتيبات والنشرات التى تتناول أسس الاسلام والجهاد والنصائح الدينية . ولكى يدعم مركزه كزعيم للأمة الاسلامية فانه استولى على « الأوقاف » الدينية مما أدى الى تدمير الاكتفاء الذاتى الاقتصادى للعلماء الدينيين . وقلل من أهمية رجال الدين وحولهم الى مجرد بيروقراطيين حكوميين . بل أمر بضرورة عقد امتحانات رسمية لهم من أجل التأكد من مدى صلاحيتهم لتقلد الوظائف الحكومية . وبحرمانه العلماء من حق تفسير الشريعة وتحولهم الى مجرد موظفين حكوميين يعتمدون على خزائنه المالية والتحكم فى أعدادهم من خلال ادخال أسلوب الامتحانات الرسمية التى تعقد لهم فان عبد الرحمن قد هدم بذلك مركزهم وهيبتهم الى درجة خطيرة . بل أضفى الطابع العقلانى على النظام القانونى حيث قام بتقسيمه الى : الشريعة والقانون

(بمعنى القانون الادارى والقانون المدنى) ثم القانون القبلى . وأوكل مهمة الفصل فى المنازعات المالية والتجارية الى « مجلس التجارة » . وعين نفسه فى منصب قاضى القضـــــاة أو القاضى الأعلى .

وكان من المحتم أن يؤدى تركيز السلطة على هذا النحو الى اثارة مطالب تعويضية . وبزغت تلك المطالب اثناء فترة الحاكم الذى جاء بعد عبد الرحمن والذى يسمى : حبيب الله (١٩٠١ — ١٩١٩) . الا أن المطالبة بتطبيق نظام ملكى دستورى لم تصدر عن رجال الدين وانما صـــدرت عن العلمانيين الليبراليين الذين كانوا منبهرين ومعجبين بالثورة الدســـتورية فى ايران . وكانت نتيجة ذلك أن قام الحاكم بتنفيذ حكم الاعدام فى بعض قادتهم علاوة على ايداع الكثيرين منهم فى السجون .

واتبع حبيب الله فكرة التحالف الثلاثى الذى يضم الامبراطورية العثمانية وايران وأفغانستان لكى يكون هذا التحالف بمثابة حاجز ضد التوســـــع الروسى وهى نفس الفكرة التى آمن بها الحاكم الســــابق عليه . ومنـــذ عام ١٩١١ فصـــــاعدا عاشـــــت تجـــربة الجامعة الاسلامية أو البان اســـــلام Pan-Islmism أو تحالف الشعوبية الاسلامية والتى دعمها وعمقها حبيب الله فى همة ونشاط . اذ وجد فى البان اسلام مفهوما ذهنيا مفيدا يعمل على توحيد رعاياه الذين تجتاحهم الخلافات العرقية علاوة على تقوية وتدعيم الاستقلال الوطنى . وفكرة البان اسلام قد لقيت اعجابا من جانب التقليديين ومن جانب ذوى الآراء العصرية على حد سواء . اذ وجد فيها ذوو الآراء العصرية فرصة ذهبية لاضفاء الطابع العقلانى والتجديد من حيث هو وســــيلة لتدعيم الملكية والدفاع عن أفغانستان وعن الاسلام . الا أن حبيب الله رفض

الوقوف الى جانب تركيا العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى مما ادى فى النهاية الى اغتياله فى عام ١٩١٩ .

وجاء بعده الحاكم أمان الله (١٩١٩ — ١٩٢٩) . وبدأ أمان الله حكمه مبديا حماسة شديدة لفكرة البان اسلام . فشن حرب جهاد ضد البريطانيين على طول الحدود مع الهند بهدف استعادة أراضى البوشتون التى كانت بريطانيا قد ضمتها الى الهند وبهدف استعادة الحق فى تسيير شئون العلاقات الخارجية لدولته مما ادى الى تدعيم الروابط الاسلامية بينه وبين القبائل المتواجدة فى مناطق الحدود . وقد فشلت حملته من الناحية الحربية ولكنها حققت نجاحا سياسيا : اذ أصبح له الحق فى تسيير دفة الشئون الخارجية لأفغانستان . وفى مارس ١٩٢١ أبرم معاهدة مع تركيا تقضى باعتراف أفغانستان بأن تركيا هى المرشدة للاسلام والراعية للخلافة الاسلامية . وبعد ثلاثة شهور قام بالتوقيع على معاهدة مع ايران متحركا بذلك نحو التضامن والتماسك الاسلامى وفقا للمبادىء التى سبق أن أرساها جمال الدين الأفغانى منذ عشرات السنين . وقد أدت هذه الأعمال والاجراءات التى قام بها أمان الله الى توحيد العلماء الدينيين والعلمانيين المجددين والوقوف صفا واحدا وراءه .

ولكن أمان الله كان يدرك تماما أن أفغانستان مغلقة وتحوطها الأرض اليابسة من جميع الجهات وتنقصها الموارد المالية الخاصة بها ومن ثم فهى بحاجة لأن تكون لها علاقات طبيعية وحميمة مع جيرانها غير المسلمين الأقوياء : الهند البريطانية وروسيا البلشفية . لذلك قام بالتوقيع على معاهدة مع بريطانيا فى نوفمبر ١٩٢١ عقب مرور ٩ شهور على توقيعه على معاهدة شاملة مع روسيا السوفيتية .

وفى الداخل لم يستطع الاحتفاظ بتأييد العلماء الدينيين والعلمانيين فى آن واحد وبشكل مستمر . فعندما افتتح مدارس حكومية لتدريب الاداريين والمهنيين المستقبليين علاوة على تحريره لوضع المرأة من خلال فرض حظر على زواج الفتيات الصغيرات اللاتى لا تسمح سنهن بالزواج بالاضافة الى نقل تنظيمات الشئون العائلية من رجال الدين الى الدولة واجه معارضة عنيفة من المؤسسة الدينية . وجاءت أولى دلائل الاستياء والتمرد عندما حدث تمرد قبلى فى المنطقة الشرقية فى مارس ١٩٢٤ . وتمكن أمان الله من سحق ذلك التمرد بنجاح كامل ولكن استئجاره لطيارين من الروس والألمان من أجل الطائرة التى استخدمت فى الحملة العسكرية قد أثار الاستياء الشديد وخاصة من جانب الناس التقليديين المحافظين : اذ رأوا أن تدخل الكفار الملحدين فى الخلافات الداخلية الخاصة بالمسلمين يعتبر أمرا لا يطاق ولا يمكن التسامح بشأنه . واستكمل أمان الله انتصاره بأن فرض حظرا على الاتصال بين القوات المسلحة ورجال الدين المحليين علاوة على فرض الحظر على انضمام أفراد الجيش الى الطرق الصوفية . وهكذا يمكن القول بأنه قد توسع فى نفوذه وسلطانه على حساب العلماء الدينيين .

وأعطى طابعا رسميا للأوضاع بأن قدم للأمة دستورا مكتوبا فى عام ١٩٢٣ يتمشى مع الخطوط والأفكار الواردة بالدستور الايرانى لعام ١٩٠٦/١٩٠٧ . وأشار فى ذلك الدستور الى أن الاسلام هو الدين الرسمى لأفغانستان وأن اسم الحاكم ينبغى أن يذكر فى المراسم الدينية .

وبعد أن اطمأن أمان الله على تدعيم مركزه وسلطانه على ذلك النحو قام برحلة طويلة استغرقت تسعة شهور (من أكتوبر ١٩٢٧

الى يوليو ١٩٢٨) الى الهند والشرق الأوسط وأوربا وهى الرحلة التى بذرت البذور التى أدت فى النهاية الى خلعه والاطاحة به . ففى حفلات الاستقبال التى أعدت له فى أوربا ظهرت زوجته ثريا بدون أن تكون مرتدية الحجاب وبدأت الصور الفوتوغرافية التى التقطت لثريا تتداول فى كابول .

ولدى عودة أمان الله الى أفغانستان أصدر أوامره بعقد اجتماع للمجلس الوطنى العمومى Loya Jirga ووافق هذا المجلس على الاقتراح الذى تقدم به أمان الله بشأن انشاء حكومة نيابية ترتكز على أصوات جميع الناس كما وافقوا على اقتراحه الذى يقضى بتنفيذ التجنيد الاجبارى للجيش بالنسبة لجميع الرجال. الا أن المجلس عارض ادخال نظام التعليم الحديث بالنسبة للفتيات وعارضوا فكرة وضع حد أدنى للسن بالنسبة لزواج الفتيات . وعندما حاول أمان الله تنفيذ اصلاحات تشريعية ومالية اعترض العلماء الدينيون وأشاروا الى أن الشريعة الاسلامية التى هى مستقاة من الله كافية تماما وليست فى حاجة الى ادخال تحسينات عليها أو تطويرها .

ولكن أمان الله لم يكن بالشخص الذى يثنيه أحد عن عزمه . اذ أصدر قرارات تحرم تعدد الزوجات بين الموظفين الحكوميين وتنص على السماح للنساء بخلع الحجاب علاوة على مطالبة جميع الأفغان المقيمين فى كابول أو الذين يقومون بزيارتها بارتداء الزى الغربى والقبعة الأوربية ابتداء من مارس ١٩٢٩ فصاعدا . ورأى رجال الدين أن الأوامر الخاصة بارتداء الزى الأوربى وخاصة القبعة الأوربية تعتبر نوعا من الكفر والالحاد . ثم أصدر الملك أوامره بمنع الطلبة الدينيين من الالتحاق بجامعة ديوباند Deoband بل منع العلماء الدينيين الذين تلقوا تدريبات خارج

أفغانستان من التدريس . ومما زاد الطين بلة أن الملكة ثريا ظهرت فى احتفال رسمى بكابول فى اكتوبر ١٩٢٨ بدون ارتداء الحجاب بل ظهرت معها مائة أخرى من نساء غير محجبات . وهنا قال أحد رجال الدين معلقا فى سخرية لاذعة « عندما تدخل الاصلاحات يخرج الاسلام » .

وعندما بدأ فضـــــل محمد مجددى Mujaddidi فى جمع توقيعات الناس الذين يعارضون الاصلاحات قام الملك أمان الله بالقاء القبض عليه . فتفجرت الثورات فى كابول . وفى نوفمبر انضمت قبائل شنوارى Shinwaris المتواجدة بالأماكن الشرقية الى قبائل بوشتونية أخرى فى تمرد ضد الملك ، فأوفد أمان الله قوات ملكية حـــــربية الا أن هذه القوات تخلت عن ولائها للملك وانضمت الى القبائل . وهذا التمرد الذى تفجر فى داخل القوات الملكية قد نبع من الاستياء من الحركات الاصلاحية التى أصدرها هذا الحاكم العلمانى علاوة على الاستياء من تعيين مستشارين عسكريين أوربيين .

وفى أوائل يناير ١٩٢٩ قامت قوات عســــكرية بقيادة باشا ساقو Pacha-e Saqqao (والمعنى الحرفى هو : ابن السقا) وهو رجل من قطاع الطرق ومتمركز فى سهل شمالى Shamali الذى يقع الى الشمال من كابول والذى يعتبر معقلا للأصوليين بفرض حصار عسكرى على كابول. وكان قد حصل على تاييد فعال من جانب العلماء الدينيين الذين كانوا بدورهم قد كسبوا الرأى العام لصالحهم . وتحت الضغوط التى مارسها باشا ساقو اضطر أمان الله للموافقة على اغلاق مدارس البنات والغاء قراره السابق بشأن خلع النساء للحجاب بالاضـــافة الى الغائه للزى الأوربى والســـماح للطلبة الدينيين باستكمال تعليمهم العالى فى

جامعة ديوباند والغاء الامتحان الذى ينبغى أن ينجح فيه العلماء لكى يسمح لهم بمزوالة مهنة التدريس والذى كان قد صدر بقرار من عبد الرحمن . ثم وعد بتعيين « محتسبين » أو مشرفين دينيين فى الاقاليم لكى يتم التاكيد من أن المفاهيم والمبادىء الاسلامية يتم مراعاتها وتنفيذها . والأهم من ذلك كله أنه وافق على الالتزام بالشريعة وفقا للتفسيرات التى يقدمها العلماء الدينيون بالاضافة الى موافقته على أن يحكم البلاد من خلال مشاورات مع مجلس يضم ٥٠ من القادة والزعماء الدينيين والقبليين .

ومع ذلك فان كل هذه التنازلات لم تكن كافية لانقاذ عرش أمان الله ، ففى ١٤ فبراير استولى باشا ساقو على كابول ووعد بأن ينفذ حكم الشريعة . وبعد أن استولى على السلطة أكد على جميع الالغاءات التى أعلن عنها أمان الله وحل وزارتى العدل والتعليم وكلف رجال الدين بتسيير شئون العمل فى المحاكم والمدارس .

واذا كان باشا ساقو هو الذى قام بمهمة الاطاحة بأمان الله فان نجاحه فى مهمته قد ارتكز أساسا على مساندة العلماء الدينيين له علاوة على المساندة الحاسمة من جانب الجماهير . وقصارى القول أن العلماء الدينيين كانوا هم السبب الرئيسى فى اسقاط الملك فى أفغانستان الدولة السنية ، وهو انجاز قد كرره مرة أخرى العلماء الدينيون بعد مرور خمسين عاما عندما أسقطوا النظام الملكى فى ايران الشيعية . وكان هذا الحادث غريبا لأن معظم رجال الدين كانوا موظفين حكوميين . والقادة الصوفيون وأتباعهم هم فقط الذين كانوا يشكلون قوة اسلامية مستقلة . ولم يكن من قبيل المصادفات ان عائلة المجددى فى كابول هى أول من قامت بالتعبير عن العاطفة الاسلامية وتحريكها ضد الملك .. وعلى العكس من رضا بهلوى شاه فى

ايران الذى صعد الى السلطة كقائد عسكرى وشيد جيشا قويا قبل تحديه لرجال الدين فان أمان الله كانت تنقصه قوة علمانية على هيئة جيش مدرب ومنظم ومخلص . ولم يتمكن الجيش فى افغانستان من الاستيلاء على السلطة الا فى عام ١٩٥٣ وكان آنئذ تحت قيادة محمد داوود خان .

وقد فشـــل باشا ساقو فى تدعيم منصبه . اذ تغلبت عليه واكتسحته الفوضى السياسية والأزمات الاقتصادية الحادة . وفى أكتوبر ١٩٢٩ تم الاطاحة به على أيدى محمد نادر خان وهو ابن عم أمان الله وشـــقيق الزوجة الثانية للملك حبيب الله ، وذلك بمساعدة : فضل عمر مجددى المتواجد فى كابول وشير أغا نجيب الزعيم الدينى المتواجد بالمدينة الشرقية لجلال أباد .

وتعتبر الفترة القصيرة التى قضاها الملك نادر شاه هى قمة ازدهار الأصولية الاسلامية فى أفغانستان . اذ أنشأ « جماعة العلماء » أو جمعية العلماء ومنحها الســلطة اللازمة لكى تقوم بتفسير الشـــريعة واصدار كافة القوانين والتشريعات الحكومية بما يتمشى مع الشريعة الاسلامية . وأصدر نادر شاه أوامره بضرورة أن تكون كافة القوانين المدنية والجنائية مبنية ومرتكزة أساسا على الشريعة الاسلامية . وأنشأ « ادارة الاحتساب » أو ادارة المراقبة الدينية من أجل الاشـــراف على الالتزام بالدين الاسلامى والتمســـك بمبادئه مع اعطاء التعليمات بتنفيذ القيود الاسلامية بكل دقة وخاصة فيما يتعلق بالخمور والكحوليات . كما كان يستشير العلماء فى كافة المســائل المهمة المتعلقة بالنواحى الاجتماعية والتعليمية والسياسية . وكان الاسلام والتراث هما العمودين اللذين ساندا فى ثبات وقوة حكومة نادر شاه .

وفى دستور عام ١٩٣١ أضفى نادر شاه الطابع الرسمى على الدور الذى يقوم به الدين ومشايخ رجال الدين . اذ جاء بالمواد الأربع الأولى : أن الدين الرسمى للدولة هو الاسلام على المذهب الحنفى وأن الملك ينبغى أن يكون مسلما حنفيا وينبغى أن يذكر اسم الملك فى صلاة الجمعة وأن يلتزم الملك بعدم تعيين أشخاص غير مسلمين فى مناصب الوزراء بالحكومة . وأضفته مواد أخرى الطابع الدستورى على السلطات التى كان نادر شاه قد منحها للعلماء الدينيين وللمحاكم الشرعية كما اعترف رسميا بسيادة المذهب الحنفى على باقى المذاهب الاسلامية الأخرى . كما أشارت احدى الفقرات الى منح المواطنين الأفغان الحق فى تعليم العلوم المدرسية الاسلامية أو العلوم الأخلاقية الاسلامية سواء فى جلسات خاصة أو فى مؤتمرات وحلقات دراسية علنية . وهذا قد دعم حق رجال الدين فى تعليم الأطفال المسلمين وبذلك عادت الى الملا مهمة التدريس الدينى بالمدارس الابتدائية واصبح بذلك التثقيف والتعليم الدينى هو الاهتمام الرئيسى للنظام التعليمى .

وتضمن الدستور النصائح القرآنية فيما يتعلق بأهمية استشارة جماهير الناس : ((**وشاورهم فى الأمر**)) صدق الله العظيم . ((**وأمرهم شورى بينهم**)) صدق الله العظيم . وأشار الدستور الى ضرورة انشاء « مجلس استشارى » يرتكز على أصوات جميع الأفغان الذكور .

واجتمع البرلمان الأول فى عام ١٩٣١ ولكن نادر شاه لم يبق على قيد الحياة لكى يشهد بنفسه البرلمان الثانى الذى تكون عقب مرور ثلاث سنوات : اذ تم اغتياله فى نوفمبر ١٩٣٣ . وذهب العرش الى ابنه محمد زاهر شاه الشاب البالغ من العمر ١٩

عاما . وقد مارس السلطة نيابة عنه ثلاثة من أعمامه حيث أصبح واحد من أعمامه الذى يسمى محمد هاشم خان رئيســـا للوزراء وظل متقلدا هذا المنصب حتى ١٩٤٦ .

وخلال هذه السنوات بذلت الكثير من الطاقات الذهنية فى محاولة تشخيص الأسباب التى أدت الى تخلف أفغانستان والى الحالة المتدهورة الفقيرة للمسلمين فى أفغانستان بوجه عام . وألقى المفكرون التقليديون الدينيون المتســـمون بالورع والتقوى باللوم على الحكام المسلمين وأشاروا الى أن الحكام المسلمين هم المسئولون عن الحالة المسفة التى وصلت اليها البلاد وأن كل ذلك يرجع الى انحراف الحكام المسلمين عن اتباع طريق الاســـلام الحقيقى والشريعة الاسلامية الحقة . ولكن دعاة التجديد الوطنيين لم يوافقوا على ذلك الرأى الذى أبداه العماء الدينيون وأشاروا الى أنه لا يوجد تناقض داخلى ما بين الاسلام والتقدم . وأضافوا أن الاسلام يحث المؤمنين على الســـعى لتحصيل العلم والمعرفة والعلوم الحديثة . بل ذهبوا فى تقديراتهم الى أن الشريعة تقدم الارشاد نحو تحقيق الرفاهية والســعادة والخير لجماهير الناس علاوة على تحقيق التقدم والعدالة وأن مثل تلك المبادىء يمكن ادراكها من خلال اعمال العقل والمنطق وذلك لن يتأتى الا من خلال التعليم والدراســـة . وبكلمات أخرى فانهم وجهوا الدعوة الى ممارسة « الاجتهاد » أو التفسير الخلاق الذى ساد فى العالم السنى منذ قرون عديدة .

بل من وقت لآخر كانت جريدة « الفلاح Falah» التابعة « لجماعة الأمة » تنشر مقالا فى هذا الشأن . وأشار أحد كتاب هذه المقالات الى أن المفاهيم الأخلاقية للاسلام والقرآن كانت دائما مصادر الالهام نحو الاصلاح الاجتماعى . وأشار كاتب آخر وهو

عبد الرازق خان توليمشار الى أن المسلمين فى العصور الحديثة باستطاعتهم الحفاظ على مجتمعاتهم وتراثهم الروحى من خلال انشاء قوة عسكرية . وهذه القوة العسكرية لا يمكن تحقيقها الا من خلال العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة . وأشار فى مقاله الى أن الاسلام بحاجة للعلم الحديث والتقدم التكنووجى من أجل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه .

ومع ذلك فقد كانت كل تلك الآراء تشكل أقلية ضئيلة بين غالبية ساحقة من رجال الدين الذين ينظرون الى اضفاء الطابع الحديث على أنه متناقض مع القيم الاسلامية والتقليدية والتراثية . وكان مشايخ القبائل يؤيدون وجهة نظر العلماء الدينيين . ومع رسوخ أقدام هذين المركزين للقوى : العلماء ومشايخ القبائل فى بنية الأوضاع الراهنة أصبحت الحكومة الملكية جامدة وغير قادرة على اتخاذ أية اجراءات نحو الاصلاح .

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية التى ظلت أفغانستان واقفة على الحياد بشأنها تأكدت تماما أهمية العلم الحديث والتكنولوجيا . مما جعل الأسرة الملكية الحاكمة تدرك أن الأمر يستلزم سرعة العمل على ادخال الاصلاحات واضفاء الطابع الحديث حتى يمكن لها أن تحافظ على كيانها وعلى استقلال الأفغان علاوة على حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية المتصاعدة .

وتزايد التعليم الحديث ولكنه كان يسير بخطوات بطيئة للغاية اذ بدأت جامعة كابول التى تأسست فى عام ١٩٣٢ بانشاء كلية للطب تابعة لجامعة ليونز بفرنسا تضم كلية للعلوم وأخرى للحقوق وثالثة للعلوم السياسية وذلك خلال العشر السنوات التالية .

الا أن التعليم الدينى ظل يحظى بالاهتمام الرئيسى والأسبقية الأولى . فمناهج الدراسة بالمدارس الابتدائية والثانوية التى وضعت بمعرفة العلماء الدينيين كانت تركز تركيزا شديدا على الاسلام والتاريخ الاسلامى والمفاهيم الذهنية الاسلامية والقوانين الاسلامية والكلاسيكيات الفارسية . وفى عام ١٩٤٤ أنشأت الحكومة « مدرسة الارشاد فى الشريعة » ثم رفعت درجة هذه المدرسة بعد مرور ست سنوات لكى تصبح « كلية العلوم الدينية اللاهوتية » بجامعة كابول بالاتحاد مع جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة . وهكذا نرى أن الحكومة الملكية قد أنشأت نظاما يدار بمعرفة الدولة بحيث يمكن للمواطن الأفغانى أن يصبح عالما دينيا بدون أن يغادر البلاد وكان ذلك بمثابة أسلوب جديد لتخريج أكاديميين دينيين بدون الحاجة لأن يلتحقوا بجامعات فى خارج أفغانستان .

وبوجه عام كان أنصار التجديد الوطنيون يكسبون أرضا على ما يبدو على حساب الزعماء الدينيين التقليديين على نحو تدريجى . ومن بين الدلائل التى تشير الى ذلك ظهور « حركة الشباب المتيقظ » فى عام ١٩٤٧ ، وهى حركة تضم المثقفين الذين يطالبون بادخال اصلاحات دستورية . وقام رئيس الوزراء شاه محمود بالسماح بحرية نسبية للناخبين فى الانتخابات البرلمانية التى كانت نتائجها فى الماضى تحدد مسبقا بمعرفة الأسرة الملكية . وفى البرلمان السابع (١٩٤٩ — ١٩٥٢) كان يوجد ٤٥ عضوا من الليبراليين من بين مجموع الأعضاء البالغ عددهم ١٢٠ عضوا . وكان لهؤلاء الليبراليين دور فعال فى السماح بدرجة من الحرية فى مجال الصحافة . فأدى هذا الى زيادة حدة التوتر بين المعسكر الدينى التقليدى والمعسكر الاصلاحى الوطنى . ورفضت السراى

الملكية مطالب الليبراليين التى تنادى بالمزيد من التوسع فى حرية الكلمة وحرية الصحافة علاوة على المناداة بتكوين أحزاب سياسية .

وقد أدى هذا الى زيادة قوة الليبراليين وخطورتهم . وأصبحت مجلات المعارضة الثلاث تتسم بالجرأة والصوت العالى علاوة على مهاجمة رجال الدين ووصفهم بالتعصب والجمود . كما قام الطلبة بجامعة كابول التى تعتبر معقلا للاصـــــلاحيين الوطنيين بتكوين « اتحاد الطلبة » وراحوا يتناقشون فى موضوعات تجديفية مثل الشـــيوعية والماركســـية والالحاد . بل قام الطلبة الراديكاليون بعرض مسرحيات على خشبة المسرح تتسم بالسخرية من العائلة الملكية وبعض كبار الشخصيات الاسلامية . وأدرك رئيس الوزراء محمود أن هذه التطورات شديدة للغاية ، ولا يمكن التسامح بشأنها ، فقام بالغاء «اتحاد الطلبة » فى عام ١٩٥١ وبعدئذ ألغى منظمة « الشباب المتيقظ » . ثم ســــــارع الى القاء القبض على زعماء المعارضة قبل حلول الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٥٢ .

وأدركت الأسرة الملكية وهى صاحبة السلطة العليا النهائية فى البلاد أن القادة الاسلاميين والقبليين الذين يميلون الى الاتجاه التقليدى المحافظ على نحو غير واقعى يشكلون حاجزا منيعا أمام التقدم الحضارى واضفاء الطابع الحديث . وهى فى نفس الوقت كانت تدرك أن المجموعة المنافسة التى تضم المجددين الدستوريين تشكل تهديدا على سيادتها فى المجال السياسى . ولكن من حسن حظ أفراد الأسرة المالكة أن هذا الصراع المتصاعد بين التقليديين والتجديديين قد أدى الى اصابة كلا المعسكرين بالضعف والوهن . ومن ثم أصبحت الفرصة سانحة أمام الأسرة الحاكمة الملكية أن تدخل فى الدراما السياسية اللاعب النشط الخاص بها ألا وهو : الجيش .

ففى سبتمبر ١٩٥٣ قام محمد داوود خان قائد القوات المركزية الحربية بكابول وهو فى نفس الوقت ابن عم الملك زاهر شاه بانقلاب ضد رئيس الوزراء محمود بعد الحصول على موافقة القصر الملكى وأصبح رئيسا للوزراء . وقد اعتمد فى انقلابه هذا على تأييد الاتحاد السوفيتى — وهو الجار القوى الذى كونت معه كابول علاقات وثيقة عقب الثورة البلشفية — وذلك لأسباب تاريخية وأخرى معاصرة . فمع ابرام معاهدة مع الاتحاد السوفيتى فى أوائل فبراير ١٩٢١ أصبحت أفغانستان تحت حكم أمان الله هى أول دولة تعترف بالحكومة الثورية الروسية . وعقب وقوع حادثين مهمين فى عام ١٩٢٥ عند الحدود بين البلدين قامت الدولتان بالتوقيع على معاهدة حياد وعدم اعتداء وهى المعاهدة التى تجددت وتدعمت عقب مرور خمس سنوات . وظلت العلاقات قوية بين الدولتين مع حلول الحرب العالمية الثانية بسبب موقف الحياد الذى التزمت به أفغانستان خلال الصراع الدائر فى هذه الحرب . ومما يثير الدهشة أن خلق دولة الباكستان — وهى دولة مسلمة — فى أغسطس عام ١٩٤٧ قد استقبلته كابول فى استياء شديد . اذ أن جلاء بريطانيا عن شبه القارة الهندية قد أدى الى احياء مطالبة الأفغان بأراضى قبائل البوشتون المتواجدة فى داخل حدود دولة الباكستان . وهى المطالب التى ظلت غير منفذة وغير مستجابة منذ عام ١٨٩٣ عندما قام عبد الرحمن بالتوقيع على اتفاقية مع الهند البريطانية لتخطيط الحدود والتى تسببت فى تقسيم قبائل البوشتون العديدة بالاقليم . وتبنت أفغانستان حركة تنادى بخلق دولة بوشتونستان Pushtunistan المستقلة بحيث تضم قبائل البوشتون التى تعيش فى شرق حدودها السابقة على عام ١٩٤٧ مع الهند البريطانية . وعارضت الباكستان بشدة الحركة الداعية لانشاء دولة بوشتونستان . مما أدى الى تدهور

العلاقات بين أفغانستان والباكستان . ونظرا لأن الباكستان كانت تميل فى علاقاتها الى المعسكر الغربى علاوة على تعميق روابطها الرسمية مع أمريكا من خلال عقد اتفاقية أمن مشتركة مع أمريكا فى عام ١٩٥٤ فقد اضطرت كابول الى الميل فى اتجاه موسكو . ورفضت أمريكان بيع أسلحة لأفغانستان لكيلا تزعج حليفتها الباكستان . وقد أدى ذلك الى قيام داوود خان بجلب مستشارين عسكريين سوفيت لكى يعملوا فى الأكاديميات العسكرية الأفغانية بالاضافة الى ايفاد ضباط عسكريين من الأفغان الى الاتحاد السوفيتى لتلقى المزيد من التدريبات العسكرية هناك . ونظرا لأن أفغانستان كانت حريصة فى نفس الوقت على تنمية البلاد اقتصاديا فانها اجتذبت الأموال والخبراء من أمريكا وغيرها من الدول الغربية من أجل تنفيذ المشروعات الاقتصادية .

وكان داوود خان شخصية أوتوقراطية ولذلك أراد أن يركز سلطة الدولة من خلال الجيش مع العمل على تنفيذ التقدم الاجتماعى والاقتصادى من خلال اصدار قرارات تنفيذية وليس من خلال المناقشات الديموقراطية والاتفاق الجماعى فى الرأى . وكان لا يتسامح مع مراكز القوى المستقلة فى الرأى مثل «جماعة الأمة» وسلب منها السلطات التى سبق أن منحها لها نادر شاه . وبدأ فى تعيين رجال الدين المتخرجين حديثا فى كلية الدين بجامعة كابول فى وزارة العدل ووزارة التعليم لكى يحلوا محل العلماء الدينيين القدامى . كما حاول أيضا تحرير المرأة متخذا فى ذلك خطوات بطيئة متسمة بالحرص والحذر . ففى عام ١٩٥٧ استخدم راديو كابول أصوات مذيعات وأصوات مغنيات . وأعقب ذلك احتجاجات خفيفة من الناس الا أن الاحتجاجات لم تستمر فترات طويلة . وفى السنة التالية أوفدت الحكومة وفدا نسائيا الى الأمم المتحدة بنيويورك وكان ذلك اجراء لم يسبق له مثيل فى أفغانستان

كما استخدمت شركة طيران آريانا الافغانية المملوكة للدولة فتيات استقبال ومضيفات جويات وذهبن الى عملهن بدون ارتداء الحجاب كما تم توظيف فتيات أخريات غير محجبات فى مكاتب البرق والبريد . وفى هذا الجو من التحرر النسبى ظهرت فى احتفالات الاستقلال التى أقيمت فى ٢٥ أغسطس ١٩٥٩ زوجات كبار الموظفين الحكوميين وكريماتهم بدون ارتداء الحجاب فوق منصة العرض : وهو اجراء ذكر كبار التقليديين بما حدث فى أيام أمان الله منذ ٣١ عاما . واحتج العلماء الدينيون فى عنف شديد مثلما فعلوا من قبل . ورد عليهم داوود خان قائلا لهم انهم اذا عثروا على دليل واضح تماما بشأن ضرورة ارتداء الحجاب فانه سيفرض زى الحجاب على جميع النساء والفتيات . وعلى الرغم من أن العلماء فشلوا فى العثور على دليل يؤكد على ضرورة ارتداء الحجاب فانهم استمروا فى معارضتهم لخلع الحجاب . وسرعان ما راحوا يلقون الخطب الموجهة ضد الحكومة ويشيرون فى خطبهم الى أن داوود خان قائد مناهض للاسلام لانه يسمح للشيوعيين الملحدين وللمسيحيين الغربيين بتقويض وهدم أسلوب الحياة الاسلامية . وكانوا متضايقين بصفة خاصة من تواجد المستشارين الروس الحربيين منهم والمدنيين فى داخل أفغانستان حيث كانوا يدركون أن الروس سيعملون على ابعاد الأفغان عن الدين الاسلامى حيث سبق لهم أن فعلوا ذلك فى السكان المسلمين المتواجدين فى فى جمهوريات أواسط آسيا التابعة للاتحاد السوفيتى . وردت الحكومة الأفغانية بأن ألقت القبض على ٥٠ من قادة رجال الدين ووجهت لهم تهمة الخيانة والهرطقة فى الدين . وأدت هذه الاتهامات الخطيرة الى تخويف العلماء وتخفيض روحهم المعنوية حيث كانوا يدركون مدى القبضة الحديدية التى يحكم بها داوود

خان البلاد . وتم الافراج عن رجال الدين المحتجزين بالسجون بعد أسبوع وبعدئذ اختفى الاحتجاج على النساء غير المحجبات . وكان ذلك على النقيض تمـاما مما حدث أثناء حكم أمان الله . وكان السبب الرئيسى فى ذلك هو أن داوود خان كان يمتلك جيشـا حديثا مدربا ومنظما تنظيما جيدا ولم يكن أمان الله لديه مثل هذا الجيش .

وخروج داوود خان من منصب رئيس الوزراء لم يغير الحقيقة التى مفادها أن الجيش كان هو أهم مركز للسلطة فى البلاد وأنه كان يدين بالولاء الشديد للعائلة الملكية . وقد أدى هذا الى طمأنة الملك زاهر شاه الذى كان متواريا وراء الكواليس بسبب تقلد أعمامه للسلطة وبسبب تقلد ابن عمه داوود خان للسلطة بعد أعمامه . والآن قرر الملك أن يبزغ فى الأفق ويصبح فى المقدمة . ونظرا لأنه كان يدرك أن الأمر يستلزم ادخال اصلاحات سياسية فانه أعلن فى أكتوبر ١٩٦٤ عن اعداد دستور ليبرالى جديد . ويعتبر هذا الدستور بداية للنظام الملكى الدستورى . ويسمى هذا الدستور فى أفغانستان باسم « الديموقراطية الجديدة » وهو يعتبر الفصل الأخير من التاريخ الطويل للنظام الملكى فى البلاد . اذ شـهدت هذه المرحـلة تغييرات جوهرية فى تكوينات القوى الاسلامية .

وكان الدستور الجديد ــ شأنه شأن الدستور السـابق عليه ــ يفرد للاسلام أولوية أولى فى المجتمع . اذ نصت المادة الأولى على أن الاسلام هو الدين المقدس لأفغانستان وأن الملك ينبغى أن يكون مسلما على المذهب الحنفى . والمادة ٦٤ تنص على الغاء أى قانون « يتناقض مع المبادىء الأساسية للدين الاسلامى المقدس » . وتنص مادة أخرى الى أنه فى حالة عدم تواجد قانون فانه ينبغى تطبيق النصوص الواردة فى المذهب الحنفى .

وفى عام ١٩٦٤ أسفر الدستور عن تكوين برلمان يتألف من : مجلس للشعب يتألف كل أعضائه من نواب منتخبين ومجلس للنبلاء يتألف جزئيا من أعضاء منتخبين . ومجلس الشعب الذى عقد اجتماعا فى أكتوبر ١٩٦٥ كان يتألف من أربع مجموعات رئيسية : رجال الدين بقيادة أسرة المجددين والمعدلين الوطنيين الذين يتطلعون لأن تقوم الملكية بتنفيذ سياسات تقدمية والديمقراطيين الذين يرغبون فى تنفيذ ديمقراطية وفقا للأسلوب الغربى والماركسيين .

وبالنسبة لرجال الدين كان البرلمان بمثابة منبر على المستوى القومى وهو وضع أفضل مما كان عليه الحال فى الماضى حيث كانوا يعملون على المستوى الاقليمى أو المحلى . الا أنهم مع ذلك أصبحوا يفقدون نفوذهم وسلطتهم تدريجا حيث كان يتم تعيين الخريجين الجدد فى كلية الدين التابعة لجامعة كابول فى المناصب الادارية والدينية المهمة التى كانوا يشغلونها منذ أيام أن كان داوود خان رئيسا للوزراء . أى كان يتم استبدال الخريجين الجدد بهم . هذا بالاضافة الى أن جامعة كابول ــ شأنها شأن البرلمان الجديد ــ كانت تعذر الاتصالات والعلاقات الداخلية بين القبائل وكذلك العلاقات الداخلية بين الاقاليم نظرا لأن نصف عدد الطلبة بجامعة كابول (العدد الكلى ٣٠٠٠ طالب وفق احصاء ١٩٦٣) كانوا من الاقاليم .

وكانت كلية الدين التى يبلغ عمرها الزمنى ١٢ عاما برئاسة البروفسور غلام محمد نيازى الذى انضم الى جماعة الاخوان المسلمين فى مصر أثناء فترة دراسته بالأزهر الشريف . وفى وقت معين كان يقوم بالتدريس فى هذه الكلية اثنان من الأساتذة المصريين وأستاذ واحد هندى من أتباع المفكر الاسلامى أبو الأعلى

المودودى Maududi (١٩٠٣ — ١٩٧٩) . وقد قام هؤلاء الأساتذة الثلاثة بالاشتراك مع مجموعة من المثقفين المحليين بقيادة صبغة الله المجددى بترجمة مؤلفات سيد قطب ومؤلفات المودودى الى اللغة الفارسية بحيث أصبحت متاحة أمام طلبة الدين وغيرهم من الطلاب الآخرين . وهذه المؤلفات التى كتبها سيد قطب قدمت الاسلام من حيث هو أيديولوجية حديثة ومعاصرة وليس على هيئة عقيدة غامضة مرتبطة بالعلماء الدينيين التقليديين وعلماء الملا بالقرى . وقد اتضح أن « مجلة الشريعة » التى تصدرها كلية الدين مفيدة ومثمرة للغاية من حيث فتح باب المناقشات حول النشء الجديد من الأصوليين الاسلاميين .

وبحلول عام ١٩٦٥ شعر الطلبة الاسلاميون بأنهم أصبحوا أقوياء بما فيه الكفاية وعلى نحو يسمح لهم بتنظيم مظاهرة وتوزيع منشور صادر تحت عنوان « نشرة دينية عن الحرب المقدسة » . وكانت « منظمة المسلمين الشبان » هى الواجهة العامة للأصوليين الاسلاميين الذين كانوا يعملون فى الخفاء تحت اشراف وتوجيه مجلس برئاسة البروفسور نيازى . وفى عام ١٩٧٠ قرر المجلس الخروج عن نطاق الحرم الجامعى وانشاء خلايا فى داخل الجيش . وبعد عامين غيروا هدفهم من الاحياء الروحى للمجتمع الى اكتساب السلطة السياسية والاستحواذ عليها . وعقب العمل بالدستور انتخب الأصوليين البروفسور برهان الدين ربانى رئيسا والبروفسور عبد الرسول سيف Sayyaf نائبا له .

وقامت مجلة جاحيز Hahiz (بمعنى الصباح) وهى موالية ومناهضة للماركسية وقد أسست فى أكتوبر ١٩٦٨ بتقديم برنامج سياسى « للمسلمين الشبان » وغيرهم من الأصوليين الآخرين . وكان هذا ناجما عن قانون الصحافة الذى أقره البرلمان

فى عام ١٩٦٥ وصدق عليه الملك زاهر شاه . ولكن عندما أصدر البرلمان مشروع قانون بشأن الأحزاب السياسية رفض الملك الموافقة على ذلك المشروع . وفعل نفس الشىء بالنسبة للتشريع الخاص بالمجالس الاقليمية والمحلية .

وبحلول أواخر الستينات من عام ١٩٦٠ كان التعليم فى المرحلة الثانوية قد انتشر بسرعة حتى أنه لم يتمكن من الالتحاق بجامعة كابول سوى عدد ضئيل من الذين تقدموا بطلبات الالتحاق بها . وغالبا ما كانت تتخذ احتجاجات الطلبة بشأن التدريس وغيره من التسهيلات والخدمات الأخرى اتجاها سياسيا ومنعطفا سياسيا حتى أن جامعة كابول أصبحت بؤرة من الماركسيين والأصوليين الاسلاميين . وكان الأصوليون الاسلاميون يعارضون كثيرا أتوقراطية وفساد العائلة الملكية علاوة على معارضتهم لموجة الماركسية المتصاعدة . وفى داخل المدارس الثانوية وكليات التربية والمعاهد الفنية تزايدت الخلافات فى الرأى بعد أن أصبحت تضم أعدادا كبيرة من الطلبة علاوة على تزايد الخريجين العاطلين الذين يلقون باللوم على الملكية الفاسدة ويتهمونها بأنها السبب فى المشاكل التى يعانون منها وبذلك يقومون بتأييد الحلول الراديكالية التى يقدمها الماركسيون أو الأصوليون الاسلاميون .

وأدركت الأسرة الملكية الحاكمة أن الماركسيين بصفة خاصة يشكلون تهديدات خطيرة نظرا لأن الطلبة اليساريين قد دأبوا على التحالف مع عمال المصانع والاشتراك معهم فى الاضرابات التى يقومون بها . لذلك اتخذت الحكومة الاجراءات التى تضمن لها الحاق الهزيمة بالمرشحين الماركسيين فى الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٦٩ . وفى ابريل ١٩٧٠ صدرت فى مجلة برشام Parcham (بمعنى : العلم) الماركسية قصيدة تحت عنوان

« لينين عليه السلام » وتعبير « عليه السلام » عادة لا يطلق الا على محمد صلى الله عليه وسلم وقد نشـرت تلك القصيدة فى ذكرى مولد لينين فانتهزت الحكومة هذه الفرصة ودفعت العلماء الدينيين لكى يمارسوا ضغوطا ضد الماركسيين . وشجعت العلماء وأتباعهم على تنظيم مظاهرات ضد هذه المجلة اليسارية . ففعلوا ذلك . ولكنهم لم يقفوا عند هذا الحد . اذ راحوا يهاجمون الحكومة أيضا نظرا لانسياقها وراء العلمانية ووراء التواجد المتصاعد للطالبات بالمدارس الثانوية والمؤسسات والمعاهد التعليمية العليا وأشاروا الى أن ادخال جرعات كبيرة من التعليم غير التقليدى فى النظام كان له آثار رهيبة فى تدمير أخلاق الشباب وتقويض القيم الاجتماعية التقليدية . وفى عام ١٩٧٢ أشـارت الصحف الصادرة فى كابول الى حدوث مجاعة فى الاقاليم ناجمة عن عدم سقوط الأمطار على مدى عامين متواصلين مما أدى الى وفاة ١٠٠ ألف مواطن . فقام الاسلاميون بتنظيم مظاهرات ضد التجار الجشعين الذين يخبئون الحبوب فى مخازن سرية وطالبوا بتحديد الثروات وفرض قيود على الثروات الشخصية .. ولذلك كان هناك فى أوائل السبعينات احساس عام بوجود فوضى فى البلاد وقال الاسلاميون أن الأسرة المالكة هى المسئولة عن تلك الفوضى وذلك الهياج .

وفى ١٧ يوليو ١٩٧٣ وبينما كان الملك زاهر شاه متواجدا فى ايطاليا من أجل العلاج قام محمد داود خان بالاستيلاء على السلطة وقام فى هذه المرة بالغاء النظام الملكى وأنشأ نظاما جمهوريا . وأعلن أنه استولى على السلطة بهدف اعادة أفغانستان الى وجهها الاسلامى ومبادئها الاسلامية . ولكنه بدلا من اصـدار أوامره بالتطبيق الفورى الشامل للشريعة الاسلامية نجده قد أعلن تحديد الملكية الزراعية بحد أقصى ٢٠ هكتارا للأراضى المروية و٤٠

هكتارا للأراضى غير المروية . وتوقع من خلال هذا الاجراء أن يكسب شعبية فى المناطق الريفية بأفغانستان . ولكى يتوسع فى قاعدته الشعبية وخاصة فى المناطق الحضرية فانه ضمن التعاون من جانب مجموعة البرشامى Parchami التى كانت قد انشقت على مجموعة خلقى Khalqi الراديكالية المنافسة فى ١٩٦٦ عقب مرور عام على التأسيس الرسمى للحزب الشعبى الديموقراطى لأفغانستان (ماركسى) فى يناير ١٩٦٥ . وقد رأت مجموعة البرشامى أن انشاء الجمهورية على يدى داود يعتبر خطوة لتحسين الأوضاع وازالة الملكية الأتوقراطية الفاسدة بينما مجموعة خلقى لم تعتقد فى صحة هذا الرأى .

وحاول داوود خان احتكار السلطة مثلما فعل من قبل ومع تأييد الماركسيين « البرشام » لحكومته لم يعد هناك شىء يعرقل نفوذه نحو السلطة الشاملة سوى الاسلاميين الأصوليين الذين ترسخوا فى جامعة كابول وأصبحوا يشكلون أقوى نفوذ فى داخل الجامعة . وفى عام ١٩٧٢ نجد أن جماعة « المسلمين الشبان » تحت قيادة قلب الدين حكمتيار وهو طالب بكلية الهندسة قد حصلوا على غالبية المقاعد فى مجلس الطلاب أو « اتحاد الطلبة » وكان المسلمون الشبان يستمدون معظم التأييد لهم من خريجى المدارس الثانوية بالمناطق الريفية الذين كانوا يشعرون بالاحباط الشديد فى كل خطوة يقومون بها : من حيث الالتحاق بالجامعة أو التقدم للحصول على وظيفة والترقى فى الحياة المستقبلية . وهم بوجه عام كانوا أكثر تدينا من زملائهم الذين هم من أهالى كابول العاصمة . وبدأ « المسلمون الشبان » يكسبون أعضاء جددا من الضباط العسكريين بالجيش .

وبينما ظل كبار القادة الأصوليين على علاقة وثيقة مع العلماء الدينيين التقليديين نجد أن « المسلمين الشبان » كانوا رافضين

لهم . وقد ترتب على ذلك عدم ظهور جبهة موحدة تربط الأصوليين القدامى مع الأصوليين الشبان . وقد ساعد هذا الوضع داوود خان عندما مارس المزيد من الضغوط على الاسلاميين . ففى حركة انقضاض واحدة فى يونيو ١٩٧٤ ألقت حكومته القبض على ٢٠٠ من الأصوليين الاسلاميين فى كابول لدى قيامهم بعقد اجتماع لمناقشة برنامج عمل لجمهورية اسلامية بحيث يمكن تطبيق الشريعة الاسلامية فى جملتها . وتمكن حكمتيار من الهرب الى الباكستان . ولكن نيازى وكذلك ربانى قاما بمحاولة أخرى لاقناع داود خان بقطع علاقاته مع البرشام . ولكنهما فشلا فى هذا الشأن . ثم هرب ربانى الى الباكستان ولكن نيازى ألقى القبض عليه وأودع فى السجن .

وفى المنفى اقترح ربانى من حيث هو زعيم للاخوان المسلمين أو المسلمين الشبان اتخاذ استيراتيجية بعيدة المدى تعتمد على التغلغل الى داخل الجيش ثم الاستيلاء على السلطة من خلال القيام بانقلاب عسكرى فى كابول . أما حكمتيار فكان له رأى آخر : اذ كان يفضل الدخول فى كفاح مسلح على الفور . وقد أيد رئيس الوزراء الباكستانى ذو الفقار على بوتو وجهة نظر حكمتيار . لأن ذو الفقار كان يريد شن هجوم عسكرى على داود خان نظرا لأنه كان قد أثار من جديد مسألة اقامة دولة جديدة مستقلة تحت اسم بوشتونستان تضم أراضى قبائل البوشتون وأبدى بوتو استعداده التام لتقديم المساعدة لحكمتيار وأعوانه علاوة على منحهم الأسلحة وتوفير التدريبات العسكرية لهم . ثم تحدد شهر يوليو ١٩٧٥ كموعد يتم فيه تنظيم تمرد على المستوى القومى . ولكن لم يحدث سوى أمور ضئيلة للغاية باستثناء تلك الأحداث التى وقعت فى الشمال الشرقى . وبعد وقوع تلك المصادمات المسلحة التى قام بها الأصوليون شدد داوود خان من

قبضته الحديدية على الدولة والمجتمع . فأصدر قرارا بحظر كافة المطبوعات التى تصدرها مطابع القطاع الخاص . ثم أنشأ حزبا سياسيا خاصا به تحت اسم « الحزب الثورى الوطنى » بل أصدر قوانين تجارية ومدنية لها الطابع العلمانى مما أغضب العلماء الدينيين وبذلك يكون قد ألغى الأعمال التى أنجزها الملك نادر شاه ويكون قد تخلى عن ادعائه السابق بأنه قد استولى على السلطة بهدف احياء الاسلام .

وبعد أن فشل الاسلاميون فى ثورتهم فانهم لجأوا الى منطقة بشاور Peshawar بالباكستان . وهنا أصبح الانقسام ما بين ربانى وحكمتيار نهائيا وحاسما فى عام ١٩٧٦ وكان ذلك بمثابة الموت النهائى للاخوان والمسلمين الشبان . وأصبح لكل من هذين الزعيمين الحرية فى أن يكون كل منهما حزبا خاصا به . وهذا هو ما حدث بالفعل . ونظرا لأن حكمتيار لم يكن قد حصل على تعليم دينى كلاسيكى فانه فشل فى كسب احترام وتأييد الغالبية العظمى من العلماء الدينيين . وهو من ناحية أخرى كان شخصية جذابة ومنظما بارزا أمضى سنوات عديدة فى الانخراط فى السياسة عندما كان طالبا بجامعة كابول . وقام بتكوين « الحزب الاسلامى » الذى ينادى بأن تقوى المؤمن ينبغى أن ينظر اليها بالدرجة الأولى على أساس أعماله السياسية أما سلوكه الدينى والأخلاقى فله أهمية ثانوية . أما ربانى وهو خريج فى جامعة الأزهر الشريف فكان ينال احترام وتقدير العلماء الدينيين وكبار مشايخ الطرق الصوفية . وكون ربانى حزبا تحت اسم « جماعة اسلامى أو المجتمع الاسلامى لأفغانستان » . وذلك على نمط جماعة اسلامى التى كان قد أسسها المودودى Maududi بالهند فى عام ١٩٤١ والتى تكونت بعدها جماعة اسلامى فى الباكستان عقب مرور ست سنوات . وكان المودودى وحزبه مشهورين فى الأوساط

الاسلامية بكابول ومن خلال مجلة جهيز Gahiz بذلت جهود في أوائل السبعينات بمعرفة الاسلاميين الأفغان لانشاء علاقات رسمية مع الحزب الباكستاني . وكان المودودي قد بزغ حينئذ كأهم مفكر اسلامي غير عربي وأهم داعية في العالم الاسلامي السني : اذ كانت مؤلفاته التي كتبها باللغة الأردية قد ترجمة الى العربية والفارسية والانجليزية .

لقد ولد أبو الأعلى المودودي في الهند في عام ١٩٠٣ في أسرة دينية وبدأ حياته العملية كرئيس تحرير في جريدة دينية . وكان يؤمن أن طبيعة النظام الاجتماعي تنساب من أعلى لأسفل . ومن ثم فانه لكي يتم تغيير المجتمع فانه ينبغي أولا تغيير التفكير النظري لزعماء وقادة هذا المجتمع . ثم أسس « جماعة اسلامي » من أجل تكوين كادر من المسلمين المخلصين المنظمين القادرين على جلب الانتصار للاسلام في الهند . وعندما تم تقسيم الهند في عام ١٩٤٧ فانه ذهب الى الباكستان .

وقد ألف المودودي ستين كتابا وأدخل تطويرا على الاسلام من خلال « الاجتهاد » بحيث أصبح الاســـلام بمثابة أيديولوجية حديثة تقدم الاجابات على كافة المشاكل الفردية والاجتماعية . وهو على العكس من العلماء التقليديين الذين بددوا طاقاتهم وجهودهم في دراسة أمور تفصيلية ليست لها علاقة بالظروف الراهنة حيث واجه الحياة الحديثة المعاصرة وهو مسلح بسلاح الشريعة . وهو قد لجأ الى « الاجتهاد » ولكن بما يساير أسس الشريعة الاسلامية وروحها

ومما جعل المودودي جذابا بصفة خاصة لدى الشــــباب الأفغاني التقي الحضـــــري الواقع في حبائل التأثيرات الثقافية

الغربية والروابط التجارية والعسكرية مع السوفيت ، قوله ان الاسلام به اكتفاء ذاتى وأن الاسلام منفصل تماما عن — بل فى الواقع متعارض مع — أسلوب الحياة الاجتماعية فى كل من الغرب والشرق على حد سواء . وقال المودودى أن الغرب فاسد أخلاقيا وأشار الى « أن الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية مختلفتان تماما من حيث أهدافهما ومن حيث مبادىء التنظيم الاجتماعى » . وكان يرغب للمسلمين أن يعكفوا على تحصيل المعرفة العلمية والتكنولوجيا من أجل تحقيق المنافع والمصلحة للاسلام .

وأشار الى أن الحكومة فى عهد النبى محمد والخلفاء الراشدين الأربعة كانت حكومة نموذجية يحتذى بها حيث كانت مكتسبة الطابع الديموقراطى . وقال أن زعيم أى دولة اسلامية فى هذا العصر الحديث ، الذى يرأس فيه الأجهزة التشريعية والقضائية والتنفيذية ينبغى أن يتم انتخابه بمعرفة المؤمنين وكذلك ينبغى أن يتم انتخاب أعضاء المجلس الاستشارى (البرلمان) وأعضاء البرلمان يجب أن يكونوا قادرين على الحكم بما اذا كان الزعيم يتبع السياسات الاسلامية أم لا . ولم يكن لدى المودودى اعتراض على دخول المرشحين للانتخابات البرلمانية وفقا لترشيحات من أحزابهم لهم . ولكنه أشار الى أنه ينبغى على المرشحين بمجرد الفوز بمقاعد فى البرلمان أن يتخلوا عن انتماءاتهم الحزبية الضيقة ويتجهوا بكل ولائهم من أجل رفعة شأن الدولة الاسلامية ويدلوا بآرائهم فى الموضوعات التى تطرح للمناقشة وفقا للرأى الحقيقى النابع من أذهانهم .

الا أن الآراء التجديدية التى نادى بها المودودى قد فشلت عندما كان الأمر يتعلق بتناول المسائل العائلية والاجتماعية . اذ كان يؤيد فكرة الفصل بين البنين والبنات فى مجالات التعلم

وغيرها من المجالات الأخرى كما كان ينادى بضرورة ارتداء المرأة للحجاب . وكان يصر على ضرورة أن تغطى المرأة وجهها عندما تخرج من منزلها . ومع ذلك فان آراء المودودى كانت بوجه عام تقدم تفسيرا حديثا للاسلام من حيث هو البديل عن الأيديولوجيات الالحادية التى كانت آخذة فى التفشى فى داخل أفغانستان .

ولكن ربانى لم يكن يريد ادخال أفكار المودودى الى داخل منظمته التى تسمى « جماعة اسلامى » اذ كان يدرك أن انشاء حزب سياسى حديث هو أمر لا يتلاءم مع الأوضـــاع الاجتماعية السائدة بالمناطق القبلية فى أفغانستان وبذلك كان يريد أن يوائم « جماعة اسلامى » مع العادات والتقاليد القبلية .

كما برهن الرئيس داوود خان على أنه متسم أيضا بنفس القدر من المرونة . فهو بعد أن سحق التمرد الذى حدث فى المنطقة الشمالية الشرقية عاد الى اثارة مســـألة بوشتونستان بطريقة هادئة . وعندما عرض شاه ايران التوسط لتحســـين العلاقات الأفغانية الباكستانية رحب داوود خان بذلك على الفور . وتم عقد اجتماع بالفعل بين داوود خان وبوتو وكان ذلك بمثابة حدث تاريخى مهم حيث كان الأول من نوعه فى تاريخ العـــلاقات بين هاتين الدولتين المتجاورتين . وفى عام ١٩٧٦ وعد شاه ايران بالموافقة على تقديم حوالى نصـــف التمويل المالى اللازم للخطة السبعية لأفغانستان التى يبلغ حجمها ٢٣٩٢ مليون دولار أمريكى . وكان ذلك بمثابة عرض سخى وكريم للغاية من جانب الشاه مما جعل داوود خان يرد على هذا الجميل بأن يجعل الســـياسة الخارجية لكابول تميل قليلا لصالح الغرب .

وفى الداخل اتخذت السياسة الداخلية لداوود خان منعطفا يمينيا . اذ قام بتطهير حكومته من الموظفين البارشام Parcham

وبعدئذ قام باضطهادهم علاوة على اضطهاده للخلقيين Khalqi وتحت هذه الظروف اضـــــطرت مجموعات الخلق ومجموعات البرشام الى الاندماج معا فى كيان واحد فى يوليو ١٩٧٧ وبذلك أعادوا تأسيس الحزب الديموقراطى الشعبى . واستمر داوود خان فى سياساته السابقة الرامية الى تدعيم وتقوية سلطاته ومواصلة اضطهاده للأصوليين . اذ أصبح الدستور الجديد الذى أعلن عنه فى يناير ١٩٧٧ يضمن تواجد رئيس قوى وتشريع ضعيف . ومنح ذلك الدستور المرأة حقوقا متساوية تماما مع الرجل ولم يخصص سوى دور ضـــئيل للغاية للاســـــلام . وفى شهر ديسمبر عقب الاعتراف باغتيال وزير التخطيط : أحمد على خورام قامت الحكومة بالقاء القبض على ٥٤ شخصا من الأصـــوليين بتهمة التآمر على اغتيال الرئيس داوود خان وأعضاء حكومته . وفى تلك الأثناء كان اضطهاد الماركسيين قد اتخذ شكل اغتيالات لزعمائهم على أيدى عملاء تابعين للحكومة . وقد أثار ذلك الـــكثير من القـــلق والانزعاج بين صفوف اليســـــاريين الذين لم يعرفوا كيفية الرد والانتقام من هذه الممارسات .

الا أن اغتيال مير أكبر خيبر Mir Akbar Khyber ــ وهو رئيس نقـــابة تجارية يحظى بالاحترام كما كان رئيس تحـــرير جريدة « برشام » فى ١٧ ابريل ١٩٧٨ قد غير الموقف . اذ قام زعماء « الحزب الديموقراطى الشعبى » بتنظيم مظاهرات شعبية ضخمة ضد الحكومة فى كابول . فأصدر داوود خان أوامره بالقاء القبض على جميع زعماء الحزب الديموقراطى الشعبى وايداعهم فى السجون . ولكن نور محمد طراقى Nur Muhammad Taraki رئيس الحزب لم يلق القبض عليه . فقام ببث النشاط فى الشبكة اليسارية المتواجدة فى داخل الجيش والتى كانت قد أنشئت على مدى الســـنوات الماضية . وكانت النتيجة هى حدوث انقـــلاب

عسكرى قام به ضباط الجيش اليساريون فى ٢٧ ابريل ١٩٧٨ وهو الحدث الذى يسمى رسميا باسم « ثورة ابريل » . وقد قتل داوود خان أثناء القتال الذى دار عند قصر الرياسة وآل منصبه الرسمى كرئيس للجمهورية وكرئيس للوزراء الى طراقى Taraki وقد حدث ذلك الانقلاب العسكرى نتيجة للجهود الذى بذلها الماركسيون لفترات طويلة من أجل تجنيد ضباط عسكريين على مدى سنوات عديدة ونتيجة أيضا للسياسة التى اتبعتها حكومة كابول (التى بدأها داوود خان فى منتصف الخمسينات) بارسال ضباطها للحصول على المزيد من التدريبات العسكرية الى الاتحاد السوفيتى . ونظرا لأنهم كانوا يتلقون تلك التدريبات العسكرية فى الأكاديميات العسكرية المتواجدة بجمهوريات أواسط آسيا التابعة للاتحاد السوفيتى فانهم كانوا يشعرون بالألفة فى هذه الأماكن من الناحية الثقافية والعنصرية وبالتالى راحوا يقارنون بين التقدم الاقتصادى والاجتماعية والتعليمى للسكان المسلمين فى هذه الجمهوريات الاسلامية والتخلف الذى يعيش فيه أهالى أفغانستان ، ولذلك فان هذه التجارب جعلتهم موالين ومناصرين للسوفييت مما سهل من تجنيدهم لصالح الشبكة الماركسية المتواجدة فى داخل الجيش الأفغانى .

الثورة الماركسية وما بعدها :

وما صعد « الحزب الديموقراطى الشعبى » الى السلطة حتى بزغ على السطح العنصران اللذان يتألف منهما هذا الحزب . وكان عنصر خلقى Khalqi أو جناح خلقى وهو بقيادة تراكى Taraki وحفيظ الله أمين Hafizullah Amin يرغب فى ادخال تغييرات سريعة على المجتمع أما جناح برشامى Parchami وهو بقيادة ببراك كارمال Babrak Karmal فكان يفضل ادخال

الاصلاحات بطريقة هادئة وتدريجية . ولقد وصف تركى : Taraki حكومته بأنها ليســت حكومة اشـــتراكية وانما هى « حكومة ديموقراطية وطنية» ترتكز على تحالف العمال والفلاحين والبراجوازية الوطنية المتصـــارعة ضـــد الاقطاعيين والطبقـــة البرجوازية الكومبرادورية الخاضعة فى اذلال لرأس المال الأجنبى . ونظراً لأن هؤلاء القادة الثوريين كانوا يعـــرفون جيـــدا التاريخ الوطنى لبلادهم وثقافاته الشعبية فانهم راحوا يكررون القول بأنهم يؤمنون بعقيدة الاسلام وحرصـــوا فى جميع الخطب الجماهيرية التى يلقونها على الناس على البدء فى الكلام بـ : « بسم الله الرحمن الرحيم » وكذلك بالنسبة لكافة البيانات الرســـمية التى تعلنها الحكومة وفى الاذاعات التى يبثها الراديو والتليفزيون . كما كان تراكى Taraki وغيره من قادة « الحزب الديمقراطى الشعبى » يحرصون على تأدية صلاة الجمعة فى المساجد المختلفة المتواجدة بالعاصمة كابول . وراحوا يكررون للجماهير باستمرار أن كافة الاصلاحات التى ستتم ستكون متمشية مع الشريعة الاسلامية .

وقد أحدثت الاصـــــلاحات التى قدموها للأمة من مايو الى نوفمبر ١٩٧٨ تأثيرات مباشرة أو غير مباشرة على حياة معظم الأفغان . وكان الهدف من وراء هذه الاصلاحات هو تدعيم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للغالبية العظمى من جماهير الشعب وهو أمر بدا متمشيا تماما مع الخط الاسلامى .

وفى مايو أعلنت الحكومة « الجهاد » ضد الأمية وراحت تطبق التعليم الأولى الالزامى على الجنسين : الذكور والاناث . اذ كان حجم التعليم بالنسبة للفتيات منخفضا للغاية . حيث لم يكن يذهب للمدارس سوى ٥٪ من عدد الفتيات فى مقابل ٣٠٪ من عدد البنين . وســـارت الحملة التعليمية على نحو جيد فى

المناطق الحضرية ولكنها كانت متعثرة فى الأماكن الريفية . اذ كانت الأماكن الريفية تشهد معارضة قوية للغاية للتعليم المختلط وخاصة بالنسبة للتعليم المختلط فى المرحلة الاعدادية أو الثانوية . ومما زاد الموقف سوءا قلة عدد المدرسات مما كان يؤدى الى تكليف مدرسين للتدريس فى مدارس البنات وهم مدرسون قد جاءوا من المدن الصغيرة والكبيرة . فكان هذا من وجهة نظر الأهالى الريفيين أمرا متسما بالفسق والفجور . هذا بالاضافة الى أن الكتب المدرسية المقررة كانت تمتدح أسلوب الحياة بالمدن وتشجع عليها كما كانت هذه الكتب تشوبها مسحة من الماركسية . وعلاوة على ذلك قامت حملة محاربة الأمية بطرد مدرسى الدين المحليين « الملا » من النظام التعليمى المحلى . ونتيجة لذلك ظهرت حالات من الاغتيالات للمدرسين الثوريين العلمانيين على أيدى الأصوليين . ولقد وصلت « حملة مكافحة الأمية » الى ذروتها فى أوائل عام ١٩٧٩ وبعدئذ بدأت فى الهبوط والتدهور السريع .

والخطوة الكبيرة التالية التى اتخذت فى أوائل يوليو كان يراد بها تحقيق الاستفادة للفلاحين المثقلين بالرهونات العقارية وبسعر الفائدة المرتفع الذى يتم على أيدى كبار الملاك ومقدمى السلف والقروض . اذ صدر القرار رقم ٦ الذى يلغى كافة الرهونات والديون السابقة على عام ١٩٧٣ مع تخفيض سعر الفائدة تخفيضا هائلا عن ذى قبل (عادة كان سعر الفائدة يصل الى نسبة ١٠٠٪ سنويا) على السلف والقروض الجديدة . وذهبت الحكومة فى تقديراتها الى أن هذا الاصلاح سوف يستفيد منه ٤/٥ مجموع عائلات الفلاحين . الا أن هذا القرار — فى ظل عدم تواجد بيروقراطية ملتزمة اجتماعيا — قد خلق مشكلات جديدة غير مسبوقة للحكومة الجديدة . كما عتم على تأثيراته المفيدة على الحياة الريفية . فرجال الدين المحليين (الملا) الذين

تربطهم علاقات دم وقرابة مع كبار ملاك الأراضى مقدمى السلف والقروض أفتوا بأن الغاء الديون الســـابقة ما هو الا نوع من السرقة وبالتالى فهو اجراء غير اسلامى (ومن ناحية أخرى نجد أن الأقلية من علماء الدين الموالين للحكومة أشـــاروا الى الآيات القرآنية التى تناهض الربا) . وبدأ الكثير من رجال الدين المحليين (الملا) يلقون خطبا موجهة ضد الحكومة فى جو كانت فيه المقاومة المســـلحة ضد الحكومة قد اتخذت طابع الاغتيالات للمدرســـين الماركسيين والموظفين المدنيين الماركســـيين . وردت الســـلطات الحكومية على ذلك بأن ألقت القبض على رجال الدين المحليين أو فصلتهم من أعمالهم ، بل قامت الحكومة فى ســـبتمبر ١٩٧٨ — بعد أن شجعتها الفتوى الصـــادرة عن مجموعة من العلماء الدينيين والموالين للحكومة فى كابول وغيرها من الأماكن الأخرى — باعلان « الجهاد » ضـــد « الاخوان » وهو الاســـم العام الذى يستخدمه الناس للاشارة الى الأصوليين العسكريين .

وبحلول ذلك الوقت كان الصراع المتواجد فى داخل الحزب الحاكم قد حسم لصالح « جناح خلقى » Khalqi ومن ثم زاد ايقاع الاصلاحات مع اضفاء الطابع العلمانى . ففى منتصف أكتوبر قامت الحكومة بالغاء العلم الوطنى الذى له ثلاثة ألوان : الأسود والأحمر والأخضر ووضعت بدلا منه علما أحمر اللون مشابها لأعلام جمهوريات أواسط آسيا التابعة للاتحاد الســـوفيتى . وقد أثار اختفاء اللون الأخضر الاسلامى من العلم الوطنى شكوك الناس فى أن الدولة قد سارت فى طريق الالحاد والكفر . وقد تدعم هذا الشك عندما لم يعد القادة السياسيون يذكرون عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » فى بداية بياناتهم وخطبهم السياسية وعندما توقف ذكر هذه العبـــارة أيضـــا لدى افتتاح البرامج الاذاعية والتليفزيونية . فهاتان الخطوتان قد أبطلتا مفعـــول كافة ما قالته

أجهزة الدعاية الحكومية على مدى شهور من أن الحكومة الجديدة تؤمن ايمانا صادقا بالدين الاسلامى وتتمسك به . حيث تزايد الاعتقاد بين رجال الدين بأن الدولة أصبحت غير اسلامية : وكان هذا يكفى لقيامهم بالدعوة الى مقاومة الحكومة واسقاطها .

وحقيقة الأمر أن هاتين الخطوتين قد حيدتا التأثير المباشر الناجم عن القرار رقم ٧ الذى يتعلق بالزواج والعلاقات العائلية والذى صدر فى نفس ذلك الوقت تقريبا . وقد نص ذلك القرار على منح المرأة حقوقا متساوية مع الرجل علاوة على منع ارغام الفتاة على الزواج بالاضافة الى تحديد حد أدنى للزواج : ١٦ سنة بالنسبة للفتيات و ١٨ سنة بالنسبة للفتيان . وحدد القرار سعر العروس بـ ٧ دولارات وكان متوسط السعر آنئذ فى حدود ١٠٠٠ دولار . وكانت تلك الفقرة يقصد بها مساعدة العرسان الفقراء الذين يرغبون فى الزواج . الا أنه كان من الصعب للغاية تنفيذ ذلك القرار فى القرى . وعلى كل حال فان ذلك القرار لم يتدخل فى مسألة المهر الذى أقرته الشريعة الاسلامية .

وأخيرا فى أواخر نوفمبر ١٩٧٨ حدث أهم أنواع الاصلاحات على الاطلاق . اذ كان اصلاحا يتعلق بملكية الأراضى الزراعية . والأراضى الزراعية تشكل المصدر الرئيسى للدخل فى افغانستان التى تعتبر معظم أراضيها ريفية زراعية . وكان ٤٠٪ من الفلاحين بأفغانستان من المعدمين الذين لا يمتلكون أية أراض زراعية على الاطلاق وكان ٤٠٪ آخرون يمتلك كل فرد منهم مساحة تتراوح ما بين ١½ فدان الى ٦ أفدنة . أما كبار ملاك الأراضى الزراعية الذين يشكلون نسبة ٢ر٢٪ فكان يمتلك كل فرد منهم ٣٠ فدانا أو أكثر ويمتلكون كلهم ٤٢٪ من مجموع الأراضى الزراعية التى تتراوح ما بين ٢٥ و ٢٩ مليون فدان . وقد قسم القرار رقم

٨. الأراضى الزراعية الى ثلاث فئات : وحدد الملكية بـــ ٣٠ فدانا كحد أقصى بالنسبة للأراضى التى تروى بمياه الرى الدائم و ٣٠٠ فدان كحد أقصى للأراضى الجافة التى لا يتوفر لها رى دائم . وتوقعت الحكومة أن ينجم عن تطبيق هذا القرار توافر عدد من الفدادين يتراوح ما بين ٢½ و٣ ملايين فدان من أجــل أن توزع على الفلاحين المعدمين الذين لا يمتلكون أراضى على الاطلاق . ولكى تنفذ الحكومة قرار الاصلاح الزراعى فانها شــكلت لجانا للأراضى تتألف أساسا من أعضاء بالحزب الديموقراطى الشعبى وبدأت هذه اللجان عملها فى يناير ١٩٧٩ مع توفير حماية لها من رجال الشرطة وشرعت فى زيارة القرى لكى تقوم بتسليم سندات الملكية للفلاحين المعدمين . وكانت الحكومة الثورية تهدف من وراء تطبيق نظام الاصلاح الزراعى الى كسر شوكة النفوذ الاجتماعى الاقتصــادى الذى تتمتع به الطبقة العليا التقليدية الدينية التى ظلت تحكم المجتمع الريفى منذ قرون عديدة . واحتج كبار ملاك الأراضى الأغنياء بينما راح حلفاؤهم من رجال الدين يصـــدرون الفتاوى القائلة بأن أخذ أراضى أى شخص يعتبر سرقة وجريمة وان أولئك الفلاحين الذين يوافقون على اســتلام هذه الأراضى ينتهكون الشريعة الاسلامية . وبســبب هذه الفتاوى وبســبب خوف الفلاحين المعدمين من الانتقام العنيف من جانب كبار ملاك الأراضى نجد أن عددا كبيرا من الفلاحين المعدمين رفضوا استلام شهادات الملكية التى تقدمها لهم لجان الأراضى الحكومية الزائرة . ومع ذلك فقد أشارت الحكومة ــ بحلول مارس ١٩٧٩ ــ الى أنها قد قامت بالفعل بتوزيع ٥١٢ ألف فدان على ١٠٤ آلاف من العـــائلات .

وعلى مستوى العلاقات الخارجية قامت الحكومة الماركسية بتقوية روابطها مع الاتحاد السوفيتى من خلال التوقيع على معاهدة

صداقة وتعاون فى ديسمبر ١٩٧٨ . وكانت تلك المعاهدة على غرار تلك المعاهدات التى سبق أن أبرمتها موسكو مع كل من : أثيوبيا وانجولا ونيتنام حيث كانت تنص على الروابط الوثيقة بين الدولتين والتعاون بينهما فى النواحى العسكرية والسياسية والاقتصادية . ونصت المادة ٤ من هذه المعاهدة على أن الموقعين على هذه المعاهدة « سوف يتشاورون مع بعضهم البعض ويتخذون الاجراءات الملائمة التى تضمن أمن واستقلال ووحدة أراضى كل من الدولتين » . وكانت هذه الفقرة بالذات هى التى نفذتها كابول فيما بعد عندما وجهت الدعوة لقوات سوفيتية للمجىء الى افغانستان .

وكان التأثير الاجمالى لهذه التطورات هو الاستقطاب فى داخل المجتمع علاوة على تزايد حدة المعارضة واكتسابها المزيد من الأنصار والمؤيدين . وقامت شخصيات اسلامية بارزة مثل محمد ابراهيم المجددى بشجب الاصلاحات ووصفها بأنها غير اسلامية وراحوا يلقون الخطب الموجهة ضد الحكومة وبعد فترة من التردد تحركت الحكومة ضد المعارضة الدينية فى يناير ١٩٧٩ حيث استولت الحكومة على المكاتب التابعة للشيخ محمد ابراهيم المجددى مع القاء القبض على جميع الأفراد الذكور فى عائلة المجددى . بل قامت الحكومة بتنفيذ حكم الاعدام فى بعض الشخصيات الدينية ولكنها لم تعلن عن تلك الحالات من الاعدام . وتسببت هذه الاجراءات الحكومية فى بث الرعب والخوف فى الدوائر الدينية . مما أدى الى فرار كبار القادة الاسلاميين والصوفيين الى خارج أفغانستان ثم انضموا الى مجموعات المعارضة المتمركزة فى بشاور Peshawar . وأصبحت منطقة الحدود الافغانية الباكستانية بمثابة مركز نشيط للمقاومة والأعمال التخريبية .

وتزايدت حدة المقاومة ضد الحكومة الماركسية خلال شتاء ٧٨ ــ ١٩٧٩ مع تعذر الوصول الى اقليم نوريستان Nuristan وفقدان الحكومة المركزية السيطرة عليه (موسميا) وسقوطه فى أيدى « جبهة نوريستان الاسلامية » . كما حدث موقف مماثل فى مرتفعات حذاراجات Hazarajat التى أصبحت تحت حكم « المجلس الثورى للاتحاد الاسلامى لأفغانستان » .

ولكن الحدث الذى سبب الكثير من المتاعب لكابول وسبب تغيرا فى ميزان القوى فى داخل الحزب الديموقراطى الشــــعبى كان يتمثل فى ذلك التمرد الذى حدث فى حيرات Herat التى تقع على مسافة ٦٥ ميلا من الحدود الايرانية والذى تم فى منتصــــف مارس ١٩٧٩ اذ عاد عشرات من الأصوليين الأفغان الى حيرات قادمين من ايران فى أعقاب الثورة الاسلامية التى تفجرت فى ايران فى أوائل فبراير ١٩٧٩ . وقام بعض هؤلاء الأصوليين الأفغان باجراء اتصالات مع الضباط الموالين للاسلام المتواجدين فى الحامية العســـــكرية المحلية بينما قام آخرون بتجنيد وحشــــــد المؤمنين المتواجدين بالقرى المجاورة حول رأى موحد ازاء قيام المدرسين بالتدّريس فى مدارس البنات .

وفى يوم الجمعة الموافق ١٦ مارس قام القرويون المتظاهرون باغتيال مدرسين حكوميين وبعدئذ تجمعوا فى « حيرات » على هيئة سلسلة من المسيرات المسلحة . وهنا وجدوا تأييدا من أهالى المدن ومن الحامية العسكرية المحلية . ثم انطلقوا جميعا فى ثورة عارمة وراحوا يقتلون كوادر الحزب الديموقراطى الشعبى والضباط العسكريين علاوة على قتل المستشارين السوفيت وعائلاتهم .. واســــتولى الثائرون على منطقة حيرات . وبعد أيام قليلة عندما وجــــــدوا طابورا من العربات المدرعة تقترب فى اتجاه قندهار

Qandhar ملوحة بعلم أخضر وبنسخة من القرآن الكريم اعتقدوا بطريق الخطأ أن هذا الطابور من السيارات المدرعة قد انضم للثوار وتم السماح لهذا الطابور بالمرور . الا أن هذه السيارات والعربات كانت فى حقيقة الأمر تابعة للقوات الحكومية وما دخلت هذه العربات الى حيرات حتى تلقت غطاء جويا من الطائرات الحكومية وبدأ الهجوم على الثوار المتمردين وتمكنوا من الاستيلاء على المدينة حيرات واستمرت المعارك على مدى خمسة أيام مما أسفر عن سقوط ٥٠٠٠ شخص بين قتيل وجريح بما فى ذلك عدة مئات من الجنود التابعين للحكومة وموظفى الحزب الديموقراطى الشعبى . وقد ألقت كابول باللوم فى ذلك على طهران الاسلامية وأشارت الى أن طهران هى السبب فى ذلك التمرد المسلح . وحتى يمكن تجنب الأخطار المتصاعدة للثورة المضادة فانه تم تشكيل « حكومة انقاذ وطنى » فى أول ابريل مع تكليف أمين Amin لكى يشغل منصب رئيس الوزراء فى حكومة الانقاذ الوطنى .

وكان حفيظ الله أمين متشددا ومتعصبا وتسببت سياسته الرامية الى تطهير الادارة الحكومية من البارشام Parchami فى الاصطدام بالرئيس تراكى Taraki . وحدث صراع على السلطة تمكن خلاله أمين رئيس الوزراء من الاستيلاء على وزارة الدفاع وبالتالى تمكن من السيطرة على العمليات المناهضة للتمرد . وفى منتصف سبتمبر حدث تبادل اطلاق النيران بين الضباط المرافقين لأمين والضباط المرافقين لتراكى . وفى يوم ٦ أكتوبر قامت وسائل الاعلام الكبرى بالاعلان عن أن الرئيس تراكى قد مات عقب تعرضه لـ « مرض خطير » .

والزعماء السوفيت الذين سبق لهم السماح لكبار قادة البرشام من أمثال كرمال Karmal باللجوء السياسى الى موسكو

قد نصحوا أمين باتخاذ خطوات استرضائية بهدف تهدئة المشاعر العدائية التى يشعر بها الناس تجاه الحكومة . ونظرا لأن أمين كان يدرك أن كابول تعتمد على المساعدات السوفيتية فى المجالات الاقتصادية والعسكرية فانه بادر الى الموافقة على تلك النصائح الموجهة اليه . فقام باطلاق سراح آلاف عديدة من المسجونين السياسيين . وأعاد ادخال عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » فى مستهل البيانات الرسمية وبداية البث فى الراديو والتليفزيون بل أصدر أوامره باصلاح المساجد على نفقة الدولة . وفى حين أنه كان يكرر القول بتوفير « الحرية الكاملة للدين والاحترام العميق للاسلام والدعم الشامل للاسلام » فانه أقسم أنه سيحارب « التعصب الدينى » . وحاول التودد الى الزعماء الصوفيين وأصدر تعليماته للجنة المشكلة لاعداد المشروع الجديد للدستور « بأن تولى اهتماما خاصا بالاسلام » . ثم أعلن العفو العام عن حوالى ربع مليون من اللاجئين ووجه لهم الدعوة بالعودة الى بلادهم أفغانستان . وكان هذا العفو العام عديم الجدوى ولا طائل تحته . اذ كانت المشاعر المناهضة للحكومة بين اللاجئين قد وصلت الى درجة كبيرة حتى أن أعضاء « حزب اسلامى » قد بدأوا فى برنامج يهدف الى اغتيال زعماء الحزب الديموقراطى الشعبى المتواجدين بالعاصمة كابول .

وكانت الأعمال الارهابية التى يقوم بها « حزب اسلامى » فى كابول تدل تماما على الأنشطة المناهضة للحكومة على طول الحدود الأفغانية الباكستانية . بل أصبحت منطقة باكتيا Paktiya الشرقية معقلا للمتمردين والثوار ولقد اضطر أمين لاستدعاء السوفيت لكى يساعدوه فى محاربة الثوار . وتمكنت القوات الحكومية والسوفيتية من الحاق الهزيمة بالمتمردين فى باكتيا . وبعد ذلك قام المارشال ايفان بفلوفسكى رئيس القوات

البرية السوفيتية بجولة فى أفغانستان لكى يقوم باعداد خطط شاملة لمقاومة المتمردين . وكان ذلك بمثابة بداية للعملية التى أسفرت عن مجىء عشرات الآلاف من الجنود السوفيت الى أفغانستان .

وابتداء من أواخر أكتوبر ١٩٧٩ فصاعدا بدأت فرق أواسط آسيا السوفيتية بالاضطلاع بواجبات الحراسة نيابة عن القوات الأفغانية لكى تتمكن القوات الأفغانية من محاربة المتمردين . وفى منتصف ديسمبر وصلت كتيبتان سوفيتيتان الى قاعدة بجرام Bagram الجوية القريبة من كابول والتى أصبحت واقعة تحت السيطرة السوفيتية . وعقب الهجوم على أسد الله أمين رئيس البوليس السرى فى المقر الرئيسى للرئيس أمين اضطر الرئيس الأفغانى الى نقل مقره الرئيسى الى قصر دارولامان الذى يقع عند مشارف العاصمة . وبحلول ٢٤ ديسمبر أصبح يوجد حوالى ٨٠٠٠ جندى سوفيتى و ٤٠٠٠ مستشار عسكرى سوفيتى فى أفغانستان . وبعد مرور ثلاثة أيام سيطرت القوات السوفيتية على المنشآت العسكرية فى كابول ثم قامت بمهاجمة قصر دارولامان مما أسفر عن مقتل أمين . ثم وصل بعدئذ بيرا كارمال Babrak Karmal الذى كان مبعدا فى موسكو منذ أكثر من عام ، الى أفغانستان لكى يرأس الحكومة الجديدة . وسرعان ما أصبح يوجد فى أفغانستان حوالى ٥٠ ألف جندى . وكان حجم القوات العسكرية الأفغانية فى ذلك الوقت فى حدود ٩٠ ألف جندى . وكان وصول قوات سوفيتية بهذه الأعداد الكبيرة بهدف تدعيم الدولة الأفغانية بمثابة اعتراف بأن الحكومة الماركسية المحلية قد أغضبت ونفرت قطاعات كبيرة من المجتمع الأفغانى وأن الحكام الأفغان قد فشلوا فى تقويم الحالة النفسية لجماهير الناس وفشلوا بالتالى فى تقويم سرعة ايقاع الاصلاح وطبيعته .

ومنذ ذلك الحين نجد أن القيادة المعتدلة للحزب الديموقراطى الشعبى راحت تحاول بوسائل عديدة فى اصلاح الدمار الذى لحق بموقف الحكومة نتيجة للتجاوزات التى ارتكبت بمعرفة قطاع خلقى Khalqi المتحمس بقيادة أمين الذى مارس السلطة الفعلية من أغسطس ١٩٧٨ حتى ديسمبر ١٩٧٩ .

وبعد أن تقلد كارمال مقاليد الحكم أعلن على الفور اطلاق سراح جميع المسجونين السياسيين علاوة على الغاء « كافة التنظيمات المناهضة للديموقراطية والمناهضة للانسانية والغاء القبض على الناس والغاء الاضطهاد التعسفى وتفتيش البيوت والاستجوابات » كما أعلن عن « الاحترام الكامل للمبادىء المقدسة الاسلامية » وحماية الحياة العائلية والمحافظة على « الملكية الخاصة القانونية » . وكان من الواضح بعد كل التجاوزات التى ارتكبها أمين أن كارمال Karmal كان يرغب فى اللجوء الى أعمال استرضائية تهدف الى تهدئة النفوس والمشاعر وليس مجرد أعمال تتعلق بالمجال الدينى . وقد حصل فى هذا الشأن على مساندة كاملة من الكرملين الذى كان ايفاده لقوات سوفيتية لأفغانستان نابعا من المادة رقم ٤ بمعاهدة الصداقة الافغانية السوفيتية التى تم التوقيع عليها منذ عام واحد فقط وهى المعاهدة التى وصفها كارمال بأنها بمثابة البدء فى « المرحلة الثانية » من ثورة ساؤور Saur أو ثورة ابريل .

وكان تدخل موسكو العسكرى هو أيضا بمثابة المرحلة الثانية فى المقاومة المسلحة الأفغانية . اذ كان وصول القوات السوفيتية بهذه الأعداد الكبيرة بمثابة لطمة قاسية للعزة القومية الأفغانية مما أدى الى ترك آلاف الناس المحبين لوطنهم أفغانستان منازلهم بهدف الانضمام الى المقاومة النشطة بالأماكن الريفية أو

الالتحاق بمجموعات وأحزاب المقاومة المتمركزة فى الباكستان أو ايران . واستمرت المنظمات التى تعمل من داخل الباكستان فى التواجد من حيث هى كيانات مستقلة عقب فشل محاولة ادخالها فى مجلس المائة عضو الذى اقترحت الجمعية الوطنيــة الكبرى تشـــكيله فى اجتماعها الذى عقد فى مايو ١٩٧٩ فى بشــــاور Peshawar . وقد وصــــف قادة أحزاب المقـــاومة الجمعية الوطنية الـــكبرى (أو اللويا جرجا Loya Jirga) بأنها غير شرعية كما رفضوا الدستور الذى أعدته اللويا جرجا من أجل جمهورية أفغانستان الاسلامية .

وبحلول ربيع عام ١٩٧٩ كانت هناك ستة أحزاب اسلامية سنية أفغانية متمركزة فى الباكستان وكانت لديها اهتمامات شديدة بالابقاء على نفسها من حيث هى كيانات أو هيئات مستقلة . وكانت الحكومة الباكستانية قد قررت توصيل الصدقات الاسلامية الى اللاجئين الأفغان من خلال هذه الأحزاب وليس من خلال البيروقراطية التابعة لها . وهذه الأحزاب الســــتة كان من بينها ثلاثة أحزاب أصولية :

١ ـــ الحزب الاسلامى بقيادة حكمتيار .

٢ ـــ جماعة اسلامى بقيادة ربانى .

٣ ـــ الحزب الاســــلامى المنفصــــل بقيادة مولاوى يونس خالص Maulavi Yunus Khalis

أما الأحزاب الثلاثة الأخرى فكانت أحزابا دينية تقليدية وهى :

١ ـــ الجبهة الاسلامية الوطنية لأفغانستان بقيادة سيد أحمد الجيلانى .

٢ — جبهة التحرير الوطنية لأفغانستان بقيادة صبغة الله مجددى Sibghatullah Mujaddidi

٣ الحركة الثورية الاسلامية بقيادة مولاوى محمد نبى محمدى .

وهذه الأحزاب الأخيرة الثلاثة كانت تريد العودة بأفغانستان الى فترة ما قبل عام ١٩٧٣ واعادة الملك زاهر شاه Zahir Shah كملك دستورى . وكانوا يستمدون العون والتأييد من رجال الدين القرويين (الملا) ومشايخ القبائل وكبار ملاك الأراضى ومشايخ الصوفية .

وفى عام ١٩٨١ وصل عدد الكوادر النشطة فى داخل هذه الأحزاب الستة الى ٧٣ ألف شخص بينما الأصوليون يشكلون ⅔ مجموع هذا الرقم . وكان الحزب الاسلامى بقيادة حكمتيار هو أكثر الأحزاب الستة عددا ولكن الأحزاب الناشئة الدينية التقليدية كانت من مصادر القوة أيضا .

وليس من الغريب أن حكومة كارمال Karmal قد وجهت نيرانها العسكرية والايديولوجية ضد الأحزاب الأصولية الثلاثة مع وضع الحزب الاسلامى بقيادة حكمتيار كهدف رئيسى لها . اذ أن الحزب الاسلامى وكذلك الحزب السابق عليه الذى كان يسمى « الاخوان المسلمين » كانا يستلهمان أيديولوجيتهما من حزب الاخوان المسلمين المصرى . اذ كان حكمتيار غير معجب برجال الدين الأفغان التقليديين (الملا) لأنهم فشلوا فى تقديم حافز ذهنى ثقافى للمؤمنين كما فشلوا فى أن يكونوا من أنفسهم قوة مستقلة قوية قادرة على مواجهة حاكم غير اسلامى . كما كان حكمتيار ينتقد بشدة مشايخ الصوفية الذين كان يصفهم دائما بأنهم يتسمون بالتدهور والأنانية والخضوع للخرافات مما تسبب فى افسادهم للدين الاسلامى .

وكان حكمتيار يعتقد أن اعادة أفغانستان الى طريق الاسلام الحقيقى يتطلب أولا اصلاح المؤسسة الدينية والقضاء على الصوفية والطرق الصوفية وتنفيذ الشريعة الاسلامية بكل تفاصيلها وحذافيرها . وهذا المطلب الأخير لا يمكن تحقيقه الا من خلال الغاء القوانين التقليدية مثل قوانين البوشتوالى على سبيل المثال . بالاضافة الى فرض ارتداء الحجاب على النســــاء بالأماكن الريفية التى لا تلتزم فيها النساء بارتداء الحجاب عادة . وقد أشارت نشرة صـــــادرة عن الحزب الاسلامى الى أن « الاصلاح الأخلاقى والدينى يشتمل على احياء دور المسجد واحياء التعليم الاسلامى واحياء مراكز تدريب الدارسين التى تقدم التعليم الدينى وبناء شخصية الفرد فى ضوء الاسلام .. ورفع مستوى الملا من خلال مساعدات الدولة » .

وهذه الانتقادات التى وجهها حكمتيار للعلماء الدينيين التقليديين قد أسفرت فيما بعد عن تشاجره وتصادمه مع أحد زملائه المشتركين معه فى قيادة الحزب : ألا وهو مولاوى يونس خالص وهو رجل دين تلقى دراسته فى جامعة ديوباند Deoband علاوة على أنه كان زعيما قبليا فى نفس الوقت . وكان السبب الرئيسى فى هذا الشقاق والنزاع هو اصرار خالص على الدخول فى صراع مسلح على الفور وانضمامه للتمرد الذى تفجر فى باكتيا Paktiya فى ربيع عام ١٩٧٩ وهو الأمر الذى كان حكمتيار يعارضه . اذ كان حكمتيار يريد انشاء شبكة واسعة فى داخل أفغانستان قبل أن يوجه ضربته الى الحكومة . وكان خالص تنقصه العقلية التنظيمية الفذة والجاذبية التى يتمتع بهما حكمتيار . وكان القسم الذى أنشق بقيادة خالص هو مجرد شريحة من الكيان الأم للحزب .

وكان حكمتيار الذى يدير حزبا متسما بالاتساق الشـــــديد لا يرغب فى عمل تعديلات على بنيان الحزب من أجل أن يضم الحزب الواقع الاجتماعى للقبائل الأفغانية والطرق الصوفية وعلية القوم

من الطبقة العليا الريفية التقليدية . وعلى العكس من ذلك نجد أن ربانى قائد « جماعة اسلامى » فتح المجال فى داخل حزبه لكى يضم أعضاء لا ينتمون انتماء كاملا لأيديولوجية الحزب التى كانت ترتكز أساسا على كتب ومؤلفات كل من : المودودى وسيد قطب . بل ان الاتجاه المرن الذى اتخذه ربانى قد امتد ليشمل الشيعة : فهو الوحيد بين الزعماء السنيين الذى وافق على مطلب الشيعة بضرورة أن يطبق المذهب الجعفرى على المسلمين . وخلال السنوات التى أمضاها كأستاذ للعلوم الدينية فى جامعة كابول كان يركز كثيرا على تخليص المجتمع الأفغانى من التأثيرات غير الاسلامية ولا يهتم كثيرا بالهجوم على التقليديين الاسلاميين . ولذلك أصبح الآن قادرا على الاستفادة من الشبكات المتواجدة من رجال الدين والطرق الصوفية والاسلاميين الجدد الذين ظهروا فى الأفق مؤخرا — ولم يهمل سوى الشـــبكة القبلية — من أجل تقوية وتدعيم حزبه . وكانت نقطة الضعف عنده هى أنه كان من أصل طاجيكستانى Tajik وليس من البوشتون مثل حكمتيار . وكان الطاجيكيون يشكلون نسـبه ¼ مجموع السكان الأفغان البالغ عددهم ١٩ مليون نسمة وكان عدد البوشتون يساوى ضعف عدد الطاجيكيين .

وفى حـين كان كل من : ربانى وحكمتيار ملتزمين بالتطبيـق الكامل للشريعة الاسلامية لدى انشاء دولة اسلامية مستقبلا نجد أن ربانى كان يفضل نظام تعدد الأحزاب وفقا لآراء المودودى بينما حكمتيار لم يكن يفضل ذلك . اذ كان حكمتيار يميل الى الأسلوب الفاشستى وكان يفضل اقامة دولة اسلامية ترتكز على نظام الحزب الواحد . وقد هاجم فى عنف منافسيه ووصفهم بأنهم اما من أنصار النظم الملكية واما أنهم يتسمون بالفساد الدينى أو الانحراف أو الموالاة للغرب . وكان يركز على أن حزبه هو حزب يؤمن بالنظام الجمهورى والنقاء الدينى واتخاذ سـياسة لا هى غربية ولا هى

شرقية . وفى حين كان الهدف الرئيسى الذى تسعى اليه الأحزاب الأخرى هو تحقيق انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان واستعادة الاستقلال الأفغانى نجد أن الحزب الاسلامى كان يتحدث عن نقل غارات الفدائيين الى ما وراء نهر اكسوس Oxus فى داخل أواسط آسيا السوفيتية وضد الشيوعية هنالك وتحرير أراضى المسلمين فى كل من : بوخارى Bukhara وطشقند Taskhent ودوشانب Dushabe .

وكل من حكمتيار وربانى وصف حكومة كابول بأنها ملحدة وكافرة وحث المؤمنين على شن حرب مقدسة ضد هذه الحكومة والاستشهاد فى سبيل ذلك اذا اقتضت الضرورة ذلك . ونظرا للطموح العقائدى لدى حكمتيار علاوة على مقدرته التنظيمية الخارقة فان الحزب الاسلامى أصبح الى حد بعيد هو أقصى الأحزاب جميعا حيث صارت قيادته ممتدة لمسافات بعيدة تصل الى حيرات Herat علاوة على تواجد شبكة من مراكز التطوع والتجنيد ومعسكرات التدريب والخدمات الطبية ومستودعات السلح والبضائع ومكاتب الشئون الادارية . وقد ادعى حزبه أنه قد أنشأ حكومة أخرى فى المناطق التى سيطر عليها الحزب فى داخل أفغانستان . وفيما يتعلق بربانى فان حليفه أحمد شاه مسعود المتواجد فى وادى بنجشير Panjshir القريب من كابول قد برهن على أنه أعظم القادة الفدائيين . فهو أثناء مقاومته الناجحة للحكومة المركزية تمكن فى نفس الوقت من انشاء بنية سياسية وادارية فى الوادى . وقد أدى هذا الى تدعيم هيبة ونفوذ ومصداقية حزب جماعة اسلامى .

وفى داخل أفغانستان نجد أنه بالاضافة الى المناطق الواقعة تحت سيطرة الأحزاب المتمركزة فى بشاور Peshawar كانت توجد أراضى أخرى فى أواسط مرتفعات حذاراجات Hazarajat واقعة

تحت حكم منظمات شيعية لها مكاتب فى داخل المدن الكبرى الايرانية علاوة على مكاتب أخرى فى مدينة كويتا Quetta بالباكستان . وكان المجلس الثورى للاتحاد الاسلامى لأفغانستان الذى أقام شئونه الادارية فى اقليم حاذاراجات فى سبتمبر ١٩٧٩ يتألف من شيعة مسلمين معتدلين وراديكاليين . وفى ربيع عام ١٩٨٤ نجد أن ائتلاف سازمان النصر Sazman-Nasr الموالى لايران والسيجاه بسداران (جيش الحرس) قد أطاح بالمجلس الثورى وسيطر على الاقليم مما دعم بذلك دور ايران فى الحل النهائى للأزمة الأفغانية .

وكانت الأحزاب الأصولية تستقى المجندين بها أساسا من الشباب المتعلم المتخرج فى الجامعات والكليات ممن نبعوا فى الريف والمدن الصغيرة من عائلات الموظفين الحكوميين أو المدرسين أو التجار . وكان معظمهم من الراديكاليين والدوجماتيين والمتسامحين وكانوا بمثابة صورة طبق الأصل من الكوادر الشابة للحزب الديموقراطى الشعبى .

وكان المعسكر الاسلامى التقليدى ينبع من المؤسسة الدينية لأفغانستان التى كانت وثيقة الصلة بالملك زاهر شاه . وكان صبغة الله المجددى زعيم جبهة التحرير الوطنية لأفغانستان NFLA خريجا فى جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة وكان أستاذا ومدرسا للعلوم الاسلامية وكان ابن أخت هزرات أوف شور بازار Hazrat of Shor Bazaar . ونظرا للعلاقات الودية بين أسرة المجددى والملك فان جبهة التحرير الوطنية لأفغانستان قد جذبت العديدين من الموالين للملك . وحقيقة الأمر أن جبهة التحرير الوطنية لأفغانستان قد استخدمت رمز أو شعار الملكية كشعار وطنى واسلامى . وقد كان أحمد جيلانى Gailani زعيم جبهة

التحرير الوطنية لأفغانستان ورئيس الطريقة القادرية الصوفية مستشارا مقربا من الملك زاهر شاه . وكان أقل الزعماء الأفغان المتمركزين بالباكستان تدينا وكان شخصا متسما بالواقعية وكان يعترف ويدرك أن الاتحاد السوفيتى كانت له اهتمامات دائمة فى أفغانستان وكان ينصح بالتعايش مع الاتحاد السوفيتى . أما نبى محمدى Nabi Muhammadi زعيم الحزب الثورى الاسلامى فكان أستاذا فى العلوم الدينية وكان يدير كلية اسلامية فى لوجار Logar التى تقع جنوب كابول كما كان زعيما قياديا فى الطريقة الصوفية القادرية . وكان حزبه يضم رجال الدين المحليين (الملا) ويضم أيضا الشباب الذين حصلوا على التعليم الحديث . وكان على علاقة طيبة مع كل من الشخصيات الدينية والشخصيات العلمانية وكذلك مع الشخصيات المتخذة الطابع الحديث أو الشخصيات التقليدية . وهو كان على نحو ما بمثابة حلقة اتصال بين المعسكر التقليدى والمعسكر الأصولى .

والصفة المشتركة التى تشترك فيها كل هذه الأحزاب هى أنها بان اسلامية Pan-Islamic ومناهضة للماركسية علاوة على استخدامها للاسلام من حيث هو الصيحة الوحيدة التى يمكن أن تحشد المسلمين وتحرك مقاومتهم الشعبية ضد الحكومة اليسارية . وبمعنى آخر يمكن القول بأن الاسلام قد لعب دورا حاسما فى خلق الهدف من وراء تكوين كل هذه المنظمات أو الأحزاب . الا أن ذلك لم يكن كافيا لتوحيدهم تحت مظلة واحدة وتحت زعيم واحد .

وبعد فشل اللويا جرجا Loya Jirga المؤقتة فى مايو ١٩٧٩ بذلت محاولات فى اجتماعات وزراء خارجية منظمة المؤتمر الاسلامى التى تمت فى يناير ومايو ١٩٨٠ بهدف تشكيل جبهة موحدة للأحزاب

المتواجدة فى المنفى . الا أن هذه المحاولات باءت بالفشل . ولكن الذى حدث هو أن الزعماء من أمثال : حكمتيار وربانى قد أحرزوا نجاحا فى الحصـــــول على أموال طائلة من دول الخليج الغنية بالبترول . وبعد أن تدعم « الحزب الاسلامى » بقيادة حكمتيار عقب حصوله على تلك المساعدات المالية فانه حاول توسيع المنافســـة وتوسيع حلقة السباق الى داخل المناطق التى تسيطر عليها أحزاب أخرى وقبائل أخرى . فأدى ذلك بالطبع الى تدمير العــــلاقات الداخلية بين الأحزاب المختلفة . فســـــارع ٣٠٠ من رجال الدين المحليين (الملا) بالمجىء من الاقاليم الأفغانية الى بشاور فى أبريل ١٩٨١ للعمل على تعزيز وتدعيم الوحدة بين الأحزاب . وتحت هذه الضغوط قام كل من : الجيلانى والمجددى والنبى محمدى بانشاء مجلس مشترك . وقامت الأحزاب الأصولية الثلاثة بتشكيل منظمة شاملة تسمى : التحالف الاسلامى لأفغانستان تحت زعامة ورئاسة البروفسور : عبد الرسول السياف . وقد تلقى عبد الرســـول السياف تعليمه فى جامعة الأزهر الشـــريف بالقاهرة وجامعة المدينة المنورة بالسعودية وكان يجيد اللغة العربية ويتحدث بها فى طلاقة مما كان يؤدى الى استقباله استقبالا حارا فى عواصم دول الخليج . وانشاء هذه الائتلافات قد ساعد على التنسيق فى مجال توزيع الأسلحة المرسلة من كل من : أمريكا والعربية السعودية ومصر والتى كانت فى صيف عام ١٩٨١ تصـــل بمعدل حمولة طائرتين أسبوعيا . وقد اســـتخدم السياف منزلته الرفيعة فى كسب العديد من الأفغان غير المنتمين لحركات المقاومة وذلك من خلال تزويدهم بالأسلحة . كما قام بتحويل التحالف الاســـلامى لأفغانستان الى حزب خاص به وهو اجراء أدى الى بث الخلاف والشقاق مرة أخرى بين الأحزاب .

الا أن هذا لم يثبط من عزيمة العربية السعودية ولم يمنعها من مواصلة ضغوطها على الأحزاب الاسلامية لكى تتحد مع بعضها

البعض . وفى أوائل عام ١٩٨٣ حاولت الأحزاب الاسلامية بذل كل ما فى جهدها من أجل خلق تنظيم شامل ومنظمة شاملة تجمع بينها وذلك خوفا من أن يتم استبعادها من المفاوضات التى هى بصدد التنفيذ تحت رعاية واشـــــراف الأمم المتحدة بين كل من : كابول وموســـكو واســـلام أباد وطهران من أجل حل مشـــكلة أفغانستان . وقد أسفرت تلك المحاولات عن انشاء « التحالف الاسلامى للأحزاب السبعة للمجاهدين الأفغان » فى مايو ١٩٨٣ تحت رئاسة الســــــياف مع تعيين المجددى Mujaddidi نائبا للســـــياف .

وتجاهلت حكومة كابول الجماعات الاسلامية التقليدية وركزت هجومها على الجماعات الأصولية وخاصة « الحزب الاسلامى » (كلا القسمين اللذين يتألف منها الحزب) وُ « جماعة اسلامى » . مع اظهار نفســـــها فى نفس الوقت على أنها الراعية والحامية للاسلام . وكان الرئيس كرمال Karmal هو أول من اتخذ خطوة فى هذا الصدد . فبعد أن ألغى العلم الأحمر بالنســــبة للحزب الديموقراطى الشعبى أعاد العلم الوطنى الذى يضم ثلاثة ألوان فى اليوم السابق على الاحتفال بالذكرى الثانية لثورة ســـاؤور (ابريل) فى شهر ابريل . وقال : « ان الألوان الثلاثة للعلم قد تأصــــلت فى داخل وجدان مجتمعنا وهى دائما ما كانت مرتبطة بحالات المناخ المتعاقبة هبوطا وارتفاعا التى خاضها شعبنا » . وكان كرمال يحرص على تأدية الصلاة فى المساجد مع الجماهير بشكل منتظم كما كان يبدأ خطبه وبياناته بعبارة : « بســـــم الله الرحمن الرحيم » . وكان جماهير المســــتمعين اليه يتجاوبون ويرددون صيحات « الله أكبر » من وقت لآخر أثناء القائه بياناته . كما أنشأ « مكتب التعاليم الاسلامية » ووضــــعه تحت اشرافه المباشر . كما أصدر أوامره باعادة اذاعة القرآن الكريم وبث ترتيله

على موجات الراديو وعلى شاشات التليفزيون . وفى الخطاب الذى ألقاه فى منتصـــــف يونيو أكد مرة أخرى على أن احترام الاسلام هو جزء من السياسة الرسمية للدولة . واتخذ خطوات عديدة للتعبير عن ذلك . اذ أعطى مزيدا من الاهتمـــــام بوزارة الشئون الدينية والأوقاف مع اذاعة أنشطتها على نطاق واسع من خلال وســـائل الاعلام الكبرى التى تضـــم الاذاعة والصـــحافة والتليفزيون . ومن بين الاهتمامات الأخرى أنه أصـــــدر أوامره بزيادة مرتبات العـــلماء الدينيين وتدعيم هيبتهم ونفوذهم . وفى مقابل ذلك أصبح العلماء الدينيون يعطون المزيد من الاهتمام بشرح السياسات الحكومية الرسمية والاصلاحات التى تقوم بها الحكومة أمام حشود الناس الذين يؤدون الصلاة بالمساجد . كما شرعت وزارة الشئون الدينية والأوقاف بتنفيذ خطة طموح لبناء المزيد من المساجد والمدارس والمعاهد الدينية . كما وضعت هذه الوزارة برنامجا لتبادل الوفود الاسلامية مع جمهوريات أواسط آســــــيا التابعة للاتحاد السوفيتى . وكان الهدف من وراء ذلك هو طمأنة المسلمين الأفغان على أن الاسلام والمؤسسات الاســـلامية مازال متواجدا فى هذه الجمهوريات السوفيتية . كما أن البرامج الاذاعية التى تبثها هذه الجمهوريات باللغة الفارسية والأذربيجانية **Azeri** والطجيكية **Tajik** والأزبكستانية **Uzbek** والتركمانية كانت تؤكد أن الاســـــــلام فى حالة من الأمن والأمان فى ظل النظـــام السوفيتى وأن الخطر الذى يتهدد الاسلام يجىء من جانب أمريكا وبريطانيا والصين واسرائيل .

أما بالنسبة للاســــــلاميين فقد حاولت الحكومة أن تكســـر الاحتكار الذى يمارسونه على الاسلام مع اتخاذ التدابير اللازمة نحو منع الفدائيين من التحـــرك فى حرية من أفغانســــــتان الى الباكستان والعكس . وشنت الحكومة حملة لتصـــــوير المقاومة

المسلحة على أنها غير اسلامية واستعانت فى حملتها هذه ببعض كبار رجـــال الدين البارزين من أمثـــال بهاء الدين جان عقا Baha al Din Jan Aqa بل حاولت الحكومة كســـب رضا القبائل المتواجدة على طول الحدود مع الباكستان من خلال تقديم الرشـــاوى والوعد بمنحها الحكم الذاتى الاقليمى . وقد تمكنت الحكومة من تحقيق بعض النجاح فى هذا الصدد لأسباب عدة من بينها : أن الملاقات بين الأحزاب الأصولية كانت تتم أســـاسا بمعرفة شخصيات تنقصها المكانة التقليدية بالاضافة الى أن القبائل المتواجدة عند الحدود كانت ضعيفة وغير محددة المعالم . وتلك القبائل التى حولت ولاءها تجاه كابول ـــ عقب حصـــولها على الرشاوى والأموال والسلاح وتلك هى الوسائل التقليدية للرشوة فى العالم القبلى ـــ بدأت تسبب الارهاق والمضايقات للمجاهدين لدى محاولتهم العبـــور الى داخل الأراضى الأفغانية أو الخروج منها .

وكثفت حكومة كرمال من جهـــودها الرامية الى توســـيع قاعدتها الشعبية . ففى أوائل عام ١٩٨١ قامت بانشاء « الجبهة الوطنية National Fatherland Front مع الوضع فى الاعتبار تكون خصـــائص ومميزات القوميات المختلفة والقبائل والعشـــائر المختلفة التى تتألف منها الأمة الأفغانية . وكانت هذه « الجبهة الوطنية» تضم «جماعة العلماء» والعديد من المجالس القبلية . وكان الهدف الرئيسى من وراء انشاء « الجبهة الوطنية » هو نشـــر وشرح السياسات الحكومة الرسمية لجماهير الناس . وبحلول مارس ١٩٨١ زعمت هذه الجبهة أنها تضم ١٠٠ ألف عضو ينتمون لـــ ٤٠٠ مجلس محلى . وكان العدد الرســـمى لأعضاء الحزب الديموقراطى الشعبى هو ٩٠ ألف عضـــو . ومع ذلك نجد أن أنشطة هاتين المنظمتين الحكوميتين كانت مقصورة أســـاسا على

المراكز الحضرية نظرا لأن أجزاء كبيرة من المناطق الريفية كانت قد تمكنت من الافلات من سيطرة السلطات المركزية .

ويمكن معرفة مدى انتشار أعمال المقاومة من خلال البيانات الرسمية الصادرة فى أوائل ١٩٨٣ التى أفادت بأن الثوريين الفدائيين قد دمروا حوالى نصف المدارس والمستشفيات (عدد المدارس ١٨١٤ وعدد المستشفيات ٣١) علاوة على تدمير ١١١ وحدة صحية و ¾ خطوط المواصلات و ٨٠٠ عربة نقل ثقيلة و ٩٠٦ جمعيات تعاونية زراعية .

وكانت الخسائر البشرية آخذة فى التصاعد أيضا . ففى أوائل عام ١٩٨٤ صدر بيان يفيد بأن عدد القتلى أو الجرحى من الجنود الأفغان قد وصل الى ١٧ ألف شخص ومن الفدائيين وصل الى ٤٠ ألف شخص . أما الخسائر من الجنود السوفيت فكانت تتراوح ما بين ١٣٥٠٠ الى ٣٠٠٠٠ شخص .

وأصبحت المعالم التى تحدد موقف الجانبين واضحة . اذ صارت حكومة كابول التى تعتمد على ١١٥ ألف جندى سوفيتى علاوة على المساعدات العسكرية الهائلة من موسكو ملتزمة باخضاع المقاومة المسلحة المنتشرة بالمناطق الريفية بأفغانستان . وعلى الجانب الآخر أصبحت الأحزاب الأفغانية التى تتخذ من الباكستان مقرا لها والتى تتلقى الأسلحة والأموال من كل من : أمريكا والعربية السعودية ومصر والصين — وهى أموال فى حدود ٥٠٠ مليون دولار سنويا — ملتزمة أيضا بمواصلة الجهاد ضد الحكومة الماركسية الى أن يتم طرد القوات السوفيتية وسقوط الحكومة الأفغانية العميلة الكافرة الملحدة .

وفى ظل هذا الجو المشحون بالتوتر الشديد تبنت الأمم المتحدة عقد محادثات بين الطرفين المتنازعين تتناول موضوعات مثل : الجدول الزمنى لانسحاب القوات السوفيتية ووقف المساعدات الأجنبية للمجموعات الأفغانية وعودة اللاجئين الأفغان الى بلدهم أفغانستان . وكان أهم هذه النقاط وأصعبها هو الانسحاب السوفيتى من أراضى أفغانستان . وعرض فريق كابول وموسكو أن يتم الانسحاب بعد مرور أربع سنوات على وقف المساعدات العسكرية الأجنبية للمجاهدين الافغان . ولكن محور اسلام اباد واشنطون حدد فترة تتراوح من ثلاثة الى أربعة شهور . أما الأحزاب الأفغانية فكانت تريد انسحابا سوفيتيا فوريا بدون قيد أو شرط .

وبعد أن أصبح ميخائيل جورباتشوف سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى بالاتحاد السوفيتى فى مارس ١٩٨٥ بدأ الكرملين يظهر المزيد من المرونة حول مشكلة أفغانستان . ووصف جورباتشوف الصراع الدائر فى أفغانستان بأنه « جرح دام » وعبر عن رغبته فى تخفيض التعهد السوفيتى ازاء كابول . وظهرت نوايا الكرملين الجادة عندما عرض محور كابول/موسكو تخفيض الفترة التى يتم فيها الانسحاب السوفيتى من ٤٨ شهرا الى ١٨ شهرا . وبدأت موسكو تبدى اهتمامها بأن تقوم القوات الأفغانية المناهضة للماركسية بالتفاوض مع حكومة كرمال من أجل التوصل الى مصالحة وطنية . وعندما أدركت موسكو أن قادة المقاومة فى داخل أفغانستان وخارجها لا يرغبون فى التعامل مع كرمال . فانها لجأت الى بعض الوسائل السرية الرامية الى طرده من الحكومة . وتم بالفعل طرده من الحكومة فى مايو ١٩٨٦ وحل محله الدكتور محمد نجيب الله . ثم أعلنت موسكو بعد ذلك أنها سوف تسحب ٦٠٠٠ جندى سوفيتى بحلول شهر أكتوبر مما أكد أنها ترغب بالفعل فى تسوية الأزمة الأفغانية .

ويبدو أن هذه الحركات التى قام بها الكرملين قد نظرت اليها أمريكا والأحزاب الاسلامية على أنها دلائل تشير الى ضعف الكرملين . ولكى تحرر موسكو خصومها من مثل هذه التفسيرات الخاطئة فانها زادت من أنشطتها ضد المقاومة فى أفغانستان . حيث بدأت تستخدم القوات الخاصة بدلا من القوات النظامية بهدف قطع خطوط الامدادات الواردة من الباكستان . وفى عملية مشتركة قامت بها القوات الأفغانية والسوفيتية فى نوفمبر ١٩٨٦ نجد أنها تمكنت بالفعل من الاستيلاء على داما داكا Dama Dakka وهى منطقة تتجمع فيها الأسلحة الغربية والصينية التى تصل عن طريق الباكستان . بل قاموا أيضا بحملة لتقديم الرشوة للقبائل المتواجدة فى مناطق الحدود لكى تقوم بعرقلة مرور الأسلحة والفدائيين الى داخل أفغانستان على طول الحدود الأفغانية الباكستانية الممتدة على مسافة ١٥٠٠ ميل .

وكان الاسلاميون والأمريكان فى حالة من النشاط أيضا . فبعد أن أرغموا حكومة كابول موسكو على اتخاذ موقف التسوية والمصالحة بشكل علنى بدأوا يعملون على رفع نسبة الخسائر التى تترتب على استمرار التواجد السوفيتى فى أفغانستان . وكانوا يدركون أن ميزان القوى لا يمكن حسمه الا فوق أرض المعارك . ولجأت موسكو الى نشر الطائرات الهليكوبتر على مسافات طويلة مما جعل القوات السوفيتية والأفغانية تتفوق على خصومهم الاسلاميين . ولكى تحيد واشنطون السيادة الجوية لكابول فانها قررت تسليح الفدائيين بصواريخ بلوبايب Blowpipe الانجليزية الصنع وصواريخ ستنجار Stinger الأمريكية الصنع التى تحمل فوق الكتف وهى كلها صواريخ مضادة للطائرات . وتم بالفعل شحن ١٥٠ صاروخ ستينجار الى المنطقة فى أواخر ربيع عام ١٩٨٦ وأعقب ذلك شحن ٣٠٠ صاروخ بلوبايب بعد شهور

عديدة . وتم استخدام هذه الصواريخ بشكل مكثف فى فصل الخريف وقد أتضح أنها أكثر فاعلية من صواريخ سام ٧ السوفيتية الصنع . وقد أشارت مصادر أفغانية فى بشاور الى أنه تم اسقاط ٦٠ طائرة هليكوبتر حكومية خلال الشهور الثلاثة الأخيرة من عام ١٩٨٦ .

وفى ظل هذه التطورات بدأ قادة المقاومة يعتقدون أن وقف اطلاق النار من جانب واحد والذى أعلنه نجيب الله فى ١٥ يناير لمدة ستة شهور قد نبع أساسا من الضعف المتزايد الذى أصاب حكومته من جراء عناد الاسلاميين ومثابرتهم . أما بالنسبة لنجيب الله فانه أشار الى أن قراره الخاص بوقف اطلاق النار من جانب واحد هو بمثابة مقدمة للانسحاب السوفيتى الشامل وتكوين حكومة مصالحة وطنية يشارك فيها بعض زعماء الفدائيين .

ورفض التحالف الاسلامى للأحزاب السبعة للمجاهدين الأفغان العرض الخاص بوقف اطلاق النار وقرروا تشكيل حكومة مؤقتة لكى تتولى السلطة بدلا من حكومة نجيب الله .

وبعدئذ قام نجيب الله بتكوين « لجنة المصالحة الوطنية » التى قامت بدورها بانشاء مئات الفروع لها فى البلاد بهدف حث المعارضة على الكف عن المقاومة المسلحة والمشاركة فى الحياة السياسية الطبيعية وتوقفت وسائل الاعلام الكبرى عن الاشارة الى الفدائيين على أنهم « عصابات » وأخذت تتحدث عنهم وتصفهم بأنهم مجرد « اخوان مضللين » . وبذلت جهود للتقليل من أهمية وراديكالية ثورة ساؤور Saur أو ثورة ابريل حيث أشار عبد الرحيم هاتف رئيس لجنة المصالحة الوطنية فى حديثه عن هذه الثورة قائلا : « اننا نسميها ثورة ولكنها فى حقيقة الأمر ليست سوى نوع من التطور » .

وشرعت المقاومة الاسلامية فى القيام باغتيالات قادة لجنة المصالحة الوطنية . وفى أواخر مارس انهار وقف اطلاق النيران بالفعل . ومهما كانت المكاسب التى حققتها الحكومة فانها كانت مكاسب متواضعة . اذ ادعت الحكومة أن ٤٤ ألف لاجىء أفغانى قد عادوا الى وطنهم وأن ٢١ ألفا من المجاهدين الأفغان قد توقفوا بالفعل عن أعمال العنف . وبناء على ذلك فانه كان لايزال هناك مليونا لاجىء و ½ مليون من الفدائيين مما جعل وقف اطلاق النيران من جانب واحد ليس له أدنى تأثير .

ومع استقرار الرأى على نحو غير رسمى على أن الانسحاب السوفيتى سوف يستغرق حوالى احد عشر شهرا أصبحت النقطة المهمة التى ينبغى معالجتها خارج اطار الأمم المتحدة هى تشكيل حكومة فى كابول تكون مقبولة لدى المعارضة الاسلامية والمساندين لها . وفى يونيو أعلن نجيب الله أنه على استعداد للتفاوض مع مؤيدى الملك محمد زاهر شاه المتواجد بالمنفى بروما من أجل تشكيل حكومة ائتلافية . وكان هذا بمثابة دعوة مفتوحة للأحزاب الاسلامية التقليدية المنضمة للتحالف الاسلامى للمجاهدين الأفغان لكى تتفاوض بشأن دخولها فى الحكومة الأفغانية وهى خطوة من شأنها أن تحدث انقساما داخليا فى داخل التحالف ومن شأنها أيضا أن تضفى طابع الشرعية الدولية على حكومة كابول . ولكن زاهر شاه رفض أن يتقاسم السلطة معه نجيب الله . وفى نفس الوقت استمر فى رفض الخطط الرامية الى تشكيل حكومة فى المنفى حوله . وما كان زاهر شاه يريده هو استعادة تلك التقاليد التى كانت سارية فى أفغانستان والتى لم يكن من المتوقع أن يوافق عليها الحزب الديموقراطى الشعبى . اما بالنسبة للأحزاب الأصولية والحزب الديموقراطى الشعبى الماركسى فكانت الخلافات بينها عميقة للغاية بحيث يتعذر تفاديها وتجنبها . اذ كان

الحزب الديموقراطى الشعبى يؤمن تماما بضرورة الفصل ما بين الاسلام الدينى والاسلام السياسى . وهذا أمر ملعون دينيا من وجهة نظر الأصوليين الذين يعتقدون أن الأيديولوجية الاسلامية تخترق كافة مظاهر الحياة : الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ولم تكن كابول أو موسكو على استعداد للتخلى عن الوضع التسيدى أو موقف الهيمنة الذى يتخيله لنفسه الحزب الديموقراطى الشعبى الماركسى فى أية حكومة ائتلافية مستقبلية . ففى خلال السنوات التسع التى قضاها ذلك الحزب فى الحكم تمكن من تكوين جمهور الناخبين الخاصين به : ألا وهم الفلاحون المعدمون الذين يحصلون على أراض علاوة على النساء المتحررات اللائى كن يخشين من العودة الى حوائط المنزل الأربعة والعودة الى الحجاب بالاضافة الى جميع أولئك الذين قد استفادوا من حملة محو الأمية .

وعلى الجانب الآخر كانت الأحزاب الاسلامية التقليدية قد تهيأت للحفاظ على الشبكات التى كان زعماؤها يترأسونها قبل ثورة ساؤور Saur أو ثورة أبريل وكانت الأحزاب الأصولية الأربعة هى التى قد خلقت ــ شأنها فى ذلك شأن الحزب الديموقراطى الشعبى ــ كيانات جديدة سواء فى داخل أفغانستان أو خارجها . ونظرا لأن هذه الأحزاب الأصولية كانت هى المستفيد الرئيسى من المساعدات التى تقدمها الدول الأجنبية ــ وهى مساعدات وصلت فى عام ١٩٨٧ الى مبلغ ٦٤٠ مليون دولار من أمريكا علاوة على مبلغ مماثل من العربية السعودية ــ فانها كانت لديها الوسائل التى تعينها على الابقاء على شبكات على نطاق واسع تعمل على تدعيم القضية الأصولية فى المجالين السياسى

والعسكرى . وبكلمات أخرى يمكن القول بأن الثورة الماركسية وكذلك الموارد التى تقدمها الباكستان وايران ودول الخليج ومصر وأمريكا كانت هى الأسباب الرئيسية للزيادة السريعة المفاجئة فى تفجر الأصولية الاسلامية بين الأفغان .

* * *

ومع ذلك لم يكن أحد يتصور أن الأحزاب الأصولية قد تتمكن فى يوم ما من الاستيلاء على السلطة فى أفغانستان . وذلك لأسباب عديدة من بينها :

١ ـ انه كانت هناك خلافات عميقة بين هذه الأحزاب بشأن مسائل مهمة وحيوية مثل حق النساء فى الادلاء بأصواتهن فى الانتخابات وما اذا كانت جمهورية أفغانستان الاسلامية سوف ترتكز على نظام الحزب الواحد أو نظام تعدد الأحزاب .

٢ ـ أن هذه الأحزاب كانت تتصادم مع الأحزاب الاسلامية التقليدية بشأن مسائل حيوية مثل نظام الحكم الملكى . فالتقليديون كانوا يميلون للنظام الملكى بينما الأصوليون يعتقدون أن السلطة الوراثية هى سلطة غير اسلامية .

٣ ـ فيما يتعلق بمسائلة التعايش مع موسكو فان التقليديين من أمثال الجيلانى Gailani كانوا على استعداد لتقبل المصالح الاستثنائية التى كان يتمتع بها الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان . ولكن على النقيض من ذلك كان الأصولى حكمتيار يعتقد أن جمهورية أفغانستان الاسلامية ينبغى أن تصبح مستقبلا

بمثابة نقطة انطلاق لتصدير الثورة الاسلامية الى الدول الجنوبية الواقعة فى داخل نطاق الاتحاد السوفيتى . ولم يكن هذا الاعتقاد من قبيل الدعايات الخطابية المليئة بالفصاحة اللغوية . اذ حاول بالفعل الحزب الاسلامى فى أبريل ١٩٨٧ الاستيلاء على نقطة حرس حدود تقع بالقرب من بيانج بجمهورية طاجيكستان السوفيتية .

وبوجه عام فان أفغانستان تقدم لنا صورة معقدة عن الاسلام والقوى الاسلامية . اذ أن أفغانستان لا يوجد بها ذلك التجانس الذى نشاهده – على سبيل المثال – فى المجتمع الاسلامى المصرى . فالمجتمع فى أفغانستان متغاير الخواص والعناصر الى درجة كبيرة علاوة على أنه متخلف اقتصاديا بشكل حاد . ففى المرحلة السابقة على ثورة (ابريل) كانت الدولة قد حققت قدرا ضئيلا للغاية من الانتهاكات فى حياة الفرد أو الحياة الاجتماعية للأفغان . وعلى نحو ما فان المقاومة التى قام بها الأفغان القرويون ضد الحكومة المركزية هى بمثابة ثورة ضد الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى السريع بقدر ما هى ثورة ضد الدولة فى حد ذاتها .

ولقد شهد الاسلاميون التقليديون ذروة مجدهم فى الثلاثينات والأربعينات . وظل نمو الأصولية الاسلامية ضئيلا وعلى فترات متباعدة الى أن حدث ذلك التفجر الهائل فى الفترة من أبريل ١٩٧٨ حتى ديسمبر ١٩٧٩ حيث أصبحت الأصولية بعدئذ تشكل جزءا بالغ الأهمية من الحياة السياسية والعسكرية فى البلاد . والأكثر من ذلك أنها دخلت فى عملية الصراع المتعلقة بتوازن القوى بين الدول الكبرى . ونظرا لأنها أصبحت جزءا من الجانب الأمريكى فان مستقبلها أصبح يتوقف أساسا على ما تتخذه واشنطون حيالها ويتوقف أيضا على الموقف الذى تتخذه اسلام أباد . ولذلك فان

الأصولية فى أفغانســـــتان ـــ على العكس مما عليه الحال فى ايران ـــ ليس لها قاعدة قوية موحدة وآمنة فى الداخل تتســم بالاكتفاء الذاتى والديناميكية الخاصة بها . وعلى العكس من ايران مرة أخرى فان الأصوليين الافغان لا يتبعون من الناحية العملية النظرية التى يلعنون عنها والتى تفيد أنهم يتخذون ســـياسة « لا ننحاز الى الشرق أو الغرب » .

وقصارى القول أنه لا يوجد نموذج واحد للأصولية الاسلامية سواء كان ذلك النموذج متقلدا السلطة أو متخذا موقف المعارضة .

* * *

تلخيص

من هذه الدراسة يمكن لنا أن نجد استنتاجين واضحين بذاتهما : ألا وهما الاحياء والاصلاح . وقد ظل الاحياء والاصلاح ظاهرتين متكررتين فى التاريخ الاسلامى . وهما يظهران على نحو مختلف وفقا للظروف المغايرة المختلفة .

والاحياء الاسلامى وثيق الصلة بالحركة الداعية الى العودة الى الكتب الأصولية للعقيدة : القرآن الكريم وممارسات النبى محمد على النحو الوارد فى الأحاديث النبوية الشريفة وهما يشكلان معا بما يسمى الشريعة الاسلامية . وعندما يصل الأمر الى تطبيق الشريعة على الحياة اليومية للمسلمين يظهر الاختيار ما بين : التقليد بمعنى الاعتماد على آراء وتفسيرات العلماء التى أدلوا بها فى الماضى والاجتهاد بمعنى التفسير المستقل . وبوجه عام نجد أن المصلحين الاسلاميين قد كرروا القول بأن الشخص المؤمن له الحق فى ممارسة الاجتهاد . وهذا الأمر ينطبق على السنيين أكثر مما ينطبق على الشيعة . ولكن المصلحين الأصوليين ــ بغض النظر عن معتقداتهم الطائفية وكانوا متفقين فى الرأى على أن القرآن

الكريم هو نهائى وفريد من نوعه وحقيقى تماما وأنه لا مجال فى الاسلام للتوليف بين رسالة القرآن وأى نظرية أو ممارسة غير اسلامية على الاطلاق ·

ومن ثم فان الاصلاح الأصولى يعنى العودة الى الشريعة والتفسير الخلاق للقوانين الالهية فى بيئة الظروف المتغيرة ورفض أية اضافات غير اسلامية الى الاسلام ·

وديناميكية المذهب الأصولى أو الأصولية الاسلامية تنشأ عن الصراع الذى يتواجد بين رسالة القرآن التى تنادى بالمساواة بين البشر جميعا ·· والاستغلال والظلم المتواجد فى الحياة الواقعية ·· بين مطالب الحياة الفاضلة التى تطلبها الشريعة من الشخص المؤمن وواقعية الحياة التى تكتنفها الاغراءات والرذائل ·

وكان الالتزام بالقرآن والحياة المتسمة بالتقوى والورع هو الذى دفع شيعة على أو اتباع الامام على الى الكفاح ضد أعدائه · ومن ذلك المنطلق يمكن القول بأن الشيعة هم أول الناس الأصوليين الذين ظهروا فى التاريخ الاسلامى · وبعدئذ نجد أن ظهور الأمويين المتسمين بالطابع البرجماتيقى العملى المشوب بالطابع الاستبدادى قد اعتبره المؤمنون الصادقون بمثابة اهانة وتحد لتعاليم الاسلام بحيث أصبح الاطاحة بهؤلاء الأمويين هو هدفا أسمى يسعى لتحقيقه الأصوليون · ثم نجحوا فى ذلك بالفعل ·

وفى خلال القرون التالية أصبح المجتمع الاسلامى ممتدا وشاسعا ومعقدا وذلك بسبب انتشار العقيدة الاسلامية فى كثير من أجزاء آسيا وافريقيا وأوروبا وبسبب ترسخ وتعمق الشقاق بين الشيعة والسنة علاوة على تصنيف الشريعة الاسلامية الى

أربعة مذاهب سنية ومذهب واحد شيعي بالاضافة الى ظهور الصوفية كوسيلة أساسية لتبسيط الاسلام واعطائه الطابع الشعبى • وقد اشتملت الصوفية على هرطقية الحلاج مثلما اشتملت أيضا على نقائية الغزالى الذى حاول أن يضع التجربة الصوفية فى داخل نطاق الشريعة بحيث تكون متوائمة مع الشريعة ، وهو موقف قد حرصت على اتخاذه طرق صوفية أخرى مثل الطريقة النقشبندية •

وكان هناك توتر شديد بين الاسلام الشعبى على النحو الذى قدمته بعض الطرق الصوفية •• والاسلام الرسمى على النحو الذى قدمه العلماء الدينيون • والصوفية فى حد ذاتها كانت تشهد تواجدا قلقا يتراوح ما بين الاسلام النقى الخالص والمحاولات التلفيقية والتوفيقية التى يضفيها بعض الصوفيين على الاسلام • وعندما أطلق الامبراطور المغولى أكبر Akbar الذى كان وثيق الصلة بالطريقة الصوفية الشستية Shisti « دين الله » فى أواخر القرن السادس عشر فان ذلك كان بمثابة قيام شخص ما بتقديم اسلام تلفيقى الى العالم وهو اجراء أثار هجوما شديدا مباشرا من جانب الباقى بالله Baqibullah وهو زعيم نقشبندى • وهو موقف تبناه بشدة تلميذه سيرهندى Sirhindi الذى أكد مرة أخرى أن الصوفية النقية تقضى بضرورة أن يوائم المؤمن الحقيقى بين تجاربه الذاتية الصوفية والشريعة الاسلامية • وقد قامت شخصية نقشبندية أخرى وهو شيخ يسمى ولى الله بالهجوم على كل من : الاسلام التلفيقى والاسلام الرسمى ودعا الى ضرورة اللجوء باستمرار الى « الاجتهاد » من أجل التمكن من مواجهة المشكلات المعاصرة •

الا أن الفضل فى الهجوم فى وقت واحد على الاسلام الشعبى والاسلامى التلفيقى والاسلام الرسمى يرجع الى محمد بن

عبد الوهاب فى منتصف القرن الثامن عشر . اذ قام بشجب واستنكار الصوفية علاوة على استنكاره الممارسات ومعتقدات القبائل فى نجد لفترة ما قبل الاسلام ودعم وساند حق المؤمن فى ممارسة « الاجتهاد » . وقد نجم موقفه المتصلب العنيد عن الأوضاع الاجتماعية والجغرافية لمنطقة نجد . اذ كان يمارس مهامه فى مجتمع قبلى متواجد فى الصحراء الوسطى لشبه الجزيرة العربية القليلة السكان حيث لم يكن الاسلام بحاجة الأن يتنافس مع أى عقيدة دينية أخرى متطورة ، وهى بذلك تعتبر بيئة مختلفة تماما عن بيئة شبه القارة الهندية المزدحمة بالسكان والتى بها حضارة هندوسية راسخة ترتكز على فكرة وحدة الوجود .

وكان محمد بن عبد الوهاب وكذلك المصلحون الاسلاميون بالهند يحكمون السيطرة على المشكلات النظرية للعقيدة الاسلامية فى بيئة كان الاسلام فيها اما هو الدين الوحيد المنظم (كما هو الحال فى نجد) واما هو القوة الادارية والسياسية السائدة (كما هو الحال فى الهند) ولكن ابتداء من منتصف القرن الثامن عشر وبعد أن أصبح العالم الاسلامى خاضعا فى اذلال للغرب على نحو متصاعد وأصبح معرضا للأفكار والممارسات والنماذج السياسية العلمانية الغربية فان الموقف تغير تغيرا شديدا . وهنا أصبحت الاصلاحات الأصولية تتطلب تحقيق هدفين فى آن واحد : تحرير الاسلام من التقليد المذهبى القانونى الذى يتسم به القانونيون المتحجرون علاوة على تطهير الاسلام من المفاهيم الذهنية العلمانية التى اخترقت الاسلام تحت عباءة النزعة الى العصرية أو روح العصر أو التحديث .

ويعتبر جمال الدين الأفغانى هو زعيم الحركة الاصلاحية الاسلامية الحديثة ويرجع اليه الفضل فى تنبيه الناس الى الأزمة الشاملة التى تجتاح الاسلام مع تقديم الحلول اللازمة للخروج من

تلك الأزمة • ونظرا لأنه قد عاش فى جميع الدول المهمة بالعالم الاسلامى علاوة على العيش فى كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا فانه قد اكتسب آفاقا عريضة فى فهم الأمور على نحو لم يسبق له مثيل • وراح يبث وينشر الأفكار التى تهم جميع المسلمين أو الافكار اليان اسلامية علاوة على مناداته بشن الجهاد ضد بريطانيا وروسيا وهما أهم دولتين استعماريتين فى ذلك الوقت • وتبنى فكرة فتح ابواب « الاجتهاد » التى ظلت مغلقة لفترات طويلة وركز فى دعوته على النظام البرلمانى على أساس أنه النظام أو الأسلوب الذى يتمشى مع العقائد الاسلامية • بل راح يحث المسلمين على دراسة العلوم والتكنولوجيا والمناهج العلمية • ونظرا لأنه كان ينشر افكاره وتعاليمه هذه خلال فترة التدهور النهائى للامبراطورية العثمانية فان رسالته وجدت آذانا مصغية واهتماما شديدا من جماهير المسلمين ، وفى عام ١٨٧٦ أصبح الامبراطور العثمانى هو أول حاكم مسلم فى تاريخ الاسلام يتخذ دستورا مكتوبا وان كان ذلك قد تم تحت ضغوط سياسية من جانب مجموعة قوية تسمى « العثمانيين الشبان » •

وقد قام الشيخ محمد عبده ـ وهو أحد تلاميذ جمال الدين الأفغانى ـ بتفسير المفهوم الاسلامى عن الشورى على أنه بمثابة الديموقراطية البرلمانية •• والاجماع على أنه بمثابة الرأى العام •• والمصلحة على أنها بمثابة مذهب المنفعة العامة • وأخيرا نجد محمود رشيد رضا ـ وهو تلميذ الشيخ محمد عبده ـ يقدم لنا برنامج عمل للدولة الاسلامية المعاصرة الحديثة • وقد أشار الى أن « المجتهد » الذى يتم اختياره بمعرفة ممثلين عن كافة الطوائف الاسلامية هو فقط الذى يصلح لأن يحكم الدولة الاسلامية • وهو يكون بحاجة لمساعدة من النواب الشعبيين الذين يضعون القوانين التى تتمشى مع الروح الشاملة للتعاليم الاسلامية • وينبغى

على المؤمنين اطاعة الحاكم ما دامت أعمـاله وتصرفاته تتمشى مع المفاهيم الاسلامية وتخدم الصالح العام • أما اذا اتضح أن قراراته تتعارض مع المبادىء الاسلامية أو مع المصلحـة العامة فان النواب الشعبيين ينبغى عليهم ممارسـة حقهم الدينى فى الوقوف ضـده وتحديه • وهنا نجد تصورا عن ديموقراطية اسلامية تتوافق تماما مع جميع الأزمنة المختلفة •

وما كان المصلحون الاسـلاميون يقدمون تفسـيرات سياسية للشريعة تضع فى الاعتبار الظروف المعاصرة حتى تبادر أجهزة الدعاية ونشر الأفكار التابعة لهؤلاء المصلحين الى العمل فى نشاط •

مثال ذلك أن حسن البنا قد ذهب الى ما هو أبعد من مجرد تأليف النشرات والكتيبات والكراريس واحتذاب العون والتأييد من جانب علية القوم بالدول الاسلامية وغير ذلك من الوسـائل التى لجـأ اليها كل من : جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده • اذ راح حسن البنا — فى نوع من التوافق مع روح العصر الذى تسوده مشاركة جماهير الناس العاديين فى الحركات السياسـية — يجذب انتباه وطاقات المسلمين العاديين وينشىء فى أواخر العشرينات جماعة الاخوان المسلمين التى هى بمثابة حزب شعبى له شـعار جذاب « القرآن دستوريا ومحمد مرشدنا والموت فى سـبيل الله أسمى أمانينا » وكان الوقت ملائمـا أيضا فى الفترة التى ظهر فيها حسن البنا • اذ كانت جماهير المسلمين تشعر بالاحباط والحيرة بسبب اختفاء نظـام الخلافة الاسلامية الذى ظل متواجدا على مدى ١٣ قرنا من الزمان • هذا بالاضافة الى أن الرسالة التى تنشرها جماعة الاخوان المسلمين كانت تقدم لهم العون والانقاذ والآمال • علاوة على أنها كانت بمثابة قوة تعويضية عن الموجه العلمانية التى كانت تجتاح مصر ليس فقط من جانب الغرب ولكن أيضا من جانب

تركيا التى اصطبغت بصبغة كمال أتاتورك فى فترة ما بعد الخلافة الاسـلامية ٠

الا أن حسن البنا قد فعل ما هو أكثر من مجرد انشاء حزب شعبى جماهيرى ٠ فهو باصراره على ضرورة أن يكون كل فرع من فروع جماعة الاخوان المسلمين مشتملا على المسجد الخـاص به أو المركز الخاص أو المدرسة أو النادى أو الصناعة الخاصـة به فانه بذلك قد بث الحياة فى الفكرة القائلة بأن الاسلام يشتمل على كل جوانب الحياة ٠ وهو باتخاذه لذلك الأسلوب فانه قد قدم أيضا مؤسسة تعمل على مساعدة أعضاء الاخوان المسلمين الفقراء والمنتمين للطبقة الأقل من الطبقة المتوسطة على التغلب على الاغتراب الروحى والاجتماعى الذى يعيشون فيه نتيجـة لعيشهم فى بيئـة تسودها الطبقات العلمانية المصطبغة بالصبغة الغربية ٠

ومنذ ذلك الحين تزايد النحو الاقتصادى فى الدول الاسلامية فى أعقاب الاستقلال السـياسى وفى أعقاب الارتفـاع الدرامى فى أسعار البترول الذى عثر عليه فى الكثير من الدول الاسلامية فأدى ذلك الى جذب المدن لأعداد كبيرة من المهاجرين القرويين ٠ ثم أحس هؤلاء القرويون بالضياع وفقدان الجذور عقب اقامتهم فى بيئة المدن الغريبة عليهم ٠ وتجمع هؤلاء القرويون الفقراء للعيش فى الأحياء السكنية الفقيرة بالمراكز الحضرية مما جعلهم على استعداد للانضمام الى أية جماعات ثورية سواء أكانت علمانيـة أم دينية ٠

ويحاول الأصوليون الاسلاميون اجتذاب الناس الذين يشعرون بالاغتراب فى داخل المجتمع علاوة على اجتـذاب المظلومين وفقـا للأسس الاسلامية ٠ وهم يقدمون الاسلام على أنه دين العـدالة

التامة والمساواة مع شجب طبقة علية القوم الحاكمة ووصفها بأنها ظالمـة وغير اسلامية وفاسدة وبالتالى ينبغى الاطاحة بها أو على الأقل تنحيتها سلميا لكى يتولى الحكم أناس مؤمنون صادقون فى ايمانهم . والتاكتيكات المستخدمة من أجل تحقيق هـذا الهدف تتراوح ما بين انشـاء خلايا سرية وعقد مؤتمرات جمـاهيرية فى داخل المساجد أو خارجها .. وتتراوح ما بين المواجهات الدامية مع قوات الأمن والشرطة والمشاركات السلميـة فى الانتخـابات .. وتتراوح ما بين تنفيذ العمليـات الارهابيـة وتنظيم المظـاهرات السـلمية .. وتتراوح ما بين تدمير المنشآت الرسمية الحكوميـة والانسحاب الكامل من المجتمع والعيش فى انطواء .. وما بين شن حرب شعواء ضـد الحكومة الملحدة الكافرة واقامة حوار عقـلانى مع الخصوم العلمانيين .

وبوجه عام تميل المنظمات الكبيرة الى العمل على المكشـوف وفى صراحة وعلانية أما المنظمات الصغيرة فهى عـادة ما تعمل فى السر والخفاء . وقد يقول المرء مجادلا أن بعض المنظمات التى لا يسمح لها بالعمل على المكشـوف تظل صغيرة . ولكن من ناحية أخرى نجد منظمة شعبية كبيرة مثل الاخوان المسلمين فى مصر كان لها جهاز سرى حتى خلال الفترة التى كان يسمح فيها لها بالعمـل على نحو مكشوف وشرعى .

ولكن مهما كان حجم وبنية أى تنظيم أصولى أو مهما كانت حدة التزامه بالقضية الاسلامية فان الهدف الأسمى للتنظيم يظل متمثلا فى شيء واحد : ألا وهو اقامة حكومة اسلامية حقة بمعنى الكلمة فى البلاد .

ومن بين الوسائل التى تتبع لتحقيق ذلك الهدف الأسـمى تحويل الاحتجـاج الاجتمـاعى الى حركة ثورية تتم على مراحل

مع استخدام الرموز الاسلامية واللغة والعادات والأعياد الاسلامية • وذلك هو ما حدث بالفعل فى ايران مع وجود فارق واحد وهو أن ايران لم يكن بها حزب اسلامى مثل حزب الاخوان المسلمين يعمل فى داخل ايران وانما كان يوجد فقط مجموعة من علماء الشيعة الذين لهم قاعدة اقتصادية مستقلة خاصة بهم علاوة على وجود شبكة واسعة الانتشار خاصة بهم • ومن بين الوسائل الأخرى التى تتبع من أجل خلق حكومة اسلامية لجوء جماعة أصولية الى اغتيال الحاكم (مثلما حدث مع السادات فى مصر) أو اللجوء الى الاستيلاء على مركز دينى مهم (مثل الاستيلاء على المسجد الحرام فى مكة) على أمل أن مثل ذلك الحادث الهام قد يفجر ثورة عارمة ضد الدولة فيتمكن الأصوليون من الاستيلاء على السلطة •

ولكن مهما كانت الوسيلة المستخدمة فان العنصر الأساسى فى الموقف يتوقف على مدى ولاء الجيش للحكومة • فأنظمة الحكم فى كل من مصر وسوريا والعربية السعودية قد تمكنت من البقاء على قيد الحياة رغم الضربات العنيفة التى وجهت اليها بمعرفة الأصوليين الراديكاليين لأنها كانت تحظى بولاء الجيش لها • ولكن فى ايران فقط نجد أن الخومينى كان قادرا على تقويض واضعاف الروح المعنوية للجنود بالجيش على نحو تدريجى مما جعل الجيش فى نهاية الأمر غير قادر على توفير التماسك والنظام فى الدولة • وقد حدث ذلك نتيجة لأسباب كثيرة :

١ ــ ان الجيش كان يستخدم كقوة بوليسية لاخضاع الاضطرابات المدنية على مدى فترات طويلة للغاية حتى انه أصبح لا يثير خوف الناس •

٢ ــ أن الجيش كان يوجد به نسبة عالية من الأفراد المجندين اجباريا والذين يجدون صعوبة فى تجاهل النصائح الموجهة لهم بمعرفة زعيم له مكانة عالية ومنزلة رفيعة مثل الخومينى والتى

تحثهم على التخلى عن البهلويين · كما أن عقدة الشهيد المتأصلة فى عمق فى داخل صدور الشيعة والتى دفعت بآلاف الايرانيين الى تعريض صدورهم لرصاصات الجيش كانت بمثابة عامل مهم للغاية فى اضعاف الروح المعنوية لدى الجنود ·

وهنالك أسباب عديدة أدت الى فشل الأصوليين الأفغان فى الاستيلاء على السلطة · اذ أن الأصولية فى افغانستان لم تزدهر من حيث هى حركة احتجاج ضد الأتوقراطية الظالمة وفساد الحكومات المسلمة من الناحية الاسمية فى عهد الملك زاهر شاه والرئيس داود خان وانما هى قد نمت من حيث هى ردود فعل ناجمة عن المحاولات التى قام بها الضباط اليساريون العسكريون والمثقفون اليساريون لتحويل الانقلاب العسكرى الذى حدث فى ابريل ١٩٧٨ الى ثورة ماركسية كاملة · ومثلما أدركت الحكومة اليسارية فى كابول أن جارها القوى المتمثل فى الاتحاد السوفيتى هو جار لا يمكن الاستغناء بالنسبة لبقائها على قيد الحياة فان الجماعات الأصولية الاسلامية وكذلك الجماعات التقليدية الاسلامية وجدت نفسها معتمدة اعتمادا كبيرا على جيرانها من الدول الاسلامية ـ مثل الباكستان وايران ـ من حيث مساندتها وموازة نموها وبقاؤها على قيد الحياة · وقصارى القول أن القادة الاسلاميين لا يتحكمون تحكما كاملا فى الحركة الاسلامية التى يقودونها ·

وبعد أن تسببت الحكومة اليسارية فى خلق الظروف الملائمة التى تؤدى الى نمو الأصولية الاسلامية من خلال أعمالها المتطرفة أثناء الشهور العشرين الأولى عقب الثورة اليسارية نجد أنها بدأت تتراجع عن الاصلاح الاقتصادى والاجتماعى وعن اضفاء الطابع العلمانى على المجتمع الأفغانى ·

والسياسات التى اتبعتها الحكومة اليسارية قد ساعدت على تنشيط القطاعات النائمة بالمجتمع ـ مثل الأميين الحضريين والنساء

والفلاحين المعدمين الذين لا يملكون أراضى زراعية على الاطلاق ـ مما أدى الى تشديد قبضة الحكومة على السلطة . وهى فى نفس الوقت بذلت الكثير من الجهد من أجل انهاء الشعور بالاغتراب الذى كان يشعر به العلماء الدينيون فى خلال الشهور الأولى من الثورة . ولأن الحكومة هى التى تدفع المرتبات للعلماء الدينيين فان ذلك جعل الحكومة فى موقف يسمح لها باستخدام العلماء لكى يوافقوا موافقة ضمنية على الأقل على السياسات التى تتخذ الطابع الحديث . ومن خلال المبادرة التى قامت بها لانهاء الحرب الأهلية فانها استطاعت أن تظهر نفسها على أنها محبة للسلام بالفعل فى بيئة تزايد فيها عدد الناس الذين سئموا من الحروب وويلاتها ومن ثم تمكنوا من كسب مساندة الكثيرين من الراغبين فى الاخلاد الى الراحة فى داخل البلاد . وقد فعلت الحكومة ذلك بدون أن تتراخى فى أنشطتها الأخرى المناهضة للتمرد والتمثلة فى تقديم الرشوة للقبائل المتواجدة على طول المناطق الحدودية الأفغانية الباكستانية .

ونظرا لأن الحزب الديموقراطى الشعبى كان يمارس نفوذه فى المراكز الحضرية الأفغانية فانه قد ظل محتفظا بزمام المبادرة فى ذلك الصراع . ففى أى تسوية استرضائية قد يتم التوصل اليها بين هذا الحزب والمقاومة الاسلامية لم يكن من المتوقع أن يوافق هذا الحزب الماركسى على أى برنامج يهدف الى تغيير الدولة والمجتمع وفقا للنظريات الأصولية للاسلام أو يلغى وزارات حيوية مثل وزارة الدفاع ووزارة الشئون الخارجية ووزارة الشرطة والمخابرات .

وهناك عوامل مماثلة داخلية وخارجية توضح لنا السبب فى فشل الأصوليين السوريين فى الاطاحة بحكومة حافظ الأسد . فبحلول الوقت الذى أعلن فيه الاخوان المسلمون السوريون الجهاد ضد حكومة حافظ الأسد فى عام ١٩٧٦ كان حزب البعث العربى

العلمانى الذى يعكس الأوضاع ويجعل الاسلام جزءا من المقومات الداخلية التى تتألف منها القومية العربية قد ظل متقلدا السلطة لفترة تزيد على عشر سنوات مما مكنه من انشاء جمهور من الأنصار والمؤيدين له • وهؤلاء الأنصار والمؤيدون كانوا يتألفون من أقليات دينية وعلمانية مثل العلويين والمسيحيين بالاضافة الى طبقات اجتماعية عريضة مثل طبقات الفلاحين والعمال الذين استفادوا من قرارات الاصلاح الزراعى وقرارات التأميم فى مجال الصناعة وتجارة الجملة • وأثناء المواجهات السابقة غير الخطيرة التى تمت بين الأصوليين والسلطات نجد أن هذه الشرائح من المجتمع قد احتشدوا حول العلم البعثى وقضوا على التهديد الاسلامى • وهكذا نرى أنه قد ورث حكومة وحزبا لهما خبرة فى صد الهجمات الأصولية الاسلامية من خلال أعمال شعبية وحكومية ورسمية •

وفى أوائل عام ١٩٨٠ قام الاخوان المسلمون بسوريا ــ انطلاقا من التجربة الايرانية الاسلامية ــ بعقد تحالف مع قوات المعارضة العلمانية قبل توجيه هجوم شامل على الحكومة من خلال المظاهرات الجماهيرية والاضرابات الجماعية عن العمل ولكن حافظ الأسد أدرك بوضوح أن الثورة الاسلامية السورية تسير وفق خطوط الثورة الايرانية • وعلى العكس من الشاه نجد أن حافظ الأسد لم يكن فى حاجة لأن يتصارع مع شخصية اسلامية هائلة ومقدسة مثل الخومينى • كما أنه كان لديه مجال للمناورة على نحو أفضل مما كان لدى شاه ايران • وقام الأسد بتقديم تنازلات محددة فى المجال الاقتصادى والادارى من أجل مواجهة الاتهامات العامة بالفساد ومواجهة المظالم المحددة التى يشتكى منها التجار ــ وهم الممولون الرئيسيون للأصوليين ــ علاوة على تقديم تسهيلات للحرفيين الراغبين فى الحصول على تسهيلات تتعلق بالاستيراد ومنحهم الحريات المدنية • وجنبا الى جنب مع هذه التنازلات والتسهيلات استمر

حافظ الأسد فى أعماله العسكرية الرامية الى سحق الأصوليين المسلمين والمتعاطفين معهم • وأثناء هذه الازمة قامت وسائل الاعلام الكبرى الواقعة تحت سيطرة الدولة بشن حملة عنيفة ضد الأصوليين مع الوضع فى الاعتبار التمييز ما بين القطاعات المعتدلة والقطاعات المتطرفة من الحركة الأصولية علاوة على تركيز الدعاية على القرارات الحكومية الخاصة بزيادة عدد المساجد ورفع مرتبات العلماء الدينين • وتحت الضغوط المتزايدة التى مارسها الأصوليون وقف العلويون والمسيحيون الى جانب الحكومة خشية أن يتعرضوا للابادة والسحق فى حالة قيام حكومة اسلامية فى المستقبل • وكان التجار يدركون أن الاطاحة بحكومة حافظ الأسد قد يعقبها حالة من الفوضى العارمة ولذلك بدأوا يبعدون أنفسهم عن العصيان المسلح الذى يقوم به الاسلاميون • ومما حسم الموقف لصالح الحكومة فشل الأصوليين فى المحاولة التى قاموا بها لاغتيال حافظ الأسد •

كما كانت العوامل الخارجية تشكل جزءا كبيرا من الصراع الذى يشنه الأصوليون • اذ كانوا يجدون ملاذا لهم فى العراق والأردن ويتلقون المساعدات من الرياض • وكانت اسرائيل بمثابة عامل خارجى آخر مهم • فمما حسم الموقف لصالح حافظ الأسد قيام اسرائيل بغزو لبنان فى يونيو ١٩٨٢ •

وفى حالة ايران نجد أن الفصل بين المسجد والدولة ــ وهو وضع ناجم عن الموارد المالية المستقلة التى يمتلكها العلماء الشيعية والتى أعطتهم درجة كبيرة من حرية الحركة على نحو لا مثيل له فى العالم السنى ــ كان بمثابة عامل مهم فى اسقاط الشاه • فنظرا لأن العلماء الدينيين بايران لم يكونوا من الموظفين الحكوميين فان سيطرة الشاه عليهم كانت ضئيلة للغاية • وهناك

عامل آخر وهو أن الشاه ــ على العكس من حافظ الأسد ــ لم يكن لديه أيديولوجية بديلة مثل النظرية البعثية التى تتسم بالتكامل ولم يكن لديه حزب راسخ يعمل على تدعيم شرعية حكومته · وهناك سبب ثالث وهو أن الشاه ــ على العكس من الزعيم السورى ــ لم يكن يتمتع بالولاء من جانب أقلية قوية مثل العلويين أو المسيحيين المنتشرين فى جميع أرجاء البلاد · وهناك سبب رابع وهو أن الشاه ــ على العكس من حافظ الأسد ــ وجد نفسه ضائعا ومدفوعا فى مواجهة شخصية دينية مقدسة وجذابة ألا وهى شخصية الخومينى · ومما زاد من ورطة الشاه أن الخومينى كان يوجه حركاته الاحتجاجية من خارج ايران وبالتالى كان بعيدا عن أوامره الملكية · وهناك سبب خامس وهو أن حافظ الأسد كان واضح الذهن بالنسبة للهدف الذى يسعى اليه ووسائل تحقيق ذلك أثناء تواجد الصراع الطويل بينما كان الشاه يتردد ويتذبذب أثناء اللحظات الحاسمة فى الاحتجاجات الشعبية وذلك بسبب صحته الآخذة فى التدهور وبسبب المواقف المتميعة التى تتخذها وشنجتن التى تعتبر أكبر نصير لحكومته الايرانية · وأخيرا لم يكن أمام الشاه تهديد خارجى حقيقى أو محتمل بحيث يمكن للشاه تقديمه الى رعاياه بهدف تحويل مشاعرهم وطاقاتهم نحو مواجهة عدو خارجى أجنبى

وبعد أن قام الخومينى بحفز الملايين من أفراد الشعب نحو مناصرة قضية الاسلام الذى يتعرض للتهديدات من جانب البهلويين فانه راح يدفعهم نحو اضفاء الطابع الاسلامى على المجتمع · كما راح يدفعهم نحو مواصلة الحرب ضد عراق صدام حسين الذى قام بغزو جمهورية ايران الاسلامية ·

وقبل قيام الثورة الايرانية كانت ايران تحكمها حكومة علمانية متخذة الطابع الغربى ومتألفة من علية القوم أو الطبقة الارستقراطية

بالمجتمع . وهذا هو نفس الوضع السائد حاليا فى معظم الدول الاسلامية : وهي دول كانت خاضعة للاستعمار الأوربى فى خلال القرن التاسع عشر ثم حصلت على استقلالها فى خلال الثلث الأول من القرن العشرين وتولى الحكومة فيها صفوة مختارة مشكلة على غرار الاستعماريين الأوربيين الراحلين . ومن هنا يمكن القول بأن الطريقة التى اتبعتها الثورة فى الاطاحة بالحكومة العلمانية واقامة حكومة اسلامية محلها قد لقيت تأييدا هائلا من غالبية أعضاء المؤتمر الاسلامى الذى يضم موريتانيا التى كانت بمثابة مستعمرة فرنسية والتى تواجه المحيط الباسفيكى عند أقصى الغرب ومثل أندونسيا التى كانت مستعمرة هولندية والتى تقع فى أقصى شرق الباسفيك .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن العربية السعودية هى حالة فريدة من نوعها بالنسبة لجيرانها على طول الساحل الغربى للخليج.

فالطبقة الارستقراطية الحاكمة فى السعودية التى لم تشهد حكما استعماريا غربيا كان لديها عوامل قوية تعمل لصالحها . فمع امتلاك السعودية الأكبر احتياطى بترولى فى العالم أصبح لدى الأسرة الملكية السعودية الحاكمة الموارد المالية الكافية لاستقطاب أية حالات من المعارضة تلوح فى الأفق سواء بين الاخصائيين التكنولوجيين الفنيين أو بين زعماء القبائل المنشقة فى الداخل أو التى تظهر بين قادة المعارضة السعودية المتواجدين فى المنفى . ونظرا لأن أعضاء الأسرة الحاكمة السعودية هم رعاة الأماكن المقدسة المتواجدة فى مكة والمدينة المنورة فان ذلك قد أعطى السعودية وضعا فريدا من نوعه بين المسلمين فى جميع أرجاء العالم . وهذا أيضا يساعد على الابقاء على الولاء الشديد من جانب العلماء الدينيين الذين يتمتعون بالمكانة العالية والموارد المالية السخية فى داخل السعودية على نحو أفضل من أى مكان آخر فى العالم السنى . ومنذ أحداث

العصيان التى شهدتها مكة فى عــام ١٩٧٩ والتى قام بها الاخوان المسلمون الجدد الذين يدعون الى اقامة نظام جمهورى فى داخل السعودية بدأت الدولة فى تدعيم أجهزة مخابراتها وممارسة المزيد من الشدة والعنف ضد الخارجين على القانون ٠

ومع ذلك توجد هنــاك نقاط ضعف كبيرة ٠ فبيت سعود ينبغى عليه توفير الحماية لمساحات شاسعة من الأراضى فى حين أن عــدد السكان يعتبر ضئيلا : اذ لا يزيد عدد السكان الأصليين السعوديين على ستة ملايين نسمة ٠ كما يوجد ميل لدى الأمراء نحو الفســاد والانحلال الخلقى والبعد عن الحياة المتسمة بالتقوى والورع وهــذا فى حد ذاته يشوه صــورتهم فى أذهان جماهير الناس ويقضى على شرعيتهم فى الحكم ، وتظل الأسرة الحاكمــة فى حالة من عدم الشعور بالأمن والأمان والدليل على ذلك هو معارضتها المستمرة للاعــلان عن دستور مكتوب وعدم رغبتها فى مشــاركة السلطة مع مجلس استشارى منتخب ٠ وقد حاولت هــذه الأسرة تأمين مستقبلها من خلال تدعيم روابطها الحربيــة والاقتصادية والمخابراتية مع أمريكا ٠ الا أن المساعدات الأمريكيــة لا يمكن أن تســاعدها على مواجهــة الاسلاميين الهدامين فى الجبهة الداخلية ٠

ولقد تمكن الملكيون السعوديون من ابطال مفعول الرســالة الجمهورية الموجهة من طهران الثورية الى السعودية وذلك من خلال التركيز على الحقيقة التى مفادها أن أولئك الذين يحكمون ايران هم من الشيعة وهى طائفة ينظر اليها معظم السنيين السعوديين بعدم تقــدير ٠

وعلى كل حال فان مستقبل السعودية وكذلك مستقبل النظم الملكية الأخرى بالخليج عــلاوة على مستقبل العراق يتوقف على النتائج التى ستنجم عن الحرب الايرانية العراقية ٠

ومنذ أن تفجرت الحرب الايرانية العراقية فى سبتمبر ١٩٨٠ قدم الخومينى تلك الحرب على هيئة مصطلحات اسلامية • فصدام حسين بغزوه لايران لم يقم فقط بغزو الأراضى الايرانيـة وانما قام أيضا بالهجوم على حكومة الله وبالتالى الهجوم على الاسلام • وأشار الخومينى أثناء طرد الغزاة العراقيين من ايران الى أن الأمر يستلزم معاقبة صدام حسين الكافر على الذنب الذى ارتكبه فى حق الاسلام • ومن ثم ينبغى مواصلة القتال الى أن يتم الاطاحة بصدام حسين لأن ذلك هو واجب دينى يقع على عاتق جميـع المسـلمين الصادقين فى ايمانهم ومن ثم فان أولئك الذين يموتون أثناء قتالهم من أجل اسقاط صدام حسين هم يموتون من أجل الاسـلام وبذلك يعتبرون من الشهداء • وقد ورد بشأن الشهداء الآيـة الكريمـة التالية : ((**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون**)) • وأثنـاء الاحتفـال بالذكرى السابعـة للحرب العراقية الايرانيـة فى سبتمبر ١٩٨٧ كانت الحرب قد قضت على حياة ربع مليون مقـاتل ايرانى وحوالى نصف هـذا العـدد من من العراقيين • وكانت الحرب تستهلك ٨٦ر٨٪ من مجموع الانتاج الايرانى الداخلى بينما يصل هذا الاستهلاك فى داخل العراق الى نسبة ٥٧ر١٪ •

وانتصار طهران فى هذه الحرب قد يؤدى الى ظهور حكومة فى بغداد موالية لايران وذلك مع تزايد صعود الشيعة الى الحكم لأول مرة فى التاريخ العراقى • وقد تمارس ايران ضغوطا سرية وعلنية على الأسر الملكية الحاكمة بدول الخليج بهدف ارغامها على اتباع المعتقدات الاسلامية الأساسية فيما يتعلق باستشارة الأمة فى تسيير دفة شئون البلاد وانشاء حكومات نيابية فى الداخل • وقد يجد حكام الخليج صعوبة فى تحدى ايران فى هذا الصدد لأسباب سياسية ودينيـة •

وقد تشير ايران الاسلامية الى أن الله كان كريما وسخيا مع المسلمين المتواجدين بمنطقة الخليج لأنه منح منطقة الخليج احتياطيا من البترول يصل الى ٥٥٪ من اجمالى احتياطى البترول فى العالم كله وان من الواجب على حكومات الخليج أن تنسق خططها بهدف استغلال هذه الموارد الغالية فى اعطاء أكبر قدر من المنافع لجماهير المسلمين وتحويل المنطقة كلها الى منطقة صناعية مهمة متقدمة علميا وتكنولوجيا . وبكلمات أخرى فان ايران قد تعرض خططا على جيرانها تتعلق بانشاء سوق اسلامية مشتركة على غرار السوق الأوربية المشتركة المتواجدة فى المجتمع الاقتصادى الأوربى . وقد يقدم هذا على أنه بمثابة المرحلة الأولى فى خطة شاملة تهدف الى جذب كافة الدول الاسلامية نحو شبكة اقتصادية واحدة شاملة مما يؤدى بالتالى الى تحويل الاسلام الى نظام اقتصادى عالمى على غرار الرأسمالية والاشتراكية .

وذلك من شأنه تدعيم الاسلاميين الذين يؤمنون ايمانا راسخا بعلو الاسلام من الناحية الأخلاقية والروحية على كافة الأنظمة الاجتماعية الأخرى .

والصراع الآخر الذى يرتطم مباشرة بالعالم الاسلامى هو الصراع العربى الاسرائيلى فيما يتعلق بحقوق الشعب الفلسطينى . واذا وافق الاسرائيليون على اعادة قطاع غزة والضفة الغربية المحتلين الى الفلسطينيين ثم انشاء دولة فلسطينية فى هذه الأماكن وهو سيناريو غير متوقع الى درجة كبيرة فان كلا من اليساريين الراديكاليين والقوى الاسلامية ستمارس المزيد من الضغوط بهدف استعادة باقى الأجزاء التى احتلها اليهود فى فلسطين منذ عام ١٩٤٨. وبسبب استمرار رفض الاسرائيليين الجلاء عن الأراضى الفلسطينية المحتلة فقد تنفجر حرب جديدة بين اسرائيل والدول العربية . واذا تعرضت دولة عربية أو أكثر للهزيمة على أيدى الاسرائيليين فقد يؤدى ذلك الى تصعيد المعارضة ضد أمريكا وضد

أمريكا وضد الحكومات العربية الموالية لأمريكا مثل الحكومة السعودية على سبيل المثال ٠

وما يحدث فى مصر هو أمر بالغ الأهمية فيما يتعلق بتشكيل الامور فى داخل دولة تعتبر هى القلب النابض للعالم الاسلامى كله ٠ اذ توجد بها دلائل واضحة تشير الى تصاعد الأصولية بها : مثل تزايد اعداد النساء المرتديات لزى الحجاب الاسلامى والزيادة الهائلة فى المطبوعات والكتب الاسلامية التى تصدرها دور النشر فى مصر ٠ الا أن الأمر يتوقف بالدرجة الأولى على ضباط القوات المسلحة ٠ ومن بين النتاج المدمرة المترتبة على معاهد السلام المنفردة التى أبرمها السادات مع اسرائيل فى سبتمبر ١٩٧٨ هو أن الضباط الذين تربوا على القومية العربية العلمانية على مدى ربع قرن من الزمان قد وجدوا أنفسهم محرومين فجأة من أيديولوجية يستندون عليها ٠ اذ أن تحول الجيش فجأة الى جزء من خطط الدفاعات الغربية لمنطقة الشرق الأوسط كان بمثابة بديل ضعيف لما قدمه عبد الناصر للجيش وما قدمه من أمور لها الطابع الوطنى والقومى ٠ ومنذ ذلك الحين نجد أن الأصوليين الاسلاميين قد كثفوا من جهودهم الرامية الى ملء الفراغ الأيديولوجى فى داخل الجيش مع العمل على كسب المتطوعين ٠ فاذا وضعنا هذا فى الاعتبار علاوة على تزايد الاتجاهات الناصرية بين بعض كبار الضباط بالجيش فان ذلك قد يؤدى الى احتمال ظهور تحالف بين الاسلاميين والناصريين ٠ وهناك بعض الدلائل التى تشير الى ذلك : منها تلك القلاقل والاضطرابات التى يثيرها المواطنون العاديون بل التى يثيرها بعض رجال الشرطة المظلومين الذين يتم قمعهم بواسطة رجال الجيش من وقت لآخر مثلما كان عليه الحال فى ايران ٠ وقد يظهر ذلك التحالف فى حالة تعرض دولة عربية أو أكثر للهزيمة على أيدى الاسرائيليين أثناء تفجر حرب شاملة ٠

وفى القطاع المدنى نجد أن الاسلاميين المعتدلين يعملون على التغلغل فى هدوء وبطء الى داخل النقابات المهنية والهيئات الادارية الخاصة بالدولة مما يؤدى الى تمهيد الطريق لدى قيام القادة الاسلاميين المدنيين منهم والعسكريين بتقلد المناصب الكبرى من خلال انتخابات سلمية أو من خلال انقلاب عسكرى ٠ ولكن الضعف الرئيسى الذى يعانى منه الأصوليون فى دولة سنية مثل مصر هو أن العلماء الدينيين ليسوا سوى موظفين حكوميين وبالتالى فهم ليس قاعدة اقتصادية خاصة بهم وأن حق ممارسة الاجتهاد لا يمارسه أى شخص آخر بخلاف شيخ الأزهر الشريف الذى يكون دائما متوافقا مع نظام الحكم السائد ٠ كما أن مصر المعاصرة قد تخلت عن علماء دينيين لهم شعبية كبيرة وعقلانية حرة مستقلة من أمثال الشيخ حافظ سلامة والشيخ عبد الحميد كشك والشيخ يوسف البدرى والشيخ عبد الله السماوى الذين كانوا يجاهرون ويعلنون صراحة ضرورة التطبيق الشامل للشريعة الاسلامية والغاء معاهدة السلام مع اسرائيل ٠ كذلك نجد أن ظهور ذلك التدفق من شركات الاستثمار الاسلامية التى تقدم المعونات المالية للمنظمات الأصولية يعتبر ظاهرة فريدة من نوعها ولم يسبق لها مثيل مما يدل على بزوغ قاعدة اقتصادية مستقلة للقوى الاسلامية فى مصر ٠

ولكن هناك عوامل خارجية مثل التطورات فى حرب الخليج والصراع العربى الاسرائيلى قد تحدد مسار مجرى الأحداث فى مصر على نحو يفوق التطورات على الجبهة الداخلية ٠

الا أن هناك شيئا واحدا مؤكدا تماما : وهو أن بزوغ مصر كدولة أصولية ــ وهى دولة سنية لها أهميتها الاستراتيجية فى داخل الوطن العربى ــ سيهز العالم الاسلامى وغير الاسلامى على نحو يفوق كثيرا ما حدث لدى تفجر الثورة الايرانية فى عام ١٩٧٩ ٠

خاتمـــة

عقب الأداء الممتاز الذى قام به التحالف الذى يسيطر عليـه الاخوان المسلمون فى انتخابات ابريل ١٩٨٧ فى مصر حدثت زيادة سريعة فجائية فى النشاط الاسلامى · وكان ذلك النشاط يتم أساسا بمعرفة حوالى أربعين مجموعة راديكالية تعرف عادة باسم « الجماعة الاسلامية » · وقد تحدت هـذه الجماعة الاسلامية حق الحكومة فى تعيين الأئمة الذين يقودون الصلوات الجماعية من خلال الاصطدام مع قوات الأمن التى تتواجد خارج المساجد ، كما تحدت وواجهت الشرطة الجامعية فيما يتعلق بالبيئة غير الاسلامية التى تكتنف الحرم الجامعى والتى تتمثل فى الاختلاط بين الطلبـة والطالبـات وظهور الطالبات بدون ارتداء لزى الحجاب الاسـلامى بل قامت بارهاب المسيحيين وتخويفهم من خلال اعتداءاتهم على الكنائس ·

وكان الاسلاميون الراديكاليون يمارسون نشاطهم بصفة خاصة فى صعيد مصر (الوجه القبلى) الذى يعيش فيه حوالى ثلث تعداد السكان فى مصر · وفى المدن الكبرى مثل أسـيوط والمنيـا قاموا باغلاق الملاهى الليلية علاوة على قصر بيع المشروبات الكحولية على

عدد قليل من الفنادق الفاخرة السياحية · وبعدئذ تنفيذ وتطبيق قوانين السلوك الاسلامى فى أحيـاء معينة بالقاهرة وخاصـة حى عين شمس بل أقاموا بها محـاكم اسلامية · وفى هذا الجو المشحون بالتوتر تم اغتيال رجل شرطة فى عين شمس فى أواخر سبتمبر ١٩٨٨ وردت الحكومة على ذلك بأن قامت باغراق حى عين شمس بقوات من الجيش وشرطة الأمن ثم استخدمت قانون الطوارىء وقامت بالقـاء القبض على ٢٠٠٠ من المقاتلين الاسلاميين ·

الا أن الدلائل كانت تشير الى أن قمع الحـكومة للجماعات الراديكالية كان غير فعال على نحو متزايد · وقد قـام الدكتـور سعد ابراهيم الأستاذ فى العلوم الاجتماعية بدراسة أشار فيها الى أن السجين الاســلامى يستلهم دائمـا الحديث النبوى الشريف « من شاهد منكم منكرا فليغيره بنفســه » ·· ولذلك فهو ينظر الى الأعمـال الحربيــة التى يقوم بها على أنها جزء من واجبـه الدينى الذى يحتم عليـه أن يكون « مسلما ملتزما » مع عـدم المبالاة بالنسبة للنتائج التى قد تنجم عن أعماله الحربية ·

ونظرا لقيام الحكومة بممارســات القمع بما فى ذلك تعذيب المقاتلين الاسلاميين فقد زاد الصحفيون ونواب البرلـمان التابعون للاخوان المسلمين من هجومهم على الممارسات الحكومية · وفى داخل مجلس الشعب المصرى قام نواب الاخوان المسلمين بتحسين موقفهم من خلال تحويل الشعار الذى ينادون به : ألا وهو « الاســلام هو الحل » الى مطالب تتلخص فى انهاء حالة الطوارىء واطلاق سراح المحتجزين والمسجونين وتشييد المزيد من الوحدات السكنية وتحسين الخدمات الصحية وانشاء البنوك الاسلامية وادخال نظـام الزكاة كوسيلة تهدف الى تقديم الرعاية الاجتماعية · ومن بين الصحف الخمس المعارضـة للحكومة بزغت ثلاث منهـا من حيث هى أدوات

مهمة فى تشكيل الرأى العام الموالى للاسلام وهى المجلات الثلاث التى يرأس تحريرها صحفيون أصوليون • وكانت الأزمة الاقتصادية المستمرة التى تعانى منها الحكومة سببا فى تزويد القوى الاسلامية بالبيئة الملائمة التى تمكنها من توسيع قاعدتها الشعبية •

بل أن بعض السياسات الرسمية التى اتخذتها الحكومة قد ساعدت المعسكر الأصولى على نحو غير متعمد • اذ أن قيام الحكومة بفرض حظر على الناصريين مع التقيد بفكرة وضع حد أدنى قدره ٨٪ من التصويت الشعبى بالنسبة لأى حزب حتى يتمكن من دخول مجلس الشعب (وهذا قد أدى الى حرمان اليساريين العلمانيين من حق دخول البرلمان) قد جعل الجمهور الساخط لا يجد أمامه أى اختيار سوى مساندة جماعة الاخوان المسلمين وحلفائهم الراديكاليين •

والأكثر من ذلك أنه فى أوائل عام ١٩٨٩ ظهرت دلائل تشير الى حدوث انقسام فى داخل المؤسسة الدينية • ففيما يتعلق بالمساجد التى يسيطر عليها الاسلاميون الحربيون قال الشيخ الأكبر للجامعة الأزهرية « ان المساجد السامة فى عصرنا الحديث هى تلك المساجد التى تثير مشاعر الناس وهى المساجد التى يتم فيها اخفاء الأسلحة وأدوات العنف » وعلى النقيض من ذلك الكلام نجد أن المفتى الأكبر فى مصر قد ألمح الى الهجمات التى تشنها الحكومة على المساجد الواقعة تحت سيطرة وادارة رجال الدين المستقلين الذين يتكلمون فى جرأة وصراحة وأشار فى حديثه الى أن تلك الهجمات الحكومية هى « جريمة كبرى » الا اذا كانت تتخذ لأسباب تتعلق بالأمن العام

وبالنسبة للأحداث الخارجية كان الأصوليون يشعرون بتدعيم موقفهم من خلال التمرد الذى يمارسه الفلسطينيون ضد القوات

الاسرائيلية والذى تفجر فى قطـاع غزة بينما قامت قوات الأمن فى أكتوبر ١٩٨٧ بقتل سبعة أعضاء فى منظمة الجهاد الاسلامية • وبعد ذلك بشهرين تفجر تمرد فلسطينى فى الأراضى المحتلة فى جو يسوده التعاون النشط من جانب الاسلاميين مع منظمة التحرير الفلسطينية العلمانية • ومن جهة أخرى نجد أن موافقة ايران على وقف اطلاق النيران فى حربها مع العراق قد أحدثت تأثيرات سلبية على الأصوليين المصريين •

ايـــران

لدى دخول حرب الخليج فى عامها السابع فى ٢٢ سبتمبر ١٩٨٧ وجدت ايران نفسها تواجه قوى مشتركة تضم سـلاح الطـيران العراقى الذى كان يمتلك آنئذ ٤٠٠ طائرة مقاتلة والسـلاح البحرى الأمريكى الذى يضم حوالى ٤٠ بارجة حربيـة •

بل كانت ايـران أيضـا فى موقف ضعيف من الناحيـة الدبلوماسية • ففى ٢٠ يوليو أصدر مجلس الأمن بالاجماع قرارا شاملا يضم عشر نقـاط ـ وهو القرار الصـادر تحت رقم ٥٩٨ بشأن وقف اطلاق النيران فى حرب الخليج والذى يتضـمن مـادة بتكوين لجنة دولية لكى تحدد الجانب الذى يخرق القرار ويستأنف الحرب ـ وفى حين قبلت بغداد ذلك القرار الصـادر عن مجلس الأمن نجد أن طهران لجـأت الى المراوغة •

وأثناء شتاء عام ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ أصبحت ايران غير قـادرة على شن هجوم ضخم فى القطاع الجنوبى نظرا لأنها كانت تعـانى من نقص فى القوات البشرية والمعدات العسكرية • اذ كان القصف المستمر الذى شنه العراقيون على الكبارى والمصـانع ومحطات توليد

الطاقة قد بدأ يحدث تأثيرا سلبيا على المجهود الحربى الايرانى الى درجة خطيرة • هذا بالاضافة الى أن ايران اذا شنت هجوما شاملا ضد العراق فانها ستغضب مجلس الأمن مما يجعله يصدر قرارا بفرض حظر بيع الأسلحة لايران •

وبعد أن أدركت بغداد الورطة التى تعيش فيها ايران فانهـا شنت حرب المدن على ايران فى ٢٧ فبراير ١٩٨٨ بما فى ذلك اطلاق صواريخ أرض/أرض التى يبلغ مداها ٣٨٠ ميلا والتى تسـمى : « الحسين » • وكان هذا المدى البعيد للصـواريخ يجعل طهران العاصمة واقعة تحت رحمة الصواريخ العراقية • وبحلول الوقت الذى انتهت فيه حرب المدن فى ٢٠ ابريل كانت العراق قد أطلقت بالفعل ٢٠٠ صاروخ من صـواريخ « الحسين » على المدن الايرانية مع التركيز بصفة خاصة على طهران العاصمة • أما صواريخ ايران أرض/أرض فكان مداها ٧٧ ميلا فقط وتم توجيـه معظمهـا الى بغـداد •

وفى منتصف مارس تمكنت ايران بالتعاون مع حلفائهـا من الأكراد العراقيين من الاسـتيلاء على مدينـة حلبجـا Halabja التى يبلغ عدد سكانها ٧٠ ألف نسمة والتى تقع على مسافة ١٥ ميلا فى داخل العراق • فقام الطيران العراقى بالهجوم على هذه المدينـة مستخدما الأسلحة الكيماوية مما أدى الى مقتل ٤٠٠٠ شخص على الأقل معظمهم من المدنيين • فأدى ذلك الى اتاحـة الفرصـة أمام ايران لشن حملة دعائية ضخمة ضد العراق • واهتز العالم لدى مشاهدته صورا للجثث المشـوهة للرجـال والنسـاء والأطفـال والحيوانات • الا أن الدعايـة الواسـعة التى قامت بهـا ايران فيما يتعلق بالاغارة على حلابجة Halabja بالأسلحة الكيماوية قد أحدث ذعرا شـديدا بين المواطنين وبدأوا يخشون من قيـام

بغداد بتزويد صواريخها أرض/رض برؤوس كيماوية . فأحدث ذلك تأثيرا سيئا على الروح المعنوية للجماهير الايرانيـة وقد كانت حالتهم المعنوية منخفضة بالفعل بسبب الهجمات الصاروخية المتكررة العراقيـة .

وفى هذا الجو من الارتباك الذى يسود ايران قامت العراق بشن هجوم ناجح فى أقصى الجنوب مع استخدام مكثف للأسلحـة الكيماوية وتمكن من استعادة شبه جزيرة الفاو Fao . وكان هذا بمثابة تخل عن الموقف الدفاعى الذى اتخذته العراق على سنوات عديدة ماضية . ثم وجدت ايران نفسها فى مواجهـة بالخليج مع البحرية الأمريكية التى قامت باعطاب أو تدمير اثنتين من البوارج الحربية الأربعة التابعة لها .

وفى ٢٧ ابريل قطعت العربية السعودية علاقاتها الدبلوماسية مع ايران . وكان السبب المباشر فى ذلك هو رفض طهران مطلب الرياض الخاص بتخفيض عدد الحجاج الايرانيين من ١٥٥ الف الى ٤٥ ألف حاج . بما يتمشى مع القرار الذى اتخذ أخيرا والذى ينص على السماح بألف حاج عن كل مليون مسلم فى أى دولة وهو القرار الذى سبق الموافقة عليه فى منظمـة المؤتمر الاسلامى فى اجتماعهـا فى شهر مارس . واتهمت الرياض طهران بأنها « تتخذ موقفا معاديا من العربية السعودية وتتعمد الاضرار بمصالحها الرئيسية » . واثناء مناقشة حق الرياض فى تحديد أعداد الحجاج وفرض الشروط على الحج أشارت ايران الى أن العامل الرئيسى فى القرار السعودى يرجع الى التنسيق السعودى مع السياسات الأمريكية فى المنطقة من أجل مساعدة العراق . ونظرا لان الملك فهد كان يدرك واجبه الدينى ازاء الحفاظ على العلاقات مع كافة الدول الاسلامية فانه قد حصـل على موافقة مجلس العلماء على الاجراء الذى اتخذه ضد جمهورية ايران الاسـلامية .

وعلى الصعيد السياسى كان ذلك وقتا حساسا بالنسبة للايرانيين الذين كانوا يمرون بذروة الانتخابات البرلمانية . وانتهت الجولة الثانية من الانتخابات فى ١٣ مايو بظهور النواب الراديكاليين والاصلاحيين كقوة سائدة مسيطرة .

وفى ٢٥ مايو تفوق العراقيون على الايرانيين فى مجال المدفعية الثقيلة والصواريخ التى تحمل رؤوسا عادية أو رؤوسا محملة بغاز السيانيد أو غازات الأعصاب المميتة حيث كانت تطلق تلك الصواريخ من قاعدة شالماخ Shalamche التى تقع شرق البصرة . وبعد مرور شهر استخدم العراقيون تاكتيكات مماثلة من أجل استعادة جزر « المجنون » Majnoon التى تقع فى منطقة المستنقعات الحدودية بالجنوب .

ووجهت طهران نداء للشعب الايرانى تحثه فيه على التطوع والذهاب الى ميادين المعارك . الا أن ردود الفعل كانت ضعيفة وذلك نظرا للدعاية الكبيرة التى قامت بها وسائل الاعلام الكبرى الايرانية فيما يتعلق بتوسع العراق فى استخدام أسلحة الغازات السامة .

واستمر التوتر بين البحرية الايرانية والبحرية الأمريكية بالخليج قائما . ففى ٣ يوليو حدثت مناوشات ومصادمات بين الجانبين عند مضيق هرمز Hormuz . وفى هذا الجو المشحون بالتوتر الشديد حلقت طائرة مدنية ايرانية تقل ٢٩٠ من المسافرين فى رحلة طيرانها المعتادة من بندار عباس الى دبى . فقامت بارجة حربية أمريكية باطلاق النيران عليها واسقاطها وذلك بطريق الخطأ حيث ظنوا أنها طائرة حربية .

واتهمت ايران أمريكا بأنها تعمدت اسقاط هذه الطائرة المدنية . وبدلا من أن تقوم ايران برد انتقامى من أمريكا فى داخل

المنطقة أو خارجها نجد أنها اكتفت بتقديم شكوى لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة . وفى داخل ايران عقد كبار القادة الايرانيين محادثات سرية تتعلق بقبولهم لقرار مجلس الأمن المتعلق بوقف اطلاق النيران والصادر تحت رقم ٥٩٨ . وتمكنوا من الحصول على موافقة شفوية من الخومينى فى ١٥ يوليو وفى اليوم التالى ناقش « مجلس الخبراء » الحرب وكتبوا مذكرة رسمية أوصوا فيها بقبول وقف اطلاق النيران ورفعوا المذكرة الى الخومينى الذى يملك وحده السلطة الدستورية ــ من حيث هو القائد الأعلى للقوات المسلحة ــ لتقرير مسائل الحرب والسلام .

وما أن وافق الخومينى رسميا فى وثيقة مكتوبة على وقف اطلاق النيران حتى سارع الرئيس خمائينى الى تنفيذ ذلك القرار . حيث أرسل خطابا فى ١٨ يوليو الى سكرتير عام الأمم المتحدة : خافيير بيريز دى كولار يبلغه فيه موافقة ايران على وقف اطلاق النيران .

وتلقى الايرانيون نبأ موافقة ايران على وقف اطلاق النيران بدهشة كبيرة وعدم تصديق . اذ لم تقم الحكومة باعدادهم وتهيئة الجو لهم لتلقى مثل هذا القرار الدرامى الذى اتخذته الحكومة . وظلت جماهير الشعب فى انتظار لسماع خطاب من الخومينى لكى يوضح فيه الأمور لهم .

وجاء خطاب الخومينى فى ٢٠ يوليو بمناسبة الذكرى الأولى لمذبحة الحجاج الايرانيين فى مكة على هيئة خطاب مطول استغرق ٩٠ دقيقة وأذيع فى راديو طهران . وجاء فى خطاب الخومينى ما يلى : « بسبب الأحداث والعوامل التى لن أتناولها حاليا بصفة مؤقتة

وبعد أن درست النصائح التى قدمها الخبراء العسكريون والسياسيون فى بلادنا .. فاننى وافقت على قبول قرار وقف اطلاق النيران . وفى اعتقادى أن ذلك يتمشى مع مصلحة الثورة ونظام الحكم فى ايران فى هذه الفترة الحاسمة من التاريخ » وكان الخومينى يدرك أن الموافقة على قرار وقف اطلاق النيران سيحدث تشويشا واستياء بين أولئك الذين قد أعجبوا بموقفه المتشدد طوال فترات الحرب مع العراق ولذلك اشار فى خطابه قائلا : « ان بعض الناس الواقعين تحت تأثير العواطف الجياشة قد يتساءلون فى شوق عن الأسباب والظروف التى دعت الى الموافقة على وقف اطلاق النيران وهو أمر لا بأس به فى حد ذاته ولكن الظروف لا يسمح حاليا بالبحث فى كافة التفاصيل التى دعت الى الموافقة على ذلك القرار . وأنا أكرر قولى لكم أن الموافقة على هذا القرار كان رهيبا بالنسبة لى بل أكثر من تناولى للسم وقد أخضعت نفسى لمشيئة الله وتناولت هذا المشروب من أجل ارضاء الله » .

ومن بين الموضوعات التى لم يرغب الخومينى فى التحدث عنها : الصعوبة المتزايدة التى واجهتها ايران فيما يتعلق بشراء الأسلحة من الدول الأجنبية . اذ وجدت ايران نفسها غير قادرة على تعويض الخسائر فى الأسلحة الناجمة عن الهجوم على البصرة فى عام ١٩٨٧ خاصة فيما يتعلق بالماكينات والمدافع اللازمة للدبابات وذخائر المدفعية . كما أن محاولات وشنجتن الرامية الى وقف تدفق الأسلحة وقطع الغيار الى ايران فى أعقاب فضيحة ايران جيت (فى أواخر عام ١٩٨٦) قد نجحت بالفعل فى حرمان ايران من الحصول على الأسلحة المتطورة والذخائر وازدادت الأمور سوءا بسبب القيود المالية التى فرضت على ايران مما جعلها غير قادرة على الحصول على القروض المالية هذا بالاضافة الى الانخفاض المستمر فى أسعار البترول الذى هبط بحدة فى الفترة من عام

١٩٨٥ ـ ١٩٨٦ بسبب قيام العربية السعودية بزيادة انتاجها واغراق الأسواق العالمية بالبترول • وكان العائد من البترول الايرانى فى عام ١٩٨٨ يعادل ايراد العراق من البترول • وأخيرا وطبقا لما قاله هاشمى رفسنجانى المتحدث الرسمى البرلمانى ورئيس الأركان فان الأمريكان والعراق قرروا اللجوء الى كافة الوسائل التى تضمن منع ايران من تحقيق أى انتصار عسكرى وذلك هو الذى جعل العراق تلجأ الى استخدام الأسلحة الكيماوية على نطاق واسع فى الهجمات التى تشنها على ايران •

ووجدت ايران نفسها غير قادرة على مواجهة ذلك التحول الذى حدث فى ميزان القوى من خلال زيادة القوى البشرية الحربية الايرانية ورفع الروح المعنوية لأفراد الجيش الايرانى • بل ان المتطوعين للخدمة العسكرية فى عام ١٩٨٨ قد انخفض عددهم بنسبة الثلث عن السنة السابقة • ومن بين الأسباب أن أولئك الذين أدوا فترة عمل لمدة ثلاثة شهور فى جبهة القتال اكتشفوا أنه لا يوجد نشاط كبير لهم هناك • وهذا أدى الى عدم تشجيع أصدقائهم المدنيين على التطوع للقيام بواجبات على جبهة القتال • كما أن عدم الحسم فى اتخاذ القرارات السياسية قد نشأ بدوره عن القوى النيرانية الهائلة التى شيدتها العراق منذ ربيع عام ١٩٨٧ • هذا علاوة على احجام المجتمع الدولى عن معاقبة بغداد على استمرارها فى استخدام الغازات السامة على نطاق واسع • بالاضافة الى عدم رغبة القادة الايرانيين فى فرض المزيد من التقشف على الشعب الايرانى • وقصارى القول أن ايران لم تعد قادرة على التغلب على العجز الذى تعانى منه فى مجال الأسلحة والمساندة الدبلوماسية •

وعلى وجه العموم استقبل قرار الخومينى فى ارتياح كبير • اذ كان الكثيرون من الأفراد المنتمين للطبقة العليا والطبقة المتوسطة يرغبون فى انتهاء الحرب منذ فترات سابقة • أما الطبقة العمالية

والطبقة الاجتماعيــة المنخفضة فكانوا يشــعرون بالولاء الشــديد للخوميني لدرجة لا تسمح لهم بالتشكك فى صحة قراراته • كما ان التوقعات بظهور اعتراضات من جانب بعض ضباط الحرس الثوريين قد تلاشت عندما قام قائد الحرس الثورى الاسلامى الذى يســمى محسن ريزا Rezai Muhsin أثنــاء اجتماعه مع الخوميني فى ٢٢ يوليو بتسليمه خطابا بالموافقة على وقف اطلاق النيران وتجديد ولائه للخوميني •

وقد أثبتت هذه الحرب أنها دموية للغاية وباهظة التكاليف • وتشير تقديرات الدول الغربية الى أن اجمالى القتلى فى هذه الحرب قد وصل الى ٣٦٧ ألف قتيل : حيث وصــل عدد القتلى الايرانيين الى ٢٦٢ ألف وعدد القتلى العراقيين الى ١٠٥ الاف • أما عــدد الجرحى فيزيد على ٧٠٠ ألف جريح وهذا يعنى أن اجمالى أعداد القتلى والجرحى قد وصل الى مليون شخص من الجانبين العراقى والايرانى • أما الأرقام الرسمية التى أعلنها وزير الارشاد الاسلامى الايرانى بعد مرور شهرين فهى على النحو التالى : ١٢٣٢٢٠ قتيلا فى المعارك و ٦٠١٧١ مفقودا أثناء العمليات العسكرية و ١١٠٠٠ قتيل من المدنيين • وطبقا لاحصائيات معهد استكهولم الدولى لبحوث السلام فان ايران قد أنفقت مبلغا يتراوح ما بين ٧٤ و ٩١ مليار دولار فى هــذه الحرب بينما أنفقت العراق مبلغا ما بين ٩٤ و ١١٢ مليار دولار وهذه الأرقام لا تشــتمل على ثمن الأسلحة التى تم استيرادها من الخارج • أما فواتير الاستيراد من الأسلحة للعراق فهى بمبلغ ٤٢ بليون دولار وبالنسبة لايران هى فى حدود ١١ بليون دولار •

ولم يصبح القرار الرسمى بوقف اطلاق النيران نافذ المفعول الا فى ٢٠ أغسطس • وبدأت محادثات الســلام بين الجــانبين فى

٢٥ أغسطس فى جنيف تحت رئاسة سكرتير عام الأمم المتحدة ولكن هذه المحادثات وصلت الى طريق مسدود عندما طالبت العراق بجلاء قوات الأمم المتحدة فورا عن شط العرب • اذ رفضت ايران ذلك المطلب وأشارت الى أن هذه المهمة هى مسئولية مشتركة تخص الجانبين اللذين قاما بالتوقيع على معاهدة عام ١٩٧٥ • وأشارت العراق الى ان معاهدة عام ١٩٧٥ لم تعد قائمة ولم يعد لها وجود • ورفضت ايران ذلك الرأى وأشارت الى أن هذه المعاهدة الخاصة بالحدود سارية المفعول الى الأبد وهى معاهدة لا يمكن الغاؤها من جانب واحد •

وبدت بغداد متشددة عسكريا عند نهاية الحرب مثلما كانت عنيدة ومتشددة فى بدايتها • الا أن الحكومة الايرانية والمجتمع الايرانى كانا أكثر قوة وتماسكا من الناحية العسكرية والسياسية مما كانا عليه منذ ثمان سنوات •

لقد بدأ الغزو العراقى فى الوقت الذى كانت فيه الحماسة الملتهبة فى ايران قد بدأت تخبو وتضعف • ولذلك يمكن القول بأن هذا الغزو أعطى للحكام الدينيين الفرصة لاحياء وتجديد الدوافع التى تؤدى الى الوحدة الوطنية وتماسك الثورة الاسلامية • اذ أصبح الدفاع عن القاعدة الاسلامية لايران وطرد الغزاة المعتدين له أثر عظيم فى تجميع كافة الناس على كلمة واحدة وصيحة واحدة • كما أدت الحرب الى كبح جماح المناقشات والمنازعات العنيفة علاوة على خلق بيئة تؤدى الى تزايد درامى فى قوة الحرس الثورى الاسلامى •

وبحلول أوائل عام ١٩٨٤ تحولت الحرب الى صراع طويل بين الارادات الوطنية المتعلقة بالمجالات الحربية والسياسية والأيديولوجية والاقتصادية بين النظامين الاجتماعيين المتنافسين : النظام العلمانى البعثى الاشتراكى من جهة والنظام الاسلامى الثورى

من جهـة أخرى • وأصبحت الحرب مسيطرة على وجدان المجتمـع وسياساته فى كلتا الدولتين وصـارت نتائجها مرتبطـة بمستقبل الحـكومتين •

وصور القادة والزعماء الايرانيون الحرب والقيود التى تفرضها الحرب على أنها بمثابة حافز يؤدى الى زيادة تدعيم عمليـة الاعتماد على النفس علاوة على تحقيق الذات • وقد أدت هذه الحرب الى تقوية العديد من الصناعات المحلية الجديدة التى تعمل فى مجالات الدفاع وغيرها من المجـالات الأخرى التى لا تتعلق بالدفاع • بل قد سجلت الصناعة الحربية فى ايران نموا وازدهارا هائلا سـواء فى انتاج المنتجات القديمة أو فى انتاج المنتجات المعدنية الجديدة على اختلاف أنواعها •

ودائما ما كان الاهتمام الأول لحـكومة طهران منصبا على تعميق وتوسيع الثورة الاسلامية • ومادامت الحرب كانت تخدم ذلك الغرض فان العروض المتكررة بوقف اطلاق النيران التى تقدمت بها العراق والأمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الاسـلامى كانت تلقى الرفض والازدراء من جانب طهران • ولكن عندما أدرك الخومينى من خلال اتصالاته المستمرة مع الشبكة الدينية التى تعمل تحت رئاسته أن رجل الشارع فى ايران بدأ يشعر بالملل والسأم والضيق من هذه الحرب فانه وافق على وقف اطلاق النيران وتقبل الهدنة • حيث أدرك أن فرض المزيد من التقشف على الناس وارغامهم على مواصلة الحرب فى عنف من شأنه أن يقضى على القـاعدة الجماهيرية التى ترتكز عليها حكومته • وأدرك أن الاستمرار فى الحرب سـيؤدى حتما الى تدمير الثورة وليس الى تدعيمها وتقويتها • وهناك سبب آخر مهم وهو أن الخومينى البالغ من العمر ٨٦ عاما بدأ يتعرض للمتاعب الصحية • ويبدو أنه قد رأى أن من المستحسن أن يكون

خليفته « منتظرى » ــ الذى سيتولى السلطة عقب وفاته ــ قادرا على معالجة المشكلتين التوأم : مشكلة الحرب ومشكلة الفراغ فى السلطة الذى قد ينجم عقب وفاته • لذلك فضــل الخومينى أن ينهى الحرب ويعمل على تأمين الثورة الاسلامية خلال الفترة المتبقية له من حياته •

ومن هنا يمكن القول بأن العوامل الداخلية فقط هى التى كان لها تأثير على الخومينى الذى سبق له أن تجــاهل كافة الضغوط الخارجية التى مارستها عليه قوى متنوعة خارجية مثل السعوديــة وليبيا والاتحاد السوفيتى وأمريكا ومنظمة المؤتمر الاسلامى ومجلس الأمن التابع للأمم المتحدة • والجدير بالذكر أنه قد أشار فى بيانه الصادر فى ٢٠ يوليو ١٩٨٨ الى « أن كبار المسئولين الايرانيين قد وافقوا على قرار مجلس الأمن من خلال ارادتهم الحرة ولا يوجد أى دور لأى شخص آخر أو دولة أخرى فى هذا الصدد » •

وقد كانت ايران مهتمة دائما بتوازن القوى فى منطقة الخليج • ونظرا لأنها تعتبر نفسها دولة لها مساحة كبيرة وتضم عددا كبيرا من السكان فانها نظرت الى نفسها على أنها بمثابة الدولة الكبرى فى منطقة الخليج • ورأت ايران أن اتخــاذ الاسلام كأيديولوجيــة سياسية يعتبر أداة قوية تعين على تجميع الدول الواقعة على الجانب الغربى من الخليج تحت مظــلة اســـلامية مادام حــكام الصفوة المختارة فى هذه الدول لا يمكن لهم أن يدعوا أنهم يستقون الشرعية فى الحكم من الدين الاســلامى • وقد واجهت ايران معارضــة قوية فيما يتعلق بتحقيق هذا السيناريو وذلك لأسباب كثيرة •

أولا ــ لقد كان هناك دائما عداء تاريخى وعدم ثقة بين العرب والفرس •

ثانيا ــ انه كان يوجد دائما ذلك الشقاق المتواجد بين الشيعة والسنة مع العلم بأن كافة الحكام العرب بالخليج من السنيين وهم لا يحترمون كثيرا الشيعة ٠

ثالثا ــ وأخيرا وهذا هو أهم الأسباب فان جميع تلك الدول لها علاقات قوية مع أمريكا من الناحيــة العسكرية والاقتصــادية والسياسية وهو أمر على النقيض تماما من ايران الثورية ٠ وهو الأمر الذى قد شجع العراق على غزو جمهورية ايران الاسلامية ٠

والجهود التى بذلتهــا العراق من أجل الاطاحــة بحــكومة الخومينى من خــلال غزو ايران لقيت فشــلا ذريعا ٠ وفى نفس الوقت نجد ان محاولات ايران الرامية الى تحويل الحرب الى اداة لتصدير الثورة الاســلامية الى الدول الأخرى قد لقيت أيضــا فشلا ذريعا ٠

ولكن الحكومة العراقية قد خرجت من هذه الحرب وقد أصبحت كيانا حاق به الكثير من التغير نتيجة لهذه الحرب ٠ اذ تسببت هذه الحرب فى هدم الأيديولوجية العراقيــة بوجه عام والعناصر البعثية للنظام العلمانى الجمهورى الاشتراكى بصفة خاصة ٠ ولكن تتمكن بغداد من الصمود أمام وابل الدعاية الاســلامية المنبعثة من طهران فانها حاولت أن تبدو أكثر تدينا وتمســكا بالدين الاســلامى من أعدائها الايرانيين ٠ وراحت تستغل التاريخ الاسلامى القديم وراحت تصف الصراع الدائر بأنه « قادسية صدام حسين » مشيرة الى المعركة التى حدثت فى عام ٦٣٧ عندما انتصر العرب المسلمون على الجيش الساسانى لبلاد فارس (الزراديشتى) فى منطقــة القادسية التى تقع فى الجزء الجنوبى من العراق ٠ بل وضعت بغداد برنامجا طموحا لانشاء مساجد جديدة وترميم المساجد القديمــة علاوة على قيام صدام حسين بزيارات متكررة للأضرحــة والأماكن المقدســة

بالعراق . والأهم من ذلك كله أن المؤتمر التاسع لحزب البعث العراقى المنعقد فى يونيو ١٩٨٢ قد وصف الاسلام بأنه « ثورة عظمى فى تاريخ البشرية جمعاء وأن العرب فى العصر الحديث ينبغى أن يسيروا وفق رسالة الاسلام » . ومن ناحية أخرى فان رسوخ أقدام صدام حسين فى السلطة بالعراق عقب انتهاء الحرب مع ايران قد أوضح أن الأصولية الاسلامية الثورية بايران قد تم احتواؤها .

ونظرا لأن حكومة الخومينى قد حرمت من فرصة تصدير ثورتها من خلال قوة السلاح فانه لم يكن أمامها سوى تطوير النظرية الثورية اجتماعيا واقتصاديا فى داخل دولة ايران بهدف أن تصبح أيران هى الدولة النموذج أمام باقى الدول الاسلامية الأخرى .. وكان ذلك يعنى التركيز على الاصلاحات الداخلية واعادة البناء والتعمير فى داخل ايران .

واذا كان الخومينى قد ركز انتباهه على تجريد واصلاح اقتصاد ايران فان ذلك لم يمنعه من القيام بدوره كزعيم روحانى لكافة المسلمين وكان مستعدا لتقديم الهداية والنصح والارشاد اذا سمحت الظروف له بذلك .

والحاجة الى قيامه بالاضطلاع بذلك الدور قد ظهرت عقب طبع ونشر رواية « آيات شيطانية » بقلم سلمان رشدى وهو كاتب مولود فى الهند ومقيم فى لندن . ففى الفصل الثانى من هذه الرواية صور الكاتب النبى محمدا صلى الله عليه وسلم كشخصية روائية تسمى « ماهوند Mahound تتسم بعدم الضمير والتجرد من المبادىء الأخلاقية والفسق والدجل . وبعدئذ أشار رشدى الى أن ماهوند وضع فى القرآن آيات أتضح أنها من عمل الشيطان : آيات شيطانية . ثم قدم الكاتب فانتازيا خيالية جامحة عن « الستارة » وهى أشهر بيت شعبى للدعارة فى عهد الجاهلية .

وعقب طبع هذه الرواية فى أواخر سبتمبر ١٩٨٨ طلب زعماء مسلمون مقيمون فى انجلترا من رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر فرض حظر على بيع تلك الرواية ومحاكمة سلمان رشدى لافترائه على الاسلام وتشويه سمعته • فأشارت مارجريت تاتشر الى أنه لا يوجد لديها سند قانونى يجيز لها ان تتخذ هذين الاجراءين • ولكى يكسب القادة الاسلاميون المقيمون فى لندن التأييد لوجهة نظرهم فى العالم الاسلامى كله فانهم قاموا بتصوير الصفحات التى تسىء للاسلام فى ذلك الكتاب وأرسلوا صورا من تلك الصفحات الى سفارات ال ٤٥ دولة اسلامية الممثلة فى منظمة المؤتمر الاسلامى المتواجد فى لندن • ونظرا لأن مثل هذا التجديف فى حق الديانة المسيحية يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون فى انجلترا فان هؤلاء القادة الاسلاميين أجروا اتصالات مع وزير الداخلية دوجلاس هيرد لكى يتخذ اجراء ضد سلمان رشدى • ولكن هيرد أشار الى أن محاكمة مثل هذه الحالات تعتبر قانونية فى الدولة التى يكون فيها الدين الرسمى هو الاسلام • أما فى بريطانيا فالاسلام يشكل دينا للأقلية • وتفجرت المشكلة على المستوى الجماهيرى فى داخل انجلترا وخارجها فى ١٤ يناير ١٩٨٩ عندما قام المسلمون المقيمون فى برادفورد بحرق نسخة من كتاب « آيات شيطانية » أثناء عقد مؤتمر جماهيرى •

وفى ١٢ فبراير وفى أعقاب طبع النسخة الأمريكية من هذه الرواية تفجرت مظاهرات عنيفة فى اسلام أباد عاصمة الباكستان التى فرضت حظر على تداول هذا الكتاب • وأدت المظاهرات العنيفة الى مصرع ستة أشخاص • وكان ذلك بداية لتفجر هذه المشكلة على المستوى العالمى • وبعدئذ يبدو أن أحد مساعدى آية الله الخومينى قد أجرى اتصالات معه لكى يصدر فتوى دينية فى هذا الموضوع •

فأصدر الخوميني فتوى دينية في ١٤ فبراير هذا نصها :
« أود أن أبلغ كافة المسلمين الشجعان في جميع أرجاء العالم أن مؤلف كتاب « آيات شيطانية » الذي طبع ونشر من اجل الهجوم على الاسلام وعلى النبي محمد وعلى القرآن الكريم وكذلك جميع الناشرين الذين يعرفون تماما محتويات ذلك الكتاب قد صدر عليهم الحكم بالاعدام • ولذلك فأنا أناشد كافة المسلمين الغيورين على الدين الاسلامي أن ينفذوا حكم الاعدام في هؤلاء الناس في أي مكان يتواجدون فيه لكيلا يجرؤ أحد مستقبلا على توجيه اهانات لقدسية الاسلام وطهارته • وأي مسلم يقتل أثناء قيامه باغتيال هؤلاء الناس يعتبر شهيدا » •

واختبأ رشدي الذي يحمل الجنسية البريطانية في مكان سري في لندن وتم توفير حماية من الشرطة البريطانية له • وانتقد وزير الخارجية البريطاني سير جيوفري هاو قرار الخوميني واعتبر ذلك تدخلا في الشئون الداخلية لدولة أخرى • ورحب الرئيس خمائيني الذي يترأس صلاة الجمعة في طهران بقرار الخوميني في خطبة الجمعة التي ألقاها بتاريخ ١٧ فبراير حيث قال : « ندعو هذا المؤلف للتوبة ويقول (لقد وقعت في خطأ فادح) ويعتذر للمسلمين ويعتذر للامام الخوميني وعندئذ فقط يمكن للعالم الاسلامي أن يغفر له » • وفي اليوم التالي قال سلمان رشدي « انني أبدي أسفي الشديد لما سببه كتابي من شعور بالهم والقلق والحزن لدى الاتباع المخلصين للاسلام » • ولكن مكتب الخوميني رد عليه بالآتي : « حتى لو أعلن سلمان رشدي توبته وأصبح أكثر الناس تقوى وورعا في كل الأوقات فانه لزام على كل مسلم أن يستخدم حياته وممتلكاته من أجل ارسال سلمان رشدي الى الجحيم » • وفي وقت سابق كان حجة الاسلام حسن صناعي Sanai رئيس مؤسسة ٥ يونيو الايرانية قد عرض مكافأة مالية قدرها ٢ر٦ مليون دولار

لأى شخص ايرانى ومليون دولار لأى شخص غير ايرانى يقوم باغتيال سلمان رشدى ٠

واجتمع ١٢ وزير خارجية تابعون للمجلس الأوربى الذى يضم ١٢ دولة على قرار الخومينى وقرروا فى ٢٠ فبراير استدعاء رؤساء بعثاتهم الدبلوماسية فى طهران كما قرروا فرض القيود على علاقاتهم الاقتصادية مع ايران ٠ كما سحبت بريطانيا كافة الدبلوماسيين الخمسة التابعين لها من ايران وردت طهران على ذلك باستدعاء سفرائها من عواصم دول أدربا الغربية ٠ وعندما قالت حكومة الدول الأوربية الغربية أنها « تساند حرية الرأى وحرية التعبير » قال الرئيس خمائينى أن هذه الدول قد ارتكبت خطأ شنيعا لأنها « قد خلطت ما بين التعبير عن حرية الرأى وأهانة بليون مسلم » ٠

ووجه الخومينى خطابا مدته ساعة موجها الى المدرسين والطلبة فى الكليات والمعاهد الاسلامية ومذاعا على راديو طهران يوم ٢٢ فبراير أكد فيه آراءه فيما يتعلق بدور زجال الدين فى المجتمع كما أكد على العلاقة الوثيقة التى لا تنفصم أبدا بين الدين والسياسة وهاجم مذهب التعديلية revisionism أو المناداة بالأخذ بروح التطور وقال « أولئك الذين ما زالوا يعتقدون أنه ينبغى علينا أن نشرع فى اللجوء الى التنقيح والتعديل فى سياساتنا ومبادئنا ودبلوماسيتنا وأننا قد وقعنا فى أخطاء شنيعة وأنه ينبغى علينا الا نكرر أخطاءنا أولئك الذين ما زالوا يعتقدون أن الشعارات المتطرفة الخاصة بنا ستجعل كلا من الغرب والشرق يشعر بالتشاؤم حيالنا وأن ذلك كله قد أدى فى نهاية الأمر الى عزلة ايران ٠ وأولئك الذين ما زالوا يعتقدون اننا اذا لجأنا الى الأساليب البراجماتيقية العمليــة فان الغرب والشرق ستبادلان مشاعر الاحترام مع ايران

ومع الاسلام والمسلمين بالأمة الايرانيـة ٠٠ لهؤلاء جميعـا أقول أن الله سبحانه وتعالى أراد لهذا الكتاب الالحـادى الصـادر تحت اسم « آيات شيطانية » أن يطبع وينشر حتى يمكن لعـالم الغش والخداع والغرور والبربرية أن يكشف عن وجهه فى عدائه المستمر للاسـلام وحتى يمكن لنا أن نكف عن سذاجتنا ومادمت على قيد الحيـاة فلن أسمح للحـكومة الايرانيـة أن تقع فى براثن وأيدى الليبراليين الموالين للغرب ومادمت حيا فاننى سأقطع أيدى عملاء أمريكا وعملاء الاتحاد السوفيتي فى كافة المجالات » ٠

ويمكن القول أن الخومينى ــ من خلال ذلك الخطاب ــ قد حاول تحييد الضغوط الواقعة على حـكومته من جانب المعسـكر البراجماتيقى العملى بالداخل والرامية الى تدعيم الروابط مع الدول الأوربية الغربية بهدف تسهيل تنفيذ مشروعات التعمير الكبرى عقب وقف اطلاق النيران فى حرب الخليج والجدير بالذكر أن استيلاء طلبة مسلحين على السفارة الأمريكية بطهران منذ عشر سنوات (فى نوفمبر ١٩٧٩) قد أبطل مفعول حركة كانت ترمى الى التقارب بين الحـكومة الايرانيـة (التى كانت آنئذ بقيـاد الليبرالى المهـدى بزارجان Bazargan) وأمريكا ٠

وهذا الموقف الدرامى المتشدد الذى اتخـذه الخومينى ازاء مسـألة سلمان رشـدى قد جعل هيبته تزداد كثيرا فى المسـلمين المتواجدين بالعالم خارج ايران ٠ ووفقا لمـا قاله يعقوب زكى وهو اخصائى فى الشئون الاسـلامية بجامعة هارفارد الأمريكيـة فان الخومينى بتعبيره فى وضوح عن مشاعر المسلمين ازاء كتاب سلمان رشدى قد استعاد بضربة واحدة كل شىء فقد فى الحرب مع العراق وخرج بازغا كزعيم روحى لا ينازعه أحد على زعامة المسـلمين فى جميع أرجاء العالم » ٠ وهذا الدعم والتأييد للخومينى قد جاء ليس

فقط من جانب القادة المسلمين المتواجدين فى أوربا الغربيـة ولكن أيضا من جانب الزعماء المسلمين فى نطاق العالم الاسلامى • وقـد أشار محمد اسماعيل القرشى رئيس المنظمة العالمية للمحامين المسلمين الى أن هـذا العمل الذى أقدم عليه سلمان رشـدى « هو عمل لا يمكن اغتفاره وفق الشريعة الاسلامية » • كما أن الواعظ الرئيسى فى مسـجد جاما Jama بمدينـة دلهى بالهند (وهو من أكبر المساجد الرئيسية بالهند التى تضم حوالى ١٠٠ مليون مسلم) قال « نحن نؤيد قرار حكم الاعدام الذى أصدرة آية الله ضـد ذلك الكلب الكافر المجدف » • وبعدئذ عبر الأخ العقيـد معمر القذافى زعيم ليبيا عن تأييده للخومينى فى قراره ضد رشدى • كما طالب حسين محمد ارشاد رئيس بنجلاديش بمحاكمة رشـدى وتوقيع العقاب عليـه •

وعندما أجرى المسئولون البريطانيون اتصالات مع العديد من الدول الاسلامية الصديقة بهدف العمل على اصدار بيانات من زعماء سياسيين أو دينيين تتعارض مع فتوى الخومينى الخاصـة بتنفيذ حكم الاعدام فى رشدى فان محاولاتهم باءت بالفشل الذريع • وحتى تركيـا وهى دولة علمانيـة تحت قيـادة الرئيس كنـان افران Kenan Evran الذى يعتبر عدوا للأصولية الاسلامية والذى يتلهف الى ربط تركيا مع المجتمع الأوربى قد رفضت المصادقة على الشجب الأوربى للخومينى • وكان من الواضح أن الخومينى يقف على أرض صلبة من الناحية الثيولوجية الدينية • وكان قد ارتكز فى فتواه بشأن رشدى على الشريعة الاسلامية والقوانين والمبـادىء الاسـلامية • حيث اسـتند فى فتواه تلك على القرآن ، ونـوع العقـاب الذى ينبغى انزالـه على أولئـك الذين يفترون على رسول الله وعلى كلمة الله (القرآن الكريم) قد تم تحديده وممارسته بمعرفة محمد صلى الله عليه وسلم • فهو بعد أن فتح مكة واستولى

عليها فى يناير ٦٣٠ أصدر أوامره بقطع رأس الشاعر كعب بن الأشرف بسبب تهكمه على القرآن الكريم • ومنذ ذلك الحين بدأ تلاميذ محمد يحذون حذوه فى هذا الصدد •

وعندما أصدر الخومينى هذه الفتوى الدينية فانه يكون بذلك قد خطف الأضواء من فهد ملك السعودية الذى ظل من حيث هو راعى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة يحاول فى السر مهاجمة كتاب رشدى واستصدار البيانات من الهيئات والمنظمات الاسلامية بادانة رشدى • وبعد مرور أربعة أيام على اصدار الخومينى للفتوى الدينية قامت منظمة المؤتمر الاسلامى التى تتخذ من جدة مقرا رئيسيا لها بتحذير دار النشر (فايكنج/بنجوين) التى أصدرت كتاب رشدى وأشارت فى تحذيرها الى أن الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الاسلامى ستقوم بمقاطعة كافة الكتب التى تصدرها فايكنج/بنجوين اذا لم تبادر بسحب رواية « آيات شيطانية » من الأسواق والمكتبات • وفى يوم ٢٦ فبراير نظمت هيئة العالم الاسلامى التى تتخذ من مكة مقرا لها والتى تمولها السعودية حلقة دراسية ورفضت اعتذار رشدى وأشارت الى أن اعتذاره غير كاف وطالبته بضرورة أن يعترف صراحة بأن كل ما كتبه عن الاسلام وعن النبى محمد وعن زوجاته هو محض أكاذيب وافتراء • وأدانته هذه الهيئة ووصفته بأنه « كافر ومرتد عن الدين » وطالبت بمحاكمة المؤلف والناشرين من خلال « المحاكم الملائمة » •

وكان من الواضح أن الخومينى هو الذى قاد كل هذا الهجوم المتعلق بهذا الموضوع أما باقى الشخصيات الاسلامية البارزة والمنظمات الاسلامية لم يكن أمامها سوى أن تحذو حذو الخومينى أو تلتزم بالصمت ومادامت هذه المسألة تتعلق بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم فانه لم يكن هناك مجال للشقاق السنى الشيعى • وانما نظر الى الخومينى على أنه شخصية اسلامية عظمى

على المسرح العالمى وعلى أنه يدعم قداسة وطهارة النبى محمد صلى الله عليه وسلم والاسلام .

وكان ذلك هو الخط الذى ركز عليه الوفد الايرانى فى نجاح عظيم فى مؤتمر وزراء خارجية منظمة المؤتمر الاسلامى الذى عقد فى الرياض فى منتصف شهر مارس . وجاء فى البيان الذى أصدرته منظمة المؤتمر الاسلامى ما يلى « ان ذلك الكتاب « آيات شيطانية » ينتهك كل أشكال الكياسة والذوق وهو بمثابة محاولة متعمدة للافتراء على الدين الاسلامى » . واشار البيان الى أن المؤلف يعتبر مرتدا عن الدين الاسلامى وطالب بضرورة سحب الكتاب من الأسواق ودعا الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الاسلامى بمقاطعة الناشرين اذا لم يبادروا الى سحب الكتاب من الأسواق » .

وأشار مندوبو ايران الى أنه مادامت عقوبة الارتداد عن الدين هى الاعدام طبقا للقانون الاسلامى فان قرار منظمة المؤتمر الاسلامى يؤيد ويدعم نفس القرار الذى سبق أن أصدره آية الله الخومينى وهو تنفيذ حكم الاعدام فى سلمان رشدى .

وكانت هناك منافسة بين ايران والسعودية على زعامة العالم الاسلامى . وهى منافسة كانت تجرى فى داخل المجالس الخاصة بالمقاومة الأفغانية . وعقب توقف اطلاق النيران فى حرب الخليج بدأت ايران فى القيام بدور نشط فى هذا الصدد .

أفغانستان

لقد فشلت حكومة محمد نجيب الله فى اقناع الثوار بالانضمام الى حكومة مصالحة وطنية خلال النصف الأخير من عام ١٩٨٧ ولكن ذلك لم يمنع نجيب الله من مواصلة تخفيف الشكل والمحتوى الماركسى للنظام السياسى . فالدستور الجديد الذى أعلن عنه

فى ديسمبر عام ١٩٨٧ قد ألغى كلمة « ديموقراطية » من الاسم الرسمى للدولة بحيث أصبح اسم الدولة هو : « جمهورية أفغانستان » والأهم من ذلك أن الدستور قد نص على ان الاسلام هو الدين الرسمى للدولة وان نظام الدولة يقوم على تعدد الأحزاب .

وحقيقة الأمر أن نتائج الانتخابات البرلمانية التى تمت فى ابريل عام ١٩٨٨ قد أوضحت أن الحزب الديموقراطى الشعبى لم يحصل الا على ٢٧٪ من المقاعد بينما الجبهة الوطنية وهى هيئة شاملة قد حصلت على ٢٨٪ من المقاعد . أما المنظمات الشعبية من أمثال الحزب الثورى للعمال وحزب العدالة للفلاحين والحزب الاسلامى فقد حصلت على ٣٨٪ من المقاعد . ورئيس الوزراء سلطان على كشتماند قد حل محله السياسى غير الحزبى محمد حسن شرق Sharq . ووجه نجيب الله خطابا فى مؤتمر الحزب الديموقراطى الشعبى فى ٢٧ ابريل ١٩٨٨ بمناسبة الاحتفال بالذكرى العاشرة لثورة رؤور (ابريل) انتقد فيه الحزب لعدم اصغائه لصوت جماهير الناس مع الانهاك فى البلاغة والفصاحة والحشو فى الكلام المضلل المخادع وتجاهل الشخصيات التاريخية للمجتمع الأفغانى . وحث أعضاء الحزب على عدم تجاهل دور الاسلام وهيئة العلماء الاسلاميين الدينيين ثم أعلن أن أهداف الثورة الأفغانية لا ينبغى أن تتحقق من خلال الوسائل العسكرية .

وبعد أن صدر بيان مشترك من نجيب الله وجورباتشوف فى أوائل فبراير عام ١٩٨٨ ينص على أن القوات السوفيتية سوف تبدأ انسحابها من أفغانستان فى مايو وتستكمل انسحابها فى خلال عشرة شهور فانه قد تم التوقيع على أربع اتفاقيات تحت اشراف الأمم المتحدة فى جنيف فى ١٤ ابريل من جانب كل من أفغانستان والاتحاد السوفيتى والباكستان وأمريكا . وكانت الاتفاقيات الثلاث

الأولى تتعلق بمبادىء عدم التدخل واعلان الضمانات الدولية وحق اللاجئين فى العودة • أما الاتفاقيـة الرابعة فتطلب من موسكو سحب جنودها البالغ عددهم ١١٥ ألف مقاتل من أفغانستان فى الفترة

ما بين ١٥ مايو عام ١٩٨٨ و١٥ فبراير عام ١٩٨٩ •

ولكن بعد التوقيـع على هـذه الاتفاقيات قامت الدولتان الكبيرتان بتبادل خطابات سرية تسمح لهما بالاستمرار فى تزويد حلفائهما بالامدادات العسكرية بمعنى أن الاتحاد السوفيتى وافق على السماح لأمريكا بتقديم أسلحة وذخائر الى الفدائيين المتمركزين فى الباكستان • ولكن نظرا لأن الباكستان كانت قـد وقعت على اتفاقية عدم التدخل فان الأمر كان يستلزم منها منع نقل الامدادات الحربية الى داخل أفغانستان علاوة على اغلاق معسكرات التدريب العسكرى المتواجد فى الباكستان بالنسبة للثوار الأفغان المتواجدين فى أراضيها • ولكن اسلام أباد خرقت هذه الاتفاقية علنا مما تسبب فى تكدير ومضايقة كابول وموسكو •

وبعد أن نجح التحالف الاسـلامى للمجاهـدين الأفغـان فى الحصول على موافقة موسكو على سحب قواتها من أفغانستان فانه قرر زيادة تحديه السياسى لحكومة كابول • ومن خـلال تشجيع المخابرات الباكستانية للخدمات الداخلية ISI وهى وكالة للأمن الداخلى والحربى تستخدم مجموعة من الموظفين فى حدود ١٠٠ ألف شخص أنشأ التحـالف الاسلامى للمجاهدين الأفغـان « حكومة مؤقتة » برئاسة أحمد شاه وهو عضو وهابى فى التحالف الاسلامى لأفغانستان الذى يرأسـه البروفسور السياف • فأثار ذلك استياء الأحزاب المعتدلة التى كانت قد اقترحت اجراء انتخابات فورية فى معسكر اللاجئين بهدف تشكيل واختيار حكومة مؤقتة • حيث كانت قد شجعتها نتائج استطلاع الرأى العشوائية التى أجريت فى منتصف

عام ١٩٨٧ على ٢٢٨٧ من اللاجئين المتواجدين فى ١٠٦ معسكرات، من بين مجموع المعسكرات المتواجدة فى الباكستان والبالغ عددها ٢٤٩ معسكرا : حيث أظهر استطلاع الرأى أن ٧٢٪ يفضلون عودة الملك زاهر شاه الى حكومة ما بعد الحرب فى أفغانستان وعندما تم تجاهل المعتدلين وتم فرض السيطرة عليهم فانهم تجاهلوا بدورهم الحكومة المشكلة حديثا التى تمول بمعرفة السعوديين • وقد أدى هذا ـــ علاوة على رفض الباكستان وأمريكا الاعتراف بحكومة أحمد شاه ـــ الى موت هذه الحكومة فى هدوء عقب مرور شهور قليلة •

كما كانت هناك أيضا اختلافات عميقة بين قادة المقاومة فيما يتعلق بالاستراتيجية الملائمة التى ينبغى اتخاذها بهدف الاستيلاء على كابول • اذ كان هناك حزبان معتدلان وحزبان راديكيليان يرغبون فى العمل على تحطيم الروح المعنوية فى العاصمة وتشجيع الجنود على الهرب من الجيش الأفغانى مع زيادة وتعميق الروابط مع الشعب المدنى الأفغانى قبل اللجوء الى شن هجوم على العاصمة تحت قياده موحدة • الا أن هذه الاستراتيجية قد لقيت معارضة من جانب « الحزب الاسلامى » بقيادة حكمتيار الذى تسانده أمريكا والباكستان والذى يتبنى فكرة الهجوم الفورى على كابول العاصمة • وفى نهاية الأمر لم ينجم أى شىء عن هذه المشاورات والمداولات لأسباب عديدة من بينها موت الجنرال محمد ضياء الحق رئيس الباكستان والراعى الأول لحكمتيار فى ١٧ أغسطس عام ١٩٨٨ لدى حدوث انفجار فى الطائرة التى كان على متنها •

ومع انخفاض التواجد السوفيتى العسكرى الى النصف فى منتصف أغسطس قررت حكومة نجيب الله اخلاء العديد من نقاط ومراكز وحاميات الحدود من الجنود حتى تتمكن من تدعيم وضعها الاستراتيجى وتشجيع اللاجئين على العودة • وبالنسبة للجبهة

الاجتماعية/السياسية قامت حكومة نجيب الله بالابطاء فى تنفيذ برامجها الخاصة بالاصلاح الزراعى وتحرير المرأة . بل قامت بزيادة ميزانياتها الخاصة بوزارة الشئون الدينية التى أصبحت الآن تستخدم ٢٠ الفا من رجال الدين الموظفين لدرجة أن ميزانية وزارة الشئون الدينية أصبحت ثلاثة أضعاف ميزانية وزارة الخارجية . ففى كابول وحدها نجد ان خطة اصلاح وتجديد الألف مسجد المتواجدة بالمدينة كان يتوقع لها أن تكلف الميزانية العامة حوالى ٢٠ مليون دولار . وقد أشار نجيب الله فى خطاب له موجه للجنة المركزية للحزب الديموقراطى الشعبى فى أكتوبر أن الحزب كان على استعداد لوضع المصالحة الوطنية فوق مصلحة الحزب .

ورفض قادة المقاومة مقترحات نجيب الله على أساس أن حكومته هى حكومة عميلة لموسكو وبالتالى فهو لا يتباحث الا مع السوفيت . وقد حدث هذا فى أوائل ديسمبر عام ١٩٨٨ فى الطائف بالعربية السعودية حيث اجتمع قادة المجاهدين مع يولى فورونتسوف Qali Vorontsou وهو نائب وزير الخارجية السوفيتى المقيم فى كابول كسفير للاتحاد السوفيتى فى كابول . ولكن عقب اجتماعاتهم التالية مع فورونتسوف فى اسلام اباد فانهم رفضوا اقتراحه باقامة ائتلاف مع الحزب الديموقراطى الشعبى وهو الحزب الذى ينظرون اليه على أنه ليس سوى كيان خلقته موسكو . ولذلك لم يكن هناك ما يدعو للدهشة عندما تجاهلوا العرض الذى تقدم به نجيب الله لوقف اطلاق النيران من جانب واحد فى ١ يناير عام ١٩٨٩ وقام المقاتلون التابعون لهم بمهاجمة الجنود الأفغان مما قضى على الهدنة القصيرة .

ولدى اقتراب موعد الانسحاب النهائى للقوات السوفيتية زادت موسكو من جهودها الدبلوماسية الرامية الى اقامة حكومة

المجموعات الأفغانيــة الشيعية المتواجدة فى عاصمة ايران : وهى الدولة التى آوت حوالى مليونين من اللاجئــين الأفغــان • ونتيجــة لجهوده هذه أجريت اتصالات رسمية بين مجموعات الشيعة بطهران والمجموعات السنية المتواجدة فى بيشاور •

وتم ممارسة ضغوط هائلة على أحزاب المجــاهدين المتواجدين فى بيشاور من جانب المخــابرات الأمريكية والمخابرات الباكستانية التى تســمى ISI والتى يرأســها الجنرال حــامد جــول Hamid Gul بهــدف اقامة مجلس شــورى Shura أو مجلس استشارى وتكوين حكومة مؤقتة قبل الانسحاب النهائى الكامل للقوات السوفيتية من أفغانستان • الا أن الخلافات الداخلية المتواجدة فى داخل تحــالف المجاهدين كانت حادة للغاية مما أدى الى تعذر تحقيق هذه المهمة •

وحقيقــة الأمر أن الكثيرين من المراقبين قد تنبأوا بانهيــار تحالف المجاهدين نظرا لأن الأسمنت الذى كان يبقى على تماســك ذلك التحالف الا هو تواجد القوات السوفيتية فى أفغانستان قد بدأ يتفــكك بخــروج هــذه من أفغانســتان • الا أن هذا الانهيار لم يحدث على نحو فورى • وكان السبب الرئيسى فى ذلك هو أن أمريكا فى ظل حكومة جورج بوش الجديدة قد وعدت بالاستمرار فى تقديم الأسلحة لتحــالف المجاهدين فى حدود مبلغ مليار دولار ســنويا (علاوة على تقديم مساعدات فى حدود مليار دولار سنويا أيضــا من جانب السعودية) والجماعة التى تنفصل من تحــالف المجاهدين من شأنها أن تفقد نصيبها من هذه الأسلحة ولذلك حرصت كل جماعة على البقاء فى داخل التحالف لكى تحصل على نصيبها من الأموال والأســلحة •

وعلى الجانب الآخر وفى غياب حدوث تسوية سياسـية تؤدى الى ظهور حكومة ائتلافيـة قام السوفيت بتسليم محتويات مخازنهم الحربية الشاسعة للأفغان بل أقاموا جسرا جويا لنقل المزيد من الذخائر والأسلحة • وأشار وزير الخارجيـة السـوفيتى ادوارد شفرنادزة الى أن موسكو على استعداد لاحترام التزاماتها للأفغان وفق معاهدة الصـداقة والتعاون لعام ١٩٧٨ التى تنص على تبادل الاستشارات فيما يتعلق بتوفير « الأمن والاستقلال وحماية الأراضى لكلتا الدولتين » وكان ذلك يعنى أن السـوفيت على استعداد لشـن هجمات جوية من القواعد السوفيتية المتواجدة فى داخل الاتحـاد السوفيتى ــ اذا ما طلب منهم ذلك ــ تدعيما لحكومة كابول وضرب المتمردين : وهو أمر سبق أن فعلوه من أجل طرد الفدائيين من مدينة كوندوز Kunduz الواقعة فى الشمال •

وفى حين كان بمقدور المقاومة الأفغانية أن تدعى أن الجهـاد ضد موسكو قد نجح فى تخليص أفغانستان من القوات الأجنبيـة الروسية فانهـا لم يكن باستطاعتها أن تغير الجغرافيا أو المعاهدات الدولية القائمة •

وبعد العديد من حالات التأجيل اجتمع أخيرا مجلس الشورى الأفغـانى فى روالبنـدى Rawlpindi بالباكسـتان فى ١٠ فبراير • وكان مجلس الشورى يضم ٥٢٦ عضـوا حيث يتألف من ٦١ مندوبا عن كل عنصر من العناصر السبعة التى تتألف منها تحالف المجـاهدين و ٨٠ مندوبا عن مجموعات الشيعة الثمانيـة المتمركزة فى طهران و ١٩ من كبار شخصيات المسلمين من كابول • وأشار صبغة الله مجددى الذى كان يرأس آنئذ تحـالف المجاهدين الى أن مجلس الشورى هو مجلس غير منتخب وغير ممثل لطوائف

الشعب ثم قدم استقالته . وبعدئذ خلفه في هذا المنصب محمد نبي المحمدي فأصدر أوامره بتأجيل الجلسات .

وكان السبب الرئيسي في تقديم المجددي استقالته هو فشله في الحصول على موافقة زملائه على تشكيل مجلس أعلى لتحالف المجاهدين يضم سبعة أعضاء وذلك من أجل الاتفاقية التي كان قد وقع عليها من قبل مع محمد كريم خليلي رئيس المجموعات الأفغانية المتمركزة في طهران . وتجاوبا مع مطالبة الخليلي ب ١٢٠ مقعدا فان المجددي كان قد وافق على زيادة عدد المندوبين من ٦٠ مندوبا الى ١٠٠ مندوب بالنسبة للمجموعات المتمركزة في طهران . ولكن السياف الموالي للسعودية وكذلك حكمتيار الموالي للباكستان رفضا الموافقة على ذلك خشية أن يؤدي الوفد الموسع عن طهران الى حدوث اندماج بينه وبين المعتدلين المتمركزين في بيشاور مما يؤدي الى احباط مخططاتهما .

وما رحل الوفد الذي هو بقيادة الخليلي الى طهران في احباط في ١٩ فبراير حتى راح مجلس الشورى يركز تفكيره على انجاز الأعمال . وأعطى لكل مندوب من الـ ٤٣٩ مندوبا الحاضرين صوتين بحيث يدلي بهذين الصوتين لصالح أي قائد من القادة السبعة لتحالف المجاهدين .

وكانت النتائج المعلنة في ٢٣ فبراير على النحو التالي : المددي (الرئيس) ١٧٤ صوتا ، والسياف (رئيس الوزراء) ١٧٣ صوتا ، والمحمدي (وزير المالية) ١٣٩ صوتا وحكمتيار (وزير الخارجية) ١٢٦ صوتا ، وخالص (وزير الدفاع) ١٠٢ صوت ، ورباني (وزير الداخلية) ٩٩ صوتا ، والجيلاني (وزير التعمير) ٦٦ صوتا . وقد وضع هذا نهاية لأسلوب المناوبة القيادية كل ثلاثة شهور في المجلس الأعلى لتحالف المجاهدين .

والجدير بالذكر أن الجيلانى الذى كان أشد الناس انتقادا للتدخل الباكستانى فى الشئون الأفغانية وخاصة فيما يتعلق بالتواجد الكبير لموظفى المخابرات الباكستانية ISI فى داخل مسرح الأحداث لمجلس الشورى قد حصل على أقل عدد من الأصوات . ومن ناحية أخرى وبسبب الأموال السعودية الهائلة التى تدفقت لصالح السياف نجد أن السياف وهو الزعيم الوهابى لأصغر حزب فى تحالف المجاهدين قد حصل على أكبر عدد من الأصوات تقريبا . وكان ذلك مقياسا دراميا عن مدى تأثير الأموال السعودية والجهود الحربية الباكستانية على السياسات الأفغانية .

وكان اسلام أباد والرياض ووشنجتن تعتقد أن تشكيل حكومة مؤقتة فى بشاور يعتبر خطوة جوهرية ولو أنها خطوة مرحلية . أما الخطوة التالية فهى أن تتمركز الحكومة فى داخل أفغانستان . وذهبوا فى تصوراتهم الى أن جلال أباد وهى مدينة يبلغ عدد سكانها ½ مليون مواطن هى أنسب الأماكن التى يمكن للحكومة أن تتخذ منها مقرا لها . فهى تقع على مسافة ٤٥ ميلا فقط من الحدود مع الباكستان كما تقع على طريق برى يربطها بكابول الواقعة على مسافة ٨٠ ميلا فى اتجاه الغرب علاوة على أن القوات السوفيتية كانت قد أخلتها فى مايو عام ١٩٨٨ . ومنذ أن تم ذلك الجلاء عن جلال أباد استولى المتمردون بصفة دائمة على الطريق الممتد من الباكستان والذى يصل الى المزرعة الحكومية الشاسعة عند جازياباد Gaziabad الواقعة الى الشرق من جلال أباد فى يناير عام ١٩٨٩ . الا أن المدينة كان لها خط دفاع من حقول الألغام عند حدودها الخارجية علاوة على الحاجز المائى الطبيعى المتمثل فى نهر كابول . وكان يحرسها حوالى ١٥ ألفا من الجنود الأفغان الذين تساندهم مليشيات الحزب الديموقراطى الشعبى . وكانت قوات المتمردين تقدر ب ١٥ الف مقاتل مع انتماء معظم

الفدائيين الى الجبهة الاسلامية الوطنية التابعة للجيلانى والحزب الاسلامى التابع لخالص • وكان القادة الميدانيون لهذه القوات يرفضون باستمرار الضغوط الباكستانية الرامية الى دفعهم الى شن هجوم فورى على المدينة لأن ذلك من شأنه أن يسبب خسائر كبيرة بين المدنيين •

وكانت الحكومة الأفغانية مصممة على الابقاء على الطريق جلال أباد/كابول مفتوحا • وحقيقة الأمر أن ذلك كان جزءا من الاستراتيجية الشاملة التى تلتزم بها الحكومة بالاتفاق مع موسكو طوال فترات الحرب الأهلية • فالقوات السوفيتية التى يزيد عددها على ١٠٠ ألف مقاتل والمنتشرة فى جميع أرجاء أفغانستان كانت كافية لتمكين حكومة كابول من السيطرة على المراكز الحضرية الرئيسية والمطارات والطرق الموصلة اليها • كما أن سلاح الطيران السوفيتى كان منتشرا ويشارك مع سلاح الطيران الأفغانى فى الاغارة على قواعد الفدائيين علاوة على القيام بتخويف ومعاقبة الناس الذين يقدمون العون والمساندة للمتمردين • وذلك يوضح لنا السبب فى أن موسكو فقدت فى خلال تسع سنوات من المناوشات والحروب ١٥ ألف جندى فقط بمن فى ذلك الطيارون •

وعلى النقيض من ذلك نجد أن الحرب الأهلية أودت بحياة ٧٠ ألف جندى من قوات الأمن الأفغانية وأفراد الحزب الديموقراطى الشعبى • واذا أضفنا الى ذلك الرقم حالات الوفيات بين الفدائيين والمدنيين التى بلغت ٣٠٠ ألف قتيل فانه يمكن القول بأن مجموع الوفيات وصلت الى نسبة ١٠٪ من مجموع السكان الشباب بأفغانستان • وقد تكبد الفدائيون أكبر نسبة من الخسائر فى الأرواح والماديات • وتشير التقديرات الحكومية الى أن نشاطهم العسكرى خلال الشهور التسعة التى أعقبت التوقيع على اتفاقيات

جنيف قد وصل الى ٥٥٧ هجوما و ٤٠٣ حالات من حالات القاء القنابل واطلاق ٢٠١ ألف صاروخ وقذائف مدفعية ثقيلة وقذائف المورتار ٠

وفى أعقاب رحيل آخر القوات السوفيتية بما فى ذلك رحيل ٢٠ ألف جندى من كابول ومطار كابول علاوة على مغادرة السفارات الغربية للعاصمة كابول بسبب توقعها لسقوط حكومة نجيب الله نجد أن الرئيس نجيب الله قد تصرف فى سرعة وحزم ٠

اذ قامت الحكومة بكابول بتسليم ٣٠ ألف بندقية كلاشينكوف للشباب المدافعين عن الثورة بمعنى أن الحكومة جندت جانبا من أعضاء الحزب الديموقراطى الشعبى ابتداء من سن ١٤ سنة الى سن ٥٨ عاما ٠ ثم قامت بتنفيذ خطتها الرامية الى رفع مستوى الحرس الخاص مع تخصيص ٣٠ ألفا من هؤلاء الحرس للتواجد فى كابول وتخصيص ١٥ ألفا منهم للتواجد فى العواصم الاقليمية ٠ وعلاوة على ذلك كانت هناك قوات الشرطة النظامية التى يتراوح عددها من ٢٠ ألفا الى ٢٥ ألف شخص ٠ علاوة على الشرطة السرية المسلحة البالغ عددها من ١٥ ألف الى ٢٠ ألف شخص ٠ وهذه القوة التى يتراوح عددها من ٨٠ ألفا الى ٩٠ ألفا من بين المجموع الكلى البالغ ١٥٠ ألفا من الأشخاص شبه الحربيين والمليشيات القبلية كانت تعتبر بمثابة القلب النابض لحكومة كابول حيث كان من المتوقع لهم أن يحاربوا حتى النهاية المقاتلين البالغ عددهم ٧٠ ألفا المنضمين للمعسكر الآخر ٠

وكلا الجانبين كان لهما القوى السياسية والحربية الخاصة بهما كما كانت لهما نقاط الضعف الخاص بهما ٠ ففى حين أن تحالف المجاهدين قد توحد وتماسك مع بعضه البعض رغم التملق والمداهنة من جانب كابول وموسكو فان الكثيرين من المراقبين قد

رأوا أنه تحالف متنافر العنــاصر على نحو يدعو لليأس حيث من المتعذر أن يتحدث زعماؤه بلغة واحدة أو يلتقوا على فكرة موحدة نظرا لوقوعهم تحت تأثيرات الأجانب · ولذلك نجد ان الحــكومة المؤقتة الخاصة بتحالف المجاهدين والتى تتألف من عناصر متفاوتة ومتباينة والتي لا يوجد لها دستور قد فشلت فى كسب اعتراف من جانب الباكستان أو أمريكا · وظل ذلك التحالف منقسما فيما يتعلق بالسياســات الاجتماعية والسياســية بما فى ذلك درجة الأسلمــة (اضفاء الطابع الاسلامى) والاستراتيجية العسكرية ·

وعلى الصعيد العسكرى نجد أن الفدائيين قد حققوا نجاحا من حيث استيلاؤهم على عواصم بعض الأقاليم الواقعة على طول الحدود مع الباكستان · الا انهم لم يجرؤوا على اقامة تواجد حقيقى لهم فى أى مدينة من المدن الكبرى ، لكيلا يصبحوا هدفــا سهلا أمام سلاح طيران الأعداء · وكان ذلك هو الدرس الذى تلقوه من قبل من الأحداث التى حدثت في مدينة كوندور التى تقع فى الشمال والتى سبق أن استولوا عليها وتمركزوا فيها فى أغسطس عــام ١٩٨٨ ولكنهم بعدئذ اضطروا الى الفرار منهــا عندما قــامت الطــائرات السوفيتية القادمة ليس فقط من كابول ولكن أيضــا من القواعــد الروسية القريبة من الحدود بقصفهــا بالقنــابل · وعلى الصعيد السياسى نجد أن تصرفاتهم وسلوكهم فى مدينة كوندوز قد أثارت الخوف والمرارة بين سكان المدينــة · لأنهم راحوا يمارســون أعمال السلب والنهب لدرجة انهم قادوا باقتــلاع أعمدة الكهرباء · وفى مدينة توردهام Torham الحــدودية قامو بذبح ٧٠ من الجنود الحــكوميين عقب استسلام هــؤلاء الجنود لهم · بل قاموا بتنفيذ مذابح مماثلة فى اقليم كونــار Kunar الشرقى الذى أخلتـــه الحكومة المركزية · وقد تسبب ميلهم الشديد للانتقام فى تدمير فاعلية الاستراتيجية العامة للتحالف الخاصة بتشجيع الارتداد من

الجانب المعارض مع وعود بالعفو العام . والخوف من الانتقام الدموى من جانب خصومهم كان عاملا مهما فى تشجيع مؤيدى الحكومة على شهر السلاح وتقديم مقاومة صلبة ضد هجمات الفدائيين .

ونظرا لأن نجيب الله كان يعرف تماما خطة تحالف المجاهدين الرامية الى ادخال السلاح والرجال الى داخل كابول قبل فرض حصار عليها فانه انتهز أول فرصة سانحة لكى يضرب خصومه ويجهز اتباعه ويعدهم للقتال . وعقب العثور على أسلحة ومتفجرات فى العاصمة فى ١٨ فبراير أعلن الرئيس أن السيادة الوطنية والاستقلال السياسى وسلامة الأراضى أصبحت واقعة تحت التهديد نتيجة المكائد والمؤامرات التى تحوكها الباكستان وأمريكا . ثم فرض حالة الطوارىء وعلق الحقوق الدستورية المتعلقة بتجمهر الناس واضرابات العمال وتفتيش البيوت وتسجيل المكالمات التليفونية واقامة محاكم عسكرية لمحاكمة أولئك المتهمين بخرق القوانين . وقام بتعيين مجلس أعلى للدفاع عن الوطن يتألف من عشرين عضوا ويضم رجالا عسكريين وموظفين حزبيين . ثم قام بطرد ثمانية وزراء غير حزبيين بما فى ذلك رئيس الوزراء شرق Shara ووضع مكانهم أعضاء من الحزب الديموقراطى الشعبى . وبدأت الدبابات وعربات نقل الجنود المصفحة تحرس مفارق الطرق فى العاصمة حيث أغلقت أحياء معينة لدى قيام الشرطة المسلحة بتفتيش البيوت والقاء القبض على العديد من الأنصار الموالين لحكمتيار وربانى .

ومثلما حدث من قبل ركزت حكومة الحزب الديموقراطى الشعبى عداواتها على الحزب الاسلامى برئاسة حكمتيار وجماعة اسلامى بقيادة ربانى . وكان ذلك يعنى أن الحكومة على استعداد

للدخول فى مفاوضات مع العناصر الأخرى التى يتألف منها تحالف المجاهدين علاوة على استعدادها للتفاوض مع المجموعات المتمركزة فى طهران • ونظرا لأن مجموعات طهران قد استثنيت من الدخول فى الحكومة المؤقتة التى اتخذت من بشاور مقرا لها فانها كانت تميل الى دراسة النداءات المتكررة من جانب كابول لاقامة مصالحة وطنية •

وحققت الحكومة الأفغانية قدرا من النجاح فى حملتها الرامية التى تحقيق مصالحة وطنية • وقد أشار مصدر رسمى فى كابول الى أن الحكومة قد أجرت اتصالات مع ٥٧٥ مجموعة تمثل ٤٥ ألف فدائى مسلح متواجدين فى داخل أفغانستان وأن العديد من حالات وقف اطلاق النيران المحلية قد تم اعداد الترتيبات لها بالفعل •

وعقب رحيل السوفيت تمكن نجيب الله من اظهار نفسه على أنه رجل وطنى متحمس وغيور على وطنه • وعلى النقيض من ذلك نجد أن الغالبية العظمى من زعماء المجاهدين قد نظر اليهم الناس على أنهم عملاء للباكستان والعربية السعودية وأمريكا • وكان عقد مجلس الشورى الأفغانى فى روالبندى وهى المدينة التوأم لاسلام أباد والتى تعتبر عاصمة أجنبية بالنسبة للأفغان قد سبب الكثير من جرح المشاعر الوطنية لدى العديد من الوطنيين الأفغان •

ونظرا لأن زعماء المجاهدين يستمرون فى رفض التوصل الى تسوية سياسية ولا يختارون سوى الحل العسكرى فانهم كان عليهم الانتظار لحين ذوبان الجليد فى الربيع وأوائل الصيف لكى ينفذوا الاختيار العسكرى • ومما لا شك فيه أن أتباعهم قد برهنوا على أنهم جديرون بالاحترام كفدائيين مع تلك النجاحات التى يحققونها فى حرب الغابات والجبال ولكن الاستيلاء على المراكز الحضرية والاحتفاظ بها هو موضوع آخر • وكيانهم غير المركزى كان بمثابة

مصدر قوة لهم لدى انهماكهم فى الأنشطة الفدائية ولكنه لا يتلاءم معهم عندما يشتبكون مع جيش تقليدى مسلح بالأسلحة الثقيلة : فذلك النوع من القتال يتطلب قيادة موحدة لم تظهر فى الأفق بعد ٠

وأصبح ذلك واضحا تماما عندما حاولت قوات المجاهدين البالغ عددها عشرة آلاف مقاتل الاستيلاء على جلال أباد فى أوائل مارس عام ١٩٨٩ ٠ اذ قاموا بمهاجمة هذه المدينة فى ٥ مارس على أساس أنهم سيتمكنون من الاستيلاء عليها فى ٨ مارس ثم يتخذونها مقرا لعقد اجتماع لحكومتهم المؤقتة فى يوم الجمعة الموافق ١٠ مارس من أجل الاعداد والتمهيد للاعتراف بها فى مؤتمر وزراء خارجية منظمة المؤتمر الاسلامى المقرر افتتاحه فى ١٣ مارس ٠ الا أن خططهم قد فشلت بالفعل ٠ فهم بدلا من أن يشنوا هجوما مشتركا موحدا تحت قيادة موحدة مركزية أخذت قطاعات المجاهدين المختلفة تشن حالات من الهجوم الفردية الصغيرة المتناثرة ٠ وتمكن الجيش الأفغانى المزود بالأسلحة الثقيلة من الشباب أمام تلك الهجمات المتناثرة وقام بأداء جيد على نحو غير متوقع ٠ وبعد مرور ١٤ يوما على بدء هجوم الفدائيين اعترف قادتهم أنهم وقعوا فى ورطة شديدة كما اعترفوا « بأنه ليس من السهل عليهم الاستيلاء على جلال أباد » وكان العزاء الوحيد للمجاهدين هو أن حكمتيار وزير الخارجية فى الحكومة المؤقتة قد سمح له بأن يحتل المقعد الأفغانى فى اجتماع منظمة المؤتمر الاسلامى المنعقد فى الرياض ٠ وعلى كل حال فان حكومة المجاهدين قد فشلت فى كسب الاعتراف من جانب الباكستان او من جانب أمريكا ٠

ويعتقد معظم المراقبين أنه لا توجد سوى فرصة ضئيلة فى أن تنهار حكومة الحزب الديمقراطى الشعبى من الداخل فى خلال فترة قصيرة مما يسمح لحكومة المجاهدين المؤقتة أن تنصب نفسها

فى الحكم فى كابول . كما لا توجد هنـاك أية فرصة فى أن يبقى التمرد المسلح ضد الحكومة القائمة بعيدا عن الأحداث فى المستقبل. وفى هذه الأيام نجد أن قادة المعارضة الميدانيين من أمثال أحمـد شاه مسعود واسماعيل خان (وهما ينتميان لجماعة اسلامى) قد أنشأوا بالفعل كيانا اداريا فى المناطق التى يسيطرون عليهـا . بالأوامر التى يصدرها اسماعيل خان تؤدى الى احكام السيطرة على القطاع الشمالى الغربى حول حيرات Herat ومسعود المتمركز فى وادى بنجشير Panjshir شـمال كابول هو رئيس « المجلس الرقابى للشمال » الذى يشـتمل على أربعة أقاليم من بين الأقاليم الأفغانية البالغ عددها ٣١ اقليما .

وتحت هذه الظروف فان السيناريو المتوقع هو انقسام البلاد الى مناطق عديدة تحت زعمـاء عديدين مع تواجد حكومة الحزب الديمقراطى الشعبى فى تحصينات بالمراكز الحضرية الكبرى التى ترتبط مع بعضها بشبكة من الطرق البرية . ولكن هـذا وضـع مستقر بطبيعته فتواجد حكومة لها قدر من السلطـة السياسـية والعسكرية فى كابول يجعلها قادرة على ممارسة عملها ويجعل المبادرة فى أيديهـا . ومما سيساعد أكثر تلك الحقيقـة التى مفادها أن أفغانستان تحتوى على ٧٠ مجموعة عرقية وذلك يسمح للحـكومة أن تستخدم سياسـة « فرق تسد » أو « أوجد الشقاق والخلافات بين النـاس حتى تتمـكن من السـيطرة عليهم واخضـاعهم لحكومتك » .

بل ان الصراعات الداخلية بين المجموعات المختلفة التى كانت قد توارت فى الظل بسبب الجهاد المشترك ضـد الغزاة السوفيت الكافرين بدأت تعود الى السطح مرة أخرى فى أجزاء معينـة من البلاد عقب جلاء السوفيت . ونظرا لأن أهالى أفغانستان أصبحوا

يمتلكون أسلحة كثيرة وعلى نحو لا مثيل له فى أى شعب آخر فى العالم فانه لايمكن إستبعاد تحول أفغانستان الى لبنان أخرى ٠

ومن المتوقع لدى تردى البلاد نحو المزيد من مستنقع العنف أن يتزايد تأييد الناس لارجاع الملك السابق محمد زاهر شاه لكى يرأس حكومة مؤقتة اذ أن عودته ستتيح المجال لحفظ كرامة الوجه بالنسبة لقادة الحزب الديمقراطى الشعبى وبالنسبة لمعظم القـادة الميدانيين علاوة على أن عودته ستلبى مطلبا شعبيا من جمـاهير النـــاس ٠

واذا ألقينا نظرة عامة على الأزمة الأفغانيـة نجد أن الدين الاســلامى كان هو المحرك الرئيسى الذى دفع الأفغــان الوطنيين والأفغان المتدينين لشن الجهاد ضد القوات السوفيتية ٠ ويمـكن القول بأن الحـافز الاســلامى قـد نجح بالفعل فى طرد القـوات السوفيتية وانسحابها فى فبراير ١٩٨٩ ٠ ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن الأحداث فى أفغانستان كانت مكملة لمـا حدث فى فبراير عام ١٩٧٩ فى ايران المجاورة لأفغانستان ، فهنـالك فى ايران كان الثوريون الاسلاميون قد أطاحوا بحكومة ربطت نفسها مع دولة عظمى هى أمريـكا ٠ فاذا نظـرنا الى الوضـع فى كل من ايران وافغانستان فانه يمكن القول بأن القوى الاسلامية فى هاتين الدولتين قد برهنت على صحة الشعار الذى يقول « لا شرقية ولا غربية » ٠

كما كانت هنـاك ظاهرة أخرى مماثلة ٠ وهى أن الحـرب الاسلامية المقدسة فى أفغانستان قد أحدثت تغيرا دراميا فى الحزب الحاكم اليسارى ٠ اذ تحول هـذا الحزب من العلمانية الحربيـة الى الحالة التى أعلن فيها أن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة علاوة على البدء فى تنفيذ برامج انشاء المسـاجد الجديدة وترميم

واصلاح المساجد القديمة • كذلك أيضا نجد أن الحكومة العلمانيــة لصدام حسين بالعراق أثناء حربها ضد جمهورية ايران الاسلاميــة قد تحولت الى الطابع الدينى حيث تعهد حزب البعث الحاكم بخلق دولة « تستلهم الاسلام كرسالة وثورة » بل انشــأت الحــكومة البعثية المعهد العالى للشئون الاسلاميــة بهدف تدريب الوعــاظ الدينيين والأئمــة الذين يؤمون المصلين والطلبة الذين يدرســون العلوم الدينية علاوة على اصدار الحكومة أوامرها المشددة للموظفين الحكوميين لكى يقيموا مآدب الافطار خلال شهر رمضان •

وهــذه النماذج والأمثلة توضــح لنا تماما القوى المتزايدة للاســلام من حيث هو أيديولوجية اجتماعيــة وسياســية مفعمــة بالحيــاة •

الفهـــرس

الصفحة

صدر في هذه السلسلة :

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ،
د· عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
٢ ـ علـى ماهـر :
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧
٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة ،
د· محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧
٥ ـ غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى ،
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧
٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧
٧ ـ صـلاح الدين الأيوبى ،
د· عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية ،
د· على بركات ، ١٩٨٧
٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،
د· محمد أنيس ، ١٩٨٧
١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية :
محمـود فـوزى ، ١٩٨٧
١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى ، ١٩٨٧
١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير ،
د· نبيل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ــ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية ،
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ــ مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ــ المستشرقون والتاريخ الاسلامى ،
د. على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ــ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ ــ ١٩٥٢) ،
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ــ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى ،
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ــ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ،
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ــ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ــ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى :
د. محمد انيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ــ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٢ ــ نظرات فى تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ــ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ٢ ، امام التصوف فى مصر : الشعرانى ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٤ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ،**
د٠ نجـوى كامـل ، ١٩٨٩

٢٥ ـ **المجتمع الاسـلامى والغرب ،**
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩

٢٦ ـ **تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،**
د٠ سعد اسماعيل على ، ١٩٨٩

٢٧ ـ **فتح العرب لمصر ، ج ١ ،**
تأليف : ألفريد ج ٠ بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٨ ـ **فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،**
تأليف : ألفريد ج ٠ بتلر : ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٩ ـ **مصر فى عصر الاخشيديين ،**
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

٣٠ ـ **الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،**
د٠ حلمى احمد شلبى ، ١٩٨٠

٣١ ـ **خمسون شخصية مصرية وشخصية ،**
شـكرى الفـاضى ، ١٩٨٩

٣٢ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩

٣٣ ـ **مصر وقضـايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضـاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،**
د٠ خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩

٣٤ ـ **تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،**
د٠ يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠
٣٦ ـ المجتمع الاسلامى والغرب ، جـ ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠
٣٧ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠
٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠
٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠
٤١ ـ محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١
٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
٤٣ ـ رحلة فى عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١
٤٥ ـ الحروب الصليبية ، جـ ١ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د. حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ـ **تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ـ ١٩٥٧) ،**
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ـ **تاريخ القضاء المصرى الحديث ،**
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ـ **الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ،**
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١

٤٩ ـ **العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ـ ١٩٧٩) ،**
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ،**
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٣

٥١ ـ **تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، فى ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ـ **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر ،**
د. الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ـ **أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،**
د. محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ـ **الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د. محمد عفيفى ، ١٩٩٢

٥٥ ـ **الحروب الصليبية ج ٢ ،**
تاليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ـ **المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراسة عن اقليم المنوفية ،**
د. حلمى احمد شلبى فى ١٩٩٢

٥٧ ـ **مصر الاسلامية وأهل الذمة ،**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ـ **أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،**
د. ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ ـ **الرأسمالية الصناعيــة فى مصر ، من التمصــير الى التأميم (١٩٥٧ ـ ١٩٦١) ،**
د. عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ـ **المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ ـ **تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،**
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٣ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبد العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،**
تأليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٤ ـ **مصر وحقوق الانســان ، بين الحقيقة والافتراء : دراســة وثائقيــة ،**
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ ـ **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ ـ ١٩١٧)،**
د. ســهام نصــار ، ١٩٩٣

٦٦ ـ **المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى ،**
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

٦٧ ـ **مساعي السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر : د· عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ ـ **الحروب الصليبية ، ج ٣ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د· حسن حبشى ، ١٩٩٣

٦٩ ـ **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ ـ ١٩٥١)،**
د· محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ ـ **أهل الذمة فى الاسلام ،**
تأليف : أ·س· ترتون ، ترجمة وتعليق : د· حسن حبشى، ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ ـ **مذكرات اللورد كلين (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د· عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ ـ **رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ) ،**
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤

٧٣ ـ **تاريخ جامعة القاهرة ،**
د· رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، جـ١ ، فى العصر الفرعونى،**
د· سمير يحى الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ ـ **أهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،**
د· سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

٧٦ ـ **دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتلال البريطانى) ،**
د. سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥

٧٧ ـ **الحروب الصليبية ، ج ٤ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٤

٧٨ ـ **تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ـ ١٨٩٩) ،**
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥

٧٩ ـ **تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،**
تأليف : فريد دى يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٥

٨٠ ـ **قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوربى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ،**
د. السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ـ **تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى نصر أكتوبر ،**
د. رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ **مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ،**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ـ **تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢) ،**
د. حلمى احمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ـ تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ،
د. أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ ـ مذكرات اللورد كلين ، ج ١ ، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ـ التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ ـ تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ـ معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ ـ تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد : ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦

٩٣ ـ قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨) ،
د. نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ج ٢ ،
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ ـ **مصر وأفريقيا ·· الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة)
أعدها للنشر د· عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ **عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠) ،**
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة د· عبد الرؤوف أحمد عمرو

٩٧ ـ **العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،**
د· ايمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ ـ **هيكل والسياسة الأسبوعية ،**
د· محمد سيد محمد

٩٩ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) ج ٢ ،**
د· سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،**
أ·د· عبد العزيز صالح ، أ·د· جمال مختار ، أ· د· محمد ابراهيم بكر ، أ· د· ابراهيم نصحى ، أ· د· فاروق القاضى ، أعدها للنشر : أ· د· عبد العظيم رمضان

١٠١ ـ **ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،**
اللواء / مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء / عبد الحميد كفافى ، اللواء / سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ **المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢**
د· تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره
د. علـى بركـات

١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢)
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ـ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديمقراطية ١٨٠٥ ـ ١٩٨٧ .
د . احمد فارس عبد المنعم

١٠٦ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ، ج ٢
د . سليمان صالح

رقم الايداع ١٩٩٧/٤٧٠١

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 — 01 — 5164 — 5

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة

لقد كان للأصولية الاسلامية فى الآونة الأخيرة تأثير كبير على الغرب يفوق التأثير الناجم عن أى حركة أخرى تتواجد بالعالم الثالث. والسبب فى ذلك هو أن العديد من الدول التى تمر بتجربة الأصولية الاسلامية تقع فى داخل نطاق الشرق الأوسط الذى يتمتع بأهمية استيراتيجية وهناك سبب آخر وهو أن العديد من دول الشرق الأوسط هى دول غنية بالبترول الذى تعتمد عليه الاقتصاديات الغربية اعتمادا كبيرا للغاية.

٥٢٥ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب